المملكة العربية السعودية
الأمانة العامة للاحتفال
بمرور مائة عام على تأسيس المملكة

تاريخ مكة

دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران

تأليف
أحمد السباعي

الجزء الثاني

أعيد طبع هذا الكتاب بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

ⓒ **الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، ١٤١٩ هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السباعي، أحمد بن محمد أحمد

تاريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران ـ الرياض.

١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج٢)

١- مكة المكرمة - تاريخ ٢- التاريخ الإسلامي أ- العنوان

ديوي ١٢١، ٩٥٣ ١٩/١٨٠٢

رقم الإيداع: ١٩/١٨٠٢
ردمك :٦-١٧-٦٦٠-٩٩٦٠ (مجموعة) ٤-١٨-٦٦٠-٩٩٦٠ (ج٢)

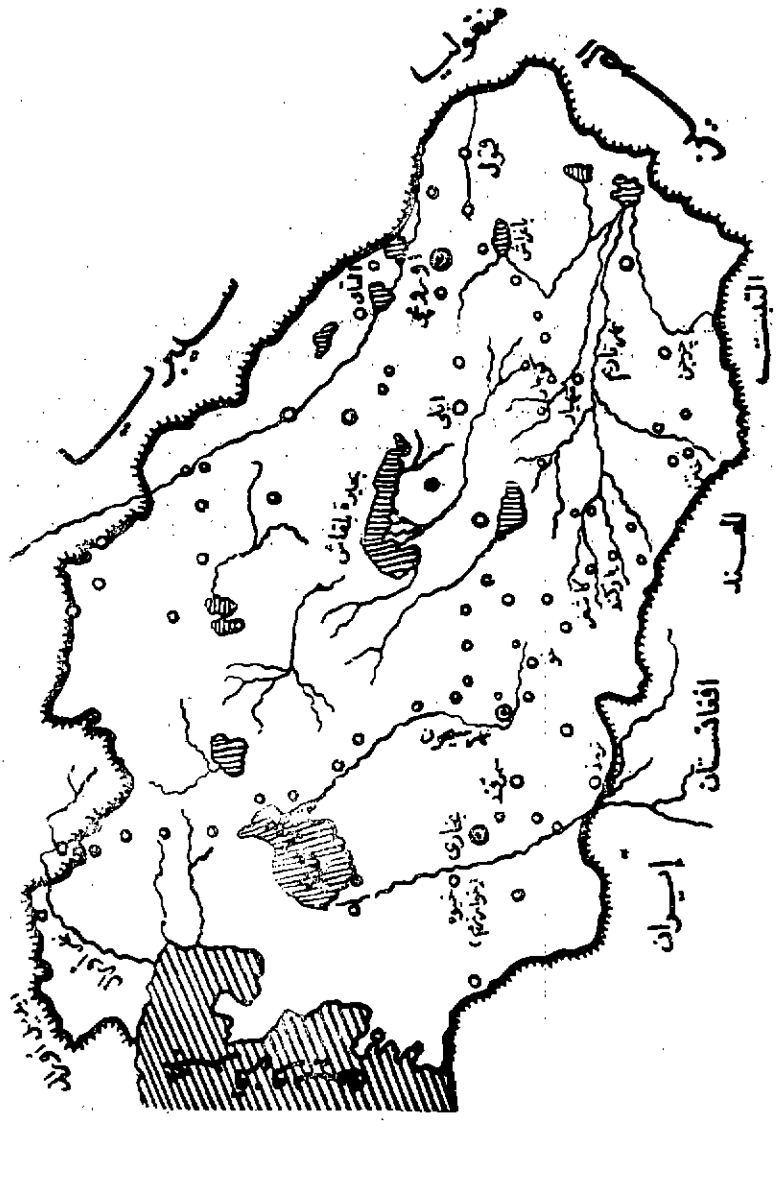
في عهد الترك العثمانيين

تمهيد: كان الترك قبائل رحلاً، وكانت بلادهم تمتد من شمال الصين إلى البحر الأسود، ومن سيبريا إلى الهند وإيران، وهي المقاطعة التي نسميها اليوم تركستان . ومن أشهر قبائلهم في عهد العباسيين فيما وراء النهر : السعد، والفراعنة، والأشروسة، وأهل الشاش، ويقال لها اليوم: «طاشقند».

وقد اتصل الإسلام بهذه القبائل في عهد الأمويين على إثر فتح بخارى وسمرقند ، فقد غزتهم جيوش المسلمين ثم صالحتهم على أموال.

وفي عهد العباسيين شرعت بعض قبائلهم تهاجر إلى غربي آسيا، وتتصل بحواضر المسلمين فاستخدمهم المعتصم العباسي لحراسته، وكان أول من استخدمهم، ثم توسع الخلفاء من بعده في استخدامهم في الجيوش المحاربة، فأبدوا من الكفاءة والتفاني ما ميزهم على كثير من المحاربين . . والمهاجرون من شظف العيش وقسوته في جميع ميادين الحياة يتفانون في مواطن هجرتهم في سبيل ما يعملون حتى يصبح التفاني عادة أصيلة فيهم، ومن ثم يدفعهم ذلك إلى التبريز فيما يتفانون فيه . . وقد شهدنا في العصور الأخيرة بعض المغاربة المهاجرين إلى الآستانة يستخدمهم بعض السلاطين لحراسته الخاصة فيتفانون في خدمته، كما شهدنا مهاجري أفريقيا الجنوبية يتولون حراسة أشراف مكة ومنهم بعض العبيد، فيخلصون لأوليائهم، ويتفانون في حراستهم.

وقد هيأ هذا التفاني الأتراك لمناصب كبيرة في جيوش المسلمين، واستطاعت طوائف كالسلاجقة التحكم في مقدرات الخلافة في بغداد ، كما استطاعت بعض طوائفهم تأسيس حكومات لهم في أقطار الإسلام كمماليك الأتراك والشراكسة



خريطة تركستان الشرقية

في مصر والعثمانيين في الأناضول ثم في بلاد الروم.

وأتراك بني عثمان من بعض هذه القبائل وكانوا قد نزلوا بالقرب من الأناضول فصادفهم جيش أتراك السلاجقة ينازل التتار فتقدموا متطوعين لنصرة السلاجقة حتى رجحت كفتهم فأراد سلطان السلجوقيين أن يكافئهم على صنيعهم فأقطع أميرهم «أرطغرل» أرضاً ينزلها في الأناضول ويبني لأتباعة إمارة فيها.

وخلف أرطغرل ابنه عثمان الذي وسع أطرافها وأعلن استقلالها في عام ٦٩٩، وخلف عثمان في إمارته المستقلة سلاطين سعوا في فتح البلاد أشهرهم بايزيد بن مراد (٧٩١هـ) الذي أخد يعيد إلى المسلمين ودول الشرق المنكوب بعض هيبتهم خصوصاً بعد انتصاره على الجيوش الصليبية المتحدة من دول أوربا في واقعة نيكولي مما جعل العرب وحكوماتهم في دول الإسلام يعدون انتصاراته ظفراً لهم وكسباً جديداً للإسلام حتى إن مماليك الشراكسة في مصر احتفوا بأخبار انتصاراته وكتب الخليفة العباسي المنصوب عندهم في القاهرة يهنئه ويمنحه لقب سلطان الروم.

ولما حمل تيمورلنك على السلطان بايزيد واستطاع أن يأسره في عام ٨٠٤هـ شعر العثمانيون أن الشراكسة في مصر ظاهروا تيمورلنك في حركاته، واستغلوا فرضية انكسار بايزيد فضموا بعض ممتلكاته إليهم فأسرَّ العثمانيون ذلك لهم وأضمروا لهم الشر.

واستطاع العثمانيون أن ينهضوا من كبوتهم ويستأنفوا جهادهم واستطاع محمد الثاني فاتح القسطنطينية أن يتوسع في فتوحاته ثم خلفه في الفتوحات بايزيد بن محمد ثم السلطان سليم الذي استطاع أن يدك المماليك وأن يدفع جيوشه إلى

بلاد الشراكسة فينتقم لآبائه منهم وأن يستولي على مصر في أواخر عام ٩٢٢ فيقضي على حكومتهم فيها.

واجتمع في مصر بالخليفة العباسي الذي كان يعيش في كنف الشراكسة ولا يملك من الخلافة إلا اسمها وهو «المتوكل على الله» فطلب إليه أن يتنازل له عن الخلافة ففعل، وبذلك كان «سليم» أول خليفة لقِّب بأمير المؤمنين.

علاقة العثمانيين بمكة: قد يتبادر إلى الذهن أن علاقة العثمانيين بمكة كانت وليدة اتصالهم بمصر على أثر سقوط الشراكسة فيها، ولكن الواقع أن العثمانيين اتصلوا بأصحاب مكة قبل ذلك بما ينيف عن قرن كامل، قد أشار التاريخ إلى أن السلطان محمداً الأول جعل من أمواله جزءاً وقفه على فقراء الحرمين [(١)] وقد عاش السلطان قبل هذه الحوادث بأكثر من قرن كامل كما يشير التاريخ إلى أن ابنه السلطان مراداً الثاني عام ٨٢٤هـ رتب لفقراء الحرم من ماله الخاص راتباً سنوياً مقداره ٣٥٠٠ دينار كان يرسله إلى مكة سنوياً، وأن فاتح القسطنطينية محمداً الثاني -وكان يعيش قبل عهد السلطان سليم بنحو ٧٠ سنة- كان يتعهد فقراء مكة بهداياه، وأن السلطان بايزيد والد سليم فاتح مصر حج في السنة التي تولى فيها ملك آل عثمان وتوثقت أسباب مودته بأمير مكة لذلك العهد محمد بركات (والد الشريف بركات) كما توثقت مودته بكبار العلماء وأعيان الأهالي ونالهم بعطاياه وأغدق عليهم من خيراته ووزع على الفقراء أموالاً جمة [(٢)] وزار خطيب مكة الشيخ محي الدين عبد القادر السلطان بايزيد عندما كان في بلاد الروم فوصله

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٣.

(٢) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٧.

بصلات عظيمة، كما زاره شاعر البطحاء في عهده (شهاب الدين بن الحسين العليف) فأحسن جائزته وقد نظم قصيدته الرائية التي مدح فيها بايزيد وفيها يقول:

هو البدر إلا أنه كامل الضيا وذاك حليف النقص في معظم الشهر
هو الغيث إلا أن للغيث مسكة وذا لا يزال الدهر ينهل بالقطر
هو السيف إلا أن للسيف نبوة وفلا وذا ماضي العزيمة في الأمر
وإني لصوان لدرِّ قلائدي عن المدح إلا فيك يا ملك العصر

وقد أجازه بايزيد بألف دينار ذهباً وأمر بأن يرتب له في كل عام مائة دينار ترسل له إلى مكة وقد صارت بعده إلى أولاده [1].

إذن فعلاقة العثمانيين بمكة كانت قديمة يرجع عهدها إلى أسلاف العثمانيين القدامى الذين كانوا في بروسيا قبل أن يفتحوا القسطنطينية وينقلوا عاصمتهم إليها وكانوا من أصحاب البر بمكة طوال القرن الذي سبق ظهور سليم الفاتح.

اتصال سليم الفاتح بمكة: كنا تركنا الشريف بركات في مكة وقد وطد أمره فيها واتخذ من ابنه أبي نمي مساعداً له في أعمالها كما تركناه يدعو لسلطان الشراكسة «الغوري» في مصر.

وما أهل عام ٩٢٣ حتى كانت أخبار الفتوحات العثمانية قد انتهت إليه في مكة وجاءته تفاصيل الأنباء بسقوط حكومة الشراكسة في مصر وحلول الحكم العثماني مكانها، ثم ما لبث أن وافاه مندوب الحكومة الجديدة في مصر بإقراره

(١) الإعلام للقطبي على هامش كتاب خلاصة الكلام ١٧٧، وما بعدها.

على إمارته إن وافق على الدعاء للخليفة العثماني الجديد، فلم ير بركات بدأ من الموافقة وأن يشفعها بندب ابنه أبي نمي إلى السلطان سليم في مصر لتبادل الثقة والولاء.

ويذكر الدحلان [1] أن الجيش العثماني وجد في سجن الشراكسة نفراً من وجوه أهل مكة كانوا قد حبسوا لمناوأتهم الشريف بركات فأطلقهم . . ثم يذكر أن العثمانيين أعدوا جيشاً ليهاجموا به مكة فصدهم عن ذلك قاضي مكة صلاح الدين بن ظهيرة وقد كان أحد المسجونين في مصر وطلب أن يكتب إلى أمير مكة بتفصيل ما حدث ضمناً في بيت الإمارة وهم أشراف مكة ولأنه يعتقد أن أميرها بركات سوف لا يعارض في تحسين علاقته بالعثمانيين فقنعوا بذلك وأرسلوا إليه بما حدث كما كتب إليه القاضي يقترح ندب ابنه أبي نمي إلى مصر فرحب بركات بالفكرة ومن ثم أوفد ابنه إلى مصر وقد قابله السلطان سليم فيها بحفاوة وأكرمه وأقره هو ووالده على إمارة مكة وجعل لهما نصف الواردات في مكة وجدة وذلك في سنة ٩٢٣ [1]. وقد ظل بركات بعد هذا في إمارته يدعو للخليفة العثماني الجديد ثم ما لبث أن أضاف الصيغة الجديدة إلى الدعاء (أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين).

وعني السلطان سليم بشؤون الحرم وأرسل هداياه إلى مكة وأعيان الأشراف فيها ووزع على فقرائها كثيراً من الصدقات ورتب لهم مقداراً عظيماً من القمح ظل يرسله سنوياً إلى مكة وهي أول جراية من الغلال رتبت للصدقة في مكة في شكل منظم إذا استثنينا قبلها بعض الصدقات غير المنظمة [2].

---

(١) خلاصة الكلام ١٧٨

(٢) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٩١

ويذكر السنجاري في منائح الكرم «مخطوط» أن غلال الصدقة ظلت تتزايد بعد السلطان سليم حتى أصبحت تكفي لمعاش أهل مكة من العام إلى العام.

محمل رومي : واتخذ السلطان سليم له محملاً رومياً جعل يرسله إلى مكة سنوياً بجانب المحمل المصري ويرسل في صحبته كسوة الكعبة من نفقاته الخاصة(1).

وبقي بركات يستعين بابنه أبي نمي الثاني في إدارة الأمور بمكة حتى وافته منيته في سنة ٩٣٢ عن عمر يزيد عن سبعين عاماً فطيف بجنازته حول الكعبة سبعاً قبل دفنه وكانت مدة ولايته استقلالاً ومشاركة لابنه وإخوته نحو ٥٣ سنة (2).

أبو نمي الثاني : وبوفاة بركات انتقل الأمر إلى أكبر أبنائه وشريكه بالأمس محمد أبي نمي الثاني وعمره آنذاك نحو عشرين سنة.

يعد المؤرخون أبا نمي هذا من رؤوس أشراف بني بركات كما يعدونه زعيماً قل من يضاهيه شهرة من طبقات الأشراف الأخرى، وكان إلى جانب هذا مشهوراً بنظامه الذي شاع عنه والذي قالوا: إنه يجعل دية الرجل من الأشراف تعادل أربعة أمثالها من غير الأشراف، وقد حاولت أن أجد نسخة من هذا النظام فلم أعثر على شيء من ذلك . . إلا أنني وجدت أخيراً نص اتفاقية أبرمها بعض الأشراف من أحفاد أبي نمي في عهد يحيى ابن سرور مؤرخة في عام ١٢٣٧ هـ. وهي -كما يذكر مؤرخوها- منقولة من وثيقة للشريف مسعود بن سعيد عن «أعراف» سابقة من آبائهم، ولا يبعد أن يكون المقصود من آبائهم هو أبو نمي أو أولاده.

(١) الإعلام للقطبي على هامش خلاصة الكلام ١٩١ .

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط»

وتشتمل الوثيقة - كما تبدو من صورتها «الفوتوغرافية» المنشورة- على ما يحدد العلاقات بين أبناء أبي نمي وينظم أمر العقوبات في حالة اعتداء أحدهم على الآخر أو اعتداء أحدهم على ملتجئ من غيرهم إليهم أو تابع محسوب عليهم وهي تفرض العقوبة في الغالب غرامات من الخيل والإبل والعبيد ولا تستند إلا على تقاليد ورثوها من آبائهم في صور واصطلاحات قد لا نجد اليوم من يفهم مدلولاتها كثيراً.

وحصر أبو نمي إمارة مكة في نسله فظلوا يتوارثونها متعاقبة . وامتاز أبو نمي بحزمه في إدارة الأمور وصرامته في الحكم وبذلك هابته الأعراب والأهالي واحترمه الحجاج والمجاورون وقدر منزلته أصحاب السلطان من العثمانيين وقضى بحزمه على أصحاب الفتن وساعد على رخاء الأسعار، واستمرت مكة محكومة بأمره سنين طويلة في استقرار لا تعبث به القلاقل والفوضى [١] .

واستعان أبو نمي في حكمه بأكبر أولاده الشريف حسن بعد أن استصدر أمراً من السلطة في عام ٩٤٧ بالموافقة عليه فكان الخطيب على المنبر يدعو للعثمانيين ثم يدعو لأبي نمي وابنه حسن كما استعان بابن آخر له اسمه أحمد وقد توفي أحمد في حياة أبيه [٢] .

زحف البرتغال على جدة : وفي عام ٩٤٨ كانت هجمات البرتغال على شواطئ العرب التي ذكرناها في عهد الشراكسة ما تزال تستأنف شدتها وقد استطاعوا أن يتصلوا بجدة التي سورها حسن الكردي في عهد الشراكسة كما أسلفنا ، وأن ينزلوا في مرسى كان معروفاً بأبي الدوائر بالقرب من جدة وكانوا

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».

(٢) ينسبون الأشراف آل منديل وآل حراز إلى أحمد هذا . راجع خلاصة الكلام ٥٢ .

في ٨٥ مركباً مشحوناً بالرجال والسلاح فتحمس أبو نمي للقائهم ونادى مناديه في أسواق مكة وبين القبائل بالجهاد العام فتطوع الأهلون كما تطوعت البادية فأعطاهم من السلاح ما يكفيهم وخرجوا في جيش جرار إلى جدة، إذ قابلوا العدو المغير وصدوه بقوة السلاح عن مينائهم وكان أبو نمي في الصفوف الأولى للمدافعين وقد رؤي لابساً درعه شاكي السلاح يتقدم المجاهدين [1].

ويقص علينا الدحلان [1] قصة دلالتها على تسامي الشريف أبي نمي وتعاظمه فقد ذكر أن تركياً من ولاة اليمن اسمه محمود باشا أوفد إلى مصر من قبل الخليفة إلى أبي نمي ببعض الهدايا فلما قابله لم يخرج ممنوناً من نوع المقابلة فأسر ذلك في نفسه حتى ولاه الأتراك إمارة الحج في عام ٩٥٨ فاغتنم الفرصة وتحرش بعسكر أبي نمي ونادى بسقوطه في أيام الموسم فصارت الفتنة بين قواته وعسكر أبي نمي في أيام منى.

واغتنم غوغاء البادية الفرصة فأوقعوا في الحجاج وبات الناس في أمر مريج وتعطل الكثير من مناسكهم، وقد أدرك أبو نمي سوء العاقبة إذا ترك الغوغاء يوقعون بالحجاج، فركب بنفسه لملاقاتهم وقد أثخن فيهم الجراح كما هزم عسكر محمود باشا فانطلقوا مبعدين عن مكة، ولما عاد محمود باشا إلى تركيا كتب الخليفة يعتذر عما حدث ويخبر أبا نمي أن محمود باشا لقي عقابه لديه.

واستمر أبونمي على أمره في مكة إلى سنة ٩٧٤ وكان قد بلغ به العمر فتنازل عن إمارته لابنه الحسن وكتب بذلك إلى الخليفة العثماني فأقره.

---

(١) خلاصة الكلام ٥٢.

ومن ثم عكف على العبادة والعلم حتى وافته منيته في التاسع من محرم الحرام سنة ٩٩٢ حيث كان يعتكف في وادي الآبار جنوبي مكة، وقد حملت جنازته إلى مكة ودفن بها وعمره يزيد عن ثمانين سنة (١) وقد امتد حكمه في سائر بلاد الحجاز من خيبر إلى حلي إلى حدود نجد (٢).

محمل يمني : وفي عهد أبي نمي اتخذ اليمنيون محملاً لهم وجعلوا يرسلونه إلى مكة صحبة الحجاج من اليمن سنوياً ويرسلون معه هداياهم، وقد أحدثه والي العثمانيين في اليمن مصطفى باشا النشار (٣).

الحسن بن أبي نمي : واستقل الحسن بإمارة أبيه على أثر تنازله، فعالج أموره بحزم وقوة، وكان لا يقل عن كفاءة أبيه، إلا أنه كان أكثر تسامحاً وأوسع عدلاً، وقد حاول أن يخفف من غلواء الأوتوقراطية التي ابتدعها أبوه، ولكن أصحاب الميزات كانوا قد استمرؤوا ذلك بتقادم الأيام، وأصبحوا يشعرون أنها حق طبيعي يجب أن يتميزوا به عن عامة الناس، فذهبت محاولاته عبثاً، وكان العثمانيون في هذا العهد يرون أن من الخير لسياستهم ألا يتعرضوا لسياسة الولاة الداخلية وأن يقنعوا بأسمائهم تتلى على المنابر «وفرمانهم» الذي يوقعون عليه بالموافقة على الأمير المنصوب.

وحسن بن أبي نمي هو أول من كتب في التوقيعات «يجري على الوجه

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) المصدر نفسه (ع) : وفي الرحلة اليمانية للشريف شرف البركاتي ص ١٣٦ : أن أبا نمي تولى الإمارة مدة ستين سنة، وكانت توليته سنة ٩٣٢هـ. وفي شفاء الغرام : إن السلطان سليمان أقره سنة ٩٢٣ هـ شريكاً لوالده بركات، ثم توفي سنة ٩٩٢ . أي أن إمرته شريكاً ومنفرداً كانت ستين سنة كما ذكر البركاتي.

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

الشرعي والقانون المحرر المرعي» وتبعه على ذلك من جاء بعده من أمراء مكة، وكان يكتب على «الإنهاءات» المعروضات: «يجاب على سؤاله زاد الله في نواله»(١) وفي هذا ما يدل على سماحة نفسيته وطيبتها، وكان يمهر على «الحجة» و«الإنهاء» بختمه ويكتب على التقارير اسمه فقط من غير أن يمهر عليها (١) وقد بنى داراً له أسماها «السعادة» كانت أمام باب أم هانئ وباب أجياد، وقد دخلت في توسعة المسجد الجديدة في جنوبه الغربي كما بنى أخوه ثقبة داراً له أسماها الهناء بجوار السعادة من جهة الجنوب (١) وقد ظلت دار السعادة سكناً لذوي زيد كما سكن ذوو بركات وهما فرعان من أولاد أبي نمي يأتي ذكرهما.

وفي عهد الحسن فقد مفتاح الكعبة سنة ٩٩٦ من حجر سادنها عبد الواحد الشيبي فوقعت الضجة وأغلقت أبواب المسجد وفتش الناس فلم يظفروا به، وكان مصفحاً بالذهب، ثم وجدوه مع أعجمي في اليمن مع مسروقات أخرى في بيت له، فأعيد المفتاح إلى مكة (١).

وكان الحسن شديد الفراسة فارط الذكاء . . ذكروا أنه وجد حبلاً نسيه أحد اللصوص في مكان سرقته، فاستدل من رائحته على أن السارق عطار، ثم ما لبث أن تحرى عن العطار حتى عرفه، وفي مرة أخرى اختصم شامي ومصري في جمل فأمر بذبحه ونظر فرأى مخه معقوداً فحكم به للشامي وأمر بتغريم المصري وقال: إن الشاميين يعلفون جمالهم «الكرسنة» وهي تعقد المخ، أما المصريون فإنهم يعلفونها الفول وهو يعقد الشحم، ووجد مرة عصاً في مكان مال مسروق بالمزدلفة فعرف من شكلها نوع القبيلة فاستحضر جماعة منهم وتحرى عن صاحبها

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

حتى عرفه [1] ولهذا فقد استطاع أن يخيف كل مقدام فاتك حتى ضبط الأمور على أحسن نظام وأشاع الأمن، وفي عهد حسن بن أبي نمي كثر وفود الحجاج وكثر المهاجرون إلى مكة والمجاورون فيها فتضاعف عدد السكان ، وكان المعروف أن ينادي ولاة مكة على أثر الفراغ من الحج : ياأهل الشام، شامكم، وياأهل اليمن، يمنكم. فلما تولى ألغى ذلك ورغب الكثير في المجاورة [1].

وكان حسن إلى جانب هذا جواداً وكان يشجع المؤلفين ويمنح الشعراء وقد تربو جوائزه عن الألف، واستمر الأمر في مكة على طمأنينته التي ذكرت نحواً من سبعة عشر عاماً شمل فيها عدله طبقات البلاد وعم الأمن جميع البوادي والحواضر حتى كانت القوافل تسير بأموال التجار في عموم البوادي لا يحرسها خفير، وكانت قبل ذلك نهباً للعابثين والفاسدين، واستعان حسن على عادة الأشراف بأكبر أولاده ثم توفي فاستعان بابنه أبي طالب فشاركه الحكم بتأييد من السلطان العثماني[2] ويذكر الغازي[2] من طرائف الحسن أن الشيخ عبد الرزاق الشيبي استأذنه مرة للسفر إلى الهند فأنشده بيت الطغرائي المعروف :

فيم اقتحامك لج البحر تركبه؟ وأنت تغنيك عنه مصة الوشل

فأجابه الشيبي من القصيدة نفسها :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلي

فاستحسن بديهته وأمر له بألف دينار.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٥٧

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

وفي سنة ٩٨٦ هـ سار الشريف حسن إلى نجد في جيش عدته خمسون ألفاً فحاصر بعض جهات نجد وقد طال مقامه فيها وقتل فيها رجالاً ونهب أموالاً وأسر بعض رؤسائهم فأقاموا في سجنه سنة ثم أطلقهم بعد أن دفعوا ما أرضاه وقد أمر فيهم محمد بن الفضل [١].

واستوزر الشريف حسن عبد الرحمن بن عبدالله بن عتيق الحضرمي [٢] وكان من أظلم الناس وأشدهم جرأة على الباطل فأساء ذلك إلى الشهرة الطيبة التي كان يتمتع بها أمير البلاد.

واستطاع ابن عتيق أن يوهم الأمير ويحتال لمنزلته عنده حتى وثق به فتسلط على شؤون البلاد وتصرف في حكمها بما يشاء، وكان الشريف حسن لا يرد له أمراً ولا يسمع ضده شكوى.

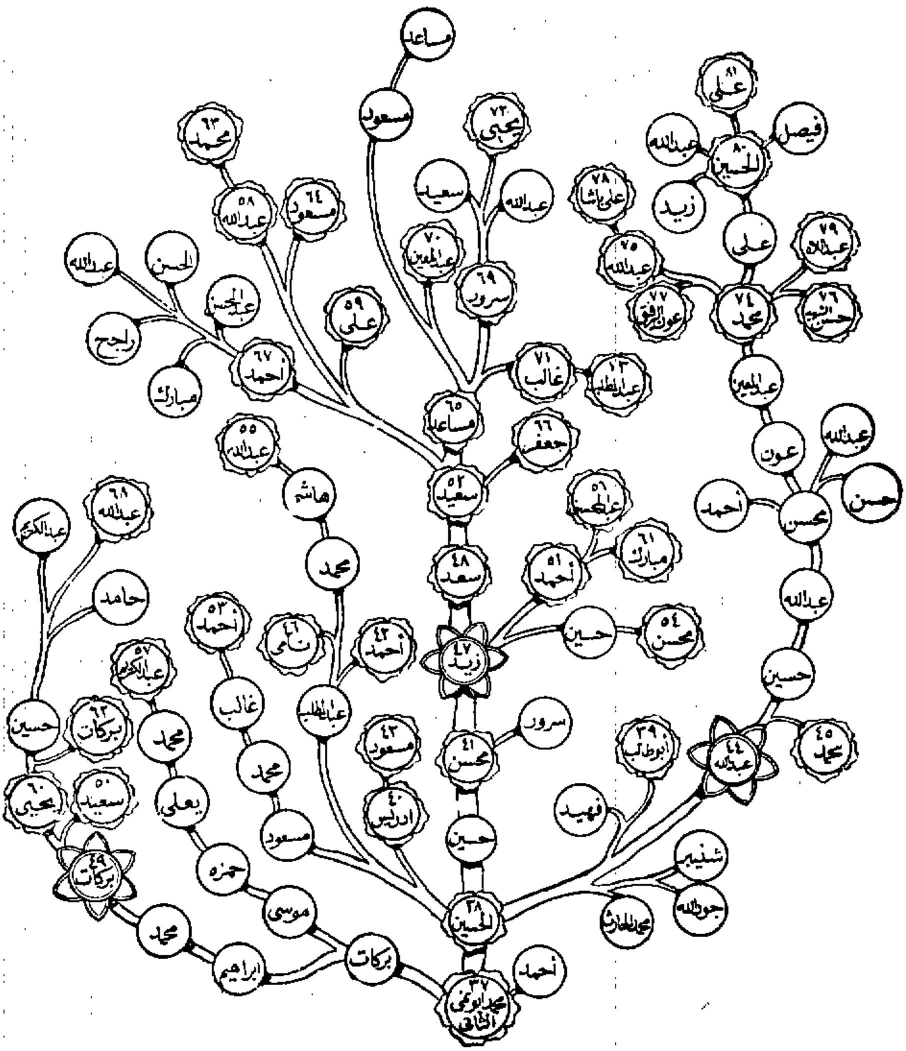
ذكروا أنه كان يستأصل أموال الأموات من الأهالي والحجاج فيحرم ورثتهم، وكان يحتال لذلك بحيل شرعية يستخدم فيها بعض موظفي المحكمة فلا يستطيعون عصيانه، وكان يجمع لهذا الغرض أختام المتوفين من قضاة مكة ونوابهم، فإذا قضى أحد الأغنياء في مكة أقام دعواه على تركة المتوفى بدين يستغرق التركة، وكلف من كتاب المحكمة من يزور له حجة بذلك المبلغ ثم ختم الحجة بأحد الأختام المحفوظة لديه بأسماء القضاة السابقين وأمر عبد الرحمن المحالبي - ولعله من كتاب المحكمة - أن يكتب اسم القاضي بخطه إلى جانب الختم زيادة في الإيضاح ثم وقعها بشهادة الشهود وهما في العادة أخواله علي بن

(١) إفادة الأنام وعنوان المجد في تأريخ نجد ط٢ ص ٣٢.

(٢) لم أطلع فيما قرأت عن وظيفة الوزارة في مكة قبل عهد حسن هذا ولعلها من إحداثه.

نسل محمد أبي نمي الثاني

ويبدو فيه أنهم تفرعوا إلى ذوي بركات هم في أقصى اليسار
وذوي زيد وهم في الوسط والعبادله وهم في أقصى اليمين
وقد ظهر أجداد الفروع في إطارات مميزة



جار الله وعبد القادر بن جار الله ثم تذيل الحجة بعبارة «رسمية» نصها : «تأملت هذه الحجة فوجدتها مسددة» وشهد بذلك محمد بن عبد المعطي الطبري وابن عمه صلاح الدين بن أبي السعادات الطبري وأحمد بن عبدالله الحنبلي وبذلك تكتسب الحجة قيمتها الشرعية ويستطيع بموجبها أن يستولي على تركة المتوفى عن آخرها . . وكان بعض الناس يقرؤونها ويعرفون أسلوبها في التزوير ولكنهم يعجزون عن أن ينبسوا ببنت شفة (١) .

وطلب ابن عتيق من أحد الأروام واسمه خضر أفندي أن يشهد له زوراً في دعواه على دار أراد اغتصابها فرفض خضر أفندي - وكان رجلاً صالحاً - إجابته إلى ما طلب فأسرها في نفسه حتى استطاع أن يسعى ضده في مجلس الأمير وأن يقنعه بمساعيه ضد حكومته وأنه يكتب إلى أمراء الأروام وينسب الظلم والمظالم ثم نصحه بأن يتلافى شروره بإبعاده من البلاد حتى استطاع أن يستصدر أمره بالموافقة على ذلك .

ومن ثم بادر بتنفيذه على الفور وأبى أن يرجئه حتى يصفي أملاكه ، وما كاد يفصل عن مكة حتى وضع يده على دوره استصفى جميع ما فيها لنفسه بعد أن باع أثاثها في مزاد علني ، وقد بلغ ذلك خضر أفندي فمات لوقته من هول المفاجأة(٢) .

وهكذا تأبى أحداث الحياة إلا أن تسيء إلى سمعة رجل لم تظفر إمارة مكة بمثله مروءة وعدلاً إلا في القليل وأن تهيئ له من بطانته من يطوي عهده الناصع

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) تاج تواريخ البشر للحضراوي «مخطوط» .

بأسوا ما تطوى به الصفحات في التاريخ .

والواقع أن الشريف حسن كان في خلاله النادرة ما يرفعه إلى مصاف المشهورين بالعدل والنصفة ، وما أقلهم في التاريخ! إلا أن هذا لا يخليه من مسؤولية البغي الذي كان يرتكبه من استوزره في الحكم واستصفاه لمعالجة أمور الناس . . ولقد كنت أتمنى لو استطعت كمؤرخ أن أنتحل بعض الأعذار براً بسيرته الطيبة فأحيل ذلك إلى جبن الرعايا الذين تباطؤوا عن تبليغ الحقائق إلى الشريف في أوقاتها إلا أن هذا لا يخليه من المسؤولية بحال ؛ لأن الشجاع الذي يقوى على مكاشفته بالحقائق سوف لا يأمن عاقبة الوشاية التي ساقت خضر أفندي إلى ما ساقته .

وإن في المأساة القاسية التي تجرع مرارتها خضر أفندي ما يشير إلى أن صلة الشريف حسن برعاياه لم تكن مفروشة بالرمل الناعم بالرغم من محبته للعدل وشهرته به ، والجريء من رعاياه لا يكفي أن يكون جريئاً على المكاشفة إذا لم يظفر بحصانة يأمن معها غائلة الأقوياء .

ولو أعد الشريف حسن رعاياه للمكاشفة وتركهم يجربون حصانته من الغوائل لما عدم النفوس الحية من صفوف بني عمومته الأشراف أو من يليهم من أعيان الأهالي أو عامة الشعب ؛ لأن الأحياء من هذا الصنف لا يخلو منهم زمان إذا توفرت الحصانة .

إذن فقد كان الشريف حسن مسؤولاً عن أخطاء من استوزره وإنه ليسوؤنا أن نطوي صفحته التاريخية على شيء لا يتفق مع سجاياه العالية وما أشاع من شهرته بحب العدل .

ويؤيدنا فيما ذهبنا إليه من أن الشريف حسن لم يترك رعاياه يجربون حصانته إذا كاشفوه أن ابنه أبا طالب ما كاد يتلقى نبأ وفاة أبيه حتى أمر بالقبض على ابن عتيق وإرساله إلى السجن (١).

وقد كان أبو طالب من أجرأ الناس في رأي من ترجموا له، فلا يسكت عن مساوئ ابن عتيق ولا يرجئها إلى اليوم الذي يصل فيه إلى الحكم إلا لأنه كان عاجزاً عن مكاشفة أبيه وفي عجز الابن ما يعطي أبلغ دليل على مقدار ما يفصل بين الشريف حسن ومن يليه فضلاً عن الرعايا.

وظل الشريف حسن على أمره إلى أن خرج في عام ١٠١٠ هـ إلى نجد مقاتلاً فوافته منيته في مكان من نجد يقال له القاعية على مسافة عشرة أيام من مكة بسير الإبل في ٣ جمادى الآخرة وقد حمل في محفة على البغال إلى مكة حيث احتفل بطوافه بالكعبة على عادة الأشراف ودفن بها (١).

وعندما شعر بعض أولاده بدنو أجله في عصر الأربعاء أرسلوا البراذين إلى المنازل «المحطات» صوب مكة لتتعاقب كخيل البريد في نقل الجثمان فلما توفي في ليلة الخميس أسرعوا بنقله فلم تنتصف ليلة السبت حتى كانوا قد انتهوا به إلى مكة (٢).

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) لعل المكان الذي مات فيه حسن هو (أفاعية) وهو مكان قرب السوارقية، يبعد شمال شرقي مكة على قرابة سبع مراحل، أما القاعية فإنها تبعد عن مكة قرابة ٥٩٠ كيلاً ولا يمكن أن تقطع هذه المسافة خلال يومين. (ع) ويلاحظ أن الاسم في الطبعات السابقة كان (فاعية).

أبو طالب بن حسن: وبوفاة حسن كتبوا إلى ابنه أبي طالب وكان متغيباً في المبعوث[1] من قرى نجد فبادر بالتوجه إلى مكة وقد وصلها في الليلة التي وصل فيها جثمان والده وحضر الاحتفال بدفنه ثم نودي له بالإمارة في مكة.

ومن طريف ما ورد في منشور ولايته ما يأتي: ليعلم كل من كحل بصره بإثمد منشورنا الكريم وشنف مسامعه بلآلئ لفظه أن إمارة تلك المعاهد وما فيها من العساكر وما أحاطت به من الأصاغر والأكابر مفوضة إلى السيد الشريف أبي طالب. . . إلى أن يقول:

فتح الله بمفاتيح السر كل مغلق من الأبواب، ما سقطت من أكف الثريا الخواتم، ورقت على منابر الأغصان خطب الأئمة الأكارم (كذا).

وبادر أبو طالب من فوره كما أسلفنا إلى القبض على وزير أبيه ابن عتيق وأودعه السجن وغافل ابن عتيق حارسه في السجن وسرق «جنبيته» ليقضي على نفسه فأحس الحارس بذلك فخلصها منه ثم أخبر الأمير بما حدث فأعطاه الأمير «جنبيته» وأمره أن يسلمها لابن عتيق وأن يقول له: إذا أردت الانتحار فدونك الجنبية وأرسل بروحك إلى جهنم فتسلمها ابن عتيق وقضى على نفسه بيده فنقلوا جثته إلى حفرة في طريق جدة دون أن يغسلوها أو يصلوا عليها واجتمع العامة من الناس فشرعوا يرجمونه حتى دفنوه بحجارة الرجم [2]. . وقد هجاه الشعراء وأكثروا في ذلك ومما قاله بعض أدباء مكة في هجوه:

---

(١) واد فيه زراعة ومياه تجتمع فيه أودية العرج وشرب والمهيد، وهي أسافل أودية الطائف، تقطعه طريق الطائف على قرابة ٦٠ كيلاً. (معجم معالم الحجاز) (ع) وليس هو من نجد.

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٦٢.

أشقى النفوس الباغية | ابن عتيق الطاغية
نار الجحيم تعوذت | منه وقالت ماليه [1]

وكان ابن عتيق يسكن بجوار باب العتيق وكان يسمى باب ابن عتيق نسبة له ثم حرفه العامة فسمي باب العتيق، ويبدو أن أبا طالب تأثر من أعمال الفضائح التي ارتكبها وزير أبيه وأثرت فيه نتائجها فلم يضع ثقته فيمن استوزره كما فعل أبوه، وجعل صلته بالأهلين لا يقف دونها حاجب وبذلك قام بأعباء إمارته أحسن قيام واستطاع أن يضرب على أيدي العابثين وينشر العدل في أرجاء البلاد واشتهر بين الناس بتدينه وتقواه وتواضعه.

إلا أنه لسوء حظه لم يعمر طويلاً فقد عاجلته المنية في السنة الثانية من حكمه من منصرفه من غزوة له في نواحي بيشة وكانت وفاته في قرية هناك يقال لها العش في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٠١٢ وقد حملوا جثمانه في تخت البغال إلى مكة ولما عجزت عن المسير جعلوه في «شبرية» على بعير وبذلك كانت ولايته نحو سنتين [1].

إدريس بن حسن: ولم يعقب أبو طالب خلفاً يتولى بعده الأمر فاجتمع أهل الحل والعقد في مكة واختاروا لحكمها إدريس بن الحسن وهو من إخوان أبي طالب ثم أشركوا معه في الحكم اثنين هما أخوه فهيد ومحسن بن أخيه الحسين على طريقتهم في الاشتراك مقابل استيفاء الربع من الحاصلات في مكة وجميع أقطار الحجاز الداخلية تحت حكمهم [1].

---

(١) خلاصة الكلام ٦٢.

وعندما نذكر أهل الحل والعقد في مكة نرجو ألا يتبادر إلى الذهن المعنى الواسع ؛ لأن المفروض أن أصحاب الحل والعقد لم يكونوا سوى أشراف مكة من أقرباء الحاكم وقد كتب الأشراف نتيجة اختيارهم إلى الباب العثماني فأقرهم على ما اختاروا ، وكان إدريس مهاباً وكان له من العبيد ما يزيد على أربعمائة ومن الأتباع العرب جمعٌ كثير .

وكان أخوه فهيد لا يقل عنه وجاهة وأتباعاً وكان إذا جلس وقف الترك عن يمينه وشماله وكان قد اتخذ من رماة البنادق عدداً كبيراً، وكان لا يحفظ أتباعه من النهب والسرقة فكثر ضررهم فكان ذلك سبباً للخلاف بينه وبين إدريس وقد يضاف إلى ذلك ظهور فهيد بالمظهر الذي يضاهي به أخاه من حيث الوجاهة وحب التنافس ، كما قد يضاف سبب ثالث يتلخص في أن فهيداً أراد أن يستعمل لرئاسة الفتوى الشيخ أكمل القطبي فلم يوافقه إدريس على ذلك فاشتد الخلاف[1] .

ويبدو أن إدريس من الشخصيات التي تفرض وجودها على من حولها وكان مسموعاً[2] فقد ذكروا أن إدريس كان قد اختلف قبل هذا مع أخيه محسن وتركه يخرج إلى اليمن مغاضباً، وعندما ظهر له أن الاتفاق مستحيل بينه وبين أخيه فهيد بعد محسن ؛ بدا له أن يصلح ما بينه وبين محسن فكتب إليه يسترضيه ويستدعيه ليحل محل أخيه فهيد لقاء ربع المتحصل من غلة البلاد وأن يكون لإدريس باقي الغلة فقبل محسن ؛ ذلك وعاد إلى مكة في عام ١٠١٩ وبعودته غادرها فهيد إلى بلاد الترك حيث التجأ بالعثمانيين . . ولكن العثمانيين أبوا أن يتدخلوا في الأمر

(١) خلاصة الكلام ٦٢ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي (مخطوط) .

فأقام فهيد بينهم فيما يشبه المنفى إلى أن توفي عام ١٠٢١ (١).

واستمر إدريس على أمره سنوات وقد غزا بعض بلاد الشرق ووصلت جيوش له إلى الأحساء وضربت خيامها أمام بابها القبلي، واجتمعوا هناك ببعض بني عمومتهم المغاضبين من أولاد عبد المطلب فصالحوهم وقد أحسن استقبالهم والي الأحساء من قبل الترك ودعاهم إلى الضيافة أياماً فاعتذروا وعادوا (٢)، ثم بدأ الخلاف يدب بين إدريس وشريكه محسن ولحظ بعض الأشراف من بني عمومته أن إدريس يتجنى كثيراً على ابن أخيه محسن ولا يحترم له رأياً، فاجتمعوا على نصرة محسن ضد عمه، وتزعم هذا الاجتماع ابن عم له من كبار الأشراف وأصحاب الرأي فيهم هو أحمد بن عبدالمطلب بن حسن فكانت الثورة ضد إدريس.

وقد قيل: إن من أسباب الثورة ضد إدريس أن عبيده كثرت مطالبهم، وأن وزيره أحمد بن يونس لم يكن منصفاً، وأن الشريف إدريس كان متغافلاً عما يحدث، وأن الشريف محسن حاول أن يفتح عيون عمه على ما يقع فلم يظفر بطائل فنشبت الثورة وأعلن القتال.

وشوهدت جموع الأشراف تغص بها الشوارع، وقد ركبوا في خيلهم وعبيدهم ينادون بسقوط إدريس وتنصيب محسن، ومضى أحمد بن عبد المطلب في طليعة الثائرين شاهراً سيفه مهدداً مخالفيه من أنصار إدريس وأشياعه، وقد ظل القتال يوماً كاملاً عم فيه الاضطراب جميع أنحاء مكة إلا أن الصلوات كانت تقام جماعة في المسجد الحرام في أوقاتها، وظلت أكثر الأسواق على حالها لم

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٥ .

تغلق حوانيتها [1].

محسن بن الحسين: ودخلت عليه أخته زينب على أثر هزيمته وهو حزين يائس فقالت له: لا محل للحزن مادام الأمر لم يخرج عن ابن أخيك فاقتنع برأيها وأرسل يطلب الصلح وأن يمهلوه في الخروج إلى شهرين في مكة وأربعة أشهر في البادية فقبلوا وقد خرج بعد المهلة بعد أن طاف طواف الوداع في محفة لشدة مرضه كان ذلك في محرم عام ١٠٣٤ ثم كتبوا إلى الباب العثماني بما جرى وطلبوا تأييد محسن فجاءت الموافقة بذلك.

وعاش إدريس بعيداً عن مكة نحو شهرين في مكان يسمى ياطب [2] عند جبل شمر ثم توفي [3] وكانت إمارته في مكة ٢٢ سنة ولما وصل خبر وفاته إلى مكة أمر الشريف محسن بإعلان صلاة الغائب عليه في المسجد الحرام.

تعسف: وفي هذا العهد كانت خطبة عيد الفطر للإمام زين العابدين الطبري وهو من الأئمة الشافعية وكان المتبع أن يعد الخطيب «سماطا» [4] في بيته لاستقبال رواده بعد صلاة العيد مباشرة فلما تأهب لهذا في آخر يوم من رمضان وافى نبأ مستعجل من دار الخلافة بنقل الخطبة إلى أئمة الحنفية وهو المذهب الشائع في سائر بلاد الترك، وقد اتصل النبأ بوالد زين العابدين فحاول المراجعة قبل أن يبلغ الخبر ابنه فلم ينجح وعندما عاد إلى داره مساء ذلك اليوم كان ابنه قد أعد لكل

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٥.

(٢) من المياه المحيطة ببلدة حائل، وهو من مياه طيء المشهورة (صحيح الأخبار لمحمد بن بليهد ج٤ ص ٢٤٨)

(٣) عنوان المجد في تأريخ نجد ج١ ص ٣٥ ط٢

(٤) السماط: هو ما يبسط ليوضع عليه الطعام.

شيء عدته فلما أخبره بالأمر شهق شهقة فاضت فيها روحه، وهكذا اعتلى خطيب الحنفية المنبر بينما كان جثمان خطيب الشافعية في نعشه على خطوات منه ينتظر صلاة الجنازة [1] وهكذا يتعسف الحكام في سبيل نصرة مذهبهم.

وظل محسن على أمره في مكة نحو ثلاث سنوات ويبدو أنه كان ضعيف الإرادة رقيق الحاشية يميل إلى السلم ومصانعة الأمور أكثر مما يميل إلى سياسة الشدة والحزم.

ذكروا أن والياً تركياً وصل جدة في عهده في طريقه إلى مقر عمله في اليمن فغرق مركبه بالقرب من شاطئ جدة فطلب إلى نائب الشريف محسن في جدة أن يندب له بعض الغواصين لانتشال بعض أمواله فندبهم فلم يظفروا في غوصهم بما يذكر، فظن التركي أنه أوعز إليهم فعمد إلى نائب جدة فشنقه ولا يجرؤ موظف تركي على مثل ما فعل لو كان محسن في مثل شكيمة أجداده.

واستغل أحمد بن عبد المطلب - قائد الثورة التي أجهز بها على إدريس بالأمس وساعد بها محسناً - ضعف سياسة محسن وطيبته فأخذ يهيمن على سياسة الحكم ويجعل من محسن الأمير المنصوب مطية إلى مراميه البعيدة إلا أن الأمر لم يدم أكثر من ثلاث سنوات؛ لأن بني عمومتهم من الأشراف بدؤوا يوقظون في محسن أحاسيسه الغافية ويستثيرونه ضد أعمال أحمد حتى تنبه وجدانه للأمر وأعلن استقلاله بآرائه فشعر أحمد بحاجته إلى الشدة التي تعيد الأمور إلى نصابها فما كاد يبدأ حتى تفاقم الأمر.

وفي هذه الأثناء كانت حادثة الوالي في جدة قد حدثت وانتهت بجرأته على شنق نائب الأمير محسن فيها فأراد الشريف أحمد أن يستغل ذلك إلى أبعد حدود

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

الاستغلال فركب إلى جدة واتصل بالوالي التركي وأغراه بالإعلان في الأسواق بأن لديه أوامر من الخليفة بعزل محسن وتنصيب أحمد، فلم يتردد وثار القلق فتوجه محسن في أعوانه إلى جدة لملاقاة الثائرين وما كاد يترك مكة حتى ثار خلفه الشريف مسعود أحد أولاد سلفه إدريس ليثأر لأبيه ولعله كان متفقاً مع أحمد على الثورة فلما بلغ محسناً ذلك ترك أمر جدة وعاد إلى مكة فنشب القتال بينه وبين مسعود فيها إلا أن أعوانه مالبثوا أن أدركوا أنهم سيكونون محصورين بين عدوين في مكة وجدة، وصكت آذانهم أصوات المدافع آتية من جيش أحمد وراءهم فتفرقوا عن محسن فما عتم أن فر إلى اليمن تاركاً مكة وذلك في عام١٠٣٧ وقد مات بها بعد عام من وصوله إليها ودفن بصنعاء واتخذت له قبة تزار هناك[1].

أحمد بن عبد المطلب : ودخل الشريف أحمد بن عبد المطلب مكة ظافراً يوم الأحد ١٧ رمضان من السنة نفسها ١٠٣٧، ونادى بنفسه أميراً عليها ثم كتب إلى الخليفة العثماني بذلك فوافاه التأييد.

واستمر الأمير الجديد «أحمد بن عبد المطلب» سياسة العنف التي جرى على سننها في ثوراته وبدا له أن بعض المكيين يميلون إلى سياسة سلفه فاشتط في معاملتهم وأذاقهم ألواناً من عذابه فسجن ونفى وقتل في سبيل تأييد مركزه[1].

الشيخ المرشدي والقشاشي والبدوي:

وكان من أهم ضحاياه مفتي مكة في عصره الشيخ (عبد الرحمن المرشدي) فقد أمر بسجنه وتعذيبه بأصفاد الحديد.

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

وقد ذكر أن من أهم أسباب عداوته للمرشدي أن الشريف (أحمد) خطب فتاة اسمها سلطانة بنت علي شهاب فلم يزوجوه وزوجوا غيره فلما حضر الشيخ المرشدي [١] في حفلة العقد قال في خطبته: «الحمد لله الذي أعز سلطانه، وأدحض شيطانه.» فأدرك الشريف أحمد أنه يعرض به.. وقيل: إن الشريف أحمد لما استولى على دار السعادة وجد رقعة بخط الشيخ المرشدي ذكر فيها وجوب قتال أحمد لظلمه وبغيه سواء صح هذا أم غيره فإن الذي لا نشك فيه أن الشيخ المرشدي كان من رجال الشريف محسن ضد أحمد وأن أحمد انتقم لنفسه في شخص الشيخ وأمثاله من أعوان الشريف محسن.

وظل أحمد يستدعي الشيخ المرشدي من سجنه في كل شهر للحضور إلى ديوانه مصفداً بالحديد نكاية به فقال له الشيخ في إحدى المرات:

لا تضع للعزيز قدراً وإن كنـ ت مشاراً إليه بالتعظيم
فالعزيز الكريم ينقص قدراً بالتعدي على العزيز الكريم

فاشتد غضب أحمد وحاول بعض جلسائه أن يعتذر للشيخ فقال أحمد: هيهات إنه قصد ما قيل في بقية الأبيات:

ولع الخمر بالعقول رمى الخمـ ر بتنجيسها وبالتحريم

وبهذا جعل نفسه عقلاً وجعلني خمراً ثم أمر بإعادته إلى السجن.. وقد ظل فيه إلى أن ورد الأمير الحج لقتال أحمد فأسرع أحمد للقضاء عليه في السجن خنقاً [٢].

---

(١) توجد مزرعة بمر الظهران شمال الحديبية غير بعيدة تسمى المرشدية يقال: إنها كانت ملكاً لآل المرشدي بمكة (ع)

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

واضطربت مكة لأحداث أحمد وعادت الفوضى بين رجال القبائل فاضطرب الأمن وانتهك عسكر أحمد حرمات بيوت الأشراف واستباحوا دخول المسجد بنعالهم وسكر بعض العسكر فدخل المسجد وضرب الحجر الأسود فأريد تأديبه فمنع عنه أصحابه من العسكر[١] وأخشى أن يكون في بعض ما أنقله شيء من المبالغات التي تلوكها الشائعات المغرضة ثم تسجلها بعض الأقلام التي تعاصر تلك الأحداث ولا تتحرى ما تسجل .

وعلى العموم فقد ذكر أن أحمد لم يستثن من عقوبته حتى جلساءه وأخدانه فقد سجن أحمد القشاشي [٢] ومحمد المقدسي خليفة السيد أحمد البدوي[٣] وغيرهم من أصفيائه .

وانسل الشيخ جمال محمد باقشير وكان من علماء مكة ليلة خروجه من مكة إلى مهاجره فوجد الأمير أحمد عائداً في موكبه من العمرة محرماً فكتب رقعة وأعطاها لأحد المارة وكلفه أن يسلمها للأمير أحمد فلما تسلمها الأمير قرأ فيها على ضوء الشمع الذي كان يسير به بدل المشاعل :

تستحل الدما وتحرم بالعمرة دعها وعن دما الناس أمسك
ما رأينا والله أعجب حالاً منك واهاً لفاتك متنسك

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

(٢) أسرة القشاشي أسرة عريقة في مكة وأعتقد أن القشاشية سميت بهم .

(٣) السيد أحمد البدوي من علماء مكة المعروفين وكان يسكن شعب عامر وقد تصوف في أخريات أيامه ثم اعتراه ذهول أو شيء من اختلاط العقل حتى كان يمشي أحياناً في السوق عارياً واعتقد بعض الناس فيه الولاية وانتقل بعد ذلك إلى المغرب وفي عودته زار مصر وتوفي في طنطا ، وبنيت على قبره قبة ، هي اليوم مزار لعامة الناس .

فسأل عن صاحب الرقعة فلم يقف له على أثر [1] واتصلت أخبار أحمد بالعثمانيين وجاءت أنباؤه إليهم صارخة فأوعزوا إلى أحد قوادهم «قانصوه» وكان متوجهاً إلى اليمن لمباشرة أعماله فيها أن يعرج في حملته على مكة ويحتال على القبض على الشريف أحمد وتولية ابن عمه الشريف مسعود بن إدريس.

فمضى قانصوه إلى مكة في عام ١٠٣٩ وكان أوان الحج فأظهر أنه جاء لأداء الحج حتى إذا فرغ من مناسكه ظل مقيماً في مخيم عسكره ظاهر مكة استعداداً لاستئناف رحيله إلى اليمن فلما نفر الحاج من مكة أعلن الرحيل وأوعز في الوقت نفسه إلى رجل تعاطى خدمته من أبناء الطواف اسمه محمد المياس إلى أن يلفت نظر الأمير أحمد إلى ضرورة خروجه إلى المخيم لتوديعه فلما انتهى الأمير إلى المخيم ظاهر المسفلة أدخل من خيمة إلى أخرى مع أتباعه ثم ما لبثوا أن انفردوا به وقبضوا عليه وعلى أتباعه، واتصل الخبر بعسكر أحمد فثار ثائرهم وتقدموا لقتال عسكر قانصوه فاشتبك السلاح بين الفريقين وعمت الفوضى داخل مكة وفي أطرافها، ورأى قانصوه أن يحسم الأمر فأخرج للمقاتلين رأس أحمد مقطوعاً ثم ما لبثوا أن سمعوا منادياً بولاية الشريف مسعود بن إدريس فانحازوا إلى المنادين وقدموا طاعتهم [1].

وفي سنة ١٠٣٩ أمطرت السماء مطراً غزيراً، وسال وادي إبراهيم [2] سيلاً قليل المثال طفح به المسجد إلى طوق القناديل وغرق نحو ألف إنسان. وقد

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) هو الوادي الذي يقع فيه البيت الحرام، منابعه من ثبير الأعظم وثبير الأحدب وجبال الطارقي، فيمر بالبيت ثم يستمر حتى يدفع في وادي عرنة من الشمال وليس في مر الظهران كما كتب أحدهم (ع).

صحب نزول المطر برد «بفتح الراء» كثير كان بعضه مالحاً والبعض الآخر مراً، وأصيبت الكعبة من جرّاء ذلك بتصدع في جدارها اليماني والشامي إلى الباب [1] وقد أمر الخليفة العثماني «مراد» بإصلاحها كما سنشير إليه في الفصل الخاص بذلك.

مسعود بن إدريس: وهكذا تولى الأمر مسعود بن إدريس وكان مسالماً فعم الناس بحلمه وشملهم بطيبته ولعل مسالمته شجعت قانصوه على بعض الأعمال العنيفة في مكة فإنه ما كاد يستقر الأمر لمسعود حتى شرع قانصوه يعاقب بعض الأهالي ويصادر كثيراً من الأموال، وأحسب أن مسعوداً لم يحاول منعه ولعله شعر أنه بحاجة إلى مسالمته وهو طارئ على الحكم الجديد وفي طبعه ميل إلى السلم، وعم الغلاء البلاد في هذا العام وقلت الأرزاق واضطر الأهالي إلى أكل «الدخن» بدلاً من «القمح» وسموا ذلك العام عام الدخن [1].

عقد الركب: وأعقب ذلك الغلاء مرض عام غريب شاع في اعتقال الركب فكان الرجل يخرج من بيته سليماً فيعاد إليه محمولاً معقود الركب لا يستطيع القيام عليها من غير داء يشكوه، وكانوا يتخذون له شراب ماء الليم [2] مع السكر بعد أن ينضجوه على النار في قشرته [1].

وأمعن قانصوه في استغلال مسالمة مسعود فوضع يده على عموم الواردات في

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) الليم من الحوامض وهو من فصيلة النارنج. (ع): وهذا المرض يسمى في جزيرة العرب (أبو ركب) وهو ليس خطيراً ولا يتجاوز عقل الركب، ودواؤه كما ذكر مؤرخنا عصير الليم والترنج ولعله النارنج.

جدة وأضافها إلى الخزانة التركية بعد أن كان العثمانيون قد تركوا نصفها لصاحب مكة في عهد بركات .

وظلت الورادات على ذلك إلى أن انتقلت الإمارة إلى زيد بن محسن جد الأمراء ذوي زيد الذي استطاع أن يعيد الواردات إلى إمارة مكة كما سيأتي .

وارتحل قانصوه إلى اليمن وظل مسعود يدير أمره في هدوء المسالم ونصفة العادل ، وكان إلى جانب ذلك كريماً يقدر العلماء ويجيز الأدباء حتى اتفق الناس على الثناء عليه ، ولم يدم أمره إلا سنة واحدة أو أقل من ذلك فقد وافته منيته في ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٠٤٠ في بستانه بالمعابدة . . وهو بستان كان معروفاً عند حوض أبي طالب ويسمونه بستان مسعود [١] ثم سماه الناس بستان العواجي ؛ لأنه آل إلى دخيل الله العواجي من آل زيد [٢] .

تحريم القهوة : وفي هذا العهد شاع شرب القهوة في مكة والذي أظنه أنه انتقل إليها من اليمن ، وقد حاربها علماء مكة حرباً شديداً وأفتى بعضهم بتحريمها وقال : إنها خمرة مسكرة فصدر الأمر بجلد بائعها وشاربها وطابخها وشاريها ، فكان الناس يتعاطونها في أقبية بعض البيوت فإذا هاجمهم المكلفون سحبوهم بالعنف إلى ساحة عامة وضربوا رؤوسهم بأوانيهم وكانت من الفخار حتى تدميهم وربما قضى بعضهم من هول الضرب ، وربما اكتفوا عن ذلك بجلدهم بالسوط ، ثم ما لبثوا أن تهادنوا في شأنها فكثر شيوعها وزاد انتشارها [٣] وطغى صوت العامة على المتعسفين .

---

(١) منائح الكرم .

(٢) حوض أبي طالب وبستان العواجي كان موقعهما في أوائل حدود المعابدة من جهة مكة . وقد أزيلا في توسعة شارع المعابدة وإقامة جسر الحجون سنة ١٣٩٧هـ .

(٣) يقال : إن شجرة البن اكتشفت في اليمن في أوائل القرن العاشر الهجري .

عبدالله بن حسن بن أبي نمي : وبوفاة مسعود اجتمع الأشراف واتفقوا على توليه ابن عمه «عبدالله بن حسن بن أبي نمي» وكان عبدالله رجلاً عظيماً صالحاً وكان من أكبر آل أبي نمي [1] وبه سمي (العبادلة) من الأشراف في مكة ومن ذرية العبادلة (آل عون)[2].

ذكروا أنه امتنع عن قبول الولاية وتخلف عن جنازة ابن أخيه مسعود بسبب ذلك إلا أنهم ما لبثوا أن ألزموه بذلك حقناً للدماء ثم كتبوا إلى دار الخلافة في القسطنطينية فوافاهم التأييد[1].

وشاع الأمن والسلام في البلاد على أثر توليته ، وكان يرى فى أكثر لياليه طائفاً بالبيت ، وفي أيامه تمت عمارة الكعبة التي كان السلطان مراد قد أمر بها وهي العمارة الماثلة اليوم[3] وسيأتي بيانها في الفصل الخامس بعمارة المسجد لهذا العهد.

محمد بن عبدالله : ولم يلبث عبدالله في إمارته إلا سنة واحدة ثم رأى أن يتنازل عنها لابنه محمد ليتفرغ لما هو في سبيله من العبادة والصلاة كما رأى أن يعينه بابن أخيه محسن وكان محسن قد فر إلى اليمن ومات بها كما تقدم بنا وخلف ولده زيداً الذي بعث عبدالله يستدعيه إلى مكة ولما حضر أعلن تنازله عن الإمارة لابنه محمد على أن يشاركه الأمر زيد بن محسن وذلك في يوم الجمعة غرة صفر ١٠٤١ وقد كتب بذلك إلى دار الخلافة [4].

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) العبادلة اليوم متفرقون في أنحاء البلاد العربية فمنهم في حضر موت واليمن والأردن ، غير أن عمودهم في مكة ، ومنهم الحسين بن علي قائد الثورة العربية الكبرى (ع).

(٣) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٤) خلاصة الكلام للدحلان ٧٢.

ذوو بركات وعبدالله وزيد : وفي هذا العهد اعتبر أمراء مكة أن بيوتهم إلى ثلاثة أقسام هي : ذوو عبدالله أو العبادلة من أبناء عبدالله بن حسن بن أبي نمي ، وذوو زيد أبناء زيد بن محسن من أحفاد الحسن بن أبي نمي ، وذوو بركات أخو الحسن ابن أبي نمي .

وقد ظلت الفروع الثلاثة تتداول الإمارة نحو ثلاثة قرون ونصف قرن حتى انتهى حكم الأشراف في مكة بإمارة الحسين بن علي وهو من العبادلة كما سيأتينا ذلك .

ونعود إلى الأمير محمد بن عبدالله فقد استقام الأمر له ولشريكه زيد بن محسن على أثر تنازل عبدالله بن الحسن لهما عن الحكم ولم ينسيا للمتنازل فضله فقد أشركا اسمه في الدعاء على المنبر وظلا يستضيئان ببعض آرائه إلى أن توفي بعد أشهر من تنازله في بستان كان يقيم فيه بالمنحنى بعد المعابدة إلى طريق منى في جمادى الآخرة من السنة نفسها ١٠٤١ ، وفي هذه السنة ثار أهل الطائف على الأشراف وقتلوا راشد بن بركات بن أبي نمي فخرج الأمير زيد في جماعة من بني عمه وبعض المقاتلين فهاجموا الطائف وقاتلوا الثائرين وعادوا ظافرين (١) .

واستمر محمد وزيد على وفاق تام وكان قد وافاهما التأييد من السلطان العثماني «مراد خان» إلا أن ذلك لم يعجب البارزين من البيت القديم في الأشراف ، ورأوا في تقحم زيد بن محسن على الإمارة ما يشبه التطفل فبدأ زيد وشريكه يعانيان قلاقل جديدة ولما يمضيا في إمارتهما عاماً واحداً .

---

(١) خلاصة الكلام للدحلان ٧٢ .

وحاول بعض الأشراف من قرابة محمد بن عبدالله الأدنين وبعض إخوته إقناعه بإبعاد زيد بن محسن عن شركته في الإمارة والاستعانة ببعض إخوته فأبى ذلك عليهم احتراماً لإرادة أبيه المتوفى فلم يجدوا بداً من مناصبته وشريكه العداء.

واقعة الجلالية : وتصدى لذلك أحد بني عمومته - ذوي بركات - وكان معروفاً بشجاعته وإقدامه وهو نامي بن عبد المطلب بن الحسن بي أبي نمي، وكان قد غادر مكة مغاضباً لابن عمه ثم اتصل به أن جماعة من عسكر الأتراك تركوا بلاد اليمن فراراً من قائدهم قانصوه وأنهم نزلوا القنفذة فأسرع بالاتصال بهم واستطاع أن يقنعهم بمساعدته في الهجوم على مكة فساروا حتى نزلوا «السعدية»(١) على بُعْد كيلومترات من جنوب مكة، ثم أرسلوا إلى أصحاب مكة يخبرونهم بضرورة السماح لهم بدخول مكة فامتنعوا عن الموافقة فزحف الجند في طريقهم إلى مكة وخرج محمد وزيد في عسكرهما حتى تلاقى الجمعان عند «قوز المكاسة» قريباً من المسفلة فاشتبك القتال وتقدم الصفوف الشريف محمد فأبلى بلاءً شديداً حتى قتل.

وبقتله تراجع المدافعون واشتغل بعضهم بنقل جثمانه إلى مكة لدفنه فيها ونشط المهاجمون الأتراك على رأسهم نامي فاستطاعوا أن يدخلوا مكة فاتحين وبذلك انتهت ولاية محمد بعد أن ظل فيها ستة أشهر و٢٥ يوماً. وبدخولهم فر زيد بن محسن إلى البادية ثم توجه إلى بدر ثم إلى المدينة فاستقر بها وسميت الواقعة الجلالية (٢).

---

(١) السعدية ميقات أهل اليمن من يلملم، وهي على بُعْد (١٠٠) كيل جنوب مكة، وكانت المرحلة الثانية على نظام القوافل وفي سنة ١٣٩٨ هـ عُبِّد درب اليمن فجنب عنها إلى الساحل فقل رائدها، وأظنها ستهجر كما هجرت الجحفة (ع).

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

نامي بن عبدالمطلب : ونودي بالشريف نامي أميراً على مكة وندب للاشتراك معه في الحكم الشريف عبدالعزيز بن إدريس وهو من بني عمومته على أن يشاركه في ريع الإمارة دون أن يشار إلى اسمه في الدعاء على المنبر وكان ذلك في ٢٦ من شعبان من السنة نفسها ١٠٤١ .

وقاست مكة في هذا الفتح من الكروب والويلات كثيراً ونهبت بيوت أعيانها وكبار المجاورين فيها، واستمر القتل في دروب المسفلة وبعض أطراف الشبيكة ثم امتد إلى أجياد فالمسعى قبل أن ينادي منادي الأمان فيها. وما إن استقر الأمر للشريف نامي حتى كتب إلى دولار آغا شيخ الحرم «صنجق جدة[١]» أن يسلم البندر فامتنع من ذلك فجهز نامي فريقاً من عسكر الجلالية برئاسة شريكه عبدالعزيز فساروا إلى جدة وحاصروها ثم دخلوها عنوة ونهبوا بعض بيوتها وكثيراً من متاجرها وقبضوا على دولار آغا وأهانوه ثم نفوه من جدة .

وعاد عبدالعزيز بعسكره الجلالية إلى مكة فتفرقوا بين بيوت الأشراف والأعيان وفرضوا إقامتهم عليهم وعاث بعضهم فساداً في الأسواق كما صادر الشريف نامي أموال بعض التجار[٢] .

زيد بن محسن للمرة الثانية : ولم ينم الشريف زيد بن محسن عن ثأره فقد ندب من المدينة رجلاً من بني عمومته وهو علي بن هيزع فوصل إلى مصر واتصل برجال العثمانيين فيها وسلّمهم رسالة زيد بتفصيل ما حدث ليرسلوها إلى الخليفة وما لبث أن صدرت الأوامر بتجهيز بعض «الصناجق» على رأس ثلاثة آلاف

(١) الصنجق رئيس ألف جندي

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

جندي من الأتراك فتوجهت القوة إلى ينبع براً ثم أشفعوها بمركب بحري يقل خمسمائة جندي إلى ينبع وكتبوا إلى الشريف زيد في المدينة أن يتولى إدارة الحركة كما أرسلوا إليه الخلعة السلطانية .

وبدأ زيد خطوته فلبس الخلعة في الحجرة النبوية ثم خرج إلى ينبع حيث استقبل جيوش المقاتلين واستأنف السير بهم حتى نزلوا في وادي الجموم [1] .

واتصلت الأخبار بمكة فندب نامي فريقاً من خيالته وبعض الهجانة ليكشفوا له أخبار الجيش فأحاط المقاتلون في وادي الجموم ببعضهم وقتلوهم وفر الباقون بأخبارهم إلى مكة فحذروا نامي عاقبة القتال وهولوا عليه الأمر ففر في بعض رجاله إلى خارج مكة ثم تابع فراره إلى الشرق وتبعه عسكر الجلالية وقد انتهى بهم إلى تربة وتحصن معهم فيها كما فر شريكه عبد العزيز فيمن تبعه إلى ينبع .

وباتت مكة في ليلة ٥ ذي الحجة من العام نفسه سنة ١٠٤١ تنتظر دخول القادمين من الجموم وتطوع الشريف أحمد بن قتادة من أشراف المدينة آل المهنا – وكان مقيماً بمكة– بالسهر على حراسة البلاد وأمن الحجاج وأرسل رسله إلى الجموم ليخبروا الشريف زيداً بأن البلاد أصبحت خالية تنتظر قدومه .

وفي ٦ ذي الحجة أقبل الشريف زيد في موكب حافل تتقدمة صناجق الأتراك حتى نزل في دار السعادة وأطلق مناديه ينادي بالأمان وأنه منذ اليوم حاكم البلاد[2] .

(١) الجموم جزء من وادي مرّ «وادي فاطمة» بل هي بلدة فيها إمارة الوادي ومرافقه فهي قصبة من الظهران (ع).

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

وقضى الحجاج مناسكهم في ذلك العام في هدوء بعد الفتنة التي عانوها وتكبدوا أهوالها ثم ما لبث الأمير زيد أن سيَّر جيشاً إلى تربة لمحاصرة الشريف نامي، وقد نجح الجيش في أعماله واقتاد نامياً وأخاه أسيرين إلى مكة فزينت أسواقها بهذا الظفر وظلت معالم الزينة قائمة سبعة أيام، ووجد الأمير زيد من العلماء من أفتى بجواز قتل الأسيرين فأمر بشنقهما وتعليق جثتيهما في روشنين متقابلين بالمدّعى وذلك في آخر محرم ١٠٤٢ .

وثقبت سواعد كور محمود وهو من أتباع نامي، وطيف به في شوارع مكة على جمل ثم قتلوه وحرقوه وأذروا رماده في الهواء. وبذلك انتهى أمر نامي بعد أن حكم مكة مائة يوم [١] .

وبه استقر الأمر للشريف زيد ودانت له القبائل ، وكان الشريف زيد يجمع بين القسوة واللين ، وقد استفاد من المزج بين خلتيه ، واستطاع أن يدوم في الحكم مدة طويلة، وفي عهده اطمأنت البلاد وفاضت مواسم الحج فيها بالخير فحاز تقدير الأهالي ومودتهم وخشية الأشراف على اختلاف بيوتاتهم فلم يناوئه أحد منهم.

وغزا في عام ١٠٤٣ فخذاً من قبيلة حرب اسمها صبح فاستطاع أن ينكل بهم ويعيدهم إلى طاعته [٢] .

وباء الخيل : وفي هذه السنة وقع الفناء في الخيل بمكة حتى لم يبق فيها إلا فرس واحد جعلوه لركوب الأمير وركب بقية الأشراف الحمير [٢] وفي ٢٠ من ذي

---

(١) تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان.

الحجة من هذا العام ١٠٤٣ اشتبك عبيد الأمير مع الحج المصري عند المتوضآت «حنفيات الماء» وقت الورود فنشب القتال بين الفريقين واستعان المصريون بمدفع لهم وضعوه بجوار الماء وكاد القتال يتفاقم لولا أن الشريف زيداً حال دون ذلك بما بذل من جهد[١].

منع حاج العجم : وفي عهد الأمير زيد صدر الأمر العثماني بمنع حاج العجم من الحج والزيارة، فوصل الخبر في موسم عام ١٠٤٢ فأمر من ينادي في أسواق مكة لتبليغ حاج العجم ذلك وهم يبلغونه إخوانهم إذا رجعوا[٢] ولم تذكر تواريخ مكة التي اطلعت عليها سبباً ظاهراً لهذا المنع إلا أن حوادث التاريخ الإسلامي تفسره تماماً ، فالمتتبع يعلم أن العجم كانوا قد هاجموا بغداد في عام ١٠٣٣ وأجلوا العثمانيين عنها، وقد ظلت في حيازتهم إلى عام ١٠٤٢ حيث أجلتهم عنها جيوش السلطان مراد ، فليس من المستبعد أن يمنع العثمانيون العجم من الحج في أوقات كان الخلاف فيها على أشده معهم في بغداد .

الشيخ محجوب : ومن غرائب ما يذكر أن بشيراً آغا الطواشي من مماليك السلطان مراد حج في عام ١٠٤٩ وكان يحمل تفويضاً من السلطان بعزل وتولية من يرى توليته وعزله في البلاد التي يمر بها ، فلما انتهى إلى مصر خرج واليها للقائه في ظاهرها وقبّل ركبته ومشى بين يديه إلى أن أذن له بالركوب، فلما انتهى خبر ذلك إلى الشريف زيد في مكة عز عليه أن يمشي في ركاب الطواشي ، فاستشار الشيخ عبد الرحمن المحجوب وكان من رجال العلم الصالحين فقال له :

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان.

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

أسأل الله أن يكفيك ذلك فاستجيبت دعوته؛ لأن بشيراً آغا ما كاد يصل إلى مكة حتى سبقه إليها خبر وفاة السلطان مراد وبذلك يبطل مفعول التفويض الذي يحمله.

ودخل بشير أغا فقابلة مقابله عادية وصافحه ثم ركض زيد بفرسه حتى تقدم عليه وعزَّاه في السلطان فتضاءل بشير آغا؛ لأنه كان يظن أن خبر الوفاة مجهول في مكة(١).

وفي عام ١٠٦٠ أثيرت بعض القلاقل ضد الأمير زيد كان مصدرها الشريف عبدالعزيز بن إدريس الذي ترك مكة إلى ينبع فاراً عند احتلالها من الأمير زيد فقد أراد عبدالعزيز أن يثأر لنفسه فاتصل بالوالي التركي في جدة غطاس بك وأغراه بمساعدته على احتلال مكة وتوليته عليها وقد كاد ينجح؛ لأن غطاس بك سيَّر جنده إلى مكة لقتال زيد ولكن زيداً كان أكثر يقظة مما ظنوا فقد علم بخروجهم فقابلهم بجيش من مقاتليه بالقرب من وادي فاطمة في جمادي الثانية عام ١٠٦٠ فأعادهم بعد قتال شديد على أعقابهم وكان كريماً مع خصمه غطاس بك وعبدالعزيز؛ لأنه أطلقهما بعد أن وقعا في أسره، وسيَّرهما مخفورين إلى جدة فأقاما بها مدة إلى أن استصدر أمراً بنفيهما إلى مصر (٢).

واستمر الأمير زيد في إمارته خمساً وثلاثين سنة وشهراً وبضعة أيام قضاها في توطيد ملكه وإحياء كثير من معالم العدل، وكان مجلسه يغص برجال العلم، كما كان يقابل في المواسم أعيان العلماء من الآفاق فيناقشهم ويبحث معهم في

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٧٦.

(٢) المصدر نفسه ٧٨.

كثير من أبواب العلم، واستطاع أن يقيم الحجة على العثمانيين في حقوق الإمارة في واردات جدة حتى أعيد إليه نصيبه منها بعد أن كانوا أضافوه إلى الخزانة التركية - كما تقدم بنا في عهد مسعود بن إدريس - وقد ذكر عبدالله العياشي في رحلته كثيراً من مناقب الشريف زيد ثم قال: وقد ولي الحجاز من أطراف اليمن إلى أقصى نجد مما يلي البصرة ثم إلى خيبر مما يلي ناحية الشام، ثم قال وكان يعتقد اعتقاد أهل بيته من الزيدية ثم باينهم ورجع إلى معتقد أهل السنة وتمذهب بمذهب الإمام أبي حنيفة وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة ومنعهم من إظهار معتقداتهم. ومرض الشريف زيد في أوائل المحرم عام ١٠٧٧ ولم يمهله المرض إلا أياماً ثم توفي ورشّح للإمارة بعده ابنه سعداً باتفاق بعض الأعيان في مكة، وساعده على هذا شيخ الحرم التركي إلا أن الأشراف من آل بركات كانوا على نقيض ذلك؛ لأنهم كانوا يكرهون كما أسلفنا أن يمضي ذوو زيد في توارث الإمارة دونهم وشاركهم العبادلة في ذلك؛ لأن جدهم عبدالله بن الحسن كان صاحب الحق المقرر قبل تنازله وقبل عودة زيد من اليمن ليشارك ابنه في الحكم.

وتصدَّى للمناوأة ابنٌ لعبدالله بن الحسن اسمه حمود فقد كان يرى أنه الوريث الشرعي للحكم وأن من وجاهته ومقامه بين الأشراف ما يؤهله لذلك.

وانضم إلى هذا الرأي كثير من الأشراف فشعر حمود بأن في استطاعته -إذا استند إلى قوتهم وما يملك من عبيد وأموال وظاهره صنجق جدة- أن يقوم بالأمر ضد ذوي زيد وأن يعيد الحكم إلى بيته من آل بركات.

ومضى يومان أو نحو ذلك دون أن تنصب مكة أميراً واشتد الخلاف وأقسم

ذوو زيد على الدفاع عن حقوقهم فرأى شيخ الحرم وبعض من يشايعه في مكة من المجاورين والأهالي أن يضعوا الأشراف أمام واقع فاجتمعوا في رواق المسجد الحرام وذهبوا إلى دار الشريف سعد بن زيد وأعلنوه أنهم اختاروه أميراً عليهم وأنهم سيكتبون إلى دار السلطنة العثمانية فقبل منهم ذلك.

ولما شعر المناوئون من الأشراف بذلك استنفروا القبائل الموالية لهم شرقي مكة وفي الطائف وأرادوا إعلان الثورة، وخرج بعض المتحمسين إلى المسعى يطلقون بنادقهم في الهواء إرهاباً، ووجد المفسدون في أطراف مكة الفرصة سانحة للسلب فهاجموا بعض البيوت ونهبوا موجوداتها ونشط العابثون في البادية فقطعوا الطريق على المسافر بين مكة وجدة والطائف وكادت الفتنة أن يشتعل أوارها بأشد ما يكون الاشتعال لولا أن تداركهم لطف الله بالمتوسطين من علماء مكة وبعض عقلائها من الأشراف الذين سعوا إلى الصلح بين الفريقين بعد أن قاست مكة من الاضطرابات والفوضى ما قاست نحواً من ثلاثة عشر يوماً. وانتهى الصلح بتنصيب سعد بن زيد وتخصيص جزء كبير من ريع البلاد للشريف حمود لقاء قبوله ذلك[1].

سعد بن زيد: واحتفلت مكة بالصلح احتفالاً عظيماً وأقيمت معالم الزينة في أحيائها وحاراتها ومن ثم كتبوا إلى دار السلطنة بما جرى وانتظروا أن يوافيهم التأييد وطار انتظارهم فلم يصلهم شيء من ذلك.

وفي أثناء الانتظار - وكان قد أهل رجب من السنة نفسها ١٠٧٧ - تحرش بعض أتباع الفريقين بالبعض الآخر فوقع الاصطدام بين أنصار سعد بن زيد وأتباع

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٨٠.

حمود ويبدو أن النفوس كانت مطبقة على أهواء مكبوتة تنتظر من يثيرها فما كاد ينشب خلاف بسيط حتى اشتعلت الصدور بما تضمر وثارت الفتنة وبدأت الطلقات النارية يرتفع صداها بين مداخل الشعوب في البلدة واشترك العساكر النظاميون في هذه الفتنة وكثير من رجال القبائل ، وظل الأمر على ذلك يومين حتى تدخل المصلحون وعالجوا الخلاف بين الفريقين بما أرضاهم بعد أن ذهب ضحية الحوادث أربعة قتلى وكثير من الجرحى والمصابين.

ووافق تأييد السلطان على أثر هذا فسر به ذوو زيد وجرت المراسيم المعتادة للتولية ولبس الشريف سعد «خلعة» الإمارة المهداة من دار السلطنة وأقيمت معالم الزينة في مكة سبعة أيام ووزع الأمير سعد على جنده ألفي دينار وخلع على كثير من أتباعه وحاشيته.

وأقبل الموسم من ذلك العام ١٠٧٧ فأقبلت بإقباله بواعث الخلاف؛ لأن الشريف سعداً تباطأ في تسديد الحصة التي يستحقها الشريف حمود، واشتد الخلاف فخرج الشريف حمود إلى البادية مغاضباً في ٢٣ ذي القعدة ١٠٧٧ في جماعة من الأشراف، وقد أقام بها حتى وافى أمير الحج المصري فاجتمع به حمود وأخبره بما كان من سعد في عدم الوفاء وقال له: «إننا لا ندع أحداً يحج حتى نأخذ ما هو لنا» وكان قدره مائة ألف أشرفي فكفل ذلك له أمير الحج المصري ونقده خمسين ألفاً.

ولما عاد من عرفات أراد أمير الحج المصري وبعض المصلحين أن يصلحوا بين المتخاصمين وعقدوا لذلك مجلساً فلم يتم بينهما اتفاق فخرج حمود مغاضباً إلى ينبع ولحقه بعض الأشراف.

وندب على أثر ذلك بعض ولده وجماعة من الأشراف للسفر إلى مصر ليعرضوا الأمر على ممثل العثمانيين فيها، فلما كان الوفد في بعض الطريق صادفهم مندوب مقبل من مصر يحمل مقترحات للصلح وأخبرهم أنه سيقابل الشريف حموداً في ينبع فعاد في صحبته بعضهم وبقي البعض الآخر في «الحوراء [1]» ينتظر النتيجة.

ويبدو أن المندوب لم يستطع تسوية الأمور لأننا نجد المتخلفين في الحوراء ظلوا ١٥ يوماً ينتظرون ثم استأنفوا رحلتهم إلى مصر فقوبلوا بترحاب عظيم من والي العثمانيين فيها.

ثم ما لبث أن راجت إشاعة في مصر بأن الشريف حموداً قتل مندوب مصر فاستاء والي مصر وقبض على ضيوفه واستفتى العلماء في قتلهم فلم يفتوه فأودعهم السجن كرهائن.

وفي أثناء هذه الحوادث كان عصيان الشريف حمود في ينبع قد تفاقم أمره وكثرت قلاقله وانضم إلى صفوفه عاصٍ جديد هو محمد بن زيد الذي اختلف مع أخيه سعد في مكة وغادرها مغاضباً لينضم إلى حمود في ينبع وصدرت الأوامر العثمانية إلى صاحب مصر بإرسال حملة عسكرية إلى ينبع لتأديب العصاة بها، فتوجهت الحملة وهي في نحو خمسمائة جندي إلى ينبع، فقابلها العصاة في جمع من مقاتلة الأشراف وبعض المتطوعة من قبيلة جهينة وفتكوا بها فقتل منها نحو أربعمائة جندي وفر الباقون، وقد أُسِرَ قائد الحملة ونساؤه

(١) الحوراء: تقع شمال ينبع بالقرب من أملج.

وأولاده فأبقوهم في الأسر كرهائن مقابل أسراهم من الأشراف في مصر وذلك في رجب عام ١٠٧٩ (١).

ثم مالبث أن تولى حكم مصر والٍ جديد من العثمانيين فأطلق سراح الأسرى من الأشراف ، فقابله أنصار الشريف حمود بالمثل وأطلقوا أسراهم عنده.

وظل العصيان على حاله في ينبع إلى أن أعد الشريف سعد في مكة عدته لتأديبهم، وقد وافتهم الأنباء فانتقلوا متوغلين في داخلية البلاد حتى انتهوا إلى شرقي الطائف، وهناك عانى الشريف حمود كثيراً من مناوشة قبائل مطير وبني ظفر وبني حسين، فرأى أن يختزل العصيان ويتقرب إلى ابن عمه، فانحدر إلى الطائف وقابل الشريف سعداً مواجهة فرحب به سعد وقبل منه وتعاهدا معاً على الصفاء في جلسة عامة في مسجد ابن العباس وذلك في سنة ١٠٧٩ .

وبذلك تم الصلح بعد أن قاسى المتضادون كثيراً من أهوال الخلاف وعانت مكة من جراء ذلك شدائد لا حد لوصفها، فقد اضطرب سير القوافل بين البلاد واشتد غلاء الحاجيات وعز القوت في مكة وجدة والطائف وأكل الناس في هذه الأثناء لحوم الكلاب والهررة والميتة والعظام (١).

وما كاد يستقر أمر الشريف بعد ذلك حتى تعصب ضده بعض عسكره، وكانوا من مرتزقة اليمن يتجندون للخدمة العسكرية في مكة فتأخر عنهم صرف رواتبهم فأعلنوا عصيانهم على الشريف سعد وانحازوا إلى جهة المعلاة واعتدى بعضهم على الباعة في الأسواق ينهبون ما تصل إليه أيديهم بالأسواق، ثم خرجوا

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

متجمهرين يريدون اليمن، فندب الشريف سعد أحد إخوته لإصلاح الأمر فأصلحه بعد أن وعدهم بإنجاز مرتباتهم وقد أنجزها، وكان ذلك في ثالث ربيع الأول من عام ١٠٨٠ .

مهدي من فارس : ومن الأحداث الهامة في عام ١٠٨١ أن رجلاً فارسياً هاجم الخطيب في المسجد الحرام وهو يخطب يوم الجمعة ١٦ رمضان مستلاً سيفه يريد قتله وهو يصيح بالفارسية : إنه المهدي . فحال المصلون دونه وتكاثروا عليه وأوسعوه ضرباً حتى وقع مغشياً عليه ثم سحبوه حتى انتهوا به إلى ناحية المعلاة فأوقدوا فيه النار وأحرقوه [١] .

ولا أستبعد أن يكون هذا الرجل مجنوناً ولكن الجماهير لا تصدر في أعمالها عن روية إذا تجمهرت، ولو كان ثمة من يسيطر عليها في تجمهرها ويستطيع أن يصدر في سيطرته عن تعقل لحال دونهم واكتفى بالقبض على الرجل والبحث في شأنه إلى أن يحكم الشرع فيه بما يستحق، وأكبر ظني أنهم لو فعلوا ذلك لما وجدوه يستحق من العقوبة أكثر من إحالته إلى مستشفى المجانين إذا كان للمجانين مستشفى في ذلك العهد، ولكن التجمهر آفه العقول في كل زمان .

وأهل عام ١٠٨٢ فأهلت معه أحداث جديدة قاسى هولها الشريف طيلة عام ٨٢ و٨٣ ثم انطوت إمارته قبل أن ينطوي العام ١٠٨٣ .

ويتلخص ذلك أن خلافاً نشأ بين صنجق جدة والشريف سعد لعل من أهم أسبابه مماطلة الأول في صرف حقوق الشريف سعد في واردات جدة، وطال الخلاف حتى وافى أوان الحج عام ١٠٨٢ فلما كان «صنجق» جدة في منى يوم

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٨٤ .

النحر ضُرِب برصاصة لم تصب منه مقتلاً فحمله عسكره إلى بيته في مكة بالقرب من باب الباسطية .

ولم يشك المصاب بأن ضاربه مدسوس عليه من الشريف سعد ولكن الشريف سعداً أكد في مجلس عقد خاصاً بذلك بعد الحج أنه لا يعلم عن الضارب شيئاً، وفي هذا المجلس بحث أمر الصلح في واردات جدة وبعد تدقيقها وتقريرها تسلم بعضها وتنازل عن الباقي[1] وانتقل صنجق جدة بعد ذلك إلى جدة ثم إلى المدينة في أوائل عام ١٠٨٣ وهناك اتصل به بعض خصوم الشريف سعد وشجعوه على إعلان عزل الشريف سعد وتولية أحد أبناء عمومته .

وعلم سعد بالأمر فجهز مقاتليه لضرب خصومه ، وقبل أن يشتبك القتال وافى مرسوم من تركيا بعزل (صنجق) جدة وتأييد سعد [2] .

الشيخ المغربي : وكان يقيم في القسطنطينية رجل من خصوم الشريف هو الشيخ محمد بن سليمان المغربي وكان من كبار علماء عصره بمكة ، وقد وجد الفرصة سانحة للعمل ضد الشريف سعد فساعد على تركيز الحملة ضده ، فلما قنعت الخلافة في تركيا بعثت إلى مصر بإرسال ثلاثة آلاف جندي إلى مكة وحلب بإرسال ألفي جندي وجعلت قيادة الجيش إلى صاحب حلب حسين باشا كما أمرت حسين باشا أن يأتمر بأوامر الشيخ محمد سليمان المغربي [2] .

وانتهى الجيش المصري إلى مكة في موسم عام ١٠٨٣ وعسكر في جرول ثم

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ٨٥ .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

وصل جيش حلب فعسكر في الزاهر وفطن الشريف سعد للأمر فبات منه على حذر، وقصد حسين باشا والشيخ محمد المغربي إلى المسجد حال وصولهما فأديا نسكهما وقابلا الشريف سعداً فأظهرا له الود وقبّل حسين باشا يد الشريف ثم سهر عنده في بيته إلى ما بعد منتصف الليل، وأرسل الشريف سعد يطلب خلعته المعتادة من الباشا فطلب الباشا إليه حضوره ليشرب قهوته فامتنع فأعاد دعوته فلم يقبل وقال: إن العادة جرت بإرسالها إليّ. فقال الباشا: ليس لك عندنا خلعة. فتأهب الشريف سعد للقتال فندب الباشا من ينادي بالأمان وأرسل الخلعة إلى الشريف سعد.

وانتقل الجميع بعد هذا إلى عرفات فوقف الفريقان بها، وقد أخذ كل فريق حذره ولما انتهوا إلى منى بات الشريف ينتظر من الباشا إعلان مرسوم التأييد له كالمعتاد فلم يفعل، فأرسل ينبه الباشا فطلب الباشا حضوره فلم يقبل، وارتهكت أعصاب الشريف على أثر هذه الحوادث وبدا له أن الأمر جد أكثر من اللازم، ولعله رأى أنه لا قبَل له بقوة الجيش فغادر منى خفية في بعض أنصاره إلى الطائف ومنها ارتحل إلى ترَبة فبيشه ثم سلك طرقاً كثيرة حتى انتهى إلى دار الخلافة في تركيا.

وفي منزل الشيخ محمد بن سليمان المغربي في منى اجتمع حسين باشا وبعض كبار الموظفين وأعيان الأشراف ثم أرسلوا في استدعاء الشريف بركات بن محمد من آل بركات وأعلنوا ولايته بموجب مرسوم الخلافة، كما أعلن الشيخ محمد بن سليمان حقوقه في الإشراف على شؤون البلاد وتلا مرسومه الخاص بذلك.

وهكذا انتهت إمارة الشريف سعد قبل نهاية عام ١٠٨٣ بعد أن حكم مكة

خمس سنوات ناب أخوه أحمد عنه في سنتين منها وبذلك خرجت الإمارة من ذوي زيد لتعود من جديد إلى ما كانت عليه في ذوي بركات (١).

بركات بن محمد : وانقسم الأشراف في شأن ولاية بركات فحبذها أشياع بركات ولم يرضها ذوو زيد وأنصارهم فارتحل بعضهم إلى نواحي الطائف وابتعد آخرون إلى أطراف مكة وهاجر بعضهم إلى خارج البلاد ومع هذا فإن الشريف بركات كان أطيب سيرة من غيره، وكان يحب المصالحة ويسعى إليها فظل مسالماً إلا في أحوال خاصة سنأتي على بيانها.

ومن طريف ما يذكر أن الشيخ محمد زرعة حضر حفلة المرسوم وقرأ آية من القرآن منها ﴿ **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٥٤] وكان الشريف بركات من آل إبراهيم بن بركات (٢).

المغربي يشرف على الإمارة: وغلب نفوذ الشيخ المغربي على جزء كبير في عهد بركات مما لم يعهده أشراف مكة قبله واستطاع أن يمضي أموراً كثيرة كانت لا تجد من يستطيع معارضتها رغم ما كانت تثيره من احتجاجات (٣).

ومما أمضاه المغربي أنه أخرج أصحاب الخلاوي من خلاويهم وأربطتهم -وقد كانت موقوفة على آبائهم -وتوارثوا وقفيتها مع ما ربط لها من غلال، واستبدل بهم غيرهم لأنه كان يرى أن هذه الخلاوي ما بنيت إلا لتأوي المجاورين من طلبة

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٩٠.

(٢) خلاصة الكلام ٦٢.

(٣) جاء في إفادة الأنام أن الشيخ المغربي ولد في سوس وتعلم فيها ثم تنقل بين كثير من بلاد المغرب ورحل إلى مصر، وأخذ عن كثير من أكابر العلماء وقد عرف بقراءته وتفننه، وله معرفة واسعة في المعقول وعلم العلل، وكان كثير التأليف مهيباً نافذ الكلمة مشهوراً بالفراسة.

العلم ممن ليس لهم بيوت يأوون إليها ، وأن غلالها ما ربطت إلا لتعول هذا النفر الذي ليس له عمل إلا طلب العلم وأنها إذا كانت قد آلت بتقادم السنين إلى ورثة لهم بيوت يسكنونها مع عائلاتهم ولهم طرق للكسب يستطيعون بها أن يستغنوا عن الخلاوي ومربوطاتها فإن من الحق أن تنتزع منهم لتوجه للمجاورين الفقراء يستفيدون منها ، وهي فكرة أرى أنها لا تستحق الطعن ولكن الإنسان في كل زمان هو الإنسان . . فلا عجب أن يستاء أصحاب الخلاوي مما حدث ويعدون أعماله تقحماً على حقوقهم الموروثة وتهجماً على أبناء البلاد وتعزيزاً للغريب الطارىء ولا عجب أن نرى بعض مؤرخي مكة ينعتون أعماله بالتعسف والظلم .

ولم تقتصر أعمال الشيخ محمد بن سليمان على شأن الخلاوي فقد أخذ مدرسة الشرابية من الشيخ أحمد الحكيم بالرغم من الأوامر والمستندات التي تخوله حق السكنى فيها ، وأعطاها لبعض المجاورين ليسكنوها ، وأخرج إبراهيم بيري زادة من وقف الدوربي الكائن بأعلى المدعى من جهة سوق الليل ووجهه كما يبدو لبعض المجاورين كذلك .

لهذا اشتد استنكار المكيين لهذه الأعمال حتى قال شاعرهم « المهتار » :

وظائف الناس قد صارت مفرقة ... ما بين عبد ومعتوق وأفَّاقِ

وأهل مكة قد غارت نجومهم ... فما ترى كوكباً يبدو بآفاقِ

وأنشأ الشيخ المغربي مزولة في المسجد لمعرفة أوقات النهار كما أنشأ تكية في المسعى وكانت تعرف إلى عهد قريب بتكية السيدة فاطمة (١) وصرف عليها أموالاً كثيرة وصارت فيها للفقراء «دشيشة» ينفق على صنعها من كراء أوقاف جقمق وقايتباي (٢).



صورة المزولة في المسجد الحرام

ولا نشك في أنه كان يريد الإحسان بذلك إلى الفقراء والمجاورين، ولكني أرى أن في بناء التكايا ما يغري على الكسل ويساعد على اجتذاب فقراء الآفاق إلى هذا البلد الذي عانى ويعاني من مشاكلهم إلى اليوم ما يجل عنه الوصف.

وعمر الشيخ ابن سليمان المغربي عدة أوقاف بمكة كانت قد خربت واستولت عليها بعض الأيدي وليته استبدل بها مدرسة تحارب الأمية وتنشر العلم ولا أجيز لنفسي أكثر مما تؤديه كلمة «ليت»؛ لأن موضوع الأوقاف الخربة وما تؤدي إليه من نتائج له بحث أوسع من أن يوفيه قلمي، وهو قبل هذا يخص أصحاب الاختصاص من رجال الدين أكثر مما يخصني.

ومنع الشيخ أصحاب الزوايا من ضرب الدفوف في ليالي المولد. وتخالجني كلمة «ليت» مرة أخرى وبودي أن أقول: ليت الشيخ أقنع أصحاب الزوايا في لين ورفق بأن في ميدان الحياة من الأعمال المنتجة لعز الإسلام وسؤدد هذا البلد الحرام

(١) وقد سميت كذلك نسبة إلى بيت فاطمة الذي كان يقع بجوارها وقد هدمت أخيراً وقام محلها الشارع الفيصلي قبيل المدعى.

(٢) خلاصة الكلام ٩٣.

ما هو أجدى وأنفع من العمل المحدود في ظل الزوايا .

وبنى الشيخ المغربي بمكة رباطاً للفقراء يعرف «في عهده» برباط ابن سليمان عند باب إبراهيم يسكنه أهل اليمن .

وأدخل الشيخ بعض تعديلات على النظم القائمة يومها في مدرسة قايتباي فأضاف إليها جملة صالحة من مدرسي المذاهب واستبدل مدرس المذهب الحنبلي بآخر يدرس الحديث [1] وبنى مقبرة في المعلاة سميت مقبرة ابن سليمان ، وأعتقد أنها المقبرة الموجودة الآن وتسمى السليمانية .

وقام الشيخ بأعمال كثيرة يطول سردها وهي تدل بالإضافة إلى ما ذكر على مبلغ ما كان يتمتع به الشيخ من جرأة وما كان يملك من نفوذ .

ولسنا نشك في أن الشيخ المغربي كان يستمد جرأته من مصدر يؤيده في الآستانة ، قد ذكروا أن الوزير الأعظم أحمد باشا الكبرلي كان يؤيد نفوذه ثم يقولون : إن الخلل ما لبث أن تطرق إلى مركزه على أثر وفاة الوزير المذكور في استامبول ، وأنه فقد نفوذه تماماً بعد ذلك ؛ لأن الوزير الجديد أصدر أوامره في عام ١٠٨٦ برفع يد الشيخ عن كل ما يتعلق بأمور البلاد بعد أن تمتع بإشرافه عليها نحواً من ثلاث سنوات ، ثم ما لبث أن صدرت الأوامر بإبعاده من البلاد ولكن بعضهم تشفعوا فيه وطلبوا توجيهه إلى المدينة ، ثم تشفعوا فيه فسمح له بالإقامة في مكة على ألا يتعرض لشؤون الحكم [2] .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى أمر الشريف بركات فقد تركناه يتولى أمر مكة

(١) خلاصة الكلام ٩٣ .

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»(ع) : وتوجد اليوم ذرية الشيخ محمد بن سليمان المغربي بخليص ، وقد أصبحت قبيلة معدودة في حرب ، انظر نسب حرب .

في عام ١٠٨٣ ورأيناه يسالم الشيخ محمد بن سليمان المغربي ولا يتعرض لأعماله وترتيباته ويقبل فكرة إشرافه التي لم يتعودها آباؤه بروح المسالم الضعيف . بل إنه يذهب إلى أكثر من هذا فيحضر حلقته بالمسجد ويستمع إلى دروسه .

والغريب أن هذا المسالم لا نلبث أن نجده في بعض المواطن قوياً كأقسى ما يكون الأقوياء ، فقد خرج في عام ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ على رأس جيش من الأشراف والعربان وبعض العساكر لقتال العصاة من قبيلة حرب ، ولما نزل قرية بدر لم يبدأ القتال فوراً بل ظل يرابط فيها ، وكلما اعتزم العمل عاود الصبر حتى صاروا لا يهتمون لحركته ، فلما طال الأمر ورأى بعضهم يفترق عن بعض وثب عليهم وثبة جبارة فكسر جموعهم واستأصلهم وأقام في قتلهم ستة أيام قطع فيها دابرهم وأحرق نخيلهم وأقام حكمه في بلادهم ، ولما انتهت الأخبار إلى مكة زيِّنت أسواقها ثلاثة أيام ابتهاجاً بالنصر [١] .

وفي هذا العهد ورد مرسوم من السلطنة بتقسيم واردات مكة أربعة أقسام يختص بأحدها الشريف بركات وتوزع الثلاثة أرباع على الأشراف في مكة سهاماً متساوية ، واستعان الشريف بركات بالخواجا عثمان بن زين العابدين حميدان الذي جعله وزيراً له [٢] .

تلطيخ الكعبة : وفي شوال ١٠٨٨ أصبح الناس فإذا بالكعبة ملطخة بما يشبه العذرة فاتهم الناس الشيعة بهذا جرياً على اعتقاد قديم لا أدري كيف تجيزه عقولهم ، وهكذا اشتدت حمية الأتراك المجاورين والحجاج فأوقعوا ببعض الشيعة وقتلوا منهم أشخاصاً رمياً بالحجارة وضرباً بالسيوف . وينقل السيد

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

دحلان [١] عن العصامي في تاريخه أنه رأى بعينه ما تلوثت به الكعبة فإذا هو ليس من القاذورات وإنما هو من أنواع الخضروات عجن بعدس وأدهان معفنات فصارت رائحته كريهة ، وسواء صح هذا أو لم يصح فالواقع أن الإسلام في حاجة إلى التواد الذي يجمع كل المخالفين في جادة واحدة، وأن أبناءه في غنى عن أن يوسعوا شقة الخلاف بينهم بما يتوهمونه في المخالفين منهم .

وشد ما يؤسفني أن يتوهم العامة إلى اليوم أن شيعة العجم لا يتم حجهم في مذهبهم إلا إذا لوث الكعبة الحاج، لو كنا نحتكم إلى منطق العقل لعلمنا أن صحة الفكرة تقتضي أن تلوث الكعبة في كل عام بالألوف المؤلفة من القاذورات تبعاً لعدد الشيعة من الحجاج وهو ما لا يسلم به الواقع الملموس ، ولكننا نلغي عقولنا بالنسبة لمخالفينا .

جمل فوق المنبر : وفي ٢٢ ذي الحجة عام ١٠٩١ سال وادي إبراهيم بمكة على أثر مطر عظيم ، واقتحم السيل المسجد حتى انتهى إلى ما يوازي نصف الكعبة وأزاح بعض الأعمدة عن أمكنتها، ومن غريب الاتفاق أن السيل حمل أحد الجمال حتى استقر به فوق المنبر ، فلما انكشف الماء في الصباح وجدوا الجمل في مكانه في أعلى المنبر. وراح ضحية هذا السيل عدد كبير من الحجاج وخربت بسببه كثير من البيوت [٢] .

وفي جمادى الأولى سنة ١٠٩٣ وقعت فتنة بين الأتراك وعبيد بعض الأشراف في مكة، ويبدو من ملابستها أن الأتراك كانوا يشعرون بميزة مستواهم المستمدة

(١) خلاصة الكلام ٩٧ . والعصامي ج٤ ص ٥٢٩ المطبعة السلفية بمصر، وفيه تفصيل عمن قتل يومئذ .
(٢) خلاصة الكلام للسيد دحلان ٩٨ .

من سلطة عنصرهم، وكان الأشراف يأبون عليهم ذلك ويشعرون في نفس الوقت بميزة محتدهم ولا ينسون أنهم أصحاب البلاد الأصليين وحكامها، فليس ببعيد أن تحتك هذه المشاعر، وأن تضطرم بينها نيران الفتن، وأن يندفع العبيد غاضبين لسادتهم فيتحرشون بالأتراك.

وفي الواقعة التي نحن بصددها كانت الفتنة قد استعمل فيها الرصاص فأصيب فيها بعض الأتراك ونهبت بعض البيوت وأقفلت الدكاكين أبوابها وتفاقم الأمر حتى اضطر الشريف بركات إلى الخروج بنفسه في معمعة الفتنة.

واستعان الشريف بركات ببعض العسكر المصريين في - الأورطة- التابعة للعثمانيين المرابطة في جدة، فكبر ذلك على الأشراف وعبيدهم، واتفقت كلمة عدد كبير منهم على الخروج إلى الحسينية ليجمعوا كلمتهم فيها على هجوم مكة فبلغ الشريف بركات ذلك وندب لهم أخاه ليقنعهم فقبلوا الطاعة على أن يضمن لهم ألا يسوقهم بعد اليوم بعسكر من مصر إذا وقع ما يوجب ذلك فرفض الشريف بركات بشرطهم وبذلك خمدت الفتنة [1].

والذي يظهر أن صحة الشريف بركات تأثرت بما قاساه في هذه الفتنة كما تأثرت بخروج الأشراف مغاضبين له فانتكست، ثم ما لبث أن توفي في ٢٩ ربيع الثاني عام ١٠٩٤ وكانت مدة حكمة عشر سنين وأربعة أشهر وعشرين يوماً [1].

سعيد بن بركات: وكان قد مكن في حياته لابنه سعيد بن بركات فقد ولاه ولاية عهده بموجوب مرسوم استصدره من تركيا، فلما توفي لم يجد ابنُه سعيدٌ من ينازعه، فتولى الإمارة وألبسه قاضي مكة خلعتها في الحطيم ثم كتبوا بذلك

(١) خلاصة الكلام للسيد دحلان ٩٩.

إلى تركيا فوافاه التأييد.

ولم يدم أمر سعيد بن بركات طويلاً حتى بدأ الخلاف بينه وبين الأشراف ولعل أهم ما دعا إلى ذلك أنه امتنع عن دفع حقوقهم في واردات مكة، وهي ثلاثة أرباع المحصول، وكان الأشراف قد اتصل بهم أن الخليفة في تركيا كتب إليه بعد التعيين بدفع تلك الحقوق فأخفى ما وصله عند ذلك فاشتد شغب الأشراف ضده وطالبوه بالحضور إلى مجلس الشرع فصالحهم ورضي أن يدفع لهم.

ويبدو أن الأشراف استطاعوا على إثر ذلك أن يتصلوا بحقوقهم مباشرة فقد شرع كل فريق يندب لنفسه جباة ويتخذ له عسكراً لحراسة جبايته حتى استخدم بعضهم نحو مائتي موظف جعلهم جنوداً لحماية قومه وحصته في الواردات.

وتكلف الأشراف بحراسة أجزاء خاصة بهم في البلاد مقابل شركتهم في الواردات فكان كل فريق منهم يتخذ لعمله عساكر حراساً [1] كما لو كانت البلدة موزعة بين أكثر من حكومة وأمنها مسؤول من أكثر من شخص.

ولا أستطيع أن أفهم أي معنى لهذا النظام ولماذا سنّه الأتراك وكيف وافقوا عليه إن لم يسنوه وأي غرض كانوا يقصدون من ورائه كما لا أدري متى سن ذلك، لأن مؤرخي مكة لم يذكروا شيئاً يتعلق بذلك من قبل هذا وعلى كل حال فقد اضطربت الأحوال وأصبح في مكة أكثر من مسؤول كما أصبح لكل مسؤول إدارته الخاصة وموظفوه وجباته وعسسه فاشتد الاحتكاك بين هذه الإدارات وعانى الشريف سعيد من توزيع الاختصاص ما لا يطاق.

وأراد أمراء الحج في موسم ١٠٩٤ أن يجمعوا بين المتخاصمين فلم يوفقوا؛

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

لأن الشريف سعيداً كان يمانع أن يتخذ الأشراف لأعمالهم جنوداً مختصين بهم، وكان الأشراف يرون أن ذلك حق لهم تقرهم عليه حقوقهم في واردات البلاد بموجب مراسيم خاصة [١].

وزاد الأمر شغباً أنّ والي جدة التركي استولى في هذه الأثناء على بعض الغلال الواردة للأشراف لدى وصولها جدة، فاغتنم الأشراف فرصة مجيئه إلى الحج ومنعوا خروجه من مكة حتى يدفع لهم ما اغتصبه فتفاقم الشر وأصر الأشراف حتى نزل الوالي على أمرهم وسلم إليهم ما يستحقونه وتعهَّد بعدم العودة إلى ما كان.

واستغل أصحاب الفساد اضطراب الأحوال في مكة وعجز الشريف سعيد عن توحيد السلطة فراحوا يعبثون بالأمن في الأسواق وضج الناس وكثرت حوادث القتل والاغتيال وعمَّت الفوضى[١].

وفي هذا العهد صدر أمر الخليفة العثماني بإبعاد الشيخ محمد بن سليمان المغربي الذي تقدم ذكره في عهد بركات من بلاد الحرمين وكان قد أبعد قبل إلى المدينة ثم عاد إلى مكة فتبلغ فيها أمر إبعاده ولكنه أبى إلا أن يقضي حجه فلم يقبل منه، وأرسل الشريف سعيد إليه بعض خدمه لإخراجه بالقوة وكان يسكن في مدرسة الداودية فامتنع عن الخروج واتصل بعض أصحابه بالشريف ثقبة بن قتادة واستغاث به فتوسط في نقله إلى بعض أملاكه في خليص[٢] ولما وافت أيام الحج

---

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

(٢) وادي خليص شمال عسفان.

أدى مناسكه ثم غادر البلاد ولم يعد إليها[1].

هدايا سلطانة آشي : وفي هذا العهد وصلت هدايا قيِّمة من الذهب وبعض الطيوب النادرة من «سلطانة آشي» وقدر كبير من الصدقات لفقراء مكة فتقبلها الشريف سعيد على أنها مهداة له ؛ لأن أباه بركات كان قد ندب أحد خاصته ببعض الهدايا إلى الهند فمر مندوبه بسلطانة آشي فحملته تلك الهدايا إلا أن الأشراف أبوا إلا يأخذوا حصتهم - ثلاثة أرباع تلك الهدية - فرفض إجابتهم ثم اضطر لما رأى من شغبهم إلى مهادنتهم فأعطاهم نصيبهم منها ثم وزع على الفقراء حقوقهم في الصدقة بحضور الأشراف[2].

ولما كثرت أعمال الشغب على النحو الذي ذكرنا آنفا واتصلت الأخبار بعاصمة الخلافة - إستامبول رأى أصحاب الأمر فيها أن خير ما يمكن عمله هو عزل الشريف سعيد عن الإمارة ولم يمض فيها أكثر من سنة واحدة .

عودة الحكم إلى ذوي زيد - أحمد بن زيد : وفي هذه الأثناء كان الشريف أحمد بن زيد موجوداً في تركيا ؛ لأنه استوطنها على إثر فراره يوم العيد من منى بصحبة أخيه سعيد بن زيد كما مر معنا سنة ١٠٩٣ فرأى الخليفة أن يعهد إليه بالإمارة ليحل محل سعيد بن بركات فصدر مرسومه بذلك وقد قيل : إن الشريف أحمد عرضت عليه أثناء إقامته في استامبول ولاية طرسوس كما عرضت عليه إمارة أخرى بجهة «الروملي» فلم يقبل واحدة منهما وقال : إن تفضلتم بولاية بلادنا وإلا فإني باق تحت أنظار السلطنة ، إلا أن السلطنة ما لبثت ان اضطرته إلى قبول ولاية كرك كلية فظل فيها نحواً من سنة ، ثم عاد إلى الآستانة وظل بها إلى

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٠٤ .

أن تم اختياره لإمارة مكة في عام ١٠٩٥ (١).

وقيل: إن السلطان عندما قابل الشريف أحمد يوم تقليده الأمر صافحه بغاية الإجلال وهو يكرر: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد . . ثم قال له: ياشريف أحمد، إن الحجاز خراب وأريدك لتصلحه(١)، وهكذا عاد الحكم إلى ذوي زيد بعد أن غادرهم اثنتي عشرة سنة.

وتوجه الشريف أحمد على إثر هذا إلى الشام ليصحب الحج الشامي.

وانتهت الأخبار إلى مكة بقدوم الشريف أحمد فأسرع الشريف سعيد إلى استحضار الشريف مساعد بن زيد وقال له في مجمع من كبار الأشراف: إن عمك الشريف أحمد في طريقه إلى مكة ليتولى أمرها بدلاً مني وسأغادر مكة بناء على ذلك بعد أن أستودعك أهلي ليظلوا في صيانتك حتى يتم ترحيلهم فقبل مساعد ذلك.

وفي صبيحة الليلة التي سافر فيها الشريف سعيد انعقد مجلس في المسجد خلف مقام الحنفي حضره سائر الأشراف ووالي جدة والقاضي والمفتي والعلماء ووجوه الناس وقرروا إقامة «مساعد» في الإمارة وكالة عن عمه إلى أن يصل عمه مكة (٢).

ووصل الشريف أحمد إلى مكة في ٢ ذي الحجة ١٠٩٥ ودخلها في موكب حافل وجلس للتهنئة على عادتهم في ذلك ومدحه الشعراء الذين مدحوا من قبله وسيمدحون مَنْ بعده.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٠٤.

(٢) منائح الكلام للسنجاري «مخطوط»

وما لبث أحمد أن نشر لواء العدل فاستقر الناس بعد اضطرابهم وأمنت الطرق[1].

حادثة الشيخ القلعي : وفي هذا العهد جرت الحادثة المشهورة بحادثة القلعي وتتلخص في أن المصلين بالمسجد الحرام ظلوا في فجر يوم ١٥ ربيع الثاني عام ١٠٩٧ ينتظرون حضور الإمام المختص بالصلاة وهو الشيخ تاج الدين القلعي فأبطأ فتقدم للصلاة بالناس أحد الحاضرين من المجاورين.

وكان والي جدة وهو شيخ الحرم لذلك العهد أحمد باشا مع المصلين فلما علم بإبطاء الشيخ القلعي غضب لذلك واستدعاه إلى مدرسة الداودية وأمر بضربه على رجله.

فلما علم الأئمة بما نال زميلهم اشتد سخطهم واتصلوا فوراً بأمير البلاد أحمد ابن زيد وطلبوا إعفاءهم من الإمامة جميعاً أو ترد كرامتهم إليهم بتأديب أحمد باشا.

فطلب الأمير إليهم أن يتقدموا إلى مفتي البلاد الشيخ عبدالله عتاقي زاده باستفتاء رسمي في ذلك ليوقع بإمضائه على ما يقضي به الشرع فلما تقدموا به وقع المفتي بوجوب تعزير من أهان أهل العلم.

فكتب الأمير بإحالة الإفتاء إلى القاضي الشرعي فاستحضر القاضي الباشا وحكم عليه بالتعزير إلا أن الباشا استرضى الشيخ القلعي وصحبه إلى بيته وطيب نفسه فتنازل عن دعواه.

وأسرَّها الباشا للمفتي فلم تمض مدة حتى تقدمت شكوى إلى الباشا بصفته

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط».

شيخ الحرم بأن المفتي أحدث لبيته مجرى «قصبة» في جدار المسجد، فانتدب من يشرف على ما أحدث فقرر المشرفون أن «القصبة» غير محدثة فلم يقنع حتى اطلع عليها. وقد قيل: إنه لم يجد شيئاً محدثاً ولكنه رغم ذلك استحضر المفتي وسبَّه وضربه حتى أدماه وداسه برجله فذهب المفتي إلى الشريف يشكو إليه ما حدث وذهب الباشا ملتجئاً ببيت القاضي «وهو من الأتراك في العادة» فأرسل الشريف إلى القاضي يطلب حجز الباشا حتى يقضي الشرع فيه وضج الأهالي بمكة وتألبوا جماعات جماعات حول بيت القاضي وأخذ بعضهم يحصب النوافذ بحصباء الحرم.

رأى الباشا أن يلتجئ بعد هذا بالشريف أحمد أمير البلاد فأصلح الأمر بعض الإصلاح واسترضى المفتي مؤقتاً ثم كتب إلى الخليفة في تركيا فجاء الأمر بعزل أحمد باشا عن ولاية جدة ومشيخة الحرم (١).

إجلاء النصارى عن جدة: وفي هذا العهد أصدر شيخ الحرم والي جدة أمره بألا يبقى في جدة غير مسلم وشدد في تعقبهم، فغادر جدة غير المسلمين عن آخرهم ولم يبق منهم إلا من أعلن إسلامه (٢).

وغزا الشريف أحمد القبائل العاصية في شرق البلاد فطوَّعها ثم انتقل إلى الشمال حتى انتهى الى المدينة ثم عاد إلى مكة فدخلها في هلال ذي الحجة محرماً فطاف وسعى بالليل ثم خرج إلى الزاهر فبات ليلته ليدخل مكة في الصباح في موكبه الرسمي على جري عادتهم.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٠٨.
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

وفي أواخر ربيع الثاني عام ١٠٩٩ مرض الشريف أحمد وفي ١٢ جمادى الأولى ١٠٩٩ توفي إلى رحمة الله عن عمر يناهز ٧٤ سنة وكانت ولايته هذه أربع سنوات إلا ثلاثة أيام.

إزالة النواتئ : وفي هذا العهد أمر أحمد باشا نائب الشرع بلكات العسكر الانكشارية في عام ١٠٩٨ أن يمروا من باب الصفا إلى المروة ليزيلوا النواتئ والظلل ثم ركب في أثرهم فدخل إلى سويقة والشامية وأمر بإزالة نواتئ الدكاكين فيها (١).

سعيد بن سعد : وكان ابن اخيه سعيد بن سعد بن زيد يخصه بمحبته ويعتمده في كثير من أعماله وربما أمره بالجلوس في منصته بديوان الإمارة فلما توفي العم اجتمع كبار العسكر وبعض الأشراف والأعيان لدى قاضي الشرع واتفقوا على تنصيب سعيد وقد نصبوه وكتبوا بذلك إلى مقر الخلافة في تركيا.

وكان الشريف أحمد بن غالب - من ذوي بركات - يقيم في هذه الأثناء في ينبع فكتب إلى صاحب مصر وهو من الأتراك يبذل مالاً -يقدره الدحلان (٢) بمائة كيس- ويطلب إليه العمل على توليته مكة ووهبه غير ذلك مالاً كان مجتمعاً في مصر لفقراء مكة يبلغ ٧٥ ألف قرش !! فكتب صاحب مصر إلى والي جدة بموافقته على تنصيب الشريف أحمد فامتثل والي جدة ونادى بذلك في جدة واتصلت الأخبار بالشريف سعيد في مكة فأبى أن يسلم وقال: إن والي مصر لا يحكم إلا مصر وصعيدها، وإن دون مكة السيف، أو يصدر إلينا الأمر من السلطان.

---

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

(٢) خلاصة الكلام ١١٠

وتحرك عسكر جدة بصحبة الشريف أحمد بن غالب متوجهين إلى مكة فلما انتهى إلى النوارية [1] وكان ذلك في أواخر رمضان عام ١٠٩٩ كتب إلى الشريف سعيد يطلب إليه مغادرة البلاد فلم يمتثل وفي غرة شوال تقدم العسكر إلى مكان العمرة عند مسجد عائشة فشعر الشريف بدنو الخطر ورأى بعض أنصاره يتخلون عنه فغادر البلاد عن طريق الطائف.

أحمد بن غالب: ودخل الشريف أحمد بن غالب مكة في ثاني شوال ١٠٩٩ في موكب حافل وهنأه المهنئون وامتدحه الشعراء على جري العادة.

وفي شهر ذي الحجة وصل مرسوم سلطاني يتضمن أن والي مصر كتب إلى الخليفة بأن الأشراف متفقون على تنصيب أحمد بن غالب وأن الدولة توافق على تأييده فقرئ المرسوم في الحطيم وزينت مكة ثلاثة أيام.

ومن أعمال أحمد أنه أعلن للتجار والأغنياء أن يقدموا زكاتهم إلى دار الإمارة لتتولى صرفها [2].

وما أهل عام ١١٠١ حتى كان الخلاف قد نشب بين الشريف أحمد وكثير من الأشراف، فأعلن ذوو زيد عصيانهم وتوجهوا إلى ينبع فنادوا فيها بإمارة محسن ابن الحسين بن زيد وأعلن جماعة من ذوي عبدالله - العبادلة - العصيان وتوجهوا إلى القنفذة فاحتلوها وقطعوا الطريق إلى اليمن ثم أعلن العصيان ذوو حارث ثم أعلنه غيرهم من الأشراف وقد اجتمع هؤلاء بأحد أولاد مبارك بن شنبر واعتصموا بالحسينية على كيلومترات من مكة.

وبذلك عمت الفوضى واضطرب الأمن واشتد الكرب وما أهلّ رجب حتى

(١) هي بطن عرف بين التنعيم ووادي فاطمة.

(٢) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط»

كانت الأخبار قد وافت مكة بأن العصاة في ينبع والطائف ينادون بإمارة محسن ابن الحسين بن زيد، وأن والي جدة نادى به في أسواق جدة، وأن الأشراف يجتمعون في الزاهر [1] حيث يوافيهم عسكر جدة لهجوم مكة فأمر الشريف أحمد بنصب المدافع في الشبيكة والمسفلة والمعلاة في كل جهة مدفعان ثم أخرج بعضاً من بني عمه في جمعة من عسكره اليمنيين وبعض الأشراف إلى جرول لملاقاة أعدائه في بيت الزاهر وندب بعض المقاتلة للدفاع عن جهة المسفلة والمعلاة وبقي في بيته ينتظر النتائج.

وندب الشريف محسن بعض الأشراف لمقابلة قاضي الشرع في مكة فلما قابلوه عرضوا عليه صورة مرسوم بتعيين الشريف محسن وقالوا: إنه صورة طبق الأصل وطلبوا تسجيله فامتنع القاضي حتى يحضر الأصل فثاروا به وضربوه واشتبك أتباع الفريقين في المسجد وفي جوار المحكمة بباب الزيادة، وهوجمت بعض بيوت الأعيان والموظفين.

وفي أثناء الاضطرابات أرسل الشريف محسن برسالة خاصة إلى الشريف أحمد قِبل الأمير على إثرها أن يغادر مكة فغادرها في ٢٢ رجب عام ١١٠١ بعد أن حكمها سنة كاملة وتسعة وعشرين يوماً [2].

وفي التذييل على شفاء الغرام للعلامة الفاسي [3] ما يخالف هذا فيقول: إن ذوي زيد تقدموا إلى مكة من الطائف فاحتلوا جزءها الأعلى عنوة وأقاموا به يناجزون خصمهم نحو ٢٠ يوماً حتى استطاعوا إجلاء أحمد بن غالب عنها.

---

(١) هو وادي فخ، ونسميه الشهداء أو الزاهر.

(٢) خلاصة الكلام للسيد دحلان.

(٣) تذييل الشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٧.

والتجأ أحمد بإمام اليمن وحاوله ليساعده على استرداد الحكم في مكة فلم يقبل، ثم ما لبث أن طيب خاطره وولاه حكم بلاد عسير وكانت تابعة لحكم اليمن ثم أضاف إليه بعض الإمارات وقد ظل حكمه نحو ٤ سنوات [١].

محسن بن حسين بن زيد : واستولى محسن على أمر مكة فلم يتسامح مع أنصار خصمه فقد عاقب كثيراً منهم وانتزع مفتاح الكعبة من الشيخ عبد الواحد الشيبي وأعطاه لأخيه عبدالله بعد أن أثبت عبد الواحد في مجلس شرعي أنه أعطى بعض قناديل الكعبة للشريف أحمد وأحضر الصواغ الذين شهدوا أنهم صاغوها أسورة وحجولاً . . . وذكر بعضهم أن الشريف أحمد ضربها نقوداً وتداولها الناس [٢].

وتلقى الشريف محسن مرسومَ تأييده من الخليفة في استامبول عن طريق مصر فقرئ في حفل عام في الموسم إلا أن الأشراف من ذوي سعيد وغيرهم ما لبثوا أن تنكروا لمحسن وخرج عليه غير واحد [٣] منهم، فقطعت الطرق ونال الناس كرب شديد، وظلت قوافل الأرزاق لا تصل إلى جدة إلا إذا أرسل بمعيتها صنجق جدة من يحرسها، فاشتد لذلك غلاء الأسعار واجتمع القاضي مع صنجق جدة في دار الشريف محسن وقالوا له : إذا كنت لا تستطيع تأمين البلاد فتنح عن الأمر، فقال : إن أنصاري من الأشراف يأبون قتال بني عمومتهم من الخارجين فأعينوني بعسكر من المصريين لتأديب الخارجين فرفض كبار العسكر وقالوا: إن مهمتنا في مكة وليست في البوادي الخارجة عنها [١].

(١) المخلاف السليماني ٢/ ٤٠٤.

(٢) تاج تواريخ البشر للحضراوي «مخطوط».

(٣) تذييل شفاء الغرام للصديقي ٣٠٧.

تفاقم الأمر عندما قام بعض الأشراف الخارجين من ذوي زيد يطالبون بإعادة الشريف سعيد بن سعد من ذوي زيد إلى الإمارة ونشط الشريف سعيد للأمر ؛ لأنه يرى أنه أحق بإمارته التي سحب منها مؤقتاً بناء على رأي ذوي زيد، وأن الأولى بهم أن يختاروا غيره بعد ظفرهم، وبذلك انقسم ذوو زيد بين معارض ومحبذ، وطلب إلى الشريف محسن أن يتنازل عن الإمارة لسعيد فأبى وأقسم أغلظ الأيمان فاشتد الخلاف بين المتنازعين من ذوي زيد وشهرت السيوف وكادت تقع الفتنة لولا أن أخاً للشريف سعيد هو مساعد بن سعد أدركهم بحل ظريف يتلخص في أن يتنازل محسن له «أي مساعد» عن الإمارة براً بيمينه، فلما قبل هذا قام بدوره وأعلن تنازله لسعيد وأراد صنجق جدة أن يمنع سعيداً من دخوله مكة مع أتباعه فاتصل به بعض الأشراف وأخبروه أنه سيقتل عند أول حركة يغادر سوق المعلاة لمنع سعيد فتراجع وترك سعيداً يحتل مكة وذلك في يوم الأحد ٧ محرم عام ١١٠٣ وبذلك عادت الإمارة للمرة الثانية إلى صاحبها سعيد بعد أن حكمها محسن سنة وخمسة أشهر وثلاثة أسابيع(٢).

سعيد بن سعد للمرة الثانية : وما استقر الأمر لسعيد حتى كتب القاضي ووجهاء الأشراف إلى استامبول بما حدث مطالبين تأييده فأبطأ وصول التأييد وفر محسن إلى المدينة وأثار بعض من فيها ولكنه لم ينجح، ثم ما لبث أن تم بينه وبين سعيد الصلح على أن يتناول لقاء ذلك حصة خاصة من غلة البلاد.

وفي جمادى الأولى من السنة نفسها ١١٠٣ ورد كتاب من صاحب مصر بموافقته على ما جرى وأنه كتب إلى استامبول بذلك وينتظر التأييد ثم أردفه

(١) خلاصة الكلام للسيد دحلان ١١٦ .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

بكتاب آخر في جمادى الثانية يقول فيها : إن السلطنة ولت أمر مكة إلى سعد بن زيد والد سعيد المذكور [1] المقيم في تركيا وذلك قبل وصول خطابنا ويطلب اعتماد ذلك وفي طيه المرسوم الخاص بذلك وأن يكون سعيداً نائباً عن أبيه ومساعداً له .

سعد بن زيد للمرة الثانية : وأهلَّ موسم الحج عام ١١٠٣ فأهلَّ معه موكب الأمير الجديد سعد بن زيد واحتفل بتأييده في المسجد على جري العادة وتغنى الشعراء والمهنئون أمامه [1] بالمديح التقليدي المعتاد .

وهي الولاية الثانية له بعد أن تغيب عن مكة نحواً من ٢١ سنة ودخل مكة في ذي الأروام ، فقد لبس عمامته على «قاووق» وكان يغلب على لسانه بعض ألفاظ أهل الشام، ثم ما لبث أن لبس عمامة الحجاز ، وما كاد يستقر حتى جاءت الأخبار من جنوب البلاد بأن أحمد بن غالب هاجم القنفذة واحتلها ثم هاجم الليث وأنه في طريقه إلى مكة فاستعد لملاقاته إلا أن أحمد ما لبث أن كتب إليه يستأذنه في سكنى مكة بدون قتال فأذن له فأقام ببستانة في الركاني قريباً من مكة[2] .

وفي عهد الشريف سعد عصت بعض قبائل حرب فقاتلها فانتصرت عليه فعاد إلى مكة ثم استأنف قتالها في السنة الثانية فانتصر عليها .

وفي عهده خرج عليه جماعه من ذوي عبدالله - أشراف العبادلة واعترضوا القوافل في طريق الليث فاضطرب الأمن وعاث المتلصصون في مكة حتى اضطر

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٧ .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

إلى مشاركة العسس في حراسة البلاد ثم ما لبث أن سلم العصاة أنفسهم.

وظل الشريف سعد في إمارته نحو ثلاث سنوات وكان على بره بكثير من الأشراف -إذا استثنينا ما ذكرنا- وعلى اتفاقه مع الأهالى لا يميل إلى ملاينة رؤساء المصالح من الأتراك لديه، وكان شديد الخلاف بنوع خاص مع صنجق جدة محمد باشا ولعل ذلك نتيجة كرهه لموظفي الأتراك المتسلطين.

وقد سعى ضده صنجق جدة لدى دار الخلافة واستطاع أن يستصدر أمراً بعزله وتولية الشريف عبدالله بن هاشم من ذوي بركات، فامتنع سعد عن تسليم الإمارة فحاصره عسكر صنجق جدة وساعد عليه عساكر أمراء الأتراك ونصبت المدافع عند باب العتيق[(١)] وفي المسعى، وقد مات بفعلها أكثر من مائة شخص ونهب عبيد سعد كثيراً من بيوت الأتراك كما نهبوا رباطاً بسوق الليل وبعض دور مكة ثم ثبت للشريف سعد أنه لا يستطيع الدفاع فأجلي عن مكة إلى الحسينية في جنوب مكة وظل يتحين الفرص للانقضاض[(٢)].

عبدالله بن هاشم: وبذلك تسلم الإمارة في مكة الشريف عبدالله بن هاشم من ذوي بركات [(٣)] فركب من باب السلام وطيف به شوارع مكة والمنادي ينادي باسمه أمام موكبه وذلك في أوائل ذي الحجة عام ١١٠٥ بعد فتنة راح ضحيتها عدد كبير من الجانبين عدا من قتل من الحجاج في عرفة وفي مكة وقد وجدت بعض القبائل الفرصة صالحة للنهب فنهبوا كثيراً من الحجاج في طريق عرفة وكثر

---

(١) كان منزل سعد في دار الشفاء من باب العتيق ولعل قاعة الشفاء سميت باسم داره.

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

(٣) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٧.

الفساد في طريق جدة حتى إن القوافل العائدة بعد الحج كانت لا تجرؤ على السفر حتى يصحبها عسكر من مكة ليقوم بحراستها .

والمسؤول في رأيي عن أكثر هذه الوقائع هي السلطنة التركية التي كانت لا تختار لعمليات العزل إلا أيام الحج فتترك الحجاج يقاسون من أهوال الفتن ما يقاسون وتتعرض أموالهم وأمتعتهم لنهب اللصوص الذين يغتنمون هذه الفرص ليشبعوا رغبتهم في السلب أو يسدوا عوزهم وحرمانهم .

وقبض في هذه الفتنة على وزير الشريف سعد واسمه عثمان حميدان وكان قد اختبأ في بستان في المعابدة يسمى باسمه ، وقد ظل مأسوراً في المعسكر ينتظر القتل ثم استطاع الهرب وفي هربه تخطى سور المعلاة ثم انحدر إلى قبور ابن سليمان «السليمانية»[1] . وتوجه إلى الفلق ثم ذهب ملتجئاً بالأمير الجديد فحماه من صنجق العسكر ؛ لأن خصومة الوزير كانت شخصية لا تعني الأمير بقدر ما تعني (صنجق) العسكر[2] .

عودة سعد للمرة الثالثة : وظل الشريف عبدالله بن هاشم على أمره عدة شهور ثم وافته الأخبار في غرة ربيع الثاني سنة ١١٠٦ أن الشريف سعداً احتل الليث وأنه في طريقه إلى مكة بجيش كثيف فاستنصر عبدالله بصنجق جدة واستنفر الأهالي في مكة فوافاه عسكر جدة لمساعدته وأبى الأهلون القتال حتى استصدروا من مفتي مكة الشيخ عبدالله عتاقي فتوى بجواز الدفاع ضد المعتدين .

ونظم صنجق جدة الدفاع فرتب الجند في داخل المملكة ونصب المدافع وتقدم الجيش المهاجم من جهة المعلاة وانتشرت عرباته في أعالي الجبال فقتلوا الموكلين

(١) نسبة إلى الشيخ محمد سليمان المغربي .

(٢) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٢٢ .

بالمدافع ثم أعملوا السيف في عسكر جدة حتى أجلوهم عن مواقعهم وأدرك الشريف عبدالله أن لا فائدة ترجى فغادر مكة إلى جدة ثم إلى استامبول حيث توفى فيها في السنة نفسها .

وبذلك عاد الشريف سعد إلى حكم مكة للمرة الثالثة [1] وجلس يستقبل تهاني ومدائح الشعراء ومشى آلاي الترك - الذي حاربه بالأمس - بين يديه يحتفي به .

وقد أولم العربان المناصرين ولائم كثيرة في بستان وزيره عثمان حميدان حضرها بنفسه ثم ما لبث أن تلقى في أواخر رمضان من السنة نفسها ١١٠٦ مرسوم التأييد من الخليفة فأقيمت معالم الزينة في مكة .

وفي أوائل عام ١١٠٧ ندب أخاه محسناً بن حسين لإمارة المدينة وفي جمادى الأولى غزا بعض العصاة شرقي الطائف وظل في قتالهم إلى أن عاد في ٢ ذي الحجة وفي هذا العام توفي مفتي مكة عبدالله عتاقي فأقيم للفتوى الشيخ عبد القادر أبو بكر الصديقي .

واستقر أمر مكة في هذا العهد وأمنت السبل وأصبح جميع الأشراف على وفاق مع سعد إلا جماعة من ذوي عبدالله ما لبثوا أن اختلفوا معه في شأن أعطياتهم وخرجوا مغاضبين فاستدعى بعض الأشراف من ذوي بركات وكلفهم بجراسة الطرق فأطاعوا ثم تلافى أمر ذوي عبدالله وأرضاهم حتى أطاعوا له .

ثم نقضوا الطاعة وتجمعوا في مكان يقال له الحمَّام «بتشديد الميم» من وادي فاطمة [2] واجتمع إليهم جماعة من قبائل الروقة ومطير فاستعان سعد بأقربائه من ذوي زيد وأصدقائه من ذوي بركات ، وسار إليهم فعلم أنهم تركوا الحمام في

(١) منائح الكرم للسنجاري «مخطوط» .

(٢) آثار الحمام باقية إلى اليوم ، وكان قد بناه الأشراف حوالي القرن الحادي عشر الهجري بجوار بيوتهم هناك .

طريقهم إلى جدة فاتبعهم حتى قضى على حركتهم فأطاعوه وأخلصوا له وبذلك عاد الاستقرار إلى ما كان[1].

وبذلك استمر في ولايته نحو سبع سنوات.

شرب الدخان: وفي هذا العهد ظهر شرب الدخان في مكة وقد قيل إنه انتقل إليها من مصر في عام ١١١٢ ثم ما لبث أن ظهر شرب التنباك[2] والمعروف عن بعض المؤرخين أن شجرة الدخان ظهرت أول ما ظهرت في عام ٩٩٩.

سعيد للمرة الثالثة: ثم رأى أن يتنازل لابنه سعيد عن الإمارة فكتب بذلك إلى مقر الخلافة فلما وافاه التأييد احتفل بذلك سنة ١١١٣ وبذلك عاد سعيد إلى الإمارة للمرة الثالثة وجلس لاستقبال المهنئين.

النكبات في عهد سعيد: وكان سعيد يتميز بشيء من العناد وصلابة الرأي لهذا ما عتم أن اختلف مع بني عمومته من الأشراف[3] وماطل في حقوقهم فاضطرب عليه الأمر وتفاقم وعانى كثيراً من الشدة في سبيل ذلك نحو من ثلاث سنوات.

فقد خرج عليه جماعة من أشراف آل بركات وآل حسين وآل قتادة وبعض ذوي سعيد واجتمعت كلمتهم على الخروج إلى وادي مر «وادي فاطمة» فقطعوا السبل وقد ذهب إليهم الشريف سعد «والد الشريف سعيد» فشكوا إليه تأخر

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٢٨.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٣) تذييل شفاء الغرام ٣٠٨.

حقوقهم فاسترضاهم ووعدهم فقبلوا إلا أن سعيداً أبى الصلح إلا بعد أن يخصم ما نهبوه من استحقاقهم فلم يقبلوا وعادوا إلى عصيانهم ثم طلب إليهم صنجق جدة أن يخففوا من غلوائهم حتى تنقضي أيام الحج ففعلوا، ولما انتهت أيام الحج انتقلوا إلى الزاهر وأرسلوا إلى الشريف يطلبون محاكمته لدى قاضي مكة أحمد البكري فقبل.

وأنكر في مجلس الشرع أن لهم حقوقاً معينة وقال: إنها ليست إلا مبرة يتبرع بها أمير مكة فغضبوا وأمعنوا في الغضب والعصيان واستطاعوا أن يربحوا إلى صفوفهم صنجق جدة وأن يجعلوا والد سعيد يعطف على فكرتهم.

وأهل محرم عام ١١١٦ فأهلت الفتنة بانطلاق عبيد الأشراف إلى أعالي الجبال المحيطة بمكة مما يلي تربة العيدروس والشبيكة إلى أسفل جبل عمر ومما يلي جبل الشامية إلى الجبال المطلة على المعلاة، وقد احتل بعضهم بعض بيوت الأشراف في الشبيكة فنشط الشريف سعيد للدفاع ومضى في جنده إلى سوق الصغير فلم يستطع التقدم فعطف إلى سويقة ثم إلى الشبيكة فدافع المهاجمين عنها حتى أجلاهم [١]

ثم ارتحل الثوار إلى طريق جدة واختاروا لرئاستهم رجلاً من ذوي زيد هو الشريف عبد المحسن بن أحمد ونزلوا في غليل - من ضواحي جدة - الشرقية - ثم اتفقوا مع صنجق جدة على دخولها فدخلوها ونادوا بإمارة عبدالمحسن فيها ثم كتبوا إلى المدينة باسمه فيها كما كتبوا إلى قبائل حرب وقبائل اليمن والشمال فأطاعوا.

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٣٠.

وتقدمت الجموع مع عبدالمحسن من جدة إلى الجموم - من وادي فاطمة ثم انتقلت إلى الزاهر وكان قد طمر سعيد آبارها فحفروها وأقاموا يرتبون صفوفهم.

ونشط سعيد للدفاع واستقر أهل الحارات [١] واستخرج مدفعاً كان مدفوناً في دار السعادة أرسله إلى ذي طوى [٢] ودفع بعض العلماء إلى مجلس القضاء لينهوا أمر الخطر إلى القاضي ويستصدروا أمراً شرعياً بوجوب الدفاع فكتب القاضي حجة بذلك كما كتب سعيد لقائد القوات في جدة يطلبه إلى مجلس الشرع ليقيم عليه الدعوى لمساعدة قطاع الطرق على من ولاه السلطان وفي كتابه يقول: «فإذا لم تمتثل بالحضور لدى القاضي كفرت!!»

وهكذا يدور الكفر ما دارت أغراضنا ونسمي حكام الأمس قطاعاً كما نسمي القطاع غداً حكاماً شرعيين ونجد في مجالس القضاء مجالاً لإقرار ما نفيناه ونفي ما أقررناه.

وتكاملت قوى سعيد فخرج في مقاتلته من الجند المصري واليمني وأتراك الانكشارية [٣] وبعض القبائل الموالية بعد أن حصن بعض الجبال بالمدافع، ثم تقابل الفريقان في ذي طوى وخرج جماعات من شباب الأشراف المهاجمين يصولون بالسيف ويطلبون المبارزة ودام القتال أربعة أيام فبدا للشريف سعد أنه لا

---

(١) أهل الحارات كناية عن السوقة في كل حارة من أقسام مكة وكانوا ولا يزالون يسمون كذلك للتفرقة بينهم وبين الطبقة المتعلمة في كل حارة.

(٢) هو وادي «ذي طوى» بين مقبرة الحجون بالمعلاة وريع الكحل وتمتد فروعه إلى جرول.

(٣) الانكشارية فرقة أسسها ثاني سلاطين آل عثمان «أورخان بن عثمان» بطريقة خاصة فقد كان يأتي بالأحداث من أسرى النصارى فيربيهم على الإسلام تربية ينشؤون فيها على خدمة الدولة والعناية بحمايتها عسكرياً وكان السلاطين في ذلك العهد يوكلون إلى هذه الفرقة أهم نواحي الدفاع عن المملكة اعتماداً على ما يبثونه فيها من روح وقد تألفت الفرقة أول ما تألفت من ألف جندي ثم ما لبثوا أن نموا=

صبر له على قوة المهاجمين فاستنفر العامة في المسجد بجوار المحكمة عند باب السليمانية، وأوعز إلى الشيخ سعيد المنوفي من علماء مكة أن يخطب فيهم ليدعوهم لنصرته فما كاد الخطيب يفصح عن غرضه حتى هاج العامة ضده وحصبوه بحصى المسجد.

وأدرك الشريف سعيد أن لا أمل به في الظفر ورأى أن القوة المهاجمة تتكاثر فاستقر رأيه على مغادرة البلاد فغادرها ليلة ٢١ من ربيع الأول ١١١٦ وفي رواية عن الشيخ أبي السعود السنجاري أن الشريف عبد المحسن بعث إليه ليؤثث دار السعادة «وهي مكان رواق في المسجد اليوم بجوار أجياد» استعداداً لاستقباله فيها قال: وكان الشريف سعد «والد سعيد المهزوم» قائماً علينا يشرف على عملية التأثيث (١).

عبد المحسن بن أحمد الزيدي: ودخل الشريف عبدالمحسن في صبيحة الليلة المذكورة في موكب حافل يتقدمه الآلاي المصري! والتركي! ممن كان يحارب في صفوف سعيد!! فاتخذ طريقه إلى المسجد وبعد أن طاف بالكعبة قرئ مرسوم

= وتكاثروا وأصبحوا أصحاب كيان خاص في الدولة يعتزون به كما كان العثمانيون يباهون بهم ويرهبون بشدة بأسهم دول العالم وتربية الفريق على هذا النحو تقليد تعلمه أورخان من الروم أصحاب القسطنطينية فقد كانوا يعنون بأسراهم من أحداث المسلمين ويربونهم على النصرانية في قواعد خاصة وقد ظل فريق الانكشارية عماد العثمانيين في أهم نواحي دفاعهم زهاء خمسة قرون إلا قليلاً. حتى رأى السلطان سليم عام ١٣٠٣هـ أن حاجة العصر تدعو إلى تحسينات جديدة في الشؤون العسكرية فأسس نظامه الجديد الذي عصاه فيه الانكشارية ورفضوا قبوله احتراماً لما ورثوا من تقاليد واستطاعوا أن يثوروا ضده ونجحت ثورتهم فخلعوه في عام ١٢٢٢ وبايعوا مكانه السلطان مصطفى ولم يدم مصطفى أكثر من عام واحد ثم قتل وتولى السلطان محمود الثاني فما لبث أن أيد نظام العسكرية الجديد فاصطدم مع الانكشارية واستطاع في هذه المرة أن يبيدهم ويقضي على تاريخ فرقتهم.

(١) راجع خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٣٤ وما بعدها.

سلطاني يتضمن بأن السلطنة فوضت «صنجق جدة» سليمان باشا فاختار عبدالمحسن [1] ثم نهض الشيخ عبدالمعطي الشيبي فدعا للأمير بالتأييد ! وصوت المبلغ فوق قبة زمزم يؤمن على ما يقول ! ثم انتقل الأمير إلى دار السعادة يستقبل المهنئين ويستمع إلى قصائد الشعراء وزينت مكة ابتهاجاً بذلك ثلاثة أيام [2].

والذي يلاحظه المؤرخ أن تفويض السلطنة صنجق جدة ليختار من الأشراف ما يصلح للأمر ظاهرة جديدة لم يعرفها الأشراف قبل هذا العهد الذي نؤرخه، والغريب في أمر هذه السياسة أن جدة كانت تتبع إمارة مكة وكان ذلك يقتضي أن يكون صنجقها من رعايا الأمير في مكة ولكن أسلوب الأتراك في السياسة أسلوب له نوعه الخاص وقد يكونون معذورين بالنسبة للوضع الخاص بأشراف مكة.

عبد الكريم بن محمد بن يعلى : ولم يمكث عبد المحسن في الإمارة أكثر من تسعة أيام تنازل عنها لأحد الأشراف من ذوي بركات هو الشريف عبدالكريم بن محمد بن يعلى بعد موافقة الأشراف على ذلك وبذلك ساعد على خروج الإمارة من ذوي زيد إلى ذوي بركات وقد جرى مرسوم التنازل في حفل عام بالمسجد سجله القاضي وأخذ توقيع الأشراف بموافقتهم على ذلك [2].

سعد بن زيد للمرة الرابعة : وفي هذه الأثناء كان الشريف سعد بن زيد ترك الإمارة فاراً من المهاجمين - وهو والد سعيد - لايزال مقيماً في مكة لم يتعرض له المهاجمون فما لبث أن اشتبك في مشادة كلامية مع قائم مقام الأمير عبدالكريم ثم

(١) تذييل شفاء الغرام ٣٠٨.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

تطورت المشادة حتى غضب له بعض أقاربه فاشتبك القتال ثم تطور فوقعت الفتنة بين ذوي زيد وذوي بركات وبقية الأشراف فكان الظفر من نصيب ذوي زيد فأجلوا خصومهم عن البلاد ونادوا بإمارة سعيد بن زيد في ٦ شوال من السنة نفسها ١١١٦ وهي الولاية الرابعة له [١].

ويقول الدحلان: [٢] إن أول من ثار على عبد الكريم هو الشريف سعيد فقد اتصل ببعض القبائل «الحربية» في ديارهم فلم ينصروه فاتصل بقبائل من جهينة فنصروه فاحتل بهم ينبع وأخذ ما فيها من غلال الصدقة الخاصة بمكة ووزعها على من والاه ثم ما لبث أن وجه إليه أمير مكة مقاتلته فهزم جموعه في واقعة شديدة. وذلك في ١٤ جمادى الأولى ١١١٦ ثم يشير إلى حادثة سعد والد سعيد فيذكر أنه بعد أن أقام بمكة أياماً في عهد الحكومة الجديدة انتقل إلى المعابدة - ولعله أراد العابدية وهي غربي عرفة - ثم ما لبث أن اختلف مع الشريف عبدالكريم لامتناع هذا عن تخصيص نفقة له فجمع جماعة من الروقة وهم فرع من عتيبة شرقي مكة وأراد أن يهاجم بهم الطائف فصدته حامية فأخذ طريقه إلى مكة وفي الوقت الذي كان فيه ابنه سعيد يقوم بعدوانه في ينبع.

وانتهى سعد إلى مكان بالقرب من الجعرانة ثم انحدر مما يلي أذاخر حتى انتهى إلى القرب من المعابدة ولما شعر بقوة الدفاع كر راجعاً إلى الخرمانية فأدركته خيل الشريف عبدالكريم وقوة من الأتراك والمغاربة من عسكر الباشا واستمر القتال حتى جرت الدماء من الخرمانية إلى ريع أذاخر [٣] وقد اختفى سعد ثم ظهر في إلزيمة ومنها سار إلى شرقي الطائف واتصل ببعض قبائل

(١) كان الأمير عبدالكريم بن يعلى غائباً في اليمن في بعض أعماله في هذه الأثناء.

(٢) خلاصة الكلام ١٣٨.

(٣) الخرمانية وأذاخر جهتان في أعلى المعابدة، يزالان معروفين.

(أعمال غامد وزهران) وسعد للمرة الرابعة : واحتفل به في موكب حافل مشى فيه القضاة والعلماء الذين أفتوا بقتاله بالأمس !! وشرع المحتلون من غامد وزهران [1] وبعض القبائل يعيشون في مكة فنهبوا كثيراً من بيوتها حتى كانوا ينزعون الثياب من أجساد أصحابها وهاجموا كثيراً من البيوت وساموا الناس أنواعاً من الذل والإهانة فاشتد الذعر بالناس وأسقطت بعض الحوامل من هول ما يجري [2].

وبذلك كتب الشريف سعد في تاريخه الطويل صفحة من أحلك الصفحات سواداً في تاريخ مكة، وإذا كان لي أن أعجب فعجب من هؤلاء المتسلطين الذين ينسون في سبيل الظفر بمقاعد الحكم أخلاقهم ومروءتهم، ولا يبالون في سبيل أغراضهم أن يهتكوا أعراض المسلمين ويستحلوا دماءهم فيتنازلوا بذلك عن حظهم في الإسلام، وأعجب من هذا أن يجدوا في ذلك من يهنئهم بما أحرزوا أو يشيد بحميتهم وذودهم عن الإسلام.

وأبى أن يستسلم الباشا التركي لسعد وتحصن في بيته بقوة مدافعه فجمع سعد الناس في المسجد إلى اجتماع عام وبين لهم حجته فيما فعل، ثم سألهم ألست أحق بها وأهلاً لها؟!! فقالوا: نعم ! وأعادها مرة أخرى فقالوا: نعم !! فكلف كبارهم أن يتصلوا بالباشا ويقنعوه، وقد رضي الباشا بعد أن استكتبه حجة شرعية بما فعل [3].

(١) هما قبيلتان من أزد شنوءة يقترن اسماهما معاً دائماً وتشتركان في الديار وإمارتهما واحدة، قاعدتهما الباحة على مقربة مائتين وعشرين كيلاً جنوب الطائف على ظهر السراة . (ع).

(٢) خلاصة الكلام ١٤١، ١٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ١٤٣ .

عبدالكريم للمرة الثانية : ولم يدم سعد في إمارته إلا ١٨ يوماً ؛ لأن الأمير عبدالكريم الغائب في اليمن عاد في جموعه من بني عمومته وأنصاره من قبائل عتيبة وحرب [1] فهاجم مكة واحتلها في ١٧ شوال عام ١١١٦ بعد أن أجلى سعداً عنها إلى العابدية غربي عرفة حيث توفي بعد ذلك بأيام [2].

وحدثت في هذه الموقعة مقتلة شديدة لا تقل عن سابقتها قبل أسبوعين فقد استمر الظافرون يفتكون بخصومهم يومين كاملين حتى اكتظت الشوارع بجثث القتلى، وعجز الناس عن مواراتهم فصاروا يحملونهم على عجلات ويرمونهم من رواشن دار السعادة ثم يجرونهم جراً إلى حفرة كبيرة اتخذوها لدفنهم بالجملة، وجمعت الرؤوس فبني بها «رضم» في المعلاة فوق طنف السبيل الذي كان معروفاً هناك بسبيل السلطان مراد لتبدو عبرة لمن يعتبر من خصومهم [3]، ويعلم الله أنها لم تكن عبرة بقدر ما كانت شاهداً على قسوة بعض أصحاب السيطرة ومبلغ جبروتهم.

ذلك أن صنجق جدة سرَّه أن يظفر عبد الكريم بالنتيجة التي انتهى إليها فكتب محضراً بما حدث ثم استشهد فيه بخطوط العلماء والأهالي الذين تعبوا من التوقيع لكل منتصر، وطلب في نهاية المحضر نيابة عن نفسه وعن هذه الأمة

(١) تنزل عتيبة في شمال شرقي مكة كما تنزل قبائل حرب من الحمراء شمالاً وشرقاً وغرباً إلى عسفان. (ع): عتيبة: تنزل على بعد خمسين كيلاً شمال مكة ثم تمتد ديارها حتى تطيف بالطائف من الشرق والجنوب ثم تمتد على جانبي الطريق إلى مسافة تقرب من مائة كيل غرب الرياض. أما قبيلة حرب فتمتد ديارها من مر الظهران وجدة إلى ينبع والمدينة إلى قريب من العلا شمالاً. ثم تأخذ شرقاً إلى القصيم ثم إلى الدهنا، وإلى حدود العراق، ومنها فروع تمتد جنوب جدة إلى ما وراء دوقة.

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٨.

(٣) خلاصة الكلام ١٤٤.

الحائرة تأييد عبد الكريم وأرسل بذلك إلى مصر لتقديمه من طريقها إلى الباب العالي في إستامبول.

وكما كان صنجق جدة يميل لعبدالكريم كان صاحب مصر يميل إلى الطرف الثاني الذي فيه سعيد، ووالده سعد. لهذا أو لأنه على خلاف شخصي مع صنجق جدة رأى أن ما يؤخر ما كتبه جدة ويكتب غيره ليبين فيه أن عبدالكريم كان معتدياً على سعد وسعيد وأن العدل يقضي بتأييد سعيد في إمارة مكة [1].

وهكذا يبقى الباب العالي غافلاً عما يجري وراء الكواليس تاركاً أمور رعاياه إلى أكثر من مشرف ليصطرع المشرفون فينفذون أغراضهم كما أملتها عليهم أهواؤهم ويتركون مكة في تضاعيف ذلك تعاني من ويلات هذا الاضطراب ما يشيب لهوله الأطفال دون أن يكون للمسؤولين من العثمانيين مسلك ينفذ إلى صميم الواقع وتستقر عليه.

وهكذا شخص كتاب مصر إلى إستامبول ثم ترك كتاب جدة يأخذ طريقه في أعقابه ليصل متأخراً، وقد حدث ما أراده صاحب مصر فإن كتابه ما كاد يصل حتى صدر الأمر إلى مصر بإعادة الشريف سعيد بقوة السلاح ولا تسأل عما حدث في أثر ذلك فقد مضت الحملة العسكرية المصرية تحمل الأمر الجديد في ضجة اضطربت لها مكة وهاج لها الموسم وتواردت الرسل إلى عبدالكريم بأوامر العزل فنشط للبحث عن المتعبين بين المد والجزر من العلماء وأعيان الأهالي!! يجمعهم في المسجد ويهيب بهم: ألست صاحب الحق؟ ألست العادل الوحيد؟ ألستم راضين بولايتي عليكم؟ فيقولون: نعم. ثم... والله نعم... والواقع

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

أني لو كنت فيهم لقلت نعم كما يقولون؛ لأنها الكلمة الوحيدة التي تمليها قواميس السياسة الغاشمة في كل عصر.

ويقول الشريف عبدالكريم: إن العثمانيين أرسلوا سعيداً ليتولى عليكم فيهمهم الخاصة برفض الأوامر العثمانية ويصيح العامة على باب المسجد: إنه باطل. فتردد الأروقة صدى أصواتهم: باطل. باطل [(١)].

ويجتمع المتجمهرون ويلحق بهم المرتزقة في البادية ليمشوا في ركابه ما ظفروا وينقلبوا إلى خصمه أول ما تبدو بوادر الفشل.

وهكذا يلمع السلاح في اليوم الرابع من ذي الحجة في أيدي المدافعين على كثب من ذي طوى بينما يختلس بعض المصريين خطاهم إلى المسجد؛ ليبرزوا للقاضي مرسوم السلطنة بتولية سعيد ويعلنوا قراءته فيثور من في المسجد منادين بطاعة الخليفة بعد أن كان صائحهم ينادي أنه باطل فيضطرب المسجد وتسل السيوف من أغمادها ويصيح صائحهم: «ليخرج عبدالكريم من مكة.. أندبوا من يطرده من ذي طوى» [(٢)] فيحف الرسل من العلماء يرجونه التنحي لسعيد إلى انقضاء الموسم فيرفض المناصرون من حوله ويتفرق المرتزقة من الأعراب بحثاً عن ميدان جديد يرتزقون من صليل سيوفهم فيه.

وينطلق أهل الفساد والجائعون ليغتنموا فرصة النهب والسلب واضطهاد الحجاج والأهالي في سبيل الكسب، ويشتد الغلاء حتى إن أحدهم ليشتري كبشاً

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) المصدر نفسه. و«ذو طوى»: هو وادي العتيبة اليوم، وبئر طوى معروفة في جرول بين مستشفى الولادة والشيخ محمود. (ع).

في ذلك الموسم في عرفة بعشرة أحمر [1].

سعيد للمرة الرابعة : وهكذا ينحاز عبد الكريم إلى وادي مر ليترك الطريق لموكب سعيد آخذاً سمته إلى المسجد بين جماهير المهنئين ومدائح الشعراء والمنشدين يصطف أمامه علية القوم من المتعبين بين المد والجزر ، وبذلك تتم الولاية الرابعة لسعيد في ٦ ذي الحجة من السنة نفسها عام ١١١٦ .

ويظل الشريف عبدالكريم في وادي مر ثم ينتقل إلى العمرة في ١٥ ذي الحجة ثم يتصل بذي طوى فيشتبك في قتال شديد مع مقاتلة سعيد ويحتل الجزء الغربي الجنوبي من مكة إلى سوق الصغير لولا أن الحامية التركية تتقدمها فرقة الانكشارية تنجد سعيداً في اللحظة الأخيرة وتساعده على طرد عبدالكريم بعيداً عن مكة .

ويظل سعيد في مكة على هذه الفوضى نحواً من خمسة أشهر تعاني مكة خلالها من المصاعب والفتن وغلاء المعيشة ما لا يطاق، ثم تروج الإشاعات بأن مصر تلقت أمراً سلطانياً جديداً بعزل سعيد وتولية عبد الكريم فيتفاقم الاضطراب .

وليس في هذا من جديد ، فقد علمنا أن خطاب صنجق جدة الذي يطلب فيه تأييد عبدالكريم أخره القائد في مصر، وقدم غيره بتأييد سعيد ثم أطلق الثاني خلفه فجاءت الأوامر بتأييد سعيد كما أراد قائد مصر . ثم لحقتها أخرى بتأييد عبدالكريم بدله كما أراد صنجق جدة سليمان باشا [1].

القتال في المسجد : وانتهت الإشاعات إلى الشريف سعيد بمكة بقرب

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

وصول أوامر عزله فارتبك في أمره وعلم أنها دسيسة صنجق جدة، فثار غضبه ودفع عبيده وجنده ليحاصروا الصنجق في بيته بمكة، ثم أرسل إلى القاضي يطلبه استدعاء الصنجق ليقيم عليه الدعوى أمامه، فاعتذر الصنجق عن حضوره لاضطراب البلاد بالفتنة، فقبل القاضي عذره فثار مقاتلة الشريف سعيد في المحكمة وأطلقوا رصاصهم فيها وأساء بعضهم إلى القاضي ثم خرجت جموعهم إلى المسجد قاصدين الهجوم على بيت الصنجق بالقرب من باب الوداع فقابلهم أتباع الصنجق في رواق باب الوداع وتبادلوا وإياهم إطلاق الرصاص في المسجد، واشتد القتال حتى أظلم الجو من دخان البارود وازداد عدد القتلى في أرض المسجد وسطحه وبعض البيوت المجاورة له، وأبطلت لذلك خمس صلوات في المسجد (١) ثم اصطلح الفريقان في اليوم الثاني في مجلس القاضي.

ولم يمنع الصلح بقاء الارتباك في مكة؛ لأن الفوضى ظلت شاملة فيها وقد وافى بريد السلطان بعزل الشريف سعيد وتولية عبد الكريم في ١٨ من شهر رجب عام ١١١٧ فلم يضع حداً للفتنة؛ لأننا نرى أن الشريف سعيداً ظل يماطل بين القبول والرفض والتغافل وقد غادرها إلى مصر حيث أقطعه السلطان ما يكفيه فيها.

عبدالكريم للمرة الثالثة: وبمغادرة سعيد مكة دخل الشريف عبدالكريم بن يعلى في موكب حافل مشى فيه العلماء والأشراف، وبذلك تمت ولايته للمرة الثالثة (١).

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط»

وهكذا مضى عام ١١١٦ ونصف عام ١١١٧ ومسرح البلاد يعج بفتن المتسابقين ويصطخب بثوراتهم ويتعرض المسجد في تضاعيف ذلك الاشتباك بين المتقاتلين ويدوي رصاصهم فيه بين الأروقة وحول صحن الكعبة فيحول ذلك دون صلاة المصلين وتفترش جثث القتلى والمصابين أرضه .

وبعد بضعة أيام دعا الشريف عبدالكريم أشراف مكة إلى الاجتماع بحضور القاضي وخطب فقال ما معناه : « إني أرى أن تكليف البلاد بما يلزم لنفقاتنا الفادحة كان سبباً في هذه الفتن ؛ لهذا فإني أرى أن نأخذ أقسامنا في حدود الواردات ولا نطمع إلى ما يرهق البلاد ؛ وإن نصيبي في ربع الواردات يكفيني وأتباعي فاكتفوا بالأرباع الباقية ولا تطمحوا لغيرها وإني على استعداد للتنازل لأي شخص يستطيع أن يقوم بمهمات البلاد إذا كان يكفيه أقل من ربع الواردات» فقبل الأشراف منه وسجل القاضي موافقتهم [١] .

وبذل عبد الكريم جهده في تأمين السبل حتى أمنت وقد اعترض جماعة من هذيل[٢] سير البريد في طريق جدة فأمر بأن يشنقوا وعلقوا بين المعلاة والمسعى وسوق الصغير وكان عددهم أحد عشر شخصاً[١] .

والذي يلفت النظر أن الأمراء إلى هذا العهد كانوا يصدرون أحكامهم في مثل ذلك بدون مراجعة الباب العالي وأعتقد أنهم يستصدرون بذلك أمراً شرعياً من قاضي مكة وقد تغير الحال في العهد الذي يليه كما سيأتي .

واستقر أمر عبد الكريم بعد ذلك شهراً ثم وافته الأخبار بأن سعيداً هاجم

(١) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط» .

(٢) قبيلة لازالت في ديارها القديمة . انظرها في [معجم قبائل الحجاز] (ع) .

القنفذة [1] في جموع كثيرة واحتلها ، وأنه ماضٍ في طريقه إلى مكة فخرج عبدالكريم لملاقاته في جيش من الأتراك والعبيد، والتحم القتال بينهما قرب الحسينية فتفرق شمل سعيد.

وفي صفر عام ١١١٨ عاد سعيد إلى الظهور في الطائف بعد أن احتلها في جموع كثيرة فخف لملاقاته عبد الكريم وهزمه، واستأنف سعيد الهجوم في منتصف عام ١١١٩ فهزم مرة أخرى ثم استأنف هجومه على الحسينية بالقرب من مكة في أوائل عام ١١٢٠ فلم يوفق وانتقل القتال بعدها إلى مسجد نمرة والعابدية فلم يظفر سعيد وجاءت التوصيات من الخليفة تشدد في اليقظة لإقصاء سعيد فأرسل عبدالكريم يبلغه ذلك ويطلبه الارتحال فارتحل إلى اليمن.

هَدْمٌ وتوسعة : وفي هذا العام فكر رجال الحكومة في مكة وعلى رأسهم الشريف عبد الكريم في توسعة الشوارع؛ فندبت لجنة لذلك كانت تدور في الأسواق لتشرف على هدم الدكك الخارجة عن حدود الدكاكين والبيوت وإزالة المباسط من الأسواق وكذلك «الأشرعة» الظلل وقد استمر العمل على ذلك عشرة أيام [2].

وفي هذا العام حدث شجار يوم النفرة في عرفة بين رجال المحملَيْن المصري والشامي كل يريد السبق، ويذكر الدحلان أن السبق المعتاد للمحمل المصري وقد كادت الفتنة تقع لولا أن بعض أعيان الأشراف أدركوها بإيعاز من الشريف عبدالكريم.

(١) مدينة على الساحل جنوب جدة بما يقرب من (٣٠٠) كيل (ع).

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط».

وغزا الشريف عبد الكريم بعض قبائل مطير في عام ١١٢٢ فظفر بها .

سقوط عبد الكريم :وحدثت في هذا العام حادثة جاءت ذيولها على علاقة الشريف عبد الكريم بالعثمانيين فأسقطت حكومته .

ذلك أنه كان لأشراف مكة على حجاج الحسا إتاوة خاصة جرى بذلك العرف القديم لديهم ، وقد أراد أمير الحسا في هذا العام أن يماطل فيما جرى به العرف فاتصل بقائد العسكر التركي نصوح باشا فمنع الأشراف من التعرض له فشكا الأشراف أمرهم إلى الشريف عبدالكريم فبعث إلى نصوح باشا يمنعه من التدخل في شؤون بلده فغضب الباشا وتوعد ، فلما أتم الحج رحل إلى المدينة فتعرضت له قبيلة حرب فلم يخالجه شك في أنها دسيسة من عبدالكريم فاستكتب أعيان الحجاج في قافلته محضراً بالأمر وقدمه إلى إستامبول ثم أبدى رأيه في توجيه الإمارة إلى الشريف سعيد فوافق الباب العالي على هذا وأرسل مرسومه بذلك فوصل إلى المدينة في أواخر شوال عام ١١٢٣ (١) .

وكتب نصوح باشا من المدينة إلى قاضي مكة وصنجق جدة بالأمر وأطلق مناديه في المدينة بتولية الشريف سعيد فاضطرب أمر عبد الكريم وصمم على الدفاع وعصيان الأمر العالي فجاءته الأخبار بأن الشريف سعيداً وصل إلى الطائف بجموع حاشدة وأنه يتوجه إلى مكة فخرج لملاقاته فالتقى الجمعان في عرفة في ٢٢ ذي القعدة عام ١١٢٣ ، وجرى القتال بينهما طيلة اليوم ثم أصلح الأشراف بينهما على أن يبقى الشريف سعيداً بعيداً عن مكة إلى ما بعد أيام منى . إلا أن الشريف عبدالكريم ما كاد يقفل راجعاً إلى مكة حتى علم أنه نودي

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٦٣ .

بالشريف سعيد فأغراه بعضهم بأخذ الأمر عنوة، ولكنه رأى أن لا فائدة ترجى من ذلك فترك مكة واتجه إلى وادي فاطمة فأقام به وبذلك كان آخر عهده بإمارة مكة بعد أن تولى إمارتها ثلاث مرات كان مجموعها ست سنين وعشرة أشهر[١].

من أغنياء الهند : وفي أواخر عهد الشريف عبدالكريم وردت إلى مكة صدقة لفقراء الحرمين من الهند قدرها خمسة آلاف لكوك[٢] وقد وزعت بينهم فنال مكة من ذلك خير كثير[٣] ولا أدري لِمَ لم يفكر أغنياء الهند يومها في إنفاق مثل هذا المبلغ الضخم في إنشاء مشروع زراعي أو صناعي يعود على أهل البلاد بخيره الدائم . لا ريب أن المسلمين لو فعلوا هذا في عهودهم لكان لمكة شأن غير شأنها اليوم .

سعيد للمرة الخامسة : وعلم سعيد بخروج عبدالكريم فجاء إلى مكة واستقبل فيها في موكب حافل في أواخر ذي القعدة وأقبل أصحاب الحل والعقد من المتعبين بين مد السياسة وجزرها يمشون في موكبه مهنئين !! وبذلك تم الأمر للشريف سعيد للمرة الخامسة[٤].

واقتنع عبد الكريم بما حدث وعاد يطلب من سعيد السماح له بالإقامة بالحمية[٥] بالقرب من وادي مر فسمح له سعيد بذلك ثم رحل إلى ديار حرب فأقام بها مدة ثم سافر إلى مصر فاستمر بها إلى أن توفي بالطاعون في سنة ١١٢٣ واستقر سعيد في إمارته بعد الذي عانى من الشدة ودام أمره نحو ست سنوات .

(١) خلاصة الكلام للسيد الدحلان ١٦٣ .

(٢) اللك رقم يستعمل في الهند ومقداره مائة ألف .

(٣) تاج تواريخ البشر للشيخ سعيد الحضراوي

(٤) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

(٥) عين بمر الظهران شمال الحديبية ، عليها قرية ، وقد جفت العين قبل سنين ، ولكن الزراعة باقية على الآبار (ع).

وألم به في المحرم من عام ١١٢٩ مرض لم يمهله طويلاً ثم قضى عليه في الحادي والعشرين منه [١].

ومن غريب ما يذكر صاحب إتحاف فضلاء الزمن «مخطوط» أن الشريف سعيداً مرض في عام ١١٢٨ فجيء إليه بساحر يكشف له عن أمر مرضه فطلب الساحر إحضار عبد غشيم وكتب على جبينه شيئاً فصرع العبد فسأله الساحر عن أسباب المرض فقال: إن تكرونياً يسكن زاوية الجنيد كتب له سحراً ودفنه في بستان عينه فبحثوا عن ذلك فوجدوا لوحاً من رصاص مكتوب عليه، كما وجدوا بعض الأوراق والإبر والشعر فقضوا على التكروني فأقر أنها أعمال سحرية صنعها بطلب من آل بركات. فهل نوَّم الساحر العبد تنويماً مغناطيسياً كما يدعي أصحاب فن التنويم أم أن في الأمر شيئاً آخر؟

عبدالله بن سعيد: وبوفاته أجمع كافة الأشراف على تولية الشريف عبدالمحسن أحمد بن زيد كبير لأشراف ذوي زيد في عصره فلم يوافق على ذلك وعندما احتفل بتقليد الإمارة وضع باشا العسكر الخلعة على منكبه فأزاحها في لطف وقدمها لعبدالله بن سعيد نجل المتوفى ثم لاطف المجتمعين حتى قبلوا رأيه في اختيار عبدالله بن سعيد [٢].

علي بن سعيد: ولم يدم عبدالله فيها إلا سنة ونصف السنة ثم اختلف أمره فعادوا لعبدالمحسن بن أحمد بن زيد يرجونه قبول الإمارة فأصر على رفضه

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩.

(٢) كان لترقع عبد المحسن عن الإمارة وقع له أثره على نفوس الأشراف فقد أكبروا أمره على أثر ذلك وجعلوا يلتفون حوله في جميع مهامهم ويستمعون إلى رأيه في تولية من يريد، ويقول الدحلان: إن سيادته على الأشراف في عهده لم يتفق مثلها لأحد من الأشراف.

السابق فطلبوا منه أن يختار لهم أخاه مباركاً بن أحمد بن زيد فأبى ذلك على أخيه وقال : إذا أبيتم إلا أن أختار فإني أرى تولية علي بن سعيد أخي المعزول فقبلوا ذلك منه فتوجهت الإمارة إليه ولم يفكر فيها وفي ذلك يقول الحسين بن مطير من شعراء مكة :

وكم طامع في حاجة لا ينالها ومن آيس منها أتاه بشيرها

وبذلك نودي بعلي في ٢٧ جمادى الأولى عام ١١٣٠ [١].

تزاحم جديد : ووافق موسم الحج من ذلك العام ١١٣٠ فاجتمع الأشراف من ذوي بركات وغيرهم على نقل الإمارة من ذوي زيد إلى يحيى بن بركات واجتمع بعضهم إلى أمير الحج الشامي وحاولوه لمساعدتهم فقبل ذلك منهم ثم سأل عن عبدالمحسن بن زيد ليستشيره في ذلك فعلم أنه مقيم بالحسينية[٢] فكتب إليه يسأله عن رأيه فلما وصله كتاب أمير الحج رأى أن بعض الأشراف يميل إلى أخيه مبارك ابن أحمد بن زيد ولعله أنس بميل أخيه إلى الموافقة فاستشاط لذلك وقال جملته التي تستحق الخلود وفيها : «إنه ليس بعد الولاية إلا انتظار العزل وإذا صار العزل غدوت مطروداً في جميع الطرق والمسالك».

ثم ما لبث أن شارك في اجتماع الأشراف حتى وقع الاختيار على كبير آل بركات «يحيى بن بركات» فكتب عبدالمحسن إلى أمير الحج بذلك [٣] فكان لما كتب وقع كبير لدى أمير الحج وجميع الأشراف من آل بركات ؛ لأن شريفاً مثله

(١) خلاصة الكلام ١٦٩ .

(٢) الحسينية مزرعة تقع في جنوب مكة على نحو ١٢ كيلو منها ، تنبع من وادي عرفة ، وهي اليوم ملك الأشراف ذوي زيد .

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٠ .

من آل زيد إذا شايع نقل الإمارة إلى آل بركات فإن في ذلك ما يستحق الإكبار .

يحيى بن بركات : ونوديَ بالشريف يحيى بن بركات أميراً على البلاد في ٦ ذي الحجة عام ١١٣٠ فغادرها على الفور علي بن سعيد دون أن يبدي مقاومة وكانت ولايته لا تتجاوز مدتها بضعة أشهر [١]

واشتهر يحيى باليقظة ، فقد ذكر أنه كان يشارك العسكر في أعمالهم طوال الليل حتى يؤذن الفجر فيصلي جماعة في المسجد الحرام حتى إنه لم يترك ذلك ليلة زواجه [٢] .

وبالرغم من ذلك فإنه ما لبث أن استؤنف النزاع بين ذوي بركات وذوي زيد وقد أصر ذوو زيد على مناهضة الحكم الجديد حتى يظفروا بالإمارة لأنفسهم ، وقد فعلوا هذا على أثر تقلده الحكم بزمن قصير واستمروا عليه طوال سنة ١١٣١ وبعض سنة ١١٣٢ وساعدهم على هذا موت عبدالمحسن بن زيد في هذه الأثناء وقد استطاعوا قلب الإمارة وإعلان الحرب ضد الأمير فأجلوه عن مكة واستولوا عليها [٣] .

مبارك بن أحمد بن زيد : وباستيلائهم عليها اختاروا أخا عبدالمحسن بن زيد -مباركاً- فنادوا بإمارته في عام ١١٣٢ فظل على ذلك بقية العام وبعضاً من سنة ١١٣٣ ثم استأنف الخلاف سيرته بين أنصاره من ذوي زيد وخصومه من ذوي بركات فتألب الخصوم ضده ، وكانت حجتهم أن مباركاً لا يفيهم حقوقهم وظلوا على تألبهم زمناً غير يسير ثم زحفوا مهاجمين إلى مكة فخرج مبارك للقائهم في شوال عام ١١٣٣ وقد حمل عليهم حملة صادقة ففرّقهم ثم صالحهم على أن

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط» .

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

يوفيهم حقوقهم [1].

فتنة أغوات المدينة : وفي عهد مبارك ثارت فتنة بين أغوات المدينة ورجال حاميتها من العسكر ذلك أن رجلاً من توابع الأغوات أراد الانخراط في سلك الجندية فحيل بينه وبين ذلك ؛ فغضب لأجله أغاوات المسجد ، وأغلظ بعضهم القول لرجال الحامية فثارت الفتنة وتحصن الأغاوات بالمسجد ، فأراد قاضي المدينة أن يتوسط للصلح فامتنع الأغاوات من الحضور إلى المجلس ، ولعلهم خافوا من ذلك فاعتبرهم القاضي عصاة للشرع وأمر بقتالهم في المسجد فقاتلوهم فيه ، وبذلك عطلت صلاة الجماعة ثم ما لبث الأغاوات أن طلبوا الأمان فأبى رجال الحامية إلا بتقديم كبارهم إلى مكة ليرى الشريف مبارك رأي الشرع فيهم ، فقبلوا ذلك وتقدم من كبارهم خمسة أو ستة أشخاص اعتقلتهم الحامية وأرسلتهم إلى الشريف في مكة ، فثبت إدانتهم لديه فكتب إلى الخليفة بذلك ، فجاءت الموافقة بعقوبة بعضهم ونفي الآخرين .

وأراد الأغاوات أن يثأروا لأنفسهم فاتصل بعضهم بعاصمة الخلافة في تركيا ، وأقنعوا المسؤولين بأنهم كانوا مظلومين وأن أسباب الفتنة كانت سعاية أهل المدينة وعلى رأسهم عبدالكريم البرزنجي وكان من جماعة علمائها ، فصدر الأمر بقتل المذكور وبعض المتهمين معه ففر البرزنجي إلى جدة .

المظلوم في جدة : وقبض حاكم جدة على عبدالكريم البرزنجي ونفذ فيه حكم الإعدام شنقاً ثم تركه مسجى في بعض الشوارع ، حتى توسط له بعض المقربين ودفنوه في الجهة التي تسمى اليوم باسمه «حارة المظلوم» نسبةً إليه [2].

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٣ وما بعدها .

يحيى بن بركات للمرة الثانية : واستقر أمر الشريف مبارك بن أحمد بن زيد في مكة كما يبدو إلا أن دار الخلافة ما لبثت أن أثارت النزاع ، فالأمير المعزول يحيى بن بركات استطاع في عام ١١٣٤ أن يتصل بالخليفة في دار السلطنة ويرجوه تأييده فلم يستطع الخليفة أن يخيب ظنه فأمر بتعيينة في الإمارة متغافلاً عن وجود الأمير مبارك الذي يتولى حكمها بمرسوم صحيح . . تغافل عن كل هذا وأمر بأن تدعم أوامره الجديدة بقوة أمراء الحج الشامي والمصري العسكرية (١) وبذلك أثار الفتنة التي كانت نائمة وأباح الفرصة للمتقاتلين لتشتبك أسلحتهم في زحام الموسم أيام الحج .

وهكذا انتهى الأمير الجديد إلى مكة فوصلها في عسكر جرار في ٦ ذي الحجة عام ١١٣٤ وقد قاومه مبارك ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وفي مقاومته شيء من معاني الرفض لأوامر الخلافة هيأهم الخليفة لها .

وبذلك تم لآل بركات العودة إلى الإمارة في شخص يحيى بن بركات وهي الولاية الثانية له (١) .

بين ذوي زيد وذوي بركات : ولم يستقر الأمر ليحيى بن بركات ؛ لأننا لا نلبث أن نجد أن الأمير المهزوم مباركاً الزيدي يعتصم في أطراف الطائف بمكان يسمى جرجه(٢) بين وادي لية وبلاد ثمالة ، ولعل يحيى أراد أن يرهبه فعامل أتباعه من ذوي زيد بالعنف وأبعد كثيراً منهم وأراد أن يهدم قصر إمارتهم «دار السعادة» فلم يتهيأ له ذلك .

---

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

(٢) هكذا وردت في خلاصة الكلام ١٧٥ وأوردها الغازي في إفادة الأنام «جرجيه» .

واستفاد مبارك من شدة يحيى وضم إليه في جرجة (١) جميع الأشراف المبعدين والهاربين، واستعان بكثير من قبائل ثقيف وبجيلة وناصرة وبني سعد واتخذ له حصناً شاهقاً لبعض بني ثقيف في جرجة وظل مقيماً فيه ينظم أموره للهجوم.

واستعان يحيى بعساكر الأتراك وحامية جدة وسار بهم نحو الحصن ففر أصحاب الحصن فعاد يحيى منصوراً واستأنف الشدة مع بقية المقيمين بمكة من ذوي زيد وبعض الأشراف من غيرهم وبعض الأهالي ممن آنس ميلهم إلى مبارك فاضطربت الأحوال في مكة واشتد الغلاء وكثرت حوادث السطو وفر من استطاع الفرار إلى نواحي الطائف، فشجعوا يحيى على المسير فاستأنف جميع القبائل وسار بهم إلى الطائف فاحتلها في شهر رمضان عام ١١٣٥ (٢).

وفي هذه الأثناء توسط بينهم بالصلح الشريف محسن بن عبدالله «وهو جد الأشراف من ذوي عون العبادلة» وحكم على يحيى بن بركات أن يدفع للأشراف من ذوي زيد غلة شهر كامل كترضية لقاء هدوئهم فقبل الطرفان واستقر الحال بعض الاستقرار.

ثم ما لبث أن عاد الأمر إلى الاضطراب في أواخر عام ١١٣٥ فأشار بعض رجال الدولة التركية في موسم الحج على يحيى أن يتنازل عن الأمر لابنه بركات

(١) لا يعرف هذا الاسم والمعروفة «الحرجة» بالحاء المهملة: وادٍ يصب في كلاخ من الجنوب، بين صلاء ومظللة، على قرابة ٣٥ كيلاً جنوب الطائف.
وحرجل: أوله حاء مهملة أيضاً: وادٍ ذو فواكه على ٣٠ كيلاً جنوب غربي الطائف يسيل من جبل قرنيت ويدفع في لية (ع).

(٢) إتحاف فضلاء الزمن للطبري المكي «مخطوط»

ويستقل بوظيفة مشيخة الحرم [1].

بركات بن يحيى : فأعلن الأب تنازله في ذي الحجة عام ١١٣٥ [2] إلا أن ذلك لم يخفف من حدة الاضطرابات؛ لأن الأشراف أدركوا أن التنازل أضاع عليهم استحقاقاتهم المنقطعة لدي يحيى كما أدركوا أن بركات يستمد آراءه في الحكم من أبيه؛ لهذا ما عتموا أن أعلنوا سخطهم وانحاز الشريف محسن «جد آل عون العبادلة» إلى الساخطين وانضموا جميعاً إلى الشريف مبارك الزيدي فسار بجموعهم إلى مكة لاحتلالها فخرج إليه بركات ووالده في جموع غفيرة من عساكر الترك والتقى الجمعان من المنحنى بالقرب من المعابدة في ١٢ محرم عام ١١٣٦ وقد استبسل الأشراف وأوقعوا بالترك في مقتلة عظيمة لم يُسْمَع بمثلها حتى امتلأت أعالي مكة بجثث القتلى منهم واستمر الهجوم عدة ساعات تم النصر فيها لذوي زيد فاحتل مكة مبارك بعد أن فر بركات إلى وادي مر ثم توجه هو ووالده إلى الشام حيث توفيا فيها [3].

مبارك بن أحمد : وبذلك تمت الولاية لمبارك بن أحمد الزيدي للمرة الثالثة وقد احتفل بمراسمهم المعتادة وباستيلائه على الإمارة تمكنت لذوي زيد فيها نحواً من خمسين سنة، واستقر أمره أيامه الأولى وهدأت الأحوال بعض الهدوء وأمنت الطرق بعض الأمن ثم ما لبث أن اختلف مع بعض أبناء عمومته من ذوي زيد عبدالله بن سعيد أحد أمراء مكة السابقين . . كما اختلف مع «الشريف محسن آل عون العبدلي) فعاد اضطراب الأمن وقد كتب الأول إلى الخليفة

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٧ .

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٨ .

يعرض بمبارك ويذكر أنه أثخن في قتل الأتراك عند هجومه على مكة فعاد الجواب السلطاني بعزل مبارك عن الإمارة وتولية عبدالله بن سعيد الزيدي كما لو كانت الولاية رهن خطابات صادرة وأخرى واردة .

وحمل عبدالله بن سعيد خطاب توليته إلى قاضي مكة وطلب إليه تسجيله وإعلانه فتوقف القاضي ثم أذعن للواقع عندما شجعه على ذلك محسن جد آل عون [1] .

عبدالله بن سعيد بن سعد بن زيد : وهكذا نودي بالأمير الجديد في ١٥ جمادى الثانية عام ١١٣٦ وخرج في موكبه إلى سويقة فاتصل خبر ذلك بالأمير القديم فنشط في قصره للدفاع ولكن محسن العبدلي عرف كيف يؤكل الكتف ؛ لأنه استطاع أن يؤثر فيه ويقنعه بترك الإمارة بدون قتال فأودعه بيته وأهله ثم خرج إلى بركة ماجل في المسفلة في طريقه إلى الحسينية ومنها توجه إلى اليمن ولم يعد إلى مكة مرة أخرى ولم تدم ولايته هذه إلا خمسة أشهر [2] .

واستمر عبدالله بن سعيد بن زيد مدة طويلة قاسى في أوائلها بعض الشدة فقد أبطأ في صرف حقوق الأشراف بعد توليته بعدة شهور لقصر ذات اليد فاشتد لغطهم في مكة وطلبوا محاكمته لدى القاضي ثم تطور الأمر ونشب القتال بينه وبينهم في ٢٥ ذي القعدة من السنة نفسها ١١٣٦ وتحصن جماعة من الأشراف في دار الرحمة المعروف لآل بركات واشتد إطلاق النار وامتنع الأتراك عن مساعدته ثم ساعدوه حتى انتصر على الثائرين ففروا إلى بئر ذي طوى وأقاموا فيه

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٧٩ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ١٨٠ .

فخرج لترضيتهم فامتنعوا عليه ثم اجتمعوا بأمير الحج الشامي فتوسط للصلح بينهم واستطاع عبدالله بن سعيد أن يثبت له أن واردات مكة لا تكفي لمقررات الأشراف فاقترح أمير الحج الشامي إنقاصها وعقد بينهم إتفاقاً على ذلك .

وتعقب عبدالله بن سعيد بعض المناوئين الذين انضموا إلى فتنة الأشراف من الأهالي فاعتقل فاتح بيت الله الحرام محمد بن عبدالمعطي الشيبي وألزمه بيته وفرض عليه غرامة كبيرة وولى منصبه أحد بني عمومته وفعل مثل ذلك في علاّمة عصره شيخ الحديث الشيخ سالم البصري وفي عالم آخر تركي[١] .

ضريبة على التجار : واستحدث الشريف عبدالله ضريبة جديدة على أعيان التجار في مكة وبعض المترددين من تجار الحجاج واتخذ لهم سجلاً خاصاً يؤدون بموجبه ضرائبهم ؛ فأثر ذلك في أسعار الحاجيات وارتفعت الأسعار وعم الناس بعض الكرب في عام ١١٣٦ و ٣٧ وقد انتهت أخبار ذلك إلى السلطنة فكتبوا إليه بتخفيف ذلك فامتثل للتخفيف ، وبنى لنفسه داراً في جبل أبي قبيس ليتحصن بها عند الطوارئ وقد سمي ببيت النار وكان قائماً بجوار الصفا ثم هدم لتوسعة الشوارع .

ونشب خلاف جديد بينه وبين محسن العبدلي فولّى الأخير مغاضباً إلى الطائف وجمع جموعه لمقاتلته إلا أن عبدالله خاف مغبة الأمر فأرسل يسترضي الغاضب وبذل له ولأعوانه في الطائف ما أرضاهم وأصلح أمرهم في أوائل عام ١١٣٨ .

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٨١ .

انتقلت العدوى إلى بعض الأشراف فغاضبه بعضهم ثم صالحوه وغاضبه آخرون ثم صالحوه واستمر معهم على ذلك إلى نهاية عام ١١٣٩ .

واستقر أمره بعد ذلك فشاع الأمن وصلحت الطرق وأطاع له الأشراف بعد أن حمدوا له مواساته لهم وعدله بينهم وعم الرخاء جميع البلاد ونستطيع أن نستنتج أنه كان نشيطاً في دعوته لبلاده وأنه كان يندب مبعوثيه إلى الأقطار في سبيل تحسين الصلات .

وظل في إمارته سبع سنوات ونصف السنة ثم اعترته بعض الأمراض فتوفي في ١٥ ذي القعدة عام ١١٤٣ ودفن في موضع يقابل قبر الشيخ محمود بن أدهم الذي كان معروفاً أمام بازان جرول [١] .

محمد بن عبدالله : وبوفاته قام أحد إخوته مسعود بن سعيد بالدعوة لابنه محمد بن عبدالله وكان غائباً في اليمن ولعله كان مبعوثاً لتحسين علاقات الجوار فنودي به في مكة وسجل لدى القاضي ثم أرسلوا من يستعجله فلما حضر في ٢٩ ذي الحجة تولى الحكم [٢] .

محنة الشيعة : وفي عهده حدثت نكبة على الشيعة اعتقد أنها إحدى النكبات التي يتلظى المسلمون بسعيرها كنتيجة للتعصب وسوء الفهم بينهم وبين إخوانهم من أهل السنة، فقد وصلت قافلتهم متأخرة عن ميعاد الحج في عام ١١٤٣ فأقاموا في مكة لحضور الحج في عام ١١٤٤ فزعم بعض العامة أنهم

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد الزيني دحلان ، (ع) لازال موضع قبر الشيخ محمود معروفاً، وبجواره مكان يسمى (القبة) فلعله كان قبر الشريف عبدالله .

(٢) تذييل الشيخ عبد الستار الصديقي ٣٠٩ .

وضعوا نجاسة في الكعبة المعظمة وثاروا لذلك، وثار بثورتهم العسكر وقصد الثائرون القاضي فهرب خوفاً من فتنتهم ، ثم قصدوا إلى بيت المفتي فأخرجوه من بيته كما أخرجوا غيره من العلماء ذوي الهيئات واجتمعوا عند وزير الإمارة وطلبوا إليه إقامة الدعوى دون أن يعينوا خصماً معلوماً ثم استطاعوا بتألبهم أن ينتزعوا أمراً من الوزير بإبعاد الشيعة من مكة وخرجوا إلى السوق ينادون بطردهم ونهب بيوتهم وذهبوا في اليوم الثاني إلى بيت القاضي وطلبوا منه أن يتوسط لدى أمير مكة في التصديق على أوامر الوزير التي بأيديهم إبعاد الشيعة فامتنع الأمير ثم ما لبث أن اضطر إلى مجاراتهم خوف الفتنة العامة .

وهكذا خف بعض الشيعة إلى الطائف وبعضهم إلى جدة ومكثوا مدة على ذلك حتى هدأت الفتنة واستطاع أمير مكة أن يقبض على دعاتها ثم أرسل إلى الهاربين فعادوا إلى مكة [١] .

وينقل الدحلان عن تاريخ الرضي أن ماحدث كان نتيجة لتعصب بعض أراذل الناس والأتراك وأن أهل مكة الحقيقيين لم يكونوا راضين عن ذلك ، وإني لا أميل إلى اتهام أشخاص معينين بقدر ما أميل إلى نعي الجهل المتأصل في عامة المسلمين من جميع الأجناس والمذاهب ، وقد كان ولايزال سبباً قوياً من أسباب تفرقة المسلمين وتشتيت كلمتهم .

وظل محمد بن عبدالله على أمره نحو سنة كان يشرف فيها على أعماله عمه مسعود ؛ لأن محمداً كان كما يبدو شاباً لم يتركز بعد ولم تصقله التجارب فقد كان سنه لا يزيد عن العشرين [٢] .

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٨٤ .

(٢) تذييل الشيخ عبدالستار الصديقي ٣٠٩ .

ثم مالبث أن اختلف مع عمه مسعود وخرج على أشرافه فحل العداء بينهما على الصفاء ووقعت على أثر هذا حادثتان كان فيهما ما يدل على قسم كبير من عدم التركيز ونقصان التجارب وقد أثارت الحادثتان الخلاف بينه وبين الأشراف وألبتهم ضده وجمعتهم على عمه مسعود.

وتتلخص الحادثة الأولى في أنه ضاق بشريف من آل بركات فأمره بمغادرة مكة فلم يمتثل والتجأ ببيت الشريف عبدالعزيز من آل بركات فكرر عليه الأمر بالخروج فتوسط آل بركات، ليمهله إلى الليل فأبى وأقبل بروح الشاب المتحمس يحيط بالبيت الذي ينزل فيه بخيله وأجناده ويأمر بإطلاق الرصاص على نوافذه وقد أصاب رصاصه بعض الأشراف المجتمعين فتواثبوا للفتنة لولا أن تدارك الأمر بعض الأشراف وبذلك عاد الشريف محمد إلى داره.

واجتمع الأشراف على أثر ذلك في دار عبدالمحسن العبدلي وأشار بعضهم بالثورة إلا أن عبدالمحسن رأى أن يعرضوا على الأمير استرضاء أصحاب البيت المهاجم على قواعدهم المعروفة فندبوا من عرض عليه تقديم خمسة وعشرين من جياد الخيل ومثلها في العبيد وستين من الإبل وأن تمضي في أعقاب ذلك البيت المهاجم معترفاً بخطئه معتذراً عما حدث.

وقبل الأمير حكم الأشراف وقام به كما طلبوا، وبذلك يستطيع المؤرخ أن يستنتج أن الشريف محمداً كان محكوماً لأعصابه في إقدامه على هجوم البيت ثم تراجعه وخضوعه للحكم القاسي الذي فرضه الأشراف.

وتتلخص الحادثة الثانية في أن عبداً لأحد كبار الأشراف قتل أحد أولاد الشيخ أبي بكر الحنبلي ثم اختفى في بيت سيده، وبينما الأمير ماراً في جملة من عبيده إذ لمح الشخص المطلوب جالساً في جملة من عبيد الأشراف في ردهة بيت سيده

فأمر عبيده بالقبض عليه ففر وأصحابه ولاذوا بالبيت، فلما أحس سادتهم بذلك خفوا إلى نجدة عبيدهم وأوقعوا بالسيوف في عبيد الأمير فرجع الأمير إلى داره واستحضر بعض العسكر ثم استأنف عودته للمنزل لمهاجمته ومن فيه من الأشراف [1].

وفي هذا ما يستحق الملاحظة لأن الشريف محمداً وهو يعلم نفوذ البيوت الكبيرة من الأشراف في مكة واعتدادهم بحصانتها المقررة في قواعدهم القديمة كان يمكنه أن يلزم صاحب البيت بإحضار القاتل دون أن يعرض مركزه لما لا يستطيع دفاعه ولكن حماس الشباب الذي لم يتركز بعد.

وقد أسعف الموقف في اللحظة الأخيرة بعض كبار الأشراف فيهم عبدالمحسن العبدلي فاستطاعوا أن يثنوا الشريف محمداً عن مرماه وأن يطفئوا الفتنة.

إلا أن جذورها ظلت تستعر فيما خفي من نفوسهم حتى عادت إلى الاشتعال فتألب الأشراف على اختلاف بطونهم للدعوة ضده واجتمعوا على تأييد عمه مسعود، ورأى مسعود أن الفرصة قد سنحت لضرب ابن أخيه ضربة قاضية فانسل هارباً إلى الطائف وانسل في أعقابه بعض الأشراف وقد استطاعوا إجلاء حاكم الطائف والمناداة فيها بالثورة بعد أن استمالوا القبائل من ثقيف وقريش وغيرهم.

وعلم محمد بالأمر فخرج في جيش من العساكر لملاقاتهم حتى إذا انتهى إلى قرن المنازل [2] بلغهم أمره في الطائف فتركوا طبولهم تدوي في ضواحي الطائف ونيرانهم تشتعل ليوهموا ببقائهم فيها ثم انسلوا من طريق آخر إلى الثنية من طريق السيل ثم إلى عرفة ليدخلوا مكة على غرة منه.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ١٨٥.

(٢) هي قرية السيل الكبير بالقرب من الطائف.

وعلم بحيلتهم فتبعهم من طريق آخر وأدركهم بعد خروجهم من عرفة فاشتبك القتال اشتباكاً عنيفاً ، وتفرق رجال القبائل فانفرد الأشراف بمواجهة رصاص العسكر واعتمدوا على سيوفهم حتى هزموا الشريف محمداً ففر إلى الحسينية وانحاز عساكره بسلاحهم وطبولهم إلى عمه مسعود وبذلك دخل مكة ظافراً ونودي به أميراً على البلاد في يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١١٤٥ بعد أن حكم سلفه نحو من سنة ونصف السنة [١].

مسعود بن سعيد : ولم يستتب الأمر لمسعود إلا نحو ثلاثة أشهر ؛ لأن الشريف محمداً المهزوم ما لبث أن غادر الحسينية متجهاً إلى الجنوب حتى انتهى إلى المخواة[٢] ثم تنكب ذروة سراة بجيلة حتى وصل إلى الطائف واستطاع في الطائف أن يجمع القبائل من ثقيف وغيرها من حوله فعلم بالأمر عمه مسعود فخرج في جموعه لملاقاته فتراجع محمد إلى المثناة [٣] وانحاز إلى جبال شاهقة فلما دنا جيش عمه مسعود من السهول المنبسطة حول الجبال أمطرهم المتحصنون وابلاً من الرصاص قضوا فيه على أغلبهم ، وقد فر مسعود وتعقبه محمد ولم يترك له فرصة لجمع شمله فأوغل في البادية لينجو بنفسه ، وبذلك عاد محمد إلى مكة ودخلها ظافراً ونودي فيها بإمارته للمرة الثانية وذلك في شعبان سنة ١١٤٥ [٤].

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة : بلدة كبيرة بتهامة زهران ، تبعد عن الباحة بمرحلتين ، وهي المركز الإداري الثاني في تهامة زهران (بلاد غامد وزهران لعلي السلوك الزهراني ص ٢١٧).

(٣) المثناة من ضواحي الطائف.

(٤) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط»

محمد بن عبدالله للمرة الثانية : واستتب الأمر بقية عام ١١٤٥ وشيئاً من عام ٤٦ ثم تلاحقت النكبات بساحته ابتداءً من الحادثة التالية :

بينما كان سردار فرقة الانكشارية يقضي يومه في نزهة مع أهله بأحد البساتين في أعلى مكة في ٢٠ ربيع الأول ١١٤٦ إذ جرت ملاحاة بين عسكري من اليمنيين أتباع الشريف محمد وبين انكشاري من أتباع السردار المذكور وتطور الأمر فوثب الانكشاري على اليمني وقتله فنادى منادي اليمنيين بأخذ الثأر فتجمهروا حول البستان وأطلقوا رصاصهم وعلم الشريف محمد فخف إلى مكان الحادث فلما أحس السردار بقربه فتح نافذة ليطل عليه فأخذته رصاصة أحد اليمنيين ما لبث أن مات على أثرها فعم الخطب واشتدت الأمور وتنادى عساكر الانشكارية لأخذ الثأر وساعدهم العسكر المصريون المقيمون في مكة وقد تجمعوا في سويقة وتحصنوا في بيوتها وسدوا منافذ أزقتها وجعلوا منها متاريس وشرعوا يطلقون الرصاص فندب الشريف محمد إليهم من يعالجهم بالحسنى فاستعصوا على ما طلب فأرسل إلى حاكم جدة ليعالج الأمر فلما حضر أبى الثائرون أن يستمعوا إليه في شأن، فطلب إليهم الخروج إلى جدة والانتظار فيها إلى أن يصل حكم السلطان في ذلك فقبلوا إلا أن ضباطهم مالبثوا أن نادوا في جدة بسقوط الشريف محمد وتولية مسعود ثم كتبوا إلى الشريف مسعود وكان يقيم في خليص [1] ليهاجم مكة وأرسلوا إليه بكثير من الميرة والأموال فتشجع الأمير مسعود وتآلف القبائل حوله بما وصل إليه من الأموال ثم توجه فيمن جمع إلى مكة فعسكر في الحديبية «الشميسي» وانضم إليه عسكر جدة، ثم انتقلوا إلى أطراف مكة ففرق الشريف

---

(١) خليص شمالي عسفان على ٢٠ كيلاً.

محمد شملهم فعاد العسكر إلى جدة، ورابط مسعود في خارجها استعداداً لاستئناف القتال فلما علم محمد بالأمر توجه بمفرده إلى جدة واتصل بعض الموالين للشريف مسعود من الأشراف بألف أحمر يسترضيه بها فقبضها مسعود واستعان بها في الرحيل إلى الطائف حيث استأنف تجميع القبائل ثم ما لبث أن هاجم مكة بما جمع فقاتل الشريف محمد في ضواحيها قتالاً عنيفاً حتى هزمه ففر محمد إلى الحسينية وبفراره دخل مسعود مكة ظافراً ونودي له بالإمارة للمرة الثانية في ٧ رمضان عام ١١٤٦ [١].

مسعود بن سعيد للمرة الثانية : واستقر الأمر لمسعود بعد هذا واستطاع أن يحتفظ بحكمه قوياً نحواً من عشرين سنة أثبت في أثنائها كفاءته لإدارة البلاد واستطاع أن يسوس الأشراف والأهلين سياسة حكيمة وأن يغيد ابن أخيه ومنافسه الشريف محمداً إلى مكة ويشمله بطيبته بعد أن جاب البادية خمس سنوات وقد تمتعت البلاد في عهده بنصيب طيب من الطمأنينة والهدوء وعمها رخاء شامل[١].

إلا أن ذلك جميعه لم يكن ليحول دون بعض الفتن التي كان لا يخلو منها زمان في مكة فقد ثار في عهده بعض بني حسن [٢] في جنوب البلاد وقطعوا طريق التجارة وثارت قبيلة البقوم شرقي الطائف فندب لقتال الأولين ابن أخيه محمداً فعاد ظافراً بعد أن أمن البلاد كما ندب للبقوم غيره فاستسلموا لحكمه.

---

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي ٣١٠.

(٢) ينسبون إلى الحسن بن عجلان بن رميثة ولا يزال أعقابهم إلى اليوم.

لعن الرافضة :

وفي عهده نودي بلعن الرافضة فوق المنبر وذلك لأن نادر شاه ملك العجم خرج على العثمانيين واستولى على بعض ممالكهم في العراق، ثم أرسل إلى الأمير مسعود رجلاً من أئمة علمائهم يصحبه كتاب يقول فيه، إننا قد اتفقنا مع الخليفة العثماني على الدعاء لنا على منبر مكة، وأن يظهر مذهبنا الجعفري فيها، وأن يصلي إمامنا في المسجد بجوار المذاهب الأربعة، وقد توعد في كتابه فاشتد أمر ذلك على الشريف مسعود وعم الاستياء مكة واضطربت الآراء في شأن ذلك وأرسل الوزير التركي في جدة يطلب إلى الشريف أن يسلمه الرسول ليقتله فامتنع الشريف عن تسليمه وقال: إني سأحافظ عليه إلى أن أكتب إلى دار الخلافة وأتلقى جوابها فيما تأمر فلم يرض الوزير عن هذا الاقتراح ولعله آنس من الشريف ميلاً إلى المذهب الجعفري وشعر الشريف بحرج موقفه ولعله بلغه أنهم باتوا يشيعون عنه ذلك فأمر بلعن الرافضة فوق المنابر وذلك سنة ١١٥٧ ليتحاشى ما اتهم به.

وفي السنة نفسها وصل إلى مكة جواب الخليفة بتسليم الإمام الجعفري إلى أمير الحج ليعود به إلى الخلافة في تركيا فسلمه إليه [١].

محاربة الدخان:

وفي عهد الشريف مسعود اشتد النكير على الدخان فحاربه علماء مكة وأصدر مسعود أمره بمنع التظاهر بشربه في الأسواق والمقاهي، وأمر حاكمه في الأسواق بعقوبة كل من يشربه، فكان الحاكم يتعقب الناس في جميع الطرقات

(١) خلاصة الكلام للدحلان ١٩٣ .

تنفيذاً للأوامر، فكانوا يعقدون مجالسهم في بيوتهم ليتعاطونه، وقد قيل: إن الشريف مسعوداً كان يعتقد تحريمه كما قيل: إن الدافع إلى ذلك هو تبذل الناس وتجاهرهم به في المجالس أمام كبار القوم وعلمائهم وكان ذلك في سنة ١١٤٩ (١).

إبعاد الأجانب: وشعر الشريف مسعود في عهده بأن مكة تضيق بالمهاجرين من الأجانب الذين اتخذوها داراً للسكنى فضيقوا على أهلها في عيشهم واستولوا على كثير من مرافقها التجارية، فأصدر أمره بالنداء العام في أسواق مكة بوجوب مغادرة المهاجرين مكة، وأغلظ في عقوبة من يتخلف منهم، فرحلوا وذلك سنة ١١٤٩(٢).

سيلان عظيمان: وفي عهده اقتحم المسجد الحرام سيل عظيم انتهى إلى باب الكعبة في يوم الجمعة من عام ١١٥٣ ولم يستطع الخطيب الوصول إلى المنبر فخطب في باب الزيارة وصلى الجمعة ومعه خمسة أشخاص، وأصاب الناس سيل مثله في عام ١١٥٩ والناس في منى فغمر الحجاج ودهم جانباً عظيماً منهم فكانت ضحاياه من الغرقى تملأ الطرق (٢).

وفي عهد مسعود نشب نزاع بينه وبين الوزير التركي في جدة، ذكروا أن الوزير التركي منع إرسال نصيب الشريف مسعود من واردات جدة فغضب مسعود لذلك، وطال النزاع ولم يكن مسعود بالرجل الذي يستهين بكفاءة نفسه أو يقبل فيها المساومة، لهذا ماعتم أن جهز أخاه جعفراً في جيش عظيم لقتال جدة وإرغام

(١) خلاصة الكلام للدحلان ١٩٣ وقد ذكروا أن أول ظهور شجرة الدخان كان في عام ٩٩٩ وقد أرخوها على طريقتهم بحساب الجمل (يوم تأتي السماء).

(٢) المصدر نفسه ١٩٤.

الوزير التركي على الإذعان فتحصن الوزير فيها وأقام المدافع على أسوارها إلا أن جيش مسعود تغلب على تحصينات الوزير واستطاع أن يقتحم السور من ناحيته الجنوبية بمساعدة الأهالي في جدة ويهاجم البلاد، ففر الوزير في نفر من خواصه إلى سفينة له في البحر نجا بها، وبذلك مكن الشريف لنفسه في جدة وكتب إلى دار الخلافة في تركيا فندبت وزيراً غيره وأمرت بأن يدفع نصيب مسعود من واردات جدة فوراً[1].

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب : وفي هذا العهد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد قد بدأت تشيع بين القبائل ويكثر أنصارها، وقد بعث النجديون إلى مسعود يستأذنونه في الحج ببعض جموعهم فلم يوافق على دخولهم وندبوا بعض علمائهم فناظروا علماء مكة ولم ينتهوا معهم إلى وفاق.

مساعد بن سعيد : وتوفي مسعود في عام ١١٦٥ وبوفاته نودي بالإمارة للشريف مساعد بن سعيد وبايعه أكثر الأشراف والأعيان وفي مقدمتهم ابن أخيه محمد بن عبدالله بن سعيد إلا أن فريقاً من آل بركات أبوا أن يوافقوا على ذلك وانحازوا إلى بعضهم في وادي مر فأرسل الشريف مساعد من يسترضيهم وكان من المندوبين لذلك ابن أخيه محمد بن عبدالله فلما اجتمع الغاضبون بالمندوبين صارحوهم بأننا لا نوافق إلا على إمارة محمد بن عبدالله ، وبذلك قام محمد بن عبدالله من صفوف المندوبين منضماً إلى المغاضبين مطالباً بحقوقه في الإمارة.

وهكذا مني مساعد من أول يوم لتوليته بالمنازعات التي ما لبثت أن تطورت إلى حروب طاحنة في الشهور الأولى من حكمه.

ذلك أن محمد بن عبدالله انتقل مع مؤيديه إلى الطائف فاستمال بعض البطون

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط».

من عتيبة ثم احتل الطائف، ثم تقدم منها إلى مكة فعسكر في دقم الوبر في أواخر جمادى الآخرة من السنة نفسها ١١٦٥.

وخرج للقائه عمه مساعد فاحتال محمد بإشعال النار في رؤوس الجبال لإيهام المقاتلين بأن جيشه مقيم فيها ثم انسل إلى مكة فلما انتهى إلى المحصب بأعلى مكة علم به عمه فكر فكانت موقعة عظيمة بجوار المنحنى في المعابدة هزم في نهايتها محمد بن عبدالله ثم جرى الصلح واستقرت الأحوال وذلك في نصف شعبان من السنة نفسها وكتب مساعد إلى دار الخلافة يطلب تأييده بعد أخيه مسعود فوافاه التأييد (١).

وفي عام ١١٦٩ عاجلت المنية محمد بن عبدالله فازداد الاستقرار واستطاع مساعد أن يسوس البلاد بسياسة سلفه مسعود فشاع الأمن والطمأنينة في أطرافها إلى عام ١١٧١.

وحدثت منافرة بين الشريف مساعد وبعض الأشراف فاتصل عبدالله الفعر بأمراء الحج الشامي والمصري في موسم ١١٧١ وأغراهم ببعض المال وطلب عزل مساعد وتنصيب مبارك بن محمد بن عبدالله بن سعيد فتم ذلك لمبارك دون أن يشعر مساعد ولما أرادوا إعلان ذلك في ٢١ ذي الحجة وزعوا فريقاً من العسكر على سطح الحرم وفوق المآذن وبعض الدور مما يلي دار السعادة بجوار باب الوداع حيث يسكن مساعد (١)

ولست أدري أي نظام ذلك الذي يبيح لأمراء الحج أن يعزلوا أميراً منصوباً بتأييد من الخلافة ليقيموا غيره، إننا إذا افترضنا وجاهة الشكاوي التي اتصلت

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

بأمراء الحج فإننا لا نستطيع أن نفهم أن يكون لهم صلاحية العزل والتنصيب دون اطلاع الخليفة واستصدار أمره في ذلك. ولكنها فوضى الإدارة تأبى إلا أن تساعد على تفاقم المشاكل بين الأشراف وزيادة الاضطراب في البلد الأمين.

واستيقظ الأمير مساعد على صوت الرصاص فأدرك حقيقة الموقف فاستنجد بعسكره من اليمنيين وأرسل إلى حاكم السوق ليجمع له ما استطاع من السوقة في حارات مكة فتكون له بذلك دفاع استطاع أن يواجه الموقف به . . وقد دارت رحى القتال بينهم عنيفاً في شوارع مكة نحو ٢٤ ساعة ثم انجلى الموقف بانتصار الشريف مساعد وهزيمة عسكر أمراء الحج، وبهزيمة أمراء الحج وقع النهب في معسكراتهم حتى لم يبق لهم ذخيرة أو عتاد فالتمس أمراء الحج من مساعد الصلح ورجوه إعادة ما نهب منهم فقبل ذلك وأعاد ما استطاع إعادته من منهوباتهم.

ولم ينته الأمر عند هذا الحد لأننا نجد أمير الحج الشامي أحد أبطال الحادثة المذكورة يعود إلى إمارة الحج في الموسم التالي عام ١١٧٢ وما كاد يفرغ الحجاج من مناسكهم حتى يدعو إلى مجلس عام للنظر في شؤون عين زبيدة ويطلب إلى مساعد حضوره ثم يبدأ البحث في موضوع العين وينتهي بالقبض على مساعد فيعرف الحاضرون أن الاجتماع لم يكن له من غرض إلا اعتقال الشريف مساعد.

وباعتقاله اضطربت الأمور في مكة وكادت الفتنة تقع لولا أن أمير الحج أبرز في مجلس عام بالمسجد مرسوماً جديداً يخوله توليه من يراه صالحاً لمكة [1].

ولسنا في حاجة لتفسير الرواية؛ لأن المفهوم بالبداهة أن أمير الحج وقد هزم في عامه السالف استطاع أن يعد عدته لإنفاذ فكرته فاصطحب سلاحاً جديداً يخوله حق العزل والتنصيب، وهكذا تتسع الإدارة العثمانية لشتى الرغبات الجامحة وقد

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

تكون معذورة بالنسبة لأعمال حكام هذه البلاد .

جعفر بن سعيد : وباعتقال مساعد عرضت الإمارة على أخيه الشريف جعفر وكان ميالاً إلى السلم لا تنازعه أطماع الحياة الزائفة ، وقد رأى أنه لا بد مما ليس منه بد فقبل منهم بشروط اشترطها عليهم فيها أن لا يسيئوا إلى أخيه وأن يسلموه له ليحتفظ به كوديعة فقبلوا منه ذلك .

فلما تولى الأمر ظل على أمره إلى أن غادر الحجاج مكة ثم عاد يعمل من أجل أخيه حتى مهد له الأمور ثم أعلن عن تنازله عن الإمارة في ١٤ محرم عام ١١٧٤ .(١)

ولو هيئ في كل زمان جعفر كهذا يضمر الخير لغيره ويعمل في سبيل مصلحة أخيه أكثر مما يعمل لنفسه لألغيت تسعة أعشار الحروب في تاريخ العالم القديم والحديث .

مساعد بن سعيد للمرة الثانية : واستقر الأمر بعد ذلك للأمير مساعد عدة سنوات لم يحدث في خلالها ما يعكر الأمن إلا فتنة أخيه أحمد بن سعيد الذي أراد أن يجليه فيها عن مكة في عام ١١٧٥ فلم يستطع ، وذلك أنه خرج مغاضباً من أخيه إلى وادي نعمان (٢) بالقرب من عرفة وجمع بعض أعرابها ليهجم بهم على مكة فلما انتهى إلى أبي لهب في جرول خرج لمقاتلته مساعد فهزمه ثم صالحه وبذلك رجعت الأمور إلى مجاريها (٣) .

---

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي ٣١٠ .

(٢) من أكبر أودية مكة بعد مر الظهران ، وله شهرة في كتب الأدب ، يقع على ٢٥ كيلاً من مكة شرقاً ، وسكانه هذيل . (ع).

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد دحلان ١٩٨ .

نجد تطلب الحج : وفي هذا العهد أرسل النجديون يستأذنون في الحج فلم يؤذن لهم.

آل بركات يستعدون محمد علي بلوط في مصر : ويشب الخلاف بين مساعد وجماعة من أشراف ذوي بركات في عام ١١٨٢ وعلى رأسهم عبدالله بن حسين بن يحيى البركاتي وتطور الخلاف فانتقل عبدالله إلى وادي فاطمة واجتمع عليه ذوو بركات فقر رأيهم على محاربة مساعد ثم اتفقوا على أن يبدؤوا باحتلال جدة فجمعوا جموعهم من البادية وأحاطوا بسور جدة فتحصن أهلها ورموهم بالمدافع وجعلوا الكبريت المشتعل في بعض النشابات وقذفوهم به فاحترقت العشش التي كانوا ينزلون بها حول السور فظهر لعبدالله استحالة نجاحه فعاد إلى وادي فاطمة(١).

وكانت مصر في هذه الأثناء قد ثارت على العثمانيين بقيادة كبير القواد العسكريين فيها محمد علي بك بلوط، واستطاع محمد علي بك بلوط أن يرسل جنوده إلى الشام بقيادة محمد بك أبي الذهب فيفتح أكثر البلاد فيها، وقد رأى ذوو بركات أن يتصلوا بصاحب مصر الجديد ويستمدوا عونه لمساعدتهم على إجلاء ذوي زيد من إمارة مكة ونقلها إليهم (٢).

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) عندما أجلى العثمانيون جيوش الجراكسة عن مصر في عام ٩٢٣ ظلوا يرسلون ولاتهم للحكم فيها كما كانوا يولون قيادة الحامية بعض الصناجق من مماليك القواد العسكريين، وقد ظل الأمر على ذلك نحواً من قرنين اشتد في نهايتها استبداد القواد العسكريين بولاة الترك وشرعوا يولون من شاؤوا، ويعزلون من شاؤوا ولما انتهت القيادة إلى علي بلوط مملوك كبير الصناجق استطاع أن يعلن ثورته عام ١١٨٤ ضد العثمانيين وأن يؤسس لنفسه حكومة جديدة في مصر وهي الحكومة التي التجأ إليها ذوو بركات لتساعدهم على نقل الإمارة في مكة إليهم وقد استجاب رئيسها للدعوة واستفاد من اتصاله بذلك.

وهكذا توجه عبدالله بن الحسين إلى مصر واستطاع أن يقنع «محمد علي بك بلوط» بوجاهة رأيه ووجدها محمد علي فرصة طيبة لاتصال نفوذه بمكة فأمر أمير الحج المصرى بأن يصطحبه إلى مكة وأن يساعده على توليته الإمارة وذلك في سنة ١١٨٣.

والذي يبدو أن أمير الحج المصري عندما انتهى إلى مكة أدرك أنه أمر أصعب مما صوّره له عبدالله بن الحسين ورأى أن أمير الحج الشامي يميل إلى مساعدته فأخفى ما أضمره وشعر مساعد بما أخفى فأرسل إلى أمير الحج المصري عقب الفراغ من منى بيومين أن يغادر مكة بعسكره منعاً لما يحدث من التشويه فارتحل أمير الحج المصري دون أن يظهر شيئاً من الخلاف.

وكبر على ذوي بركات أن يخفقوا فبذلوا من أموالهم لرجال البادية حتى اجتمع منهم خلق كثير وعسكروا بهم في وادي مر في أواخر ذي الحجة من السنة نفسها عام ١١٨٣.

وعلم مساعد بالأمر فحصن الجبال المطلة على المعابدة وجرول وخرج للقائهم في شهر المحرم عام ١١٨٤ فاقتتلوا قتالاً شديداً أسفر عن فرار آل بركات وبفرارهم عاد الأمن إلى استقراره في مكة.

ولم يدم أمر مساعد في مكة بعد ذلك طويلاً فقد وافته المنية في أواخر شهر المحرم عام ١١٨٤ بعد أن حكم مكة نحواً من عشرين سنة إذا استثنينا بعض الأشهر التى تولاها أخوه في عهده (١).

عبدالله وأحمد أبناء سعيد بن زيد : وبوفاة مساعد نودي بالإمارة لأخيه

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط».

عبدالله بن سعيد في ٢٨ محرم عام ١١٨٤ ولم يدم فيها إلا أياماً ثم نازعه أخوه أحمد بن سعيد فرأى عبدالله أن يسالمه حقناً للدماء فتنازل عن الإمارة فتولاها أحمد في مجلس حافل بالقاضي وكبار العلماء والأشراف والأعيان.

مصر تستأنف حملتها : ولقد كان عبدالله بن سعيد على محبته للسلم بعيد النظر عندما تنازل عن الإمارة؛ لأنه كان يعلم أن ذوي بركات سوف لا يصبرون على ما نالهم من مساعد وأن محمد علي بلوط سوف لا يتخلى عن مناصرتهم.

والواقع أن الأمر كان كذلك فإن الشريف عبدالله بن الحسين البركاتي ما كاد ينهزم من جدة قبيل وفاة مساعد حتى شد رحاله إلى مصر وقابل محمد علي بلوط وشكا إليه ما قاساه من الويلات فجهز محمد علي بك لنصرته حملة عسكرية من الترك والمصريين وأرسلها في صحبته إلى ينبع من طريق البحر بقيادة مملوكه محمد بك أبي الذهب.

واتصل خبر الحملة بمكة ولما يمض من تولية الشريف أحمد بن سعيد إلا شهر واحد وبعض شهر ثم وافته الأنباء أن درويشاً آغا وزيره في ينبع عجز عن ملاقاتها ففر هارباً، وأن الحملة بعد أن احتلت ينبع نهبت ما فيها وأن الشريف عبدالله بن الحسين يتقدم الحملة في طريقه إلى وادي فاطمة في جموع حاشدة من العربان.

فنشط أحمد بن سعيد وأرسل أهله وحريم ذوي زيد إلى الطائف، وندب من يستنفر القبائل لنصرته فلم يجبه إلا القليل فشرع يحصن مركزه في حدود ما يستطيع [1].

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبدالله بن الحسين : وفي اليوم الرابع عشر من ربيع الأول عام ١١٨٤ وصلت أخبار الحملة إلى وادي فاطمة، فندب الشريف أحمد عليّ بن عبدالقادر الصديقي مفتي مكة والشريف عبدالله الفعر لمقابلة قائدها محمد بك أبي الذهب، فلم يجد المندوبان إلا جواباً عسكرياً مؤداه أنه مأمور بانتزاع إمارة مكة وتسليمها إلى عبدالله بن الحسين البركاتي ليتولى أمرها، فعاد المندوبان بما سمعا إلى أمير مكة.

وفي ١٦ منه تحركت الحملة من وادي فاطمة فعسكرت في الزاهر وأعدت مدافعها بحيث تشرف على بئر طوى فخرج أحمد في جنده وبعض من تبعه من العربان إلى المصانع التي في الريع ونسميه اليوم ريع «الرسان»[1] في نهاية حارة الباب.

ثم ظهر أن لا فائدة من لقاء مثل هذا الجيش بعد أن تفرقت عنه البادية مستجيبة إلى الذهب الذي يبذله غريمه في الجيش المهاجم، فأودع بيته الشريف حامد بن الحسين أحد إخوان غريمه على طريقتهم في ذلك ثم غادر مكة من طريق المعابدة إلى الطائف بعد أن حكمها نحو خمسين يوماً.

ودخل الجيش المهاجم مكة يوم الجمعة ١٨ منه وتفرق جنده في كل حي منها، ونزل عبدالله بن الحسين في دار السعادة ثم نودي له بالإمارة، وأقبل المهنئون والشعراء يرتلون له آيات التبريك.

وعاثت الحملة العسكرية في مكة ولم يَسْلم من أذاها أحد، وعانت الأسواق

(١) هو ريع الرسام بالميم، ولعله سمي بذلك لأن رسم البضائع الآتية من جدة كان يؤخذ هناك، وهو أحد الأكدية بمكة، وكان اسمه (كدى) بالفتح والقصر. (ع).

من جورها ونهبها شيئاً كثيراً وسجن قائد الحملة مفتي مكة علياً الصديقي ولم يطلقه حتى غرمه عشرين ألف ريال وأخذ كثيراً من أموال التجار ونهب دار الشريف مساعد في سفح أجياد وشرد من بقي من ذوي زيد في مكة [١].

ووقع حريق في دار السعادة نزل ذوي زيد فقيل: إنه من تدبير قائد الحملة ولكن صاحب خلاصة الكلام [٢] ينفي ذلك ويقول: إنه لم يثبت.

واستقر الأمر للشريف عبدالله بن الحسين ولم يبد منه ما يدل على ظلمه وجوره، ومما يذكر أنه صيئ إليه بعد ولايته بأموال جزيلة جباها صاحب بيت المال من أحمد بن علي طبيلة المتوفى وكان من أعيان جدة وكان يملك أموالاً وعقاراً ومراكب بحرية عديدة، وقيل له: إن هذا نصيب الإمارة من تركة المتوفي فرفض قبول الأموال وزجر حاملها إليه وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [٢](النساء - ١).

ولم تمض الأيام حتى وافت أنباء جديدة بأن أحمد بن سعيد بن زيد، وقد تركناه يغادر مكة فراراً من المهاجمين قد اتصل ببعض العربان في وادي لية وأنه هاجم الطائف فاحتلها في ٢٤ منه فندب عبدالله بن الحسين بعض أقاربه من ذوي بركات على رأس حملة مشتركة من الأشراف والعربان وجنود أبي الذهب فلما علم أحمد بدنوهم هرب من الطائف إلى ثنية كرا [٣] وحشد في طريقه من استطاع من عرب بني سعد وثقيف فعسكر بهم في عرفة فخرج جند عبدالله بن

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٠٥.

(٣) كرا: هو الجبل الذي يسيل منه وادي نعمان، وعلى ظهره مصيف هدأة الطائف، وعليه أحد طريقي مكة إلى الطائف. (ع).

الحسين وعسكر أبي الذهب لملاقاته، واحتدم القتال بين الفريقين واشتد عنفه ثم برز إلى الميدان جماعة من عسكر أبي الذهب منكسين أعلامهم وصاحوا بالشريف أحمد يظهرون انحيازهم له فخدع بهم وحازهم نحوه فأحاطوا به وأسروه، وبذلك تم النصر لعبد الله بن الحسين وأبي الذهب واستطاع الشريف أحمد بعد هذا أن ينطلق من أسره فتوجه إلى الليث وأقام بها.

وفي ٢٠ جمادى الأولى عام ١١٨٤ ارتحل أبو الذهب في جنده إلى مصر بعد أن ترك الجند للحماية في جدة بقيادة حسن آغا شبكة الذي جعله والياً في جدة.

وهكذا تبدلت الأمور وتوطنت الفرقة العسكرية التابعة لصاحب مصر في جدة بدلاً من الفرقة العثمانية وأصبح الأمير في مكة مديناً بولائه لصاحب مصر بعد خليفة العثمانيين.

ولم تفت الحوادث الماضية في عضد الشريف أحمد بن سعيد بن زيد فقد كان من أصحاب العزائم الماضية، فليس غريباً أن نراه وقد ارتحل أبو الذهب عن مكة يستأنف نشاطه لأخذ الثأر فيندب الشريف ثقبة ليستنفر له القبائل من ثقيف ومن والاها ويصل من ناحيته بقبائل الجنوب حتى يحشد منها عدداً طيباً ثم يتفق مع ثقبة على الاجتماع في عرفة بما حشدوا.

وقد نزلوا في عرفة في ٢١ جمادى الثانية ١١٨٤ ومنها زحفوا إلى مكة في فرقتين هاجمت إحداها أعلى مكة، وزحفت الثانية من أسفلها، فاحتدم القتال واشتدت وطأته نحو أربع ساعات ثم أسفر عن هزيمة عبدالله بن الحسين ومؤيديه من عسكر مصر(١) وبذلك فروا إلى وادي فاطمة بعد أن دام حكم الشريف عبدالله لمكة شهرين وثلاثة وعشرين يوماً.

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٠ وما بعدها.

أحمد بن سعيد بن زيد للمرة الثانية : وعلى أثر هذا دخل أحمد بن سعيد مكة ظافراً ونودي بإمارته فيها في ٢٣ جمادى الثانية عام ١١٨٤ وأمر بأن تحرق دار الهناء ونزل آل بركات ؛ لاعتقاده أن عبدالله بن الحسين أمر بإحراق دار السعادة، وقد أحرقت دار آل بركات ونهب الناس ما فيها وزادوا فحرقوا كثيراً من دور المقربين من آل بركات وأتباعهم .

وفر العسكر المصري إلى وادي فاطمة ثم انتقلوا إلى جدة وتحصنوا فيها وراء المتاريس والمدافع ، فجرد الشريف أحمد سرية عسكرية فيها بعض القبائل فسارت في طريقها إلى جدة حتى عسكرت في «غليل» [1] بالقرب من جدة ثم تواطؤوا مع أهل جدة حتى مكنوهم من الهجوم عليها من الباب اليماني وبذلك استولوا عليها في آخر جمادى الآخرة ١١٨٤ وقتلوا بعض المتحصنين وفر البعض الباقي إلى ينبع من طريق البحر ثم غادروها إلى مصر على رأسهم الشريف عبدالله وقد أقام عبدالله في مصر ثم ارتحل إلى تركيا فمات فيها .

وباحتلالهم جدة هاجم المحتلون بيوت التجار ومخازنهم فنهبوها فأثر ذلك في تموين البلاد واشتد غلاء الأسعار وعم الكرب معظم البوادي حتى أكل بعض أهل البادية الهررة وشربوا الدم المسفوح من شدة الجوع ودام ذلك إلى نهاية عام ١١٨٤ ثم انقشعت الكروب في أوائل عام ١١٨٥ بورود الغلال من شتى الجهات وعادت العلاقة بين مكة والعثمانيين إلى سابق عهدها [2] .

---

(١) غليل كفر بير : واد يصب في الرغامة شرق جدة ، والرغامة : حوز الجبال من الخبث من ناحية جدة الشرقية . (ع).

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٠٦ .

وظل أمر أحمد بن سعيد على هذا إلى أواخر عام ١١٨٦ ثم ثار عليه ابن أخيه سرور بن مساعد بن سعيد بن زيد [١].

ذكروا أن أحمد بن سعيد أراد أن يعزل وزيره في جدة يوسف قابل فكتب كتاباً بالعزل سلمه إلى أحد الأشراف وكان سرور بن مساعد في المجلس فلما علم بذلك أصر على اغتنام الفرصة لفائدة نفسه.

وكان سرور إذ ذاك شاباً لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره وكان شديد الثقة بنفسه كثير الطموح وكانت له على سنه منزلة في بني قومه تمتاز بنفاذ الكلمة.

أصر سرور على اغتنام الفرصة فركب ناقة مسرعة وتوجه إلى جدة فوصلها قبل أن يصلها مندوبو العزل فنزل بدار يوسف قابل واتفق معه على أن يتصدى سرور لإعلان الثورة وأن يمونها يوسف قابل بأمواله.

ولما وصل المندوبون وجدوا سروراً عنده وقد تصدى لمنعهم عنه فطلبوا إليه أن يصحبهم ويوسف قابل لمقابلة الشريف أحمد فخرجوا جميعاً من جدة، فلما كانوا في بعض الطريق عرج سرور ويوسف قابل إلى وادي فاطمة حيث اجتمع سرور بمن يليه من رجال البادية ثم أرسل يستدعي بعض القبائل من عتيبة فوافوه طائعين.

وعلم أحمد بالأمر فندب من يسوي الأمر بينه وبين ابن أخيه فأبى سرور إلا أن يجلي أحمد عن مكة فاستعد أحمد للدفاع.

واجتمع الثائرون في وادي فاطمة ثم انتقلوا إلى العابدية [٢] ثم زحفوا إلى

(١) تذييل شفاء الغرام للصديقي ٣١١.

(٢) العابدية: عين جنوب غربي عرفة على بعد كيلو واحد منها تقريباً.

المنحنى بأعلى مكة حيث اشتبك مع عمه في قتال مرير لم يدم إلا ساعتين انهزم في نهايتها أحمد بن سعيد ففر إلى وادي نعمان [1].

سرور بن مساعد من ذوي زيد : وبفرار أحمد دخل سرور إلى مكة ظافراً ونودي له فيها بالإمارة في يوم السبت ١٣ ذي القعدة عام ١١٨٦ [2].

واستطاع سرور بما يملك من قوة الشكيمة أن يؤمن السبل فيضرب على أيدي العابثين وينصب نفسه عدواً لكل عابث، فاستقر الأمر في البلاد أياماً ثم ما لبث أن عاد برد الفعل، فإن كثيراً من القبائل كرهت حكمه، فخرج عليه رؤوس هذيل ثم كبار حرب ثم فارقه جماعة من عظماء الأشراف، فقاسى سرور من جراء عصيانهم أشد ما يمكن أن يقاسيه.

ولم يتركه عمه ينعم بالهدوء فقد هاجمه بعد خروجه من مكة في قوة عظيمة فاشتبك القتال بينهما عند بركة السلم في طريق منى فهزم العم وانطلق إلى البادية وذلك في ٤ ذي الحجة عام ١١٨٦ [3].

وقد تركت هذه الموقعة ذيولاً أحرجت مركز سرور؛ لأن العسكر في مكة كانوا يستحقون لدى أحمد بن سعيد رواتب سبعة شهور فلم يكن من مصلحتهم إبعاده عن مكة ليخسروا ديونهم عنده؛ لهذا ما لبثوا أن تألبوا ضد سرور في يوم ثامن من ذي الحجة وأعلنوا أنهم لا يحجون في موكبه إلا إذا عوضهم ما يستحقون عند سلفه فاضطر سرور أن يعرض عليهم تسديدهم نصف الدين وتأجيل النصف الباقي إلى نهاية سفر الحجاج، فرفضوا فتركهم وما تألبوا ومضى في موكب من

(١) وادي نعمان شرقي عرفة.

(٢) تذييل شفاء الغرام.

(٣) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبيده إلى عرفات .

وصبر العسكر حتى قضى الحج وسافر الحجاج فأرسل إلى أحمد أن يوافيهم في مكة ليناصروه وهم يؤملون أن يستوفوا حقوقهم بعد تنصيبه فجاءهم أحمد متخفياً ثم أصبح بينهم منادياً بالثورة في خلال مكة فاستنجد سرور بأمير الحج المصري فأنجده بفريق الخيالة إلا أن الخيالة لم تستطع الدفاع عنه؛ لأن رصاص الثوار كان يصيبهم من خلف النوافذ في البيوت المطلة على الشوارع فاستغاث ببعض القبائل فأعانوه وانتزعوا له النصر فهزم أحمد وانطلق فاراً للمرة الثالثة إلى البادية .

ثم ما لبث أحمد أن أعاد الكرة مرة رابعة وخامسة وسادسة والهزائم تلازمه كرة بعد أخرى إلى أن بلغت عدد كراته خمس عشرة كرة لا يفصل بين الكرة والأخرى إلا شهر أو ثلاثة أشهر[1] .

وكان في كراته يستغل بعض القبائل المغاضبة لسياسة سرور القاسية وبعض كبار الأشراف المتذمرين ، ففي أكثر من مرة استعان بهذيل ، وفي بعض المرات استعان بقبائل حرب ؛ لأنه بلغه أنهم على خلاف مع سرور لضغطه عليهم وحبسه شيخهم، وفي مرة غيرها استعان بالشريف عبدالله الفعر والشريف بركات بن جود الله وفي هذه الموقعة قبض الشريف سرور على الشريفين المذكورين وأودعهما سجن القنفذة ثم أطلق ابن جود الله وأمر بإحضار الفعر إلى مكة فاستنجد الفعر بأحد أمراء اليمنيين فأخذه من يد العسكر فلما وصل الخبر إلى

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

سرور كتب إلى إمام اليمن يطالب به ويتوعد فأمر الإمام بإعادته إلى مكة وتسليمه إلى سرور فتسلمه وأمر به فسجن إلى أن مات [1].

واستعان في كرته الثانية عشرة بذوي حمود من الأشراف آل بركات فأعانوه ليأخذوا بثأر رئيسهم الذي سجنه لخروجه على الأمن وقطعه طريق القوافل.

وحاول الشريف أحمد غير مرة أن يتصل بأمراء الحج المصري والشامي في أكثر من سنة ليساعدوه على إجلاء سرور فكانوا يعتذرون له وأجابه أحدهم بأنه لا يملك هذا إلا بمرسوم خاص.

واستمر أحمد على عمله هذا نحواً من سبع سنوات بدأ بأواخر سنة ١١٨٦ وانتهت في منتصف عام ١١٩٣ عانى خلالها ما يعجز عنه الوصف وكبد نفسه وابن أخيه سروراً من خسائر الأموال والأرواح ما يعجز عنه الإحصاء.

وانتهى المطاف بالشريف أحمد في وقعته الأخيرة إلى الأسر فالسجن المؤبد مدى الحياة؛ لأن الشريف سروراً ما كاد يظفر به في الموقعة الخامسة عشر حتى أودعه وولديه السجن.

وكان سجنهم في ينبع ثم نقلوا إلى سجن في جدة وقد توفي في السجن أحد ولديه ثم توفي هو نفسه في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١١٩٥ وأطلق سراح الابن الثاني على أثر وفاة الوالد بعد أخذ الضمانات اللازمة عليه بالهدوء والاستقرار وقد فعل [2].

واستقرت الأمور بعد ذلك للشريف سرور بعض الاستقرار، وأقول بعض

(١) وتوجد ذرية عبدالله الفعر اليوم بوادي لية جنوب الطائف، أما بنو جود الله فهم (الجوادا) سكان شمالي الطائف. (ع).

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي.

الاستقرار لأن سروراً كان يغلي في عروقه دم الشباب الذي لا يقبل هوادة في شؤون الحكم ولا يرضيه الصبر على أصحاب القلاقل في أطراف البلاد، كان الشريف سرور يتبع العصاة وقطاع الطرق ويعاقبهم بأشد العقوبات، وكان يتجسس على اللصوص والمفسدين، وكان يعس في أكثر لياليه بنفسه يحرسه بعض العبيد فلا يترك حارة إلا طرقها ولا عطفة إلا دخلها حتى أرهب العصاة.

واتفق أن بعض العتاة اجتمعوا على التربص له أثناء تفتيشه الليلي ليقتلوه وكان في جملتهم بعض الأشراف على رأسهم مسعود العواجي [١] وجماعة من أقاربه ذوي زيد وقد جاء إليه جواسيسه بالخبر، فأرسل بعض عبيده ليتثبتوا من الحقائق التي أشار إليها الجواسيس في بعض طرق مكة، فلما ثبت لديه ذلك لم يخرج من ليلته وأمر في الصباح بالقبض على أصحاب المؤامرة وأودعهم السجن [٢].

وعنّ له أن يزور المدينة ليتفقد القبائل في طريقها ويقف على الأحوال في المدينة فشد رحاله إليها في سنة ١١٩٤ في خمسة آلاف من العربان والأشراف كان نصفهم على الخيل فعنّ لقبائل حرب أن يظهروه على مبلغ سطوتهم فعرضوا عليه بعض طلبات فاحشة من المال وانتظروا أن يذعن فأبى، وشن عليهم قتالاً عنيفاً حتى رضخوا ومن ثمّ ثنّى بصرف بعض الإكراميات لهم وأخذ منهم بعض الرهائن من الرجال.

ولما انتهى إلى المدينة وزع على أهلها كثيراً من الذهب والفضة ثم حمل إليه جواسيسه أن بعض رجال حرب دسوا عليه عند شيخ الحرم في المدينة واتفقوا معه على هجوم المدينة ليتسنى لشيخ الحرم ومن والاه في المدينة أن يثوروا في داخلها

(١) مسعود العواجي وهو صاحب بستان العواجي الذي كان مشهوراً في مكانه قبل المعابدة.
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

فلما تبين لسرور الأمر احتاط له واحتال حتى استولى على قلعة المدينة، فمكن لنفسه واستطاع أن يهزم خصومه وأن يقبض على شيخ الحرم وخمسين من أتباعه ويسيِّرهم إلى مكة بعد أن أعلن عزل شيخ الحرم.

وفي عودته من المدينة ترك الطريق الذي يمر بقبائل حرب وفي نفسه أن يعود إليهم في حملة أقوى واتجه نحو الجنوب الشرقي حتى وصل إلى الطائف ومنها إلى مكة. (١)

وظلت فكرة الحملة لتطويع قبائل حرب تراوده، فلما كانت سنة ١٢٠١ أرسل إلى قبائل هذيل وثقيف وعتيبة، فجمع منهم جيشاً حاشداً، واستنفر الأشراف فخرجوا في نصرته، وقد قيل إنه كان ينثر الذهب بين المتطوعين المقاتلين، وإنه جعل لكل من قطع رأساً خمسةً من المشاخص.

فنشطت القبائل للعمل معه، ولما وصل بجيشه إلى مستورة بين رابغ والمدينة أرسل من يغزو جبل صبح حتى احتله، ثم اشتبك مع بطون حرب عدة اشتباكات كان له فيها الظفر وملك «الفرع» ثم «بدر» ثم توجه إلى ينبع النخل فاحتله ثم عاد إلى بدر وتوجه إلى الخيف فملكه (٢).

واشتد القتال في هذه المواقع وفي بطون غيرها وكثر عدد الأسرى الذين كان يبعثهم مصفدين، وقد وجد الحكم فيها مطمئناً فأقام فيها بضعة أيام ثم عاد إلى مكة من طريق ديار حرب فلم يصادفه شغب (٣).

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) الفرع وبدر: منازل في البادية بين رابغ وينبع وتبعد ينبع النخل عشر كيلومترات من ينبع البحر.

(٣) خلاصة الكلام ٢١٩.

وإنه ليخالج النفس أمر قبيلة حرب ما يخالجها فإن هذه القبيلة على وفرة عددها وكثرة بطونها وشدة بأسها كانت وتكون صالحة في كل وقت لأن تعد ذخيرة تعتد البلاد بها وتستفيد من سواعد بنيها في الأعمال المنتجة لو وجدت فيما سلف من أجيال التاريخ من يعلمها ويعتني بشأنها في الحياة.

إن في جزء كبير من أراضيها تربة تصلح للزراعة لو وجد أصحابها من يعدُّهم للزراعة، وفيما عرف من نشاط بنيها وصبرهم على قسوة الحياة ما يؤهلهم لكثير من أعمال الاستثمار لو وفق لهم ولأمثالهم في جميع أقطار البادية من يقودهم إلى الأعمال المفيدة.

ولكنا تركناهم يتضورون جوعاً في قفار البادية وأجرينا عليهم الصدقات حتى ألفوها ثم اتخذوها قاعدة لمعاشهم، ثم لا نلبث إن نمنع عنهم ما عودناهم فتثير روح الشر في نفوسهم ونهيئهم للطغيان حتى إذا طغوا في سبيل أن يعيشوا كما نعيش اعتبرناهم عتاة خارجين على النظام، وقام مثل سرور ليجرب فيهم حديده وناره وبذلك ننسى مكان الظلم في أساس البحث ونتغافل عن الحقائق الصحيحة فيه (١).

قلعة أجياد: وبلغ من عناية سرور بشؤون الأمن أن بنى سنة ١١٩٦ في أعلى جبل أجياد قلعة أجياد الموجودة اليوم، وأنفق أموالاً كثيرة في عمارتها القوية لتبقى له حصناً في العاديات وكانت تطل على داره في سفح الجبل (٢).

ولم تخل أيام الشريف سرور بالرغم من يقظته الشديدة من بعض العدوان في

(١) انظر تعليقنا على هذه الحوادث وأمثالها في كتاب (نسب حرب) (ع).
(٢) خلاصة الكلام ٢٢٠.

نواحي البادية فقد تمردت عليه هذيل أكثر من مرة فطوعها وتمرد بعض قطاع الطرق فأخلوا بأمنها فتعقبهم حتى جاء عليهم.

وخرجت قبيلة جهينة في عهده سنة ١١٩٤ على أمير الحج الشامي[١] فاشتبك معها في قتال مرير وخرجت بعض القبائل في حرب على أمير الحج المصري في سنة ١٢٠٠ فأسر نفراً منهم وأمر بكيِّهم بمحاوير محماة في خدودهم؛ ليبقى ذلك وسماً يعرفون به فتشفع فيهم بعض مشايخهم فأبى وأجرى عملية الوسم فصاح صائح «يا لقبائل حرب» فاجتمعوا من كل واد وأعملوا السيف في الحملة المصرية ومن يتبعها من الحجاج حتى لم ينج منها إلا من استطاع الهرب وكان أمير الحج أحد الهاربين[٢].

وكان سرور يميل إلى الأبهة وإظهار إمارته في مظهر فخم وكان يبذل في سبيل ذلك من الأموال شيئاً كثيراً، ففي رحلته التي تحدثنا عنها إلى المدينة كان في ركابه خمسة آلاف جمل محملة بالأثقال والعتاد وأنواع من البسط والأثاث الفخم، وكانت إقامته في المدينة ذات مظهر خلاَّب أظهر فيه من الأبهة ما يتفق مع مزاجه وبذل من الفضة والذهب شيئاً كثيراً.

ويحدثنا الدحلان[٣] أنه احتفل في عام ١٢٠٢ بختان أولاده فاستمر الحفل سبعة عشر يوماً كانت عيداً اشترك فيه أهل الحارات جميعها بألعابهم ومزاميرهم كما اشترك الجند ورجال الحرس بموسيقاهم التي يسمونها «النوبة» وظل قصره يمد

---

(١) تقع منازل جهينة غرب المدينة في ينبع والعيص وأم لج وما حولها (ع).

(٢) خلاصة الكلام ٢١٨ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه ٢٢٣.

الموائد طيلة هذه الأيام للناس من جميع الطبقات ويوزع الهدايا والملابس الفاخرة توزيعاً عاماً شمل الجند والأهالي وأصحاب الوظائف والرتب.

وأمر في آخر يوم للاحتفال باستعراض عام مشى فيه الخيالة والجند في موكب كبير تتقدمه المدافع فطاف شوارع البلدة وأحسبه أول استعراض في مكة.

ولم يكفه ذلك حتى دعا النساء من الحضر والبادية في احتفال عام غنت فيه المغنيات ومدت فيه الموائد شاملة لجميع من يحضر، وقد دام ذلك ثلاثة أيام وزعت في خلالها أنواع الهدايا والملبس الفاخر.

قصر عرفة: وأداه غرامه بالأبهة والبذخ إلى أن يبني لنفسه في عرفات قصراً وهي فكرة لم يسبقه إليها أحد ولم يفعلها بعده أحد إلى اليوم، وقد ظلت ولا تزال أطلاله قائمة إلى عام ١٣٧٧ تقريباً على كثب من جبل الرحمة.

وكان يميل إلى العمران فقد عني ببعض المشاريع العمرانية ووسع بعض الشوارع وأنشأ بعض الطرق في مكة.

وفي عهده بنى وزيره ريحان زاوية الحداد المعروفة عند مدخل أجياد وأوقف عليها جملة من الكتب النافعة [1] وقد دخلت الزاوية في هدميات توسعة شارع الملك سعود.

ومن أعماله التي يرويها التاريخ أنه عزل «شبندر» رئيس التجار حسن النايتة وولى مكانه أحمد القاري مقابل ٤ آلاف ريال وأنزل حسين الرشيدي عن نظارة السوق وولاها محمد غزاوي مقابل ١٨ ألف قرش وولى درويش بن صالح

(١) خلاصة الكلام ٢٢١ وما بعدها.

صبغة شؤون بيت المال مقابل مبلغ قدَّمه [١] .

وظل سرور على أمره في مكة إلى أن توفي في ١٨ ربيع الثاني في سنة ١٢٠٢ عن عمر لم يتجاوز خمساً وثلاثين سنة بعد أن حكم مكة نحو خمس عشرة سنة ونصف السنة .

عبد المعين بن مساعد : وتولى الأمر بعده أخوه عبد المعين بن مساعد ولم يدم فيها إلا يوماً أو بعض اليوم وقيل أياماً ثم تنازل لأخيه غالب [٢] .

غالب بن مساعد : ولما تولى الأمر غالب كتبوا إلى السلطنة فوافاهم التأييد ولم يستقر شأنه إلا بضعة أشهر ، ثم خرج عليه بعض إخوته من أولاد مساعد ، واستنجدوا ببعض القبائل من هذيل اليمن [٣] والشام فأطاعوهم فمضوا بهم إلى جبال المفجر بجوار منى وبلغه أمرهم فخرج إليهم في ١٩ ذي الحجة عام ١٢٠٢ واستطاع أن يهزمهم فسارت جموعهم إلى الطائف فهزمهم وكيله في الطائف فاجتمعوا في واد بالقرب من العقيق، واستأنفوا مسيرهم إلى مكة فبرز إلى الأبطح للقائهم، وبعد مناوشات دامت عدة أيام استطاع أن يهزمهم فتفرقوا ثم اجتمعوا بالقرب من الطائف واحتلوها ثم استأنفوا سيرهم إلى مكة فعسكروا في وادي نعمان في ٢٤ ذي الحجة عام ١٢٠٢ .

ورأى غالب أن يحسم الشر بدعوتهم إلى الصلح، فندب لهم قاضي الشرع في هيئة كبار علماء مكة وأشرافها فاتصلوا بهم وعرضوا ذلك عليهم فقبلوا منه

(١) خلاصة الكلام ٢٢١ وما بعدها .

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي .

(٣) المراد : هذيل الجنوب وتقع منازل هذيل على العموم في الجبال الواقعة بين مكة والطائف .

واشترطوا عليه شروطاً رضيها وبذلك تم الصلح بين الفريقين وعاد المغاضبون إلى مكة فاحتفل بهم في مكة وبذلك استقر الأمر لغالب (١).

مهدي من البنغال: وفي رجب عام ١٢٠٣ بينما كان الخطيب يخطب فوق المنبر وهو الشيخ عبدالسلام الحرشي إذ تعرض له حاج من البنغال لعله كان مجنوناً وضربه بسكين أفرى بها أمعاءه فسقط ميتاً وثار المصلون في ضجة عظيمة وشاع في العامة أن المهدي المنتظر ظهر بين المقام والركن، ثم ما لبث أن تقدم أحد العلماء، فأتم الخطبة وأقيمت الصلاة وهدأ الاضطراب وسيق الجاني إلى حيث حكم عليه بالإعدام شنقاً (٢).

فتنة ابن سلتوح: وفي عام ١٢٠٤ نمي إلى غالب أن يحيى بن سلتوح - وكان المقدم في أمور الشريف سرور وأولاده من بعده - يصطنع أموراً تثير الخلاف بينه وبين قرابته، فأمر غالب بسجنه في قبو تحت الأرض فظل على ذلك أياماً ثم استطاع أن ينقب بعض الجدار ويفر إلى بيت مخدومه عبدالله بن سرور وأن يغريه بالفتنة والثورة لاسترجاع إمارة أبيه إليه، وكان سن عبدالله بن سرور لا يتجاوز الثانية عشرة فأصاخ لما ارتآه ابن سلتوح وقد اجتمع له نحو خمسمائة مقاتل فأمروهم بقذف النار من البنادق في المسجد على بيت غالب الذي يطل على المسجد أمام باب الوداع وبذلك ثارت الفتنة وتبودل إطلاق الرصاص بين عسكر غالب في البيوت المطلة على المسجد من باب الوداع وأتباع عبدالله بن سرور في البيوت الواقعة بجوار باب القطبي، ودام ذلك أربعة أيام انقطع أثناءها

(١) تحصيل المرام للشيخ محمد الصباغ «مخطوط».
(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٢٦.

سير الطرقات ومنعت صلاة الجمعة في المسجد الحرام؛ لأنه بحكم وقوعه بين الفريقين كان عرضة لرصاص البنادق من الجهتين.

ويئس أصحاب عبدالله بن سرور فطلبوا الذمة من غالب على عادة الأشراف وخرجوا إلى البادية واجتمعوا إلى بعض القبائل فساقوهم إلى الهجوم على مكة، ولما هزمهم غالب فروا إلى العابدية والفاقة[(١)] ثم إلى جبال هذيل ثم إلى الطائف فملكوها ثم عادوا يستأنفون هجومهم على مكة فخرج غالب للقائهم في الأبطح فاستطاع أن يفرّقهم بعد ملحمة شديدة وأن يقبض على عبدالله بن سرور وأخيه محمد فيسجنهما أياماً ثم يطلقهما وبعد ذلك قضى على الفتنة.

وقد فر يحيى بن سلتوح إلى ديار حرب ومنها إلى الشام ثم سافر إلى تركيا ليحاول أصحاب الشأن في عزل غالب فلم ينجح فعاد إلى مصر وبقي فيها إلى أن توفي[(٢)].

نجد تطلب الحج: وفي هذا العام أرسل السعوديون في نجد إلى غالب يستأذنون الحج فأبى؛ لأنه كان ينظر إليهم نظرة المرتاب ثم ما لبث أن جهز لهم فاشتبك القتال بين الفريقين[(٢)].

وفي الفصل الآتي نبين أهم الوقائع التي نشبت بين الفريقين والتي استطاع السعوديون في نهايتها أن يتغلبوا على مكة.

---

(١) الفاقة: بجوار العابدية وهي على نحو ٢ كيلو متر من عرفة ونسميها اليوم الخرار.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

النواحي العامة
في عهد العثمانيين الأول

الحالة السياسية : تقدم بنا أن جنود العثمانيين الفاتحة ما كادت تنتهي إلى مصر حتى كتب قائدها إلى الشريف بركات أمير مكة يعرض عليه الموافقة على إقرار إمرته في مكة إذا وافق شريف مكة من جانبه على الدعاء للعثمانيين وأن بركاتاً ما لبث أن قبل وبذلك بدأت علاقة مكة بالعثمانيين .

وبذلك ظل الأشراف من أصحاب البيت المالك في مكة يتعاقبون حكمها على جري عادتهم أميراً بعد أمير . . كان الأمير يصل إلى دست إمارته بالوراثة أو التغلب فلا يكاد يجلس في منصبه حتى يكتب إلى الخليفة العثماني بنبأ ذلك ؛ ليتلقى الموافقة في صورة مرسوم يقرأ في المسجد على ملأ من أصحاب الحل والعقد في مكة في موكب حافل وطقوس مرسومة .

وظلت بقية المدن في الحجاز تابعة في حكمها لإمارة مكة يباشر شؤونها أحد المنتمين للأمير في مكة يشاركهم في السلطة في بعض البلاد كالمدينة وينبع وجدة موظف تركي كان الأتراك يندبونه ليمثل سلطتهم فيها .

وكان يرابط في جدة صنجق عسكري تتبعه فرقة عسكرية كاملة حلت محل الجيش الجركسي المهزوم ويقيم إلى جانبه فيها موظف تابع للإمارة في مكة يتولى حكم الأهالي يسمونه وزير جدة .

وقد أضافوا إلى صنجق جدة وظيفة المشيخة على الحرمين ليستطيع أن يباشر شؤون التعميرات في مكة وأن يشرف من كثب على إدارة الأعمال فيها كما فعل الشراكسة قبلهم . وكان صنجق جدة يتلقى أوامره من العاصمة التركية مباشرة في

بعض الأحيان ويتلقاها في أحيان أخرى من طريق الوالي التركي في مصر، وكان بحكم منصبه يساعد على عزل الأمير المعزول من الأشراف في مكة ويحضر تولية المنصوب فيها ويقدم له الخلعة الخاصة بذلك.

كما أن الوالي التركي في مصر كان له الحق في تقديم مقترحاته في شأن ولاية مكة؛ وذلك لأن سلاطين آل عثمان كانوا يثقون بهم ويعتدون بآرائهم لقربهم من محيط الحجاز وبُعْد عاصمة العثمانيين عنه.

وقد ظلت مكة معفاة من مرابطة العثمانيين فيها ما يقرب من قرنين ثم تغير الأمر؛ لأننا نجد فيما قدمنا من حوادث أن فرقاً من الإنكشارية أخذت ترابط في مكة حوال القرن الثاني عشر ويظهر أثرها في أحداث البلاد يرأسها سردار يتلقى أوامره من صنجق جدة.

ولم يكن للعثمانيين في مكة في أكثر سني هذا العهد موظفون من الأتراك يتولون شيئاً من شؤون الحكم إلا ما كان من أمر القاضي والمحتسب، وكانت وظيفة الأخير تضاف في أكثر الأحيان إلى (صنجق جدة شيخ الحرم) أما وظيفة الإفتاء فكان يتولاها علماء من مكة بترشيح من الأمير وتأييد السلطنة العثمانية، وسنأتي في الفصل الخاص بذلك على أسماء البيوتات من مكة التي كانت تتولى مركز الإفتاء فيها.

وقد ظل صنجق جدة بالرغم من إشرافه على شؤون الحرمين مقيماً بحكم منصبه في جدة ولم ينتقل إلى مكة إلا في العهد العثماني الثاني كما سنذكره فيما سيأتي.

وبالرغم من إقامته في جدة فإن سلطته شرعت تتوسع على مدى السنين إلى أن

أتيحت له مراقبة تنفيذ جميع أوامر السلطنة كما أتيح له في بعض الأحيان التي يتولى أمير مكة فيها شريف مسالم أو ضعيف أن يحد من نفوذ ذلك الأمير ويسيطر بإشرافه على مقدّرات البلاد.

أما أصحاب الشخصيات القوية من الأشراف فكانوا يتجاهلون سلطته كما يتجاهلون في بعض الأحيان أوامر الخلافة العثمانية نفسها.

وكانت واردات البلاد من الحجاج والمكوس من نصيب الأمراء في مكة، وكانوا يستولون عليها ويجعلون بعضها سهاماً توزع على أقرباء بيت الإمارة، وقد ظل ذلك شأنهم في سنوات طويلة من أوائل الفتح العثماني إلى أن استطاع قانصوه الوالي التركي في جدة أن يستغل ضعف الأمير مسعود في مكة عام ١٠٤٠ كما تقدم بنا وأن يضع يده على جميع الواردات ليضمها إلى خزانة الدولة العثمانية.

ولم يدم ذلك طويلاً لأننا نجد الشريف زيداً رأس الأمراء من ذوي زيد ما لبث أن تولى الحكم ونشط للمطالبة بالواردات، ومع هذا لم يظفر إلا بما يعادل نصفها وبقي النصف الآخر تتسلمه خزائن العثمانيين التي استحدثت في جدة لقاء عناية العثمانيين بشؤون الحج وعمارة الحرمين. وقد حاول بعد ذلك الوالي العثماني في عهد مسعود بن سعيد أن يماطل في استحقاقه من واردات جدة فمضى مسعود بجيشه إلى جدة فاحتلها وطرد الوالي التركي ثم كتب بذلك إلى الخلافة فأرسلت والياً غيره وأمرته بصرف استحقاق الأمير.

وباستحداث الخزانة التركية في جدة واستحواذها على نصيبها من الواردات في عام ١٠٤٠ وما بعده أخذ الحكم العثماني يوطد لنفسه في مكة أكثر مما كان،

وشـرع يزداد عـدد الموظفين الذيـن يتـولـون مناصب المال ثم شؤون البـريـد ونظارة السوق وأعـمـال الأوقـاف وغيرها وما وافى العـهـد العـثـمـاني الأول على نهـايته حوالي عام ١٢١٧ حتى كانت مكة قد ألحقت نهائياً بالعجلة التركية وأصبحت ولاية تابعة لها في جميع مرافقها السياسية والاجتماعية .

ولا أجرؤ على لوم العثمانيين فيما فعلوا، فالناس في كل زمان هم الناس في آمالهم الطامحة وأنانيتهم الجامحة وغرامهم بالاستئثار، فأي لوم يستحقه العثمانيون إذا فعلوا في سبيل مصالحهم ما فعله ويفعله كل قوي أقلته الأرض؟ .

الذنب في رأيي كان ذنب أصحاب البلاد الذين ساعدوا بتخاذلهم وتأخرهم على إغراء العثمانيين بامتلاكهم، فبعد أن كانت علاقة أجدادهم السياسية لا تتعدى الدعاء وتأييد الإمارة وحماية الثغر في جدة استطاعوا بسبب تنافسهم على مقعد الحكم أن يمهدوا لصديقهم القوي طريق التدخل في مقدّرات بلادهم إلى آخر بند فيها .

على أنني لا أريد أن أبعد في هذا اللوم كثيراً ؛ لأن فلسفة الذنوب والجرائم لا تقرّني على ارتجال الأحكام دون أن أتدبر ما يحيطها من ظروف وأمعن فيما يلابسها من مهيئات .

فأصحاب مكة الذين أعنيهم وهم أمراؤها من الأشراف قضوا حياتهم فيها متنابذين متناحرين لا يكاد أن يغمد سيف من سيوفهم حتى تشرع في وجه صاحبه سيوف، ولا يكاد يظفر بالغلبة بينهم ثائر حتى يناجزه ثوار جدد يثيرونها عليه حرباً عواناً .

هؤلاء الأشراف هل كانوا مذنبين ؟

الواقع أنهم كانوا كذلك ولم يكونوا . كانوا مذنبين بتعسفهم في فهم الحقائق وتعصبهم لما يرونه حقاً وإفراط كل فريق منهم في التعصب إلى حد العناد الذي يؤدي إلى تقطيع الأرحام وامتشاق السيوف وإثارة الحروب .

ولقد قاست مكة في سبيل عنادهم بهذا الويلات والشدائد والموت والجوع ما يعجز الوصف عنه ويكل القلم ، طول أحقاب عديدة كما قاسوا هم أنفسهم من جرائه ما يعز معه الصبر .

وأمعن بعضهم في العناد حتى سام إخوانه من العذاب ما لا يطاق وأباح لأنصاره في غامد وزهران أن يهتكوا أعراض مناوئيه في البلاد وفعل غيره أبشع من ذلك .

كل هذه الويلات يعتبرها العرف ذنوباً إلا أن الفلسفة لا تلبث أن تتشبث بالظروف الملابسة لتتعرف مدى ما تنطق به .

هؤلاء الأشراف توارثوا الحكم من أجدادهم في وضع مرتبك ، لا تنظمه قاعدة مسنونة ولا يقيده عهد شامل مكتوب ، ولا يستقيم الأمر لحكومة ملكية على وجه الأرض ما لم تنظم لولاية العهد فيها قواعد ثابتة لا يشوبها خلل ولا يتخللها ارتباك ، وإلا كانت تلك الشوائب مدعاة للاضطراب والفتن وإثارة الحروب .

ولسنا في حاجة إلى التدليل على هذا فإن تاريخ الحروب الأهلية في كافة الأمم على وجه الأرض يدلنا بأفصح بيان على أن معظم وقائعها الصاخبة كانت تدور حول محور واحد هو الخلاف على وراثة العهد وذهاب كل من المتطاحنين إلى

الدعوى بأحقيته دون غيره في الولاية وإصراره على نيل هذا الحق مهما كلفه الثمن من دماء وأموال وليس من يشك في أن ولاية العهد لو نظمت في جميع تلك الحكومات تنظيماً دقيقاً وافياً لاستغنى العالم عن ثلاثة أرباع الحروب العظيمة في التاريخ .

وفي هذا ما يؤيد نظريتنا في أن الإنسان في كل أزمنة التاريخ - بل وبصرف النظر عن جميع الاعتبارات - هو الإنسان المجبول على الطمع والأنانية وحب الاستئثار لايستثنى من ذلك إلا نبي معصوم أو شخص موهوب ، وهما أقلية في التاريخ نادرة .

بذلك وجد الأشراف أنفسهم قد أحيطوا بملابسات قاسية فهذا يرى أحقيته في الإمارة بحكم وراثته وذلك يدعيها ؛ لأن والد مناوئه كان مغتصباً قبل اليوم فما يمنعه أن يسترد ما غصبه جيل سابق حتى إذا حكم السيف لأحدهما قام من أعقاب المغلوب من يرى أن الدين لا يضيع ما قام به مطالب ! فيندفع إلى الفتنة أو يقوم غيره ليحيي ذكر جد من الأسرة مدعياً أنه الوريث الشرعي له دون غيره ، وهكذا يتعدد الحق بتعدد وجهات النظر فتبدأ المشادة وتتطور إلى عناد فتغلي الدماء فوارة محمومة فيطيش العقل فلا يبصر أمامه إلا هدفه المنشود ، وإذا استثير العناد واستعرت فورة الدماء اندفع الإنسان في غياهب الحياة إلى أوخم العواقب .

كانت إمارة مكة قد انحدرت إلى بركات عندما اتصل العثمانيون بمكة عام ٩٢٣ وتوارثها أبناؤه حتى آلت إلى عبدالله بن حسن بن نمي الذي تنازل عنها لابنه في عام ١٠٤١ واختار ابن أخيه زيد بن محسن ليشاركه في إدارة البلاد اعتماداً على حصافته وحسن تجاربه ، فما لبثت هذه الثقة أن جرت إلى مشاكل بين ذوي

زيد وبني عمومتهم من ذوي بركات وتركتهم يتنازعون أحقيتها ويذيقون البلاد من حروبهم ما يذيقون.

ولقد استفاد الأشراف من هذا النزاع لرجولتهم شيئاً كثيراً فكان الرجل منهم ينشأ مقاتلاً بطبيعته بكل ما في المقاتل من شجاعة ورجولة وشهامة.

وأساءت أخلاق المقاتل فيهم إلى البلاد إساءة لم تتعوضها إلى اليوم، ولن تتعوضها إلا بعد حقبة من الزمن، ذلك أن المقاتل فيهم كان عندما يظفر بالغلبة على هذا البلد ويمتلك مقدراته لا ينصرف ذهنه إلا إلى الكيفية التي يستطيع أن يحافظ بها على دست الإمارة من عدوان خصومه؛ لهذا فهو لا يعنى بشيء عنايته بإدخال المال في خزائنه بأوسع ما يمكنه من الادخار، وشراء القبائل وشيوخها وأصحاب الكلمة فيها من الأشراف الموالين بأفدح ما يلزم من الأثمان يضاف إلى هذا نفقات التحصين والتسليح وبناء المخابئ والتفنن فيها.

لهذا كان الحاكم فيهم لا يجد في أموال البلاد ما يسع مرافقها العامة ولا يجد في أوقاته من الفرص ما يساعد على التفكير في شؤونها الحيوية، إنه في دست إمارته في مركز المقاتل الذي لم يدعمه نظام مقرر ولم تحصنه قاعدة ثابتة، فأية طاقة فكرية تحتمل البحث في غير شؤون التثبيت والتحصين؟!

أما العثمانيون فلعل أقصى ما كان يهمهم في هذا البلد أن يدعو خطيبها باسمهم عندما كانت علاقتهم فى أول أمرها محدودة ببعض الالتزامات، أما بعد أن تدرجوا في سبيل الاستيلاء عليه بمرور السنين وبعد أن ضموه إلى بقية الولايات التابعة لهم فإنهم لم يفترضوه إقليماً يدر العسل ليعنوا بخلاياه ويهتموا بمرافق النحل فيه بل تخيلوه مستودعاً يرابط فيه المتواكلون والمتعطلون والزاهدون

من متقشفي الآفاق، فما يمنعهم أن يصرفوا عنه الأذهان وبحسبهم الانتساب المشرف والتبعية في الجملة.

والأهم من هذا أن أصحاب الحل في هذا البلد من الأشراف جماعة لا تلين قناتهم للمستعمر الذي يتغلغل في ثناياهم ويتصل برعاياهم فيهيئ منها ما يريد، إن دون ذلك أهوالاً تكلف العثمانيين في رجالهم وأموالهم الباهظ الذي لا ترجى نتائجه، فما يمنع العثمانيين أن يلتجئوا إلى أيسر السبيلين فيقبلوا ما يصفوا لهم من الطاعة لقاء دريهمات يسخون بها لجيرة البيت الثري بنصيب من زكاته على المعتكفين في المساجد من الفقراء؟

لذلك قنع العثمانيون في هذا البلد بشرف الانتساب والتبعية في الجملة واعتبروا أصحابه مجموعة متواكلة اعتكفت بجوار الحرم لتطوف بالحجاج وتخدم الزوار وتدعو للخليفة السخي، وبذلك تركوا أشرافهم يدبرون شؤونه بالشكل الذي يريدون ويقاتلون عليه بالسلاح الذي يشاؤون، وظلت الدولة في مقامها بدار السلطنة تتلقى أخبار الكوارث والفتن فلا تؤيد ولا تعارض بل تعد مراسمها بالتولية والعزل، وكأنما كانت تجعل مكان الأسماء خالياً لتملأه في الوقت المناسب بالأسماء الجديدة من الأشراف الذين ظفروا بالغلبة والتفوق.

وإنها سياسة أضرت بالبلاد بقدر ما نفعتها، لأن كرباج الأتراك الذي ألهب ظهور الرعايا العثمانيين في البلاد المجاورة لم يجد سبيله إلى ظهور الأهالي في هذا البلد وأنَّى يجد السبيل وفي حكام البلد من الأشراف من لا تكسر الكرابيج شأفته.

وقد نرى العثمانيين في عهد متأخر ينتصرون في أحيان قليلة لبعض الأشراف على بعض ويصدرون أوامرهم بعزل البعض وتولية الآخرين وقد يشفعون أوامرهم بقوة عسكرية تصاحب أمير الحج الشامي أو المصري لتنفيذ أوامر الخليفة إلا أن أمر الخليفة لا يخرج في مجموعه عن السياسة العامة المقررة، فالإمارة لا تنقل بالعزل إلا إلى القريب من المعزول: أخيه أو أبيه أو فرد من بني عمومته وهي في بعض الأحيان تنقل ثم تعود بالتغلب فلا يملك الخليفة إلا أن يبرم ما نقضه أمس أو ينقض ما كان قد أبرم، ذلك أن علاقته السياسية لا تبيح له التغلغل إلا بقدر، ولا تتيح له التولية أو العزل إلا في حدود لا تتعدى نطاق بيوت الأشراف الحاكمة.

وكانت قوة جدة التركية ثم قوة مكة فيما بعد لا يزيد عددها في أكثر الأحيان عن ستة «بلوكات»، وكان رؤساؤهم إذا وقعوا في مشاكل إدارية لعب السيف بينهم وبين الأشراف كما لو كانوا أناساً عاديين لا تميزهم شارة الخلافة، وقد يتم الظفر لهذا الجد فينادون بسقوط الأمير وتولية قريب من بيته وقد يهزمون فيشردون في البوادي حتى تنتهي أخبارهم إلى دار السلطنة فيندبون غيرهم ويوصونهم بالسكينة والهدوء.

كان للأمير جند خاص به، قوامه عدد من مرتزقة اليمن وبعض البدو من أطراف مكة، يضاف إليهم أحياناً بعض المرتزقة من مجاوري المغاربة والحضارم والأفغانيين وكان يصل تعداد الجند إلى بضعة آلاف سوى العبيد الذين يصل تعدادهم أحياناً إلى ما يزيد عن الألف.

وإذا دعا داعي الحرب اعتمد الأمير إلى جانب جنده في الدفاع على بعض الموالين له من القبائل شرقي مكة وغربها وجنوبها وبذل لهم من أمواله ما

يرضيهم، ويعتمد إلى جانب ذلك على السوقة من المواطنين في أحياء مكة بعد أن يجمعهم من طريق مشايخهم في الحارات.

وكان رجال السوقة في مكة ويسمونهم «أولاد الحارة» يمتازون بجزء كبير من الحمية والجرأة وذلك بحكم نشأتهم في بيئة معرضة للفتن والقلاقل وحاجتهم إلى الذود عن بيوتهم في أثنائها، بينما يمتاز رجل القبيلة بالخفة وإحكام الهدف بحكم نشأته في الجبال السامقة وحاجته إلى سرعة العدو وتسديد الرمي، أما العبيد فشأنهم أعلى من ذلك لأنهم يدافعون عن نفوذهم وسلطانهم في البلد وهم رهائن ببقاء سيدهم في دست الإمارة.

ومن قواعد الأشراف النبيلة أن الشريف المغلوب لا يخشى الغائلة على أهله إذا أجلي عن مكة وفي استطاعته أن يكل أمرهم إلى من يختاره من كبار الأشراف ليظلوا في سربهم تحميهم القاعدة حتى يستدعيهم رب العائلة إلى حيث أراد أو يعود إليهم ظافراً بإمارته المنزوعة.

وكانت حروب الأشراف قبيل هذا العهد قوامها السيف والخيل والعصا ثم أضيف الرصاص في أوائل هذا العهد ثم ما لبثوا أن استعملوا المدافع وكانوا كثيراً ما يتخذون من بيوتهم حصوناً ومن نوافذهم متاريس ومن شوارع مكة ميادين لقتالهم، فكان أصحاب الحوانيت عرضة للنهب والسلب في كل مناسبة، كما كان أصحاب البيوت لا يأمنون على أموالهم فيها أثناء الحروب وكثيراً ما اتخذوا من عرصات المساجد وأروقته ميادين لقتالهم خصوصاً في فتنتهم مع الترك؛ لأن بيوتهم كانت تحاذي المسجد من بعض جوانبه فيضطر الخصوم لقتالهم من الجوانب التي تحاذي المسجد من أضلاعه الأخرى وقد يحتدم القتال فيتصل بالمسجد.

وكانت مكة لا تتمتع باستقرار حتى تفاجئها حركات ثورية جديدة لأن أشرافها كما أسلفنا يحتكمون في خلافتهم على الإمارة إلى سيوفهم فتتعرض البلاد في أكثر سنيها إلى فتن شعواء وقد تتجدد الفتن في العام الواحد لأكثر من مرة.

أما مواسم الحج فيها فكثيراً ما كانت تتعرض لهذه الفتن ويتعرض الوافدون إليها لأهوال لا تطاق، ولعل للدولة العثمانية أكبر الأثر في إثارة الفتن أيام المواسم؛ لأن أوامر عزلها إذا استطاعت العزل ترسلها إلى مكة صحبة الحاج الشامي وتكل إليه إمضاءها بقوته العسكرية فيمضيها في أوقات الموسم.

وفي أواخر العهد الذي ندرسه - حوالي القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري - كانت أوامر الخليفة ترسل من طريق الوالي في مصر ليبلغها إلى الأمير في مكة أو ينفذها بقوه من عسكره المرابطين في مصر؛ ولهذا وهم بعضهم عندما حسب أن مكة كانت تتبع الوالي في مصر، والواقع أن أمراء مكة كانت علاقتهم بالولاة في مصر علاقة العميل بالوسيط الذي يثق فيه الخليفة ويقدر عنصره التركي كما أسلفنا في صدر هذا الفصل.

ولا يستطيع الباحث إذا أراد أن يحصي ظروف الاستقرار والاطمئنان في مكة طيلة هذا العهد الذي نؤرخه أن ينتهي إلى نتائج سارة؛ لأن مكة بقيت معرضة لسلسلة من الفتن يعز حصرها وتعدادها ولعلها لم تهدأ ولم يقر لها قرار في غضون نحو ثلاثة قرون إلا مدداً قصيرة متفاوتة لم يزد مداها في أطول الأوقات عن عشر سنين إذا استثنينا العهد الذي كان يحكمه بركات وابنه أبو نمي الثاني وحفيده حسن وهو عهد لا تزيد مدته عن ٨٠ سنة.

تمثيل أجنبي : في أواخر هذا العهد عرفت البلاد التمثيل السياسي الأجنبي فقد وصل أول قنصل انكليزي إلى جدة في عام ١٢١٦ لمباشرة أعمال القنصلية فيها فاتخذ داراً خاصة بذلك رفع فوقها راية البريطانيين لأول مرة في تاريخ التمثيل السياسي الأجنبي ولم يكتمل القرن حتى تعدد التمثيل في جدة وأصبح للفرنسيين والروسيين قناصل في جدة[1].

لم يتسع عمران مكة في أوائل العهد العثماني كثيراً عما كان في عهد الشراكسة فإن القطبي وقد عاش ردحاً من صدر العهد العثماني الأول ومات في عام ٩٨٨ ذكر في كتابه الإعلام «أن مكة كان مبدؤها المعلاة ومنتهاها من جهة المسفلة قرب مولد سيدنا حمزة لصق مجرى العين حيث تنزل إليه من درج، ويقال له: «بازان»[1] ونهايتها الشبيكة من جهة جدة، وعرضها من وجه جبل يقال له الآن -في عهده- : جبل «جزَلّ» بكسر الجيم وفتح الزاي وتشديد اللام، وقد سماه الأزرقي جبل الأحمر وهو يشرف على قعيقعان[2] وقد سمِّي جزَلاً نسبة لطائفة من الجند كانت تلعب فيه بالطبل». ويظهر أن السور الذي بناه قتادة حوالي القرن السادس لم يعد له وجود في هذا العهد؛ لأن القطبي يذكر أن مكة في عهده لم تكن مسورة ثم يشير إلى أنها في عهده أصبحت عامرة بالسكان بعد أن كان في صباه يرى الحرم والمطاف خاليين من الناس، ولا بد أن صباه كان في عهد سليم الفاتح ثم يقول: إن شيخاً معمراً من أهل مكة صدوقاً عندما أخبره بأنه «شهد الظباء تنزل من جبل أبي قيس إلى الصفا وتدخل إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس، وأنه كان يرى سوق المسعى وقت الضحى خالياً من الباعة ويرى أهل

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) يقول ياقوت: إن جبل الأحمر هو جبل قيقعان الذي بنيت عليه قلعة الهندي.

القوافل يأتون بأحمالهم من بجيلة فلا يجدون من يشتري منهم جميع ما جلبوه، وأن الأسعار كانت رخيصة جداً لقلة الناس وعزة الدراهم» انتهى ما يقوله القطبي عن شيخه المعمر ولا أستبعد أن يكون المعمر عاش في أواخر عهد الشراكسة، ثم يقول القطبي : أما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع (١).

جراية القمح : ونحن لا نشك أن سعة الرزق كان من أهم مصادرها جراية القمح التي عين إرسالها السلطان سليم في مبالغ عظيمة وافرة توزع كمخصصات سنوية على سكان الحرمين، فقد وصلت إلى مكة في عهده الأول ولأول مرة في تاريخ الجريات سبعة آلاف أردب، أُرسلت منها ألفان للمدينة ووزِّعت خمسة آلاف في مكة، وقد دعا أمير المحمل الرومي مصلح الدين إلى اجتماع حضره قاضي مكة صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي وقضاة المذاهب الثلاثة بمكة ونائب جدة وبعض الأعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطاني الخاص بتوزيع الغلال واستشارهم في كيفية ذلك فذكروا له أن لا بد من عرض ذلك على شريف مكة بركات وأخذ رأيه فكتب بذلك إلى بركات أمير مكة فجاءه الجواب بتفويض المجلس فيما يراه، فاجتمع المجلس واتفق أعضاؤه على التوزيع بموجب سجلات تدرج فيها أسماء البيوت في كل محلة وعدد ما في البيوت من رجال ونساء وأطفال وخدم وأن يستثنى من ذلك التجار والسوقة والعسكر وقد بلغ تعداد السكان عدا من ذكر اثني عشر ألف نسمة وقد خص كل فرد منهم أربع كيلات فتسلموا حصصهم في ذلك مضافاً إلى ذلك دينار من ذهب.

وقد تزايد هذا القمح حتى صار معاش أهل مكة منه.

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ١١ - ١٣.

وأمر السلطان سليمان بشراء بعض القرى في مصر من أمواله ووقف وارداتها على الغلة ترسل من مصر سنوياً لتوزع في مكة بموجب الدفاتر السلطانية كما أمر بزيادة المبالغ التي كانت ترسل صراً إلى الحرمين.

وفي عهد سليم بن سليمان زيدت الغلة سبعة آلاف أردب أخرى تحمل من الأوقاف السلطانية في مصر على ظهور الجمال إلى السويس ثم تشحن في السفن السلطانية التابعة إلى جدة أو ينبع.

وهي فضائل قد يكون أجداد العثمانيين أرادوا بها المثوبة والإحسان أو مجرد السمعة والدعاية أو غيرهما، إلا أننا لا نشك أن ذلك أساء إلى أهالي الحرمين أكثر مما أحسن إليهم فقد عودهم قبول الإحسان بما في هذا التعود من خمول وكسل، وإذا علمنا أن هذه الصدقات ظلت جارية طوال قرون كاملة وأنها كانت تتسع باتساع عدد السكان وأن مخصصاتها كانت تعول جُلَّ الأسر في مكة من العام إلى العام علمنا نوع الإعداد الذي أعد فيه هذا الشعب وبطل تعجبنا من تنشئة أجياله بالتعاقب على اقتناص الهبات والصدقات واستغنائه بها عن الخوض في مجال الحياة التي تخوضها أمم الأرض.

ولو فكر أولئك المحسنون في صرف تلك المبالغ التي لا يوفيها الحصر في إحياء الأراضي الموات وحفر الآبار وتعميم المدارس تعميماً شاملاً وإنشاء دور للصناعات لنشأت البلاد غير هذه النشأة التي تعاني مرارتها إلى اليوم.

وبحسبنا أن نعلم أنه مر بالبلاد في هذا العهد الذي ندرسه غير قليل من النصب؛ لأن الفتن التي كانت تنشب بين أمرائها كثيراً ما تحول دون وصول

المخصصات كما تحول دون الاستيراد التجاري، فلو أنشئت البلاد على الاستغناء بمنتوجاتها لكان موقفها غير ذلك.

وقد حدثنا الدحلان فيما ذكر عن سني الفتنة فقال : إن قيمة الكيلة من القمح والأرز كانت تبلغ مشخصين، وإن الرطل من السكر والشحم والزيت كانت تبلغ قيمته ريالين، ولا نعرف فداحة هذا الغلاء إلا إذا قارنا هذه الأسعار بما يورده الدحلان نفسه عن أسعار مثلها في أيام الرخاء فهو يقول : إن الكيلة تبلغ قيمتها خمسة ديوانية والكيلة تعادل الصاع تقريباً وقيمة الرطل من العسل والزبيب أربع ديوانيات.

والذي أعرفه في عهد طفولتي أن الهللة الواحدة وهي خمس القرش الحالي كانت تساوي ثلاثين ديوانياً وكانت العملة الدارجة في هذا العهد الذي ندرسه هي النقد العثماني، ومن أنواعه كما يذكر الدحلان القرش ويساوي أربعين ديوانية، وبذلك كانوا يشترون سبع كيلات من القمح بقرش واحد.

والذي يعرفه المعمرون أن القرش نوعان «قرش الصاغ» وهو ١٢٠ ديوانياً «والقرش الشرك» وهو أربعون ديوانياً والريال المجيدي يساوي ٢٠ قرشاً صاغاً و٦٠ شركاً. ومن أغرب ما يروى عن تكاليف العيش في هذا العهد - إذا استثنينا أيام الغلاء - ما يذكره الغازي نقلاً عن الطبري والسنجاري أن أحد الأئمة في المسجد لما حجر عليه وقد كبر سنه رتبوا له نفقته اليومية وهي قرشان وفي هذا ما يدل على متوسط نفقة الشخص في هذا العهد.

طريق الحجاج : وظل طريق الحجاج طوال هذا العهد على حاله في عهد المماليك يأخذ سبيله إلى العقبة من الشام أو مصر، وقد عني الخلفاء من بني

عثمان بمحطاته على طول الطريق وكانوا ينفقون على تحصين القلاع في العقبة والمويلح وضبا والوجه من أموال الخزينة التركية المصرية وقد ظلت على ذلك إلى العهد العثماني الثاني حيث انتقل فيه طريق الحج من السويس بحراً في سنة ١٣٠١ واستحوذ العثمانيون على قلاع العقبة والوجه ثم ألحقوها بإمارة مكة نحو سنة ١٣١٠ .

وكان حجاج الهند يصلون إلى مكة براً من إيران والعراق ثم ركبوا السفن الشراعية في أوائل هذا العهد من ميناء سورت بجوار بمبي .

المحامل : وقلد العثمانيون أهل مصر والشام في إرسال محمل رومي خاص بهم من أول عام اتصل نفوذهم فيه بمكة سنة ٩٢٣ ولما وصل المحمل الرومي والمصري في ذلك العام خرج الشريف بركات للقائهما في عرضة [١] من بني قومه فالتقوا في الزاهر فألبس وولده الخلع الخاصة وسارا مع الأمراء والمحملان خلفهما إلى أن وصلا إلى باب السلام .

وأدخل المحملان إلى المسجد الحرام وجعل أحدهما على يمين مدرسة الأشرف قايتباي والآخر على يسارها . وسكن الأمير مصلح أمير المحمل الرومي في المدرسة وسكن الأمير المصري رباطاً كان في مسيل الوادي هدم بعد ذلك لتوسعة المسجد ولم يحج في تلك السنة المحمل الشامي [٢] .

(١) العرضة : نوع من الاستعراض العسكري تخرج القبائل المسلحة فيه لاستقبال زائرها يلوحون بسيوفهم ويلعبون ببنادقهم .

(٢) وكان للعراق محمل ، قال الشيخ عبد القادر الجزيري في درر الفوائد، في حوادث سنة ٧٣٠هـ : وحج العراقيون ومعهم فيل بعثه أبو سعيد خدابنده ملك العراقيين يحمل المحمل . ص ٣٠٢ .

وفي سنة ٩٦٣ عرض الوزير مصطفى باشا المتولي على اليمن على السلطان العثماني أن يحدث محملاً يجيء من اليمن فأذن له فوصل المحمل فخرج الشريف للقائه إلى بركة ماجل [1] ولبس الخلعة - هدية اليمن - وأنزلوا المحمل بالمعلاة واستمر مجيئه إلى عام ١٠٤٩ ثم لم يذكر عنه شيء.

الطوافة : ويبدو أن مهمة الطوافة التي ذكرناها ابتدعت في عهد الشراكسة واتسع نطاقها قليلاً في أوائل العهد العثماني لأن أمراء الأتراك ورؤساءهم كان لا بد لهم من أشخاص يطوفونهم.

وإذا كان أول مطوف عرفناه في عهد الشراكسة كان قاضياً في مكة فالذي يظهر أن الطوافة في العهد العثماني خرجت من سلك القضاة قليلاً إلى بعض الأعيان في مكة وقد تقدم بنا في حوادث عام ١٠٣٩ قصة محمد المياس الذي كان يطوف أمير الترك واستطاع أن يحتال له في القبض على أمير مكة بعد أن أغرى أمير مكة بالوصول إلى منازل أمير الترك خارج البلاد حتى تيسر القبض عليه.

ومحمد المياس لم يرد اسمه بين قضاة مكة أو علمائها ولكنه تبين من اعتماد أمير الترك عليه في إغراء أمير مكة أنه من وجهائها وبذلك بدا لنا أن مهمة الطوافة انتقلت من القضاة إلى الأعيان في مكة ولا بد أنهم كانوا من المتفقهين.

الناحية العلمية : وظل التعليم في هذا العهد رهين البيوت التي تخصصت فيه وقد مر بنا في عهد المماليك قبل العثمانيين أن آل ظهيرة وآل النويري كانوا

---

(١) تسمى اليوم بركة ماجد أو ماجن خطأ وصوابه «ماجل» والماجل في اللغة مجمع المياه، وقد كان موضع البركة المعروفة مجمعاً طبيعياً للمياه ثم بني فيه بركة سميت ببركة الماجل ثم حرفت إلى ماجد أو ماجن، والأزرقي يقول: في أسفل مكة ماجلان والمفهوم أن أحدهما كان مكان البركة.

يضطلعون بأعبائه إلى نهاية القرن التاسع فلما كان القرن العاشر وقد اتسعت فتوحات بني عثمان وشمل نفوذهم الحرمين فيما شمل بدأت الهجرة إلى مكة تنفتح أبوابها وبدأت آفاق الإسلام تجد طريقها ميسوراً إلى مكة أكثر من ذي قبل، فكثر المجاورون وتنوعت أصنافهم فكان منهم المنقطعون للعبادة والزهد ومنهم الراغبون في البطالة والخلود إلى ظلال التكايا، ومنهم العاملون الذين أغراهم الكسب في بلد مفتوح، ومنهم العلماء الذين لذ لهم أن يجاورا وبيت الله الحرام وينشروا علومهم في أرجائه وقد ساعد الأخيرون على نشاط التعليم في أوائل العهد العثماني واستطاعوا بالاشتراك مع العلماء من أهالي مكة القدماء أن يضيفوا إلى قائمة البيوت التي تخصصت للعلم أسماء جديدة وممن اشتهر في هذا العهد من البيوت القديمة: آل الطبري فقد برز فيهم المشايخ أبو الخير بن محمد أبي السعادات وإبراهيم بن أبي اليمن، ومحمد بن أبي اليمن، وأحمد بن عبدالله بن يحيى، والرضي بن يحيى، وحمد بن يحيى، وعبد القادر بن محمد، وعبدالرحمن بن محمد، وزين العابدين بن عبد القادر وعلي بن عبد القادر، وعبدالله بن محمد، وفضل الله بن عبدالله، ومحمد بن عبدالله، وعلي بن فضل، ومحمد بن علي، وحسن بن علي، وعبدالوهاب بن علي[١].

وكما اشتهرت منهم سيدة من جلة العلماء هي مباركة بنت عبد القادر الطبري[١].

واشتهر من آل ظهيرة أبو الفتح وجار الله ويحيى وأبو بكر بن أحمد واشتهر آل القطبي في هذا العهد بشهرة الشيخ قطب الدين صاحب التاريخ المعروف، وبرز

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط» جمعه واختصره الأستاذان محمد سعيد العمودي وأحمد علي، وطبعه نادي الطائف الأدبي في رجب سنة ١٣٩٨ هـ.

منهم المشايخ محب الدين أخو قطب الدين وابنه علاء الدين وعبدالكريم وابنه أكمل وحفيده أسعد وعبدالكريم ولبعضهم مؤلفات في التاريخ، وكانوا يسكنون جوار الباب الذي كان يعرف في المسجد بباب القطبي، وكان معروفاً قبلهم بباب الفهود وقد انقرضوا إلا امرأة كانت تسمى سعادة كانت تحت رجل يقال له عبداللطيف فاغية أولدها ولداً ورث أوقافهم (١).

واشتهرت بعد هذين البيتين بيوت علمية من أبرزها آل الفاكهي وقد نبغ فيهم المشايخ عبدالقادر وعبدالله بن أحمد وأبو السعادات محمد بن أحمد وآل السقاف ومنهم السادة أبو بكر بن محمد وأحمد الهادي وعلي بن محمد علي وعمر بن عقيل ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن عمر وعبدالله بن علي، وآل العيدروس، وأشهرهم علوي بن حسين ومحمد بن علي، وآل ابن حجر ومنهم رضي الدين وأحمد، وآل العطاس ومنهم عبدالملك وأحمد وحسين وعبدالملك ابن حسين وآل شيخان ومنهم أبو بكر وأحمد سالم أبناء شيخان وأحمد بن أبي بكر ومحمد بن عمر بن شيخان (٢).

واشتهر آل المرشدي وأبرزهم في القرن التاسع الشيخ عيسى وأصله من شيراز وكان معروفًا بحسن الخط وقد كتب جميع طرازات المسجد التي كتبت في عهده ثم اشتهر بالعلم ابنه عبدالرحمن المرشدي وقد مر بنا اسمه في حوادث عام ١٠٣٧ وكانت دار عبد الرحمن المرشدي على يمين الذاهب من سويقة إلى باب الزيارة إلى المسجد وتحتها بئر . وبآل المرشدي اشتهرت قرية من قرى وادي

(١) ذكر الشيخ عبدالله غازي في إفادة الأنام «مخطوط» أن سعادة كان لها أخ أسود اللون أمه زنجية يسمونه عبد الكريم القطبي وأنه سوقي فقير يأوي إلى مقاهي الحريق وأنه توفي حول عام ١٢٧٠ عقيماً.

(٢) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير.

فاطمة بقرب الشميسي ومن أشهر آل المرشدي المشايخ أحمد بن عيسى وإسماعيل ومحمد بن إمام الدين (١).

ثم آل المنوفي وقد قدم جدهم المنوفي في أوائل القرن الحادي عشر واشتهر أمره بالتدريس وورث علمه بعض أولاده المشايخ عبدالجواد ومحمد وبعض أحفاده المشايخ إبراهيم وحسن وزين العابدين أبناء سعيد بن محمد المنوفي، وكانت لهم مدرسة خاصة بهم وكان منهم نظار على رباط العباس بين الصفا والمروة وقد انقرضوا وعاشت منهم امرأتان كانتا تتوليان نظارة الرباط المذكور إلى القرن الرابع عشر بأيديهما سجلات أوقافه السلطانية (١).

واشتهر آل السنجاري وأول من عرف منهم الشيخ تقي الدين السنجاري ذكره ابن معصوم في «السلافة» وقال: إنه كان من أفاضل العلماء، وقد ظهر من بيته عدة علماء من أشهرهم علي بن تاج وكان لهم وقف بأول زقاق المسفلة على يمين الذاهب إليه من السوق الصغير ولا يزال باقياً إلى اليوم في الحوش المقابل لحوش العمري، وكانت بيوتهم فيه تطل على أول الهجلة، ويذكر الشيخ عبدالله غازي (١) نقلا عن الشيخ جعفر لبنى: أن تلك البيوت آلت في عهده إلى ذريتهم من البطون وهم بيت خوقير.

واشتهر آل الزرعة ومنهم الشيخ محمد بن أحمد الزرعة عاش في القرن الحادي عشر وكان من أجلة عصره وقد ورث عنه علمه أبناؤه من آل الزرعة وكان جدهم من الهنود الفَتَّن(٢) وبيتهم قديم في العلم والثروة وكان منهم تجار بالطائف ولهم فيه عقار معروف وقد افتدوا كثيراً من الأسرى بأموالهم من وقعة الطائف في عام ١٢١٧.

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) فتن: بفتح الفاء وتشديد التاء المثناة فوق المفتوحة، قرية بالهند.

واشتهر منهم الشاعر الشهير في القرن الثالث عشر أبو بكر زرعة كما اشتهر منهم عدة أئمة في المقام الحنفي، وكان منهم الشيخ تقي الدين الزرعة وهو من أئمة المسجد ويمتهن التطويف وكان يسكن القشاشية واشتهر أولاده بعده ببيت «تقي» وهم معروفون إلى اليوم [١].

واشتهر آل المفتي في القرن الحادي عشر ومن أبرزهم الشيخ أبو بكر بن عبد القادر بن صديق كان من الهنود الفتن [١] وقد أنجب بيته كثيراً من العلماء تولى عدة أشخاص منهم فتوى المذهب الحنفي في مكة مدة طويلة في القرن الثاني عشر ومن أشهرهم ابنه عبدالقادر وحفيده عمر، ويذكر آل المفتي أنهم ذرية أبي بكر الصديق وقد أطلعني أحدهم على نسبتهم وفيها ذكر الشيخ عبدالقادر بن صديق الفتني وبذلك لا يستبعد أن يكون من آل الصديق رحلوا إلى «فتن» ثم عادوا إلى مكة والمرء مؤتمن على نسبه.

واشتهر من آل علان جماعة من أجلة العلماء عاشوا في القرن العاشر والحادي عشر وكان ينسبون إلى الصديق منهم الشيخ أحمد شهاب وكان من أئمة الصوفية والشيخ محمد بن علان وكان من نوادر عصره وقد اختير لتدريس صحيح البخاري في جوف الكعبة أيام عمارتها سنة ١٠٤٠ ويقول صاحب النشر [١]: إنه لم يبق منهم إلا رجل أوفى على السبعين في عهده كان يأوي إلى بيت الوشقلي لأنه خالهم.

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط».

واشتهر من بيت باد شاه جدهم صادق باد شاه صاحب الحاشية على البيضاوي من كبار أهل التحقيق وقد حرف الناس لفظة باد شاه فصاروا يطلقون على هذا البيت باطشاه، ويذكر الشيخ الغازي أن آخر رجل منهم كان اسمه عبدالله باطشه يسكن حارة الشامية، وكان من أبطال الهوشات أقول : ولا يزال إلى اليوم بعض أولاد الباطشة في أجياد ولعلهم من نسله [١].

واشتهر آل العتاقي وأول من عرف منهم هو المحدِّث المعروف عبدالله عتاقي زاده قدم من بلاد الترك في منتصف القرن الحادي عشر فطلب العلم في مكة واشتهر به، ثم تولى الفتوى واشتهرت ذريته بعده بالجاه والغنى وكان لهم عقار بمكة والطائف من دور وبساتين وكان لهم عقار في قاعة الشفا، ويذكر الغازي [١] أنها اليوم بيد رجل من بطون ذريتهم اسمه زيني عيد وكانت منهم أم لأحد بيوت مخلص تسمى عتاقية، أقول : وقد ورث ما بقي من هذه الثروة أبناء زيني عيد إلى اليوم وأحفاد لهم من البطون ينسبون لآل الكتبي وقد هدم عقارهم وهدمت قاعة الشفا في توسعة الشوارع.

واشتهر آل البصري وأول من عرف منهم هو المحدث المعروف عبدالله البصري من أعيان مكة في القرن الثاني عشر، وقد أنجب الإمام المحدث الجليل الشيخ سالم من كبار مدرسي المسجد الحرام وكان مرجعاً معتمداً من مراجع الحديث ومن أحفاده عبدالله بن سالم ويحيى بن محمد وكانا من كبار المدرسين كما أن من ذريتهم صدقة بصري وكان شيخ الحمارين.

---

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

واشتهر آل العجيمي وأول من عرف منهم هو الشيخ حسن المتوفى في الطائف عام ١١١٣ وكانت شهرته بين الآفاق أكبر من شهرته في مكة، وقد ترجم لنفسه في رسالة أسماها إسبال الستر ذكر فيها سبع بطون من أجداده كانوا مكيين وأنهم كانوا شافعيين ثم قلدوا أبا حنيفة، وأن مساكنهم كانت في شعب علي قبل أن تنقل إلى زقاق الناشف بالشامية التي يسكنها أحفاده قبل أن ينتقل منها بعضهم، ومن أشهرهم الشيخ عبدالحفيظ العجيمي وكان مفتي مكة وكانت منهم أم الحسين وهي معروفة بين الفقهاء، ومنهم المشايخ محمد بن حسين وأبو الفتح ابنه وأبو بكر بن محمد بن علي [١].

واشتهر آل القلعي وأول من عرف منهم الشيخ تاج الدين القلعي من علماء القرن الثالث عشر الممتازين، وكان من أئمة الحنفية وخطبائهم واشتهر بعده الشيخ عبدالملك وكان من نوابغ عصره كما اشتهر منهم القاضي عبدالمحسن القلعي [١].

وظهر من آل بافضل عدة علماء كانت لهم مؤلفات قيمة في فقه الشافعي واشتهر بهم الزقاق المعروف باسمهم في حارة الشبيكة وهو الصاعد إلى جبل الهندي آخر من عرف منهم الشيخ صالح بافضل كان منقطعاً للتدريس والإفادة في المسجد الحرام [١].

واشتهر من آل الزمزمي ويسمونهم اليوم بيت الريس جماعة منهم المشايخ عبدالعزيز بن علي، محمود بن علي، عبد العزيز بن محمد، محمد بن عبدالعزيز، إبراهيم بن محمد، عبداللطيف بن عبدالسلام، علي بن

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبدالسلام، ويذكر صاحب نشر النور أن جد العائلة علي بن محمد البيضاوي قدم من شيراز في عام ٧٣٠ فباشر عن الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن وصاحب خدمة بئر زمزم ثم تزوج ابنته فورث أولاده منها خدمة زمزم.

وفي كتاب نشر الأس «مخطوط» أن علياً البيضاوي قدم من العراق لا من شيراز وأن ذلك كان في عام ٦٣٠ ثم دون بقية الخبر كما ذكره نشر النور.

أقول: ولكن الشيخ أسعد ريس وهو من أحفادهم في هذا العصر أطلعني على وثيقة تثبت انتسابه لآل الزبير ولا أرى في هذا ما يتعارض مع ما ذكره نشر النور أو نشر الأس، فقد يكون أحد أجداده هاجر من مكة فظل النسل بعيداً عنها إلى أن عاد إليها علي بن محمد، وينقل الشيخ رشدي ملحس في تعليقاته على أخبار مكة للأزرقي أن آل الزبير كانوا يتولون التوقيت للصلاة في المسجد ثم أضاف إليهم أولاد العباس خدمة زمزم «السقاية» على أثر انشغالهم بأعباء الخلافة.

واشتهر جماعة بالعلم من آل القشيري وآل باكثير وآل الأماسي وآل سفراييني وآل شمس كما اشتهر المشايخ تاج الدين الدهان وعثمان الدهان وبدر الدين العادل وحسين الديار بكري وشهاب الدين القدسي وعطية السلمي وعلي بن زمان ويحيى المسكي وأبوالغيث الشجري وأبوفضل العقاد وأبو الفتح الحكمي وأحمد العامودي وأحمد الأسدي وأحمد البسكري وداود الأنطاكي الحكيم وربيع السنباطي الجبرتي وعبد الحي بن العماد وعبد الرحمن الهمذاني وعبدالله فروخ وعلى الجمال وعلي بن أبي البقاء وعلي بن سلطان وعلي بن زياد وعمر الشحري وعمر العادلي وعيسى الثعالبي ومحمد الشلي ومحمد الشاهد ومحمد ابن سهيل ومحمد عاشور ومحمد العواجي ومحمد سنبل وإبراهيم الخطيب

وأحمد القطان وأحمد الرفاعي وأسلم الحسيني وإدريس الشماع وأمين الميرغني وجعفر البيتي وسالم بن الشيخ وعبد القادر المفتي وعبد الكريم الأنصاري ومحمد تاج الدين ومحمد الوليدي ومحمد شيخان وجمال الدين الأنصاري ومحمد الحباب محمد سعيد سنبل ومحمد الخطاب ومصطفى فتح الله وهاشم الأزرادي(١) وأعتقد أن أكثر هؤلاء لا يزال أحفادهم يعيشون في مكة وإن كانت ألقابهم قد تغيرت أو استعيرت من أسماء من خلفوهم، فنحن نرى بيت «تقي» نسبوا لأحد آبائهم واسمه تقي الدين مع أن أصل العائلة من «بيت الزرعة» وقد لاحظنا في اختيار الأسماء أعيان العلماء من الأهالي الذين توطنوا مكة ولم نذكر من المجاورين إلا طائفة لا تتجاوز عددها أصابع اليد، وكان بودنا أن نتوسع في سرد جميع أسماء العلماء في هذا العهد ونضيف إليهم أجلة المجاورين اعترافاً بجهودهم في هذا البلد إلا أن مجالنا لا يتسع لمثل هذه التفصيلات، وقد أسهب الشيخ عبدالله أبو الخير في كتابه «نشر النور» الذي لا يزال مخطوطاً إلى الآن في تراجم هؤلاء العلماء وغيرهم ممن أغفلناه وهم الأكثرية وليس على طالب التفصيلات إلا أن يطالعه.

العمامة في مكة: وكان بودنا أن نعرف شيئاً عن الزي الذي كان يرتديه العلماء في هذا العهد ولكننا لم نعثر على ما يدل عليه إلا أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وقد عاش في أواخر هذا العهد وصف الشيخ أبا الفيض محمد بن عبد الرزاق المرتضى فقال: في (ج١ ص٢٣٠) أنه كان يعتم مثل أهل مكة عمامة منحرفة بشاش أبيض عذبة مرخية على قفاه ولها حبكة وشراريب طولها قريب من فتر وطرفها الآخر داخل طي العمامة وبعض أطرافها ظاهر.

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط» طبع سنة ١٣٩٨ هـ وقد ذكر قبل هذا.

وقد عني العثمانيون في هذا العهد بشؤون التعليم عناية محدودة ولعلها تناسب عصرهم فأنشؤوا المدارس الأربعة التي كانت بين باب الزيادة وباب الدريبة؛ ليدرس علماء مكة فيها مذاهب الفقه وكان مكانها بيمارستان أنشأه المستنصر العباسي [1] وبعض أوقاف الملوك الشراكسة وعدة دور لأمير مكة الشريف حسن وقد استبدل البيمارستان بغيره - ولعله القبان في رأي الشيخ باسلامة - كما عوض البيوت الموقوفة بغيرها، أما دور أمير مكة فقد قدمها بدون مقابل.

وعندما احتفلوا بالبناء في المدارس طلبوا إلى قاضي مكة أحمد النشانجي وضع حجر الأساس وتقدم بعده كثير من العلماء فوضع كل منهم حجراً في الأساس وذلك في ٢ رجب ٩٧٢ هـ. ولما تم البناء عين العلماء للتدريس فيها واتخذ لهم فراشين ورسم لكل مدرسة خمسين عثمانياً في اليوم للإنفاق على مرتبات الأساتذة والموظفين والطلبة، وأنفذ لها طريقاً إلى المسجد كان يسمى باب السليمانية وحبس عليها بعض الموقوفات في الشام لتحمل الغلة إليها وتسلم إلى ناظرها في مكة، وقد ظل هذا الصر يحمل سنوياً مع الركب الشامي مدة طويلة ثم اختفى مع الأوقاف التي اختفت آثارها في بلاد الإسلام، وكانت المدارس موجودة قبل توسعة المسجد يشغل بعضها المحكمة الشرعية ورئاسة القضاة كما يشغل بعضها مكتبة الحرم المكي، أما المدرسة الرابعة فقد تصرف فيها أحمد باشا -خديوي مصر- وأصبحت بعدها ممتلكة.

(١) ذكرنا ذلك في إصلاحات العهد العباسي في الجزء الأول من الكتاب.

وظيفة الفتوى : وكانت أمور الفتوى في مكة في هذا العهد قد تخصص فيها بيوت العلم من المكيين بتأييد من العثمانيين خلافاً لوظيفة القضاء التي اختص العثمانيون أنفسهم ليباشروا من طريقها جزءاً هاماً من إدارة الحكم، إلا أن الأهلين كانوا إذا شعروا بضيق الحكم في مجلس القاضي لجؤوا إلى استفتاء المفتي في قضاياهم فإذا أفتى بصالحهم حملوا فتواه مكتوبة إلى مجلس القاضي، واستندوا عليها في استصدار الحكم، وكان الأشراف حكام البلاد ينتزعون الفتاوى من أصحاب الفتوى ضد خصومهم ثم يطلبون إلى القاضي أن يحكم بموجبها على أولئك الخصوم، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مفتٍ مختص ويتولى رئاستهم مفتي الحنفية.

وأول من تولى رئاسة الفتوى في عهد العثمانيين هو الشيخ قطب الدين الحنفي المكي عميد آل القطبي ثم عبد الكريم القطبي عام ٩٩٢ ثم ابنه أكمل الدين القطبي في عام ١٠٢٣ ثم عبدالرحمن المرشدي عام ١٠٤٤ ثم السيد صادق بادشاه ثم إمام الدين أحمد المرشدي ثم الشيخ إبراهيم البري عام ١٠٨٥ وممن تولى الإفتاء بعد ذلك الشيخ محمد المكي الملقب بابن العظيم وولده عبدالله محمد مكي وقد ذكره صاحب النشر وقال: إنه كان يكتب على الفتوى حسبة وهو ابن عشرين سنة ثم تقلدها بعد أبيه وظل فيها إلى أن توفي، ويذكر أن الشيخ إبراهيم البيري تقلد الفتوى بعد عبدالله مكي وظل فيها إلى عام ١٠٩٩.

وأهلّ القرن الثاني عشر والشيخ عبدالله عتاقي يباشر الفتوى، وفي عام ١١٠٨ تولاها الشيخ عبد القادر بن صديق، وفي عام ١١١٨ تقلدها الشيخ تاج الدين القلعي، ثم أعيدت مرة أخرى إلى سلفه الشيخ عبد القادر بن صديق بعد سنتين بأمر سلطاني، وظل فيها إلى أن توفي عام ١١٣٨ فتقلدها ابنه يحيى.

وفي عام ١١٤١ تقلدها الشيخ عبدالمحسن بن تاج الدين القلعي مدة يسيرة، ثم الشيخ علي مفتي عبد القادر، ثم عادت إلى الشيخ عبد المحسن وبقي فيها إلى أن توفي في عام ١١٨٧ وبوفاته تولى الشيخ عبد القادر يحيى ثم الشيخ عبد الملك بن عبد المنعم القلعي في عام ١١٩٢ (١).

الإصلاحات العامة : وعني العثمانيون في هذا العهد ببعض الإصلاحات في شتى المرافق ومن أهم ما عنوا به عين حنين وعين نعمان، فقد كانت عين حنين تجري في مكة من عمل زبيدة كما كانت عين نعمان تجري إلى عرفة، وهي تنبع من ذيل جبل كرا فتمضي إلى عرفة ثم مزدلفة ثم إلى بئر بقرب مكة، وفي أوائل عهد العثمانيين انقطعت العيون عن مكة وجعل أهل مكة يأخذون مياههم من الآبار في ضواحي مكة إلى عرفات يقول القطبي : «وكان التجار يتاجرون بالمياه في يوم عرفات في عام ٩٢٢ فيبيعونه بأغلى الأثمان ثم قال: «وحججت في بعض السنين في خدمة والدي وأنا في سن المراهقة ففرغ الماء الذي كنا نحمله فاشتريت قربة صغيرة يحملها الرجل بأصبعه بدينار ذهباً، فأمر سليمان باشا بإصلاح حنين حتى جرى الماء ودخل مكة وانتهى إلى بركة ماجل في المسفلة، كما أصلح عين نعمان سنة ٩٣١ وقد أنشئت في عرفة بساتين ظلت تسقى بذلك الماء حتى صارت أرضها مرجة خضراء» (٢).

وقد عادت عين زبيدة إلى النضوب فأمر السلطان سليمان في عام ٩٧٠ بتنظيف المجاري وإصلاحها وقد بذلوا في ذلك أموالا طائلة ولما انتهوا إلى بئر زبيدة دون مكة وجدوا أن الأرض الصخرية تحول دون الاستمرار في بناء المجاري

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص٣٣٨.

فحفروا حفرة هائلة العمق حول الأرض الصخرية وأوقدوا فيها الحطب بصورة أفنت جميع الحطب في الحجاز حتى تفتت الصخر واستطاعوا بناء المجاري التى أوصلت الماء إلى بطن مكة وقد استغرق العمل نحو تسع سنوات [1].

الإصلاحات في المسجد : وعني العثمانيون بشؤون المسجد على أثر اتصال نفوذهم بمكة، فإن أمير المحمل الرومي الذي صحب المحمل في عام ٩٢٣ فكر في تمييز المقام الحنفي أكثر مما ميزه الشراكسة فهدمه في عام ٩٢٤ وجعله قبة كبيرة شامخة تقوم على أربع بتر «قوائم» مبنية بحجر الماء المنحوت [2] جيء به من الحديبية «الشميسي» وزاد في طوله وعرضه وأراد إيصاله بالمطاف فعارضه بعضهم؛ لأن ذلك يؤدي إلى قطع الصف الأول الذي يصلي خلف إمام الشافعية فاقتصر به إلى أفريز حاشية المطاف ويبدو أن بعض علماء مكة ساءهم أن تحتل قبة المقام الفخمة وقوائمه العريضة جانباً واسعاً من المسجد فسعوا لهدمه حتى صدر أمر السلطان في عام ٩٤٩ بهدم القبة المذكورة فنفذ الأمر «خشفلدي» نائب جدة ومباشر العمائر السلطانية وأعاد بناءه على أربع قوائم لطيفة «لعلها أقل عرضاً من سابقتها» وستة أعمدة من الحجر الصوان فوقها عشرة عقود لطيفة ثم أنشؤوا فوق سقفه غرفة للمبلِّغين عليها سقف جملي مغطى بالرصاص وفتحوا في أرض الغرفة فتحة يطل المبلِّغ منها على الإمام وقد ظل على شكله «حتى هدم أخيراً» إذا استثنينا الإصلاحات والتحسينات التي تعاقبت عليه تواريخ مختلفة [3].

وفي عام ٩٧٢ أجرى السلطان العثماني إصلاحات في المسجد ذات شأن فجدد سطح الكعبة المشرفة وفرش المطاف وأصلح بعض أبواب المسجد وصفَّح

---

(١) إفادة الأنام.

(٢) يسميه العامة «فاحوط»

(٣) عمارة المسجد للشيخ حسين باسلامة ص ٧٨ وما بعدها.

باب الكعبة وأصلح الميزاب وصفَّحه بالفضة المموهة وأنشأ المدارس الأربعة بين باب الزيارة وباب الدريبة لتدريس العلم، وقد تحدثنا عنها في فصل الناحية العلمية كما بنى فوق المدارس منارة اكتملت بها سبع منارات للمسجد فقد كان له قبل ذلك ست منارات، وظهر أن منارة باب الكعبة تطرّق إليها الخراب فجددها وكانت على الطراز المصري في رأسها قبة تتعارض فيها ثلاثة أعواد تناط بها القناديل، فأقيمت على الطراز التركي الموجود اليوم في منائر المسجد.

وفي عام ٩٧٠ جددوا منارة باب علي كما خدموا منارة باب السلام في عام ٩٨٣ وجددوها [1] وقد زالت هذه المنائر وحلت محلها المنائر الموجودة اليوم.

تجديد المسجد: وفي سنة ٩٧٩ ظهر أن جدار مدرسة قايتباي وبعض المدارس الأخرى بجواره مال إلى الأمام قليلاً وأن ذلك أثر في بناء الأروقة حتى ظهر ميلها إلى صحن المسجد فأمر أمير مكة باتخاذ الأخشاب الغليظة لإسناد الأروقة ثم رفع إلى السلطنة العثمانية بالخبر فأمر السلطان سليم بالمبادرة إلى بناء جميع المسجد بناء محكماً وأن يجعلوا سقفه قباباً بدلاً من الأخشاب وندب لإدارة ذلك أحمد «كتخداي» والمهندس المعماري محمد جاويش الديوان العالي فبدأ الهدم من باب السلام في منتصف ربيع الأول سنة ٩٨٠ حتى كشفوا الجدار إلى باب علي ثم شرعوا في بناء هذا الضلع مستعينين بالأسطوانات من الرخام التي أسسها الخليفة المهدي العباسي وأضافوا إليها أسطوانات أخرى بنوها من الحجر الشمسي الأصفر المأخوذ من الحديبية بالقرب من مكة ثم انتقلوا إلى الضلع الآخر من باب الدريبة إلى باب العمرة.

---

(١) عمارة المسجد الحرام للشيخ حسين باسلامة ص٨٢ وما بعدها.

وكان السلطان سليم قد توفي أثناء ذلك فأصدر خلفه السلطان مراد خان أمره بالاستمرار في العمل فظلوا على ذلك حتى أتموا بناءه في أواخر سنة ٩٨٩ .

وفي هذا العهد كان الطريق في وادي ابراهيم قد اعتلى عن مستواه بفعل السنين وكانوا يمهدونه في كل عشر سنوات مرة فأمر السلطان مراد بنقل الأتربة المتراكمة حتى عاد إلى مستواه، وقد ذكر القطبي أن القائم بأعمال العمارة أخبره أن مقدار ما أنفق في عمارة المسجد وإصلاح الطريق حوله يقدر بمائة ألف جنيه جديد (جنيه عثماني) عدا أثمان الأدوات المحمولة من مصر من أخشاب وحدائد وغيرها .

وكان الجانب الجنوبي من المسجد (حول باب إبراهيم) مكتظاً بالبيوت والمدارس التي كانت تسبب ضيقاً في مجرى السيل، فأمر السلطان مراد بهدمها وجعلها أمكنة لمبيت الفقراء حتى لا يأوون إلى المسجد، كما أمر ببناء عدة حنفيات للوضوء على يسار الخارج إلى الصفا وأخرى عند مدرسة السلطان قايتباي وقد هدمت الحنفيات المذكورة في عام ١٣١٥ لأن فضلات المياه كانت تلوث أبواب المسجد (١).

وفي سنة ١٠٠٣ أمروا بقلع حجارة المطاف وكانت من الحجر الصوان ففرشت في الحاشية التي تلي المطاف وفرشوا المطاف بالمرمر وفي سنة ١١١٠ جددوا الشاذروان الملاصق بجدار الكعبة وجعلوه من المرمر وفي سنة ١١٢٠ جعلوا بئر زمزم شبكة من حديد منخفضة عن سطح الماء في داخله لتتلقى بعض المجذوبين الذين كانوا يلقون بأنفسهم في البئر، في عام ١١٧٢ هدموا قبة زمزم وشيدوها

(١) عمارة المسجد الحرام للشيخ حسن باسلامة ص٨٢ وما بعدها، والإعلام بأعلام بيت الله الحرام للقطبي ص٣٨٨ وما بعدها.

على الصفة الموجودة اليوم ، وفي عام ١١١٢ نقض بناء مقام إبراهيم ثم أعيد تجديده وشدت قطع الحجر «حجر المقام» بالفضة والرصاص ، وفي سنة ١١١٣ هدموا منارة الزيارة وأعادوا عمارتها ، وفي ١٥ ذي القعدة ١١٣٣ نقض بناء مقام إبراهيم وجدد مرة أخرى ، ثم رفع سقف مصلاه في عهد السلطان عبدالعزيز حتى لا تنال القناديل رؤوس المصلين من طوال الرجال [١] وفي سنة ١١٤٠ أزيل البلاط من جميع المسجد وفرش بالحجر المنحوت فرشاً محكماً وهو الباقي إلى الآن ، وعمَّر الشريف سرور منارة باب العمرة في عام ١٢٠١ كما هو مكتوب على بابها وبنى السلطان عبدالمجيد الطبقة السفلى في بيت زمزم في العام نفسه [٢] .

بناء مراد الكعبة : كان الجدار الشامي قد تشقق بسبب بعض الأمطار في عام ١٠١٩ فلما انتهى الخبر إلى الخليفة العثماني فكر في هدمه وإعادة بنائه فلم ير علماء الأتراك رأيه واقترحوا أن تحزم الكعبة بحزام نحاسي قوي يشد جدارها فوافق على ذلك وغلف الحزام بالذهب الخالص فبلغت نفقاته نحو ٨٠ ألف دينار[٢] ويذكر الشيخ أحمد دحلان أن الخليفة العثماني كان ينوي إعادة بناء الكعبة بحجارة موشاة بالذهب والفضة فمنعه شيخ الإسلام من ذلك ، وفي ١٩ شعبان سنة ١٠٣٩ هطلت أمطار عظيمة استمرت طيلة اليوم المذكور وبعض الليل وكان يصحبها برد شديد وسال في أثناء ذلك وادي إبراهيم سيلاً عظيماً طغت مياهه على المسجد حتى بلغ ارتفاعها باب الكعبة ثم فاض حتى ملأ الكعبة من داخلها وارتفع إلى نصف جدارها فانهار جدارها الشمالي والشرقي وثلثا الجدار الغربي وسقطت درجة السطح وبلغ عدد ضحايا السيل يومها نحو ألف إنسان

(١) عمارة المسجد ١٦٠ .
(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

فعم ضجيج الناس وهرع أمير مكة الشريف مسعود إلى المسجد فزعاً يتبعه وجوه الناس، فأمر بنقل محفوظات الكعبة من الهدايا إلى دار آل الشيبي ثم دعا الناس لتنظيف المسجد وإزالة ما تراكم فيه من الطين وشاركهم في ذلك ثم نقل ما هدم من حجارة الكعبة إلى حواشي المطاف [1].

وفي يوم السبت ٢٢ منه عقد الأمير مجلساً حضره علماء مكة في المسجد فاستفتاهم فيما يجب عمله فاتفقوا على وجوب المبادرة ببناء الكعبة من أموالها المحفوظة بعد هدم ما تقتضيه الضرورة من جدارها، وأن يكتبوا في الحال إلى خليفة المسلمين ليبادر بالمساعدة اللازمة، كما اتفق رأيهم على أن يستروا ما يحيط بالكعبة بأخشاب مكسوة بالحرير إلى أن يتم البناء.

وفي ٢٥ رمضان وصلت الأخشاب الخاصة بالستر من جدة فشرع شمس الدين وهو مهندس من مكة في إقامتها حول الكعبة ثم أسدل عليها ستاراً أخضر.

وشاع النبأ في بلاد المسلمين فأحدث هياجاً شديداً وندب أمير مكة من يخبر والي مصر ليرسل بذلك إلى الآستانة.

وفي ١٦ ربيع الثاني عام ١٠٤٠ وصل إلى مكة مندوب السلطان مراد وبعد أربعة أيام رست في ميناء جدة سفينة تحمل المؤن والأخشاب وسائر الأدوات اللازمة للبناء.

وفي ٢٢ ربيع الثاني شرع النجارون يحيطون الكعبة بسياج من الخشب أوسع من السياج الذي نصبوه من قبل ليعمل البناؤون من ورائه في تعمير الكعبة.

وتوفي الشريف مسعود في أثناء قيام السياج وتولى الأمر بعده الشريف عبدالله

(١) تاريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ٩٣.

ابن حسن بن أبي نمي فأشرف على أعمال الهدم والبناء وبدأ الحجّارون يقطعون أحجاراً من جبل معروف في الشبيكة سمي جبل الكعبة ثم ينقلونها إلى المسجد لتسويتها وإصلاحها، وقامت قيامة المعارضين، فقد قيل لهم: لا بد بعد هدم الجدار الخربة أن تهدموا الجدار الباقي الذي تطرق إليه بعض الخراب من أساسه. فاستنكروا ذلك وطلبوا أن يكتفي المهندسون بالترميم في الجدار الذي لم يصل إليه الخراب على أسس متينة فاستشاط بعض المشايخ غيظاً وألف الشيخ محمد علي بن علان الصديقي رساله سماها «إيضاح تلخيص بديع المعاني في بيان منع هدم جدار الكعبة اليماني» ووزع نسخاً منها على المكلفين بالعمل [1] ومع هذا فالمفهوم أن جميع الجدر هدمت عن آخرها وبنيت من جديد على خلاف ما ظن المشايخ واعتقده بعض المؤرخين، وبذلك [2] يكون بناء الكعبة الماثل اليوم هو بناء العثمانيين ويؤيد هذا ما نقله السيد أحمد دحلان من قصيدة أنشأها شيخ المعارضين الشيخ محمد علي بن علان الصديقي وقد ذكر فيها الكعبة إلى أن قال:

ومن بعد ذا قد بنى البيت (كله !!) مراد بن عثمان فشيد رونقه

وكان متعهدو البناء من مهندسي مكة وهم: المعلم علي بن شمس الدين والمعلم محمد زين الدين وأخوه عبد الرحمن، وقد سجل قاضي مكة ذلك عليهم قبل مباشرة العمل، ثم أضيف إليهم أربعة من مهندسي مصر وبنّائيها. وهكذا بدؤوا العمل في نهاية جمادى الأولى سنة ١٠٤٠ بهدم الجدار الغربي ثم

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) ذكر ابن بشر في عنوان المجد في تأريخ نجد ج١ ص ٤٦ ط٢ ما نصه: استفتى محمد أفندي الحاضرين من العلماء في نصب ساتر حول البيت تكون الفعلة من خلفه عند البناء، فاختلفت آراء الحاضرين من قائل بالاستحسان ومن قائل بعدمه، وكان من المستحسنين الإمام علي بن عبد القادر الطبري، وألف في ذلك رسالة لطيفة سماها سيف الإمارة على مانع الستارة. إلخ.

الجدار اليماني ثم نقلوا حجر الركن اليماني كما نقلوا بقية الأركان إلا الحجر الأسود ، وفي ٢٣ جمادى الثانية احتفلوا بوضع الأساس في الجدار الشامي ، وتقدم الشريف عبدالله بمباشرة ذلك ثم تبعه العلماء والأعيان ومندوبو العثمانيين والمصريين ، ووزعت الخلع والهدايا وذبحت الذبائح عند باب السلام وباب الصفا وباب الزيارة وباب إبراهيم ووزعت لحومها على الفقراء .

وقد ظل العمل مستمراً إلى نهاية شعبان سنة ١٠٤٠ ، وفي غرة رمضان ألبسوا الكعبة كسوتها واحتفلوا بذلك ، ووزعوا الهدايا والخلع واستمروا بعد ذلك في عمل ملحقات البناء من تجصيص وترخيم ودهان وإصلاح إلى أن انتهت جميع الأعمال المتعلقة بذلك في ٢ ذي الحجة من السنة نفسها ١٠٤٠ (١) .

وفي أثناء عملهم فيما يحيط بالحجر انفلق الحجر إلى أربع شظايا فهالم ذلك وأزعجهم فبادروا إلى جمع الشظايا بمركب عجنوه بالعنبر واللادن فتماسك إلى أمد طويل ثم تفكك فعالجوه بمركب من قلفونية وأسبيداج وسندروس ومسك فتماسك أمداً ثم عاد إلى التفكك فجيء بالمعلم محمود الدهان فاتخذ مركّباً خاصاً تماسكت به القطع تماسكاً تاماً (٢) .

وأمر مراد خان بتجديد باب الكعبة وإرسال القديم إليه .

وفي سنة ١٠٧٣ انكسرت خشبة في سقف الكعبة فعمروا السقف وبنوا أفريزاً لسطح الكعبة في عام ١١٠٠ ثم أصلحوا السقف عام ١١٠٩ ورمموا الكعبة سنة ١١٣٨ وقاموا بإصلاحات أخرى (٣) .

---

(١) تأريخ الكعبة للشيخ حسين باسلامة ١٠٧ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه ١٠٩ وما بعدها
(٣) المصدر نفسه ٢٣٩ وما بعدها .

كسوة الكعبة : واختص العثمانيون بإرسال الكسوة الداخلية (١) وكسوة الحجرة واستمرت مصر في إرسال الكسوة الخارجية من ريع أوقاف الكعبة بمصر ، فلما كان عهد سليمان شاه بن سليمان خان لاحظ أن أوقاف الكعبة التي وقفها الصالح إسماعيل «من الشراكسة» لا تكفي لسد نفقات الكسوة فأمر بشراء عشر قرى أخرى ووقفها على نفقات الكسوة الخارجية وظل ريع القرى يصرف على نفقات الكسوة طيلة عهد العثمانيين الأول حتى ألغى محمد علي باشا في مصر تلك الأوقاف وأحالها إلى خزانة الحكومة المصرية لقاء صنع الكسوة من أموال الخزينة كما سيأتينا في عهد محمد علي باشا .

وقد أورد الأستاذ يوسف أحمد مفتش الآثار العربية سابقاً في كتابه «المحمل والحج» أسماء القرى التى أوقفها السلطان سليم فكان عددها عشر قرى وفي هذا يقول (٢) :

«رجوت حضرة صديقي المؤرخ البحاثة صاحب العزة محمود رمزي بك المفتش بالمالية سابقاً أن يبحث عن أسماء القرى العشر الواردة في هذه الوقفية» (٣) .

«وهل هي موجودة إلى الآن كلها أو بعضها وهل تغيرت الأسماء ، فتفضل عليَّ بهذا البيان الطريف الآتي فله مني ومن جميع المسلمين خالص الشكر ووافر الثناء» .

---

(١) كانت آخر كسوة داخلية للكعبة أرسلها العثمانيون هي التي أرسلها السلطان عبدالعزيز ابن السلطان محمود الثاني في ١٢٢٧ .

(٢) كتاب المحمل والحج ج١ ص ٢٥٧ وقد ألفه الكاتب على أثر قيامه بأداء الحج في عام ١٣٥٥ .

(٣) هي وقفية السلطان سليمان وقد نقل نصها في كتابه وهي مؤرخة في عام ٩٤٧ .

بيان بأوقاف الكعبة

١	بيسوس	هي القرية التي تعرف اليوم باسم باسوس بمركز قليوب مدينة القليوبية
٢	أبو الغيث	تعرف باسم أبو الغيط بالمركز المذكور
٣	حوض بقمص	هو الحوض الذي يعرف اليوم باسم حوض بقيس بأراضي ناحية مرصفا بمركز بنها بمديرية القليوبية
٤	سلكة	هى اليوم إحدى قرى مركز المنصورة بمديرية الدقهلية .
٥	سرو بجنجة	صوابه سر بججه وهي القرية التي تعرف اليوم باسم «السرو» بمركز فارسكور بمديرية الدقهلية .
٦	قريش الحجر	هى القرية التي تعرف اليوم باسم «أويش الحجر» بمركز المنصورة بمديرية الدقهلية .
٧	منايل وكرم رحان	هي القرية التي تعرف اليوم باسم المنايل بمركز شبين القناطر بمديرية القليوبية .
٨	بجام	هى اليوم إحدى قرى مأمورية ضواحي مصر .
٩	منية النصارى	هي القرية التي تعرف اليوم باسم منية النصر بمركز دكرنس بمديرية الدقهلية .
١٠	بطاليا	بالبحث لم أجد بين أسماء البلاد المصرية قديمها وحديثها قرية بهذا الاسم وإنما يوجد اسم قريب منه وهو طماليا إحدى قرى مركز أشمون بمديرية المنوفية كما أنه كان يوجد قديماً قرية اسمها بتالي بولاية الغربية ولم أستدل على موقعها وعلى كل حال فهاتان القريتان هما خلاف قرية بطاليا المذكورة في الحج بأنها ولاية الشرقية . إهـ

في العهد السعودي الأول

كنا تركنا الشريف غالب يستقر أمره في إمارة مكة في نهاية العهد العثماني الأول ورأيناه يرفض الإذن بالحج لسكان نجد ويشتبك معهم في قتال ، ونذكر في هذا الفصل أن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب كانت في هذه الأثناء قد عمت أكثر بلاد نجد ووجدت آل سعود في الدرعية خير معوان لنصرتها .

وغني عن البيان أن ظهور أمر الشيخ محمد بن عبدالوهاب كان في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، وأنه ما كادت تمضي بضع سنوات حتى كانت دعوته قد اشتهرت وقام بنصرتها في الدرعية جد العائلة السعودية المالكة واشتد الإقبال عليها بعد ذلك وكثر أتباعها من أحياء العرب حتى قوي أمرها واشتدت شوكتها وأصحابها من آل سعود (١) وكانت أخبار دعوتهم قد وصلت إلى مكة في عهد الشريف مسعود بن سعيد بن زيد، وترامت أنباؤها إلى بعض أقطار الإسلام فحارب فكرتها بعض العلماء لأنهم رأوا فيها غير ما ألفوه ووجدوها تستنكر كثيراً من التقاليد التي علقت بأهداب الدين وأقرها مشائخهم أجيالاً بعد أجيال كبدع رأوها حسنة لفرط طيبتهم، ورأى البعض لسذاجته أنها من نوع الأعمال الصالحة ولكن محمد بن عبدالوهاب أعلن شناعتها وأنه يرفض كل ما لم يعرفه سلف الأمة فاشتد نكيرهم عليه بدعوى أنهم يقبلون البدعة ما دامت حسنة وبذلك زادت شقة الخلاف بينه وبينهم، ورأى رجال السياسة من أنصار تركيا أن يشايعوا المنكرين على الشيخ ليأتلفوا جمهرة العلماء ويكسبوا لصفوفهم ملايين الأتباع

(١) ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة شمالي غربي الرياض سنة ١١١٥ وتلقى مبادئ العلوم في بلدته ثم سافر لطلب العلوم فنبغ في الفقه والحديث واللغة ثم عاد إلى نجد وشرع يحارب البدع والخرافات فثار عليه مواطنوه وأخرجوه سنة ١١٥٧ فهاجر إلى الدرعية مقر آل سعود فرحبوا به وشرعوا يناصرون دعوته إلى الدين .

الذين ورثوا هذه التقاليد ويحولوا في الوقت نفسه دون تجميع القبائل في بلاد العرب حول دعوة موحدة تجمع صفوفهم .

بذلك شاع العداء بين الفريقين في إخلاص حاد ، كانت جماهير المقلدين ترى أن محمد بن عبدالوهاب يتعسف في استنكار ما ألفوا عن مشائخهم ويحيلها إلى بعض ألوان من الشرك وكان محمد بن عبدالوهاب لا يتورع عن مجاهرتهم بما يعتقد ويرفض جميع ما ألفوا من أنواع المجاز ويرد كل تفسير لا يعتمده سلف الأمة ، ويجاهر بأقسام الشرك التي شاعت بين المقلدين فلا عجب أن تحدث هذه الدعوة ضجة لها صداها القوي .

وأراد أصحاب الدعوة أن يحجوا في بعض جموعهم فأرسلوا إلى الشريف مسعود بذلك فلم يوافق على دخولهم وندبوا بعض علمائهم ليناظروا العلماء في مكة فلم ينتهوا معهم إلى وفاق .

ثم أرسلوا إلى الشريف مساعد بعده فأبى دخولهم ثم أرسلوا لأحمد بن سعيد فلم يوافقهم [١] ويقول ابن بشر في كتابه عنوان المجد في تاريخ نجد : [٢] إن أحمد ابن سعيد كاتب السعوديين في نجد فكتب إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب في عام ١١٨٥ وأرسل بعض الهدايا فأجاب أحمد بن سعيد بطلب إرسال أحد العلماء فأرسلوا إليه عبدالعزيز بن عبدالله بن الحصين والمفهوم من هذا أن الغرض من ذلك هو المناظرة إلا أن ابن بشر لم يشر إلى تلك المناظرة ولم يبين نتائجها ولعلها انتهت إلى غير وفاق ، ثم أرسلوا إلى سرور يطلبون الحج فوافقهم بشرط أن يتناول منهم ضريبة فأبوا ذلك عليه ثم تولى غالب فأرسلوا إليه فتهددهم ثم جهز عليهم جيشاً لقتالهم في سنة ١٢٠٥ .

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) ج١ ص ٥٨ .

يقول الشيخ عثمان بن بشر : «وكان على الجيش أخوه عبدالعزيز بن مساعد ونفر كبير من الأشراف وعدد غير قليل من القبائل كما كان يصطحب أكثر من عشرين مدفعاً وطالت غيبة الجيش فأراد غالب أن يعززه بجيش آخر فجمع بعض القبائل، وخرج يقودها بنفسه في ٢٣ شعبان ١٢٠٥ هـ وقد اجتمع في طريقه بأخيه وبعد أن قاما ببعض الأعمال الحربية رتبا أمرهما للعودة إلى مكة لقرب أيام الموسم فعادا إليها في أواخر ذي القعدة من العام نفسه»(١).

واتصلت الأخبار بغالب في مكة أن بعض القبائل في تربة ورنية وبيشة (٢) انضمت إلى دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فجهز جيشاً بقيادة أخيه عبدالعزيز لقتالهم وغادر الجيش مكة في ربيع الثاني ١٢٠٦ فوصل إلى الجهات التي ذكرناها وقد أطاعته القبائل فأقام عبد العزيز مدة في بيشة ثم عاد إلى مكة (٣).

وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب : وفي العام توفي الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد بعد أن دان لدعوته مئات الآلوف في أنحائها الشاسعة (٤) ويقول ابن بشر وفي عام ١٢٠٨ سار صاحب شقرا بأهل الوشم إلى الحجاز فنزل بعض بلاد عتيبة وغنم كثيراً من إبلهم، وفيه سار سعود بجيوش كبيرة إلى الحجاز فأغار مرة أخرى على عتيبة ومطير فغنم كثيراً(٤) وفيها أرسل الشريف غالب جموعاً أخرى فالتقت بالنجديين على ماء يعرف بالجمانية في عالية نجد، واشتبك

(١) عنوان المجد ج١ ص ٨٦

(٢) هذه ثلاثة أودية تسيل من السراة بين الطائف وأبها تجتمع في مكان يسمى (الفرشة) عند عرق سبيع (رمل بني عبدالله) وتسمى في مجموعها الوديان، وجل سكانها سبيع والبقوم وشهران (ع)

(٣) تحصيل المرام للشيخ محمد الصباغ «مخطوط»

(٤) عنوان المجد «ص» ٨٩

القتال واشتدت وطأته وكثر القتلى في الطرفين [1].

الخوف من الفرنسيين : ووردت أخبار في عام ١٢١٣ بأن القيادة الفرنسية حملت على مصر وامتلكتها، وردت الأوامر التركية بالحث على الاستعداد لكفاح الفرنسيين فيما لو فكروا في الزحف إلى الحرمين فأصدر غالب أمره إلى الأهالي والمجاورين أن يتعلموا استعمال السلاح، وأعد لذلك ساحة في جرول يخرج إليها في فرق عظيمة للتدريب والتعليم، كما أمر بإصلاح سور جدة وتقويته استعداداً للكفاح ولكن الفرنسيين لم يفكروا في الزحف إلى مكة [2].

الصلح بين غالب والسعوديين : يبدو أن غالباً شعر بعد الذي عاناه في قتال نجد أن من الخير أن يتفق مع جيرانه في حدود واضحة بينها اتفاقات خاصة تعين القبائل التابعة لكل من الطرفين وترسم الحدود الفاصلة بينهما، فندب لذلك من يحمل كتبه إلى الإمام عبدالعزيز بن سعود فعاد الجواب بالموافقة.

واستمرت المكاتبات واجتمع المندوبون من الطرفين فقرروا الحدود الفاصلة بين المملكتين وأقرت من الطرفين في مكة والدرعية [3] كما جاء في شروط الصلح ألا يمنع النجديون من الحج وأن يعاملوا معاملة طيبة، وبذلك بدأ حجاج نجد يفدون إلى مكة في موسم عام ١٢١٣ وكان على رأسهم في هذا العام نفر من كبار علماء آل الشيخ.

نابليون بونابارت يكتب لغالب : وعلى أثر استقرار الفرنسيين في مصر كتب قائدهم الأعلى نابليون بونابارت يعرض على الشريف غالب في مكة بعض الاتفاقات التجارية وينذره إذا حاول قطعها فكتب إليه الشريف غالب الخطاب التالي :

(١) تحصيل المرام «مخطوط».

(٢) خلاصة الكلام ٢٦٣ هامش.

(٣) كانت عاصمة آل سعود، وهي اليوم على أحد عشر كيلاً شمالي غربي الرياض، قد اقتربت منها مدينة الرياض حتى كادت تبتلعها، ومع هذا تحتفظ الدرعية بكل مرافق المدينة المستقلة (ع).

من الشريف غالب بن مساعد شريف مكة المشرفة إلى قدوة أعيان (أقرانه) الدولة الفرنساوية !! وعمدة أركان إخوانه المشهور بسداد همته الوافية بونابرته وسر عسكر ومقدام كبرائهم في كل مصدر ، بوعد فداعي التحرير وموجب التسطير وصول كتابك وإحاطة علمنا لما حواه خطابك وما ذكرت من وصول كتبنا وتصفح مضمونها وإرسال القول إلى طرفكم بما يوجب تبيان حدود رسومات أموال التجار في البلاد المصرية وجريان سماحنا لخمسمائة فرق إلى آخر ما شرحتموه من الكتاب لصريح وثاقة صدق الاعتماد في كل مصدر من جهاتنا الحرمية ومطلوبك من إيصال الكتب المرسلة على يدنا لمحلها أحدها لولد حيدر تيبو سلطان والثاني لإمام مسكت [١] والثالث لوكيلهم بالمخا [٢] فقد وصلت إلينا وأرسلناها بيد معتمد من طرفنا لأصحابها طبق المرام وإن شاء الله عن قريب يجيئكم الجواب وما كان من همتنا في جلب التجار إلى الديار المصرية واعتمادنا لخطكم وأكيد قولكم فنرجو الله ما نعتمد خلافه وقد كان تجار بندورنا المعمور في روع من الأكاذيب المختلفة على أموالهم وصدورها لطرفكم ، وحين ورد منكم هذا القول الأكيد صمم كافة تجارنا على أسباب الجلب إليكم ، وتعهدنا لهم كامل ما توهمت به ضمائرهم من ضمان الأمان على أموالهم ، وإنما كان الانتظار منا لوفود من جهتنا ورسولنا المصدر إليكم ، فلما كان اليوم السابع من شهرنا هذا وصل المذكور إلينا وبه كتاب وكيلك المعتمد الوزير برسيلك المعلن بمزيد من الالتفاف لوفودنا إليه وهمته في أمور مراسلاتنا من البن وغيره وهي خمسة مراكب مشحونة من طرف تجارتنا وفيها مأمور وهو مسطور أعلاها باسمنا ، فهو لنا وصحبتهم منحتنا ومراسلينا بالسطور فالمطلوب عند وصولهم إلى السويس أن

(١) هي مسقط : عاصمة سلطنة عمان . (ع)
(٢) ميناء يمني جنوب الحديدة، وهي اليوم رابعة مدن اليمن بعد صنعاء وعدن والحديدة . (ع) .

ترسلوا من طرفكم عسكر يحافظون إلى الأبنان ويبيعوها فعند إعادتهم بأثمانها كذلك تشيعوهم بالعساكر إلى أن يدخلوا سفائنهم حرصاً عليهم من خطر الطريق، فإننا ما أمكن تأمين التجار على هذا المقدار إلا بأشد علاج وما صدر هذا القدر إلا بصدد التجربة من شدة ما تأكد عليهم لديهم من توهم الأكاذيب المتناثرة؛ لأنه ما بيننا وبينكم إلا العربان فإذا شاهد التجار مزيداً من الاعتناء بأموالهم ومحافظتها من مخاطرات الأسفار والاحتفال بإكرامهم هرعوا بالجلب إلى مصر في كل آن ونرجو بهمتنا أن تسلك الطرقات وتنجح المبرات بأحسن ما كان من الأمان ويكثر الوارد إليكم من الأسباب الحجازية لا سيما عند وجدان صدق مقالكم تتكون أسباب مصادقتكم، فالآن مأمولنا منكم إلقاء النظر على ما هو لنا من البن حسب ما هو مرقوم اسمنا في ظهور (فروقنا) والالتفاف لخدامنا، وكذلك لا يخفاكم أن لنا عوائد ومرتبات في مصر مع سماح الخمسمائة الفرق دراهم نقدية، وهنا بيان ما هو لنا بالديوان العالي في مصر الواصلة إلينا صحبة الحاج مع كاتب الصرة وصيرفها :

	قرش
عن الصرة الرومية	٥٤٠٠٠٠
ثمن سرس وشطرات	١٧٠٩١٧
معتاد بني حسين وبني تراب	٤٨٧١٧
عن أشراف بني تراب بدفتر متقاعد	١٩٥١٢
عن مرتب وقف الدشيشة الكبرى	١٢٥٣٢٥
عن وقف المحمدية بالثلث بدفتر متقاعد	٨٣٣٣٣

حوالة كاتب الحرم بمكة عن أربطة	١٧٥٨١١
عن صرة شريف مكة انعام الدولة العلية	١٠٠٠٠٠٠
منها دواوين	٢١٦٣٦٧٩
ولنا في وقف الجامكية المستجدة يسلمها لنا	
أمين الحاج دواوين	٥٠٨٥٠٠
عنها ريال فرانسة ٥٦٥٠	

حرر في ١٨ شهر ذي القعدة سنة ١٢١٣

ملاحظة :

كان عنوان غلاف الكتاب (عين أعيانه وعمدة أخدانه بونابارته أمير الجمهور الفرنساوي بمصر القاهرة حالا ٨٦٤٢)

وكان الختم مكتوباً في وسطه (عبده غالب بن مساعد سنة ١٢١٣)

وكتب في أعلى الخطاب (إسنادي إلى الله)

وفي أسفله (اعتمادي على الله)

وفي إحدى الجانبين (مرادي رضا الله)

وفي الجانب الآخر (اعتقادي في الله)

انتهى نقلاً عن كتاب إفادة الأنام

للشيخ عبد الله غازي « مخطوط »

العلاقات بين غالب ونجد : وحج السعوديون في العامين ١٢١٤ ، ١٢١٥ في جموع بالغة الكثافة وكان على رأسهم فيها سعود الكبير بن عبدالعزيز ، وقد أهدى سعود غالباً هدايا عظيمة من الخيل والنوق وقابله غالب بمثلها ولم يدخل سعود مكة قبل الوقوف بل نزل بجنده في عرفة [١] .

وكاد يقع بعض الاصطدام في أيام منى عام ١٢١٥ بين أتباع غالب وبعض السعوديين ، إلا أن غالباً تدارك ذلك قبل استفحاله وساعده على ذلك شيوخ النجديين من ناحيتهم .

وكان غالب قد احتاط لكل ما توهمه فبنى فوق الجبال عند مداخل مكة بعض الأبراج وحصَّن جميع المداخل ببعض أتباعه من القبائل [١] .

ولم يدم أمر الصلح بعد ذلك طويلاً فقد اتصلت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بجنوب الحجاز فانضم إليها كثير من قبائل الحجاز على رأسهم شيخ محايل سعدي بن شار وشيخ بارق أحمد بن زاهر فغضب غالب وكلّف وزيره في القنفذة أن يجهز عليهم حملة فكانت مقتلة عظيمة هزمهم فيها وزير القنفذة .

ثم علم أنهم عادوا إلى الدعوة فاستأنف قتالهم في عام ١٢١٨ ثم قاتل غيرهم من بني كنانة وغيرهم من أهل حلى في جنوب الحجاز في رمضان من السنة

(١) خلاصة الكلام للسيد زيني دحلان ٢٦٦ هامش كتاب الفتوحات ج٢ ، ويلاحظ أن كتاب خلاصة الكلام طبع طبعتين إحداهما مستقلة والثانية طبعت على هامش كتاب الفتوحات الإسلامية للمؤلف نفسه ، وفي تحقيقنا اعتمدنا النسخة المستقلة ثم عنَّ لنا العودة للتحقيق فلم نجد النسخة المستقلة ووجدنا النسخة المطبوعة على هامش كتاب الفتوحات فاعتمدناها ولتعيين النسخة الأخيرة نشير في شرحنا إلى رقم الصفحة مع جملة (هامش كتاب الفتوحات) .

نفسها، وقد ظفر جيشه بأغنامهم وأبقارهم وأموالهم فأخذها وسبى بعض العسكر أولادهم فباعوهم بمكة بيع الرقيق [1] لاعتقادهم الخروج على الدين.

وتتابع العصيان من القبائل على غالب في جنوب مكة وجنوبها الشرقي فظل غالب يندب سراياه من الجيش لقتالهم حتى بلغ عدد المواقع ما يزيد على ثلاثين موقعة [2].

واتهم غالب جاره سعود بن عبدالعزيز فكتب إليه سنة ١٢١٧ بذلك فأكد له الأخير أنه لا صلة له بما يحدث من عصيان القبائل ولم يقتنع غالب فكان الاحتكاك وكان التنافر وبذلك عاد الأمر بينهما إلى ما كان عليه من التنابذ والقتال[3].

واشتبك الفريقان على أثر هذا الخلاف في موضع يقال له العبيلاء [4] بين الطائف وتربة قبيل رمضان من عام ١٢١٧ هـ فارتد النجديون بعض الشيء ثم استأنفوا الهجوم فظفروا.

وكان على رأس المقاتلة النجديين وزير الشريف غالب وصهره عثمان المضائفي فقد انضم إلى السعوديين على أثر خلاف بينه وبين غالب ثم ما لبث أن قاد جيوشهم وعسكر بها في بلدة «العبيلاء» [5].

(١) خلاصة الكلام ٢٥٨ ج٢ على هامش كتاب الفتوحات

(٢) المصدر نفسه ٢٦٩ وما بعدها.

(٣) خلاصة الكلام للسيد زيني الدحلان ج٢ - ٢٧١ هامش كتاب الفتوحات.

(٤) العبيلاء: قرية لقبيلة عدوان من القرى التابعة للطائف.

(٥) عنوان المجد في تأريخ نجد ج١ ص١٢٢.

ويذكر السيد زيني دحلان أن عثمان المضائفي أرسله غالب إلى سعود مع جماعة يحملون كتبه التي يستفسر فيها عن نقض الصلح وأن عثمان عندما قابل سعوداً قدم طاعته واستعد للعمل معه لفتح مكة فأمَّره سعود على الطائف وتركه يعمل فلما عاد راجعاً إلى مكة مع جماعته تخلف في قرية « العبيلاء» وحده للعمل ضد غالب ثم أخذ يجمع القبائل المجاورة في سبيل ذلك (١).

وفي رمضان أرسل عثمان المضائفي إلى حامية الطائف وعليها عبدالمعين أخو الشريف غالب يطلب الانضمام إلى الدعوة فشعر عبدالمعين بدنو الخطر فاستدعى بعض القبائل للهجوم على النجديين.

ونشط غالب في مكة فجمع جموعه من القبائل لمساعدة أخيه في الطائف ثم سار الاثنان في جيشهما شرقي الطائف إلى العبيلاء حيث حاصرا عثمان المضائفي في جنده من النجديين في حصن هناك فلم يقويا على دكه بمدافعهما فأقاما حوله إلى هلال شوال سنة ١٢١٧ ثم تركاه وعادا إليه فلم ينجحا في دكه فتركاه مرة أخرى وعادا إلى الطائف.

وشعر النجديون أن في استطاعتهم الزحف بعد ذلك إلى الطائف فساروا إليها حتى انتهوا إلى القرب منها في ٢٥ شوال عام ١٢١٧ .

وظل جيش غالب في الطائف بعد ذلك محصوراً وبدأت القبائل تتفرق عنه واضطربت أمور غالب وبلغه أن بعض النجديين يزحفون على مكة فترك الطائف ليدافع عنها جيشه بعد أن بذل للعربان أموالاً كثيرة ليغريهم بالدفاع، فكان يعطي الرجل منهم عشرة مشاخص، ثم توجه إلى مكة.

---

(١) خلاصة الكلام ٢٧٢ ج٢ هامش الفتوحات. (ع) وأبناء المضائفي يعرفون اليوم بالمضايفية، فرع من عدوان شرق الطائف. (ع).

وبخـروجـه من الطائف تداعت قـوة الجـيش المعنوية وترك بعض المكلفين بالحصون فوق السور أمكنتهم فهاجم السعوديون السور واقتحموه واحتلوا الطائف بعد مقتلة عظيمة قليلة النظير وذلك في ذي القعدة عام ١٢١٧ (١).

يقول عثمان بن بشر في تاريخه « عنوان المجد في تاريخ نجد » (٢): دخل عثمان الطائف ومن معه من الجموع ، فتحه الله لهم عنوة بغير قتال ، وقتلوا من أهله في الأسواق والبيوت نحو مائتين وأخذوا من أموال البلد أثماناً وأمتاعاً وسلاحاً وقماشاً وشيئاً من الجواهر والسلع المثمنة ما لا يحيط به الحصر ولا يدركه العد وضبط عثمان شؤون البلد وسلمت له جميع نواحيه وبواديه ، وجمعوا الأخماس وبعثوها لعبدالعزيز فقرر ولاية عثمان للطائف واستعمله أميراً عليها وعلى الحجاز » ويذكر السيد زيني دحلان أن القتل في الطائف كان عامّاً استوعب الكبير والصغير ولم ينج منه إلا القليل* (٣).

ثم وافت الأخبار بحركة الأمير سعود بن عبدالعزيز في جيش إلى الطائف ثم وصل الطائف فانضم إليه جيش عثمان المضائفي وساروا في جنودهم حتى عسكروا على نحو ثلاث مراحل من مكة حيث ظلوا في معسكراتهم إلى أن قضى الحجاج مناسكهم ، ويقول ابن بشر : إنهم عسكروا في العقيق المعروف قرب الريعان (٤) وكانت مكة قد ازدحمت في موسم هذا العام بالحجاج ازدحاماً شديداً وبات الناس فيها خائفين أن يدهمهم المهاجمون في مكة أو عرفة إلا أن المهاجمين ظلوا في معسكراتهم لا يتقدمون حتى قضي الحج ، ولما قضي الحج عرض غالب

(١) خلاصة الكلام ج٢ ص ٢٧٦ هامش كتاب الفتوحات .
(٢) ج١ ص ١٢٢ .
* قول دحلان هنا فيه تهويل ومبالغة كبيرة نابعة من موقفه المعارض للدعوة الإصلاحية .
(٣) خلاصة الكلام هامش الفتوحات الإسلامية ج٢ ص ٢٧٧ .
(٤) ج١ ص ١٢٢ . (ع) هذا يسمى عقيق عشيرة ، وهو أحد الأعقة الكثيرة في الحجاز .

على أمراء الحج الشامي والمصري أن يساعدوه في لقاء المهاجمين فلم يقبلوا وغادروا مكة بعسكرهم كما غادر مكة صنجق جدة في عسكره وبقي غالب وحده فشعر أن لا طاقة له بالبقاء فارتحل إلى جدة وترك في مكة أخاه عبدالمعين[1].

ولما تسلم الأمر أخوه عبدالمعين كتب إلى الأمير سعود يعرض طاعته على أن يستبقيه في إمارة مكة ثم أشفع ذلك بندب بعض العلماء في مكة، وكان فيهم الشيخ محمد طاهر سنبل والشيخ عبد الحفيظ العجيمي والسيد محمد بن محسن العطاس والسيد محمد ميرغني فتوجه الجميع واجتمعوا بالإمام سعود في وادي (السيل)[2] بين الطائف ومكة فقبل منهم وأعطاهم كتاباً بالأمان وموافقته على بقاء عبد المعين على ولاية مكة.

نص كتاب الأمان : «بسم الله الرحمن الرحيم : من سعود بن عبدالعزيز إلى كافة أهل مكة العلماء والأغاوات وقاضي السلطان : السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فأنتم جيران الله وسكان حرمه آمنون، إنما ندعوكم لدين الله ورسوله **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [سورة آل عمران، الآية ٦٤] فأنتم في وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبدالعزيز وأميركم عبدالمعين بن مساعد فاسمعوا له وأطيعوا ما أطاع الله والسلام»[1].

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) السيل الكبير : بلدة على ٨٠ كيلا من مكة على طريق الطائف الشمالي، وهي واقعة على وادي قرن، وكانت تعرف بقرن المنازل وهي ميقات أهل نجد (ع).

وعلى أثر وصول الهيئة إلى مكة في ٧ محرم سنة ١٢١٨ صعد المنبر حسين مفتي المالكية وقرأ كتاب الأمان على ملأ من الناس وفي ٨ محرم ١٢١٨ دخل الأمير سعود إلى مكة محرماً على رأس جيشه فطاف وسعى ثم مضى إلى المحصب حيث أعدت لضيافته الموائد في بستان الشريف غالب (١).

ودعا الناس بعد ذلك إلى اجتماع عام في المسجد فاجتمعوا، وفي مقدمتهم الشريف عبدالمعين والمفتي عبدالملك قلعي فتكلم في خطاب طويل عن دعوته إلى التوحيد، وفي اجتماع آخر طلب إليهم أن يهدموا القباب القائمة على بعض المقابر فمضوا يهدمونها، وكانت العادة أن يصلي بالجماعة الحاضرة أحد الأئمة من المذاهب الأربعة ثم يتلوه غيره فأمر بإبطال تلك العادة وألا يصلي في المسجد إلا إمام واحد فكان يصلي الصبح الشافعي والظهر المالكي وهكذا بقية الأوقات ويصلي الجمعة مفتي مكة عبدالملك القلعي، وأمر بتدريس كتاب «كشف الشبهات» في المسجد في حلقة عامة يحضرها العلماء والأهالي ففعلوا، وبعد أن أقام في مكة نحو أربعة وعشرين يوماً توجه في جيشه فعسكر في الرغامة من سور جدة بعد أن كتب إلى أهلها يدعوهم إلى التسليم (٢).

وتحصن غالب وراء سور جدة، واستعد لقتاله فدامت المناوشات بينهما نحو أسبوع، ويقول ابن بشر: إن سعوداً وجد أن جدة محصنة بسور حصين فتركها عائداً إلى بلاده بعد أن ترك قسماً من جنده في قصر من قصور مكة.

وعنَّ لبعض القبائل في عسير وكانت قد أخلصت في الطاعة أن تحاول فتح جدة فأرسل قائدها عبدالوهاب أبو نقطة إلى عبدالمعين في مكة يقول: خذ لنا بخمسة ريالات دقيقاً وخمسة ريالات سمناً وخمسة ريالات عليقاً فقد عزمت

---

(١) خلاصة الكلام على هامش الفتوحات الإسلامية ج٢ ص ٢٨٩ وما بعدها

(٢) عنوان المجد ص ٢٢٢

على فتح جدة وأخاف أن يطول زمن الحصار فأرسل عبد المعين إليه ما طلب ولكنه ما عتم أن عاد من طريق جدة دون أن يعمل شيئاً [1].

وعلم غالب في جدة برحيل الأمير سعود إلى نجد فخرج في جيشه وعسكر خارجها ثم نزل وادي فاطمة فاحتله ثم انتقل إلى الزاهر ومنها إلى مكة دون أن يعارضه أخوه فاحتلها وأرسل بعض جنده لحصار القلعة والبعض الآخر لحصار بستانه في المحصب.

وظل الحصار نحو خمسة وعشرين يوماً ثم فر المحاصرون في القلعة، أما بستان غالب فإن المدافع هدمت بعض جداره فاقتحمها جند غالب فاستسلم من فيها [2].

وزحف جند غالب بعد ذلك إلى الطائف فحاصروا فيها عثمان المضائفي على رأس جنده من النجديين ثم فشل الحصار فخرج عثمان زاحفاً إلى « السيل » ثم إلى الزيمة ثم إلى المضيق [3].

اغتيال الإمام عبد العزيز: يقول ابن بشر : وفي هذه الأثناء وافت الأنباء من نجد بأن الإمام عبدالعزيز قد اغتيل فيها في أواخر رجب عام ١٢١٨ بيد أحد الأكراد وكان قد هاجر إلى الدرعية في أثواب درويش ليثأر لقومه مما لحقهم من سعود بن عبدالعزيز في بعض هجماته على أطراف العراق وتظاهر في الدرعية بطلب العلم حتى استطاع أن يظفر بالإمام عبد العزيز أثناء صلاته في المسجد فخلص إليه من بين الصفوف وطعنه في خاصرته فهاج الناس وقتلوه ثم نقلوا عبدالعزيز إلى قصره حيث توفي .

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»
(٢) خلاصة الكلام على هامش الفتوحات ج٢ ص ٢٩٣ وما بعدها
(٣) المصدر نفسه ٢٩٥ وهذه كلها قرى في النخلتين.

وبوفاته بويع ابنه سعود بالإمامة في الدرعية والبلاد التابعة لنجد [١] .

وأهل موسم الحج في عام ١٢١٨ والمناوشات بين الفريقين على أشدها في شرقي مكة وشمالها الشرقي ثم اتسعت دائرة القتال في الجنوب ؛ لأن عبدالوهاب أبو نقطة قام في بعض عربانه من عسير يناصر السعوديين فاشتبك مع جند غالب في الجنوب في عدة وقائع .

وأحصيت الوقائع التي اشتبك فيها غالب مع النجديين وأنصارهم على أثر عودته إلى مكة فكانت نحواً من ثلاثين واقعة ساعده في بعضها عسكر من حامية الأتراك التابعة للحجاز ، وكانت جيوش النجديين تتقدم في بعض هذه الوقائع حتى تصل إلى عرفة أو وادي فاطمة ثم تنسحب ثم تعود إليها مرة أخرى [٢] .

ولما أهل موسم الحج في عام ١٢١٩ كان عدد الحجاج فيه قليلاً يصحب المحمل المصري والشامي وكانت مكة محاصرة من جميع الجهات من القبائل التي انضمت إلى السعوديين ، وفيهم قحطان وزهران وغامد وكثير من قبائل حرب وقريش [٣] وهذيل ولحيان والجحادلة وكثير من الأعراب المتاخمين لمكة وغير هؤلاء ، وقد قطع الماء عن مكة بفعل المهاجمين ولم يقف على عرفات أحد من أهالي البلاد .

وطلب غالب إلى أمير الحج الشامي بعد الحج أن يعينه في محنته بعسكره فلم يقبل ورجا إليه أن يرسل بعض جماله لحمل الأرزاق من جده إلى مكة فأبى ، وكان قد كتب قبل ذلك إلى تركيا يطلب نصرتها فلم تجبه إلى شيء رغم أنها كانت لا تنظر بعين الرضا إلى دعوة السعوديين ولا غرابة في تقاعسها فقد كانت

(١) عنوان المجد ج١ ص ٢٢٥ .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط» .

(٣) من زمن طويل ليس لبادية قريش شأن يمكنها من الحرب ، إلا إذا كان المقصود قريش ثقيف . (ع) .

مشغولة بعصيان الانكشارية في بلغراد وثورات السربيين في بلاد السرب وأحداث الفرنسيين في مصر واعتداءات روسيا على البلاد المتاخمة ومحاولات الإنكليز لضم الدردنيل وأخذ الأسطول العثماني [1].

القحط والجوع : وأهل عام ١٢٢٠ قاسياً مريراً في مكة بفعل الحصار الذي ضربه عليها القبائل أنصار السعوديين[*] من جميع الجوانب وانقطاع ورود الأرزاق إليها وبذلك عم الجوع واشتد الغلاء وبلغت قيمة الكيلة من القمح والأرز مشخصين والرطل من السكر والشحم والزيت ريالين، والرطل من البن والتمر ريالاً، والرطل من السمن نصف ريال، والكيلة الزبيب ثلاث ريالات، والرطل من لحم الماعز والجمل نصف ريال، ثم ما لبثت الأرزاق أن فقدت من الأسواق وصار الناس لا يجدونها بالأوقية فضلاً عن الرطل، فأكل الناس بزر الخشخاش والنوى وشربوا الدم المسفوح ثم أكل بعضهم الهررة والجلود والكلاب[2] فتسلل بعض الناس ملتجئين بالجيوش المهاجمة ودخل كثير من الأشراف في طاعتهم فقويت شوكة النجديين ، ويقول ابن بشر في تاريخه عنوان المجد[3] : «إن المجاعة كانت عامة في هذه السنة وإن الأسعار كانت شديدة الغلاء في بلاد نجد واليمن».

وفي هذا العام أمر الأمير سعود ببناء قلعة وادي فاطمة ليجعل منها حصناً لعسكره الذي يحاصر مكة، وازداد فرار الناس من مكة على أثر هذا حتى شوهد

(١) خلاصة الكلام على هامش الفتوحات الإسلامية ج٢ ص ٣٠٦ وما بعدها.

* ذكر ابن بشر في كتابه : عنوان المجد في تأريخ نجد ١/ ٢٨٥ - ٢٨٧ ط٤ أن انتقاض الصلح بين الشريف غالب وسعود ابن الإمام عبد العزيز أدى إلى قطع الميره والسابلة عن مكة، ولكن عندما عاد الصلح بينهما مشت السوابل والقوافل إلى مكة ورخصت الأسعار.

(٢) إفادة الأنام «مخطوط»

(٣) ج١ ص ١٣٣.

الصف الأول لا يتكامل من المصلين في أوقات الصلاة، وظل الحصار على حاله ثم شرعت قوات نجد تتقدم زاحفة من عدة جهات حتى دخلت حدود الحرم ووصلت طلائعها إلى قرب المعابدة، وتوجه فريق منها إلى جدة فحاصرها وكاد يقتحمها بالسلالم والحبال من سورها فصد عنها ثم خيم عسكره في ضاحية منها بالقرب من غليل، على بعد كيلومترات من جدة .

وأهل رمضان والضيق لا يزال على حاله في مكة والمناوشات في جميع ضواحيها لا تنقطع، ثم حل الموسم فلم يفد إلى مكة أحد من الآفاق إلا النزر القليل، وفي أواخر ذي القعدة من هذا العام ١٢٢٠ سعى بعض أهل الإصلاح في التوفيق بين الفريقين وقبل غالب أن يبقى في إماراته تابعاً للنجديين [١] .

وفي ٢٦ منه دخل النجديون مكة محرمين فطافوا بالبيت ثم انحازوا إلى معسكرهم في الأبطح فظلوا فيه إلى أن خرجوا إلى عرفة ثم عادوا إلى الإقامة في معسكراتهم بعد قضاء الحج وظلوا فيها إلى أن ارتحلوا في ١١ محرم ١٢٢١ عائدين إلى نجد بعد أن تركوا فريقاً منهم كمحافظين على البلاد .

وحج في هذا العام ١٢٢١ المحمل الشامي والمصري فاعترض السعوديون على أمر المحامل ونبهوا على أمرائها ألا يعودوا بعد عامهم هذا .

واستقر الأمر بعد نهاية الفتن وعادت الأسعار والأرزاق إلى ما كانت عليه من قبل، وشرع غالب يرتب أموره في مكة وجدة وباقي المدن بما يتناسب مع الوضع الجديد بعد أن منع شرب الدخان والتنباك، وأمر الناس أن يبادروا إلى صلاة الجماعة في المساجد وأن يقتصروا على الأذان ويتركوا التسليم والتذكير والترحيم .

(١) خلاصة الكلام بذيل الفتوحات ج٢ ص٣ وما بعدها .

وفي أواخر صفر عام ١٢٢٢ وصل من الدرعية وفد مكون من عشرين رجلاً على رأسهم الشيخ حمد بن ناصر بن معمر من كبار العلماء في نجد، وكان الشريف غالب يقيم في جدة فتوجهوا إليه وسلموه خطاب الأمير سعود بموافقته على إجراء الصلح، وطلبوا إليه أن يجمع الناس في مسجد عكاش بجدة فلما اجتمع الأعيان والتجار وسائر الأهالي قرؤوا عليهم كتاب الأمير سعود بتأمين البلاد والدعوة إلى التوحيد وهدم القباب وما إلى ذلك من أمور.

ثم توجه الوفد عائداً إلى الدرعية يصحبه شيخ السادة محمد بن محسن العطاس يحمل بعض الكتب من الشريف غالب وبعض الأهالي [١].

وظل غالب عدة أشهر في جدة لترتيب الأمور فيها، وقد أصلح ما تهدم من سورها وبنى برجاً على ساحلها ليشرف على شؤون السفن في المراسي ثم عاد إلى مكة فأمر ببناء حصن على جبل الهندي في ٢٧ رجب من العام ١٢٢١ وهو المعروف اليوم بقلعة الهندي، وقد أتم بناءه في ١٠ رمضان وحصّنه بالرجال والذخائر [٢] وجبل الهندي جزء من جبل قيقعان ويقع في الجزء الشمالي من مكة [٣].

وفي شوال من هذا العام عاد من تركيا عبدالله بن سرور ثم توجه إلى الدرعية وقابل فيها الأمير سعوداً وبات الناس ينتظرون أن يوليه الأمير سعود مكان غالب في مكة ولكنه لم يفعل، وقيل: إنه ظل في نجد ثلاث سنوات ثم عاد إلى مكة فلم يأذن له غالب في دخولها فأقام في البادية بالقرب من الطائف.

(١) خلاصة الكلام بذيل الكتاب الفتوحات ج٢ ص٥.
(٢) المصدر نفسه ج٢ ص٧.
(٣) أصبح اليوم في وسط مكة. (ع).

وفي موسم عام ١٢٢١ وافت المحافل على جري عادتها وقد أرسل أمير الحج الشامي كتبه بأنه قادم في الطريق فأعاد السعوديون إليه الكتب يمنعونه من دخول مكة فعاد من خلال الطريق، أما المحمل المصري فإنه وصل دون أن يتقدمه خبر فهجم السعوديون عليه وأحرقوه.

وفي هذا العام أمر السعوديون مناديهم بأن ينادي في الحج بمنع الحجاج من حلق ذقونهم بعد عامهم هذا.

ووصل من تركيا قاضيان مندوبان للقضاء في مكة والمدينة على جري عادة الأتراك من سابق فلم يقبلهم السعوديون وولوا أمر القضاء في مكة الشيخ عبدالحفيظ العجيمي وفي المدينة رجلاً من علماء المدينة[١].

وظل حكم السعوديين في مكة من استيلائهم عليها إلى خروجهم منها في أوائل عام ١٢٢٨ نحو سبع سنوات وشهرين يتولى أمرها لهم الشريف غالب وكان الإمام سعود يحج سنوياً على رأس ألوف مؤلفة من أتباعه وذويه من سائر بلاد نجد تتبعهم عائلاتهم وكانت جيوشه من سائر الأقطار التي يحكمها في الأحساء ومسقط وعسير والحجاز وبعض بلاد اليمن توافيه إلى مكة وتنضم إلى موكبه فيها، وكان ينزل في دار البياضية الشمالي أحياناً وفي الجنوب أحياناً أخرى[٢] حيث يستقبل أشراف مكة وأعيانها وعلى رأسها الشريف غالب الذي يتقبل هداياه ويبادله مثلها.

وكان يوزع كثيراً من عطاياه على فقراء الحرمين ورجال البوادي كما كان يكسو

(١) خلاصة الكلام بذيل كتاب الفتوحات ج٢ ص٨.

(٢) البياضية: قصر يقع في المعابدة بناه الشريف غالب بن مساعد للنزهة كما بنى أخوه جعفر «دار الجعفرية» في المعابدة أيضا، وقد هدمت آثار الدارين وقامت مكانهما عمارات جديدة.

الكعبة سنوياً بالقز الأحمر أو القيلان ويطرز ستارة بابها بالذهب والفضة، وكان يستأنف عودته إلى نجد بعد فراغه من الحج ويأمر جيوشه بالعودة إلى أوطانهم.

وامتنعت في هذه السنة جميع البلاد الإسلامية الخاضعة لتركيا عن الحج وأصبح الحجيج يكاد يكون مقصوراً على البلاد الخاضعة للسعوديين في أقطار الجزيرة وبعض المغاربة في بعض السنين.

وكان المكان المختار للإمام سعود بالمسجد الحرام هي قبة زمزم يؤدي فيها صلاته في موكب حافل من حاشيته، وفي آخر حجة للإمام عام ١٢٢٥ أمر بكشف القبة التي فوق مقام إبراهيم حتى صار الحجر بارزاً لكل من يراه في الناس [١] ويقول ابن بشر: إن مكة قاست كثيراً من المجاعة في عهد حصار السعوديين لها ثم عاد الرخاء بالتدريج وما وافى عام ١٢٢٥ على نهايته حتى كان الرخاء قد عمها تماماً حتى بيع الأردب من القمح بأربع ريالات [٢].

وفي عام ١٢٢٦ صدر أمر السلطان محمود في تركيا إلى صاحب مصر محمد علي باشا بأن يجهز لقتال السعوديين في مكة، وكان قد أمر بذلك قبل أربع سنوات ولكن محمد علي تقاعس عنه لانشغاله بشؤون الاضطرابات في مصر [٣].

الهجوم المصري: ثم جهز عليهم في عام ١٢٢٥ وقد كان جيشاً كبير العدد والعدة يتولى قيادته ابنه طوسون، وقد زحف الجيش من مصر في رمضان في مراكبه البحرية إلى ينبع يضم فرقاً من الأتراك والمصريين والشاميين وبعض المغاربة فاحتلها بعد مقاومة لم يطل أمرها ثم زحف إلى وادي الصفرا [٤] فقابله

(١) إفادة الأنام «مخطوط».
(٢) عنوان المجد ج١ ص ١٤٩.
(٣) خلاصة الكلام ذيل الفتوحات ج٢ ص٩.
(٤) وادي الصفراء في طريق المدينة من قرية بدر المعروفة.

السعوديون بقيادة عبدالله بن سعود فاشتبك القتال بينهما عدة أيام، واستطاع عبدالله أن يهزم الجيش المصري فتفرق عسكره وفر طوسون إلى أقرب ساحل مصري وهو « القصير » فأقام به ينتظر إمداد والده؛ ليستأنف به كرته على السعوديين وعاد عبدالله بن سعود في جيوشه إلى مكة، وكان قد وصل إليها الإمام سعود حاجاً فاجتمع بأبيه ووفد عليه الأشراف مسلمين وعلى رأسهم غالب .

ولما فرغ الإمام سعود من حجه توجه إلى الدرعية بعد أن أمر جيوشه بالمرابطة في وادي فاطمة على ٢٢ كيلو متراً من مكة[1] .

---

(١) عنوان المجد ج١ ص١٥٧ .

في عهد محمد علي باشا

تمهيد: لا بد لنا من أن نقدم بكلمة مختصرة بين يدي البحث الخاص بعلاقة محمد علي باشا بمكة لنعرف شيئاً عن تكوين حكومة محمد علي في مصر .

ولا بد لذلك من استعراض الحوادث من عهد محمد علي بك الكبير «بلوط» إلى عهد محمد علي باشا جد العائلة الخديوي السابقة في مصر .

ويبدأ تاريخ محمد علي بلوط بثورته في مصر على حكومة العثمانيين ، وكان من قواد جيشها وذلك في سنة ١١٨٠ ، وكنا قد رأينا في عام ١١٨٣ هـ الأشراف من ذوي بركات يستمدون عونه ضد خصومهم من ذوي زيد في مكة على أثر انتصاراته في مصر فيندب لنصرتهم بعض جيوشه على النحو الذي أسلفناه في عهد العثمانيين الأول .

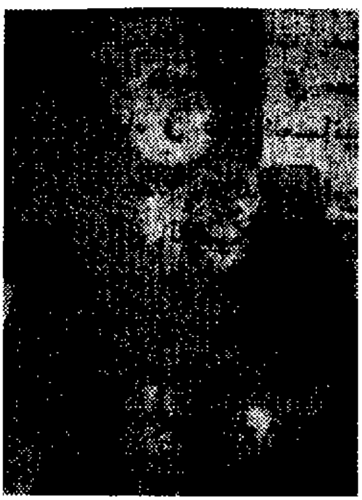
وقد ظل هذا القائد على أمره في مصر حتى توفي سنة ١١٨٧ فتولى الأمر بعده ابنه أبو الذهب إلى أن نشبت الاضطرابات بينه وبين بعض مناوئيه على الحكم ، وعمت الفوضى في البلاد ونهبت بعض بيوت الأوروبيين ؛ فتذرع الفرنسيون وجردوا حملة قوية على مصر ، واستطاعت هذه الحملة بعد مناوشات طويلة بينهم وبين مصر أن يحتلوها بحجة إقرار الأمن سنة ١٢١٣ وقد فصّلت تواريخ مصر أحداث ذلك في فصول مطولة لسنا في سبيلها في هذا البحث .

وظل حكم الفرنسيين في مصر إلى عام ١٢١٦ ثم أجلاهم عنها جيش أرسله العثمانيون لاستخلاصها منهم ، وبجلائهم عاد الحكم فيها إلى العثمانيين تحت ولاية خسرو باشا .

ولم يدم أمر العثمانيين طويلاً، لأن الفتن ما لبثت أن نشبت بين الجيش الفاتح ورؤسائه بسبب تأخير الرواتب، ثم تطور الأمر في أوائل عام ١٢٢٠ حتى عمت الفوضى البلاد.

وفي هذه الأثناء كان محمد علي باشا - جد العائلة الخديوية السابقة في مصر - يقيم مع رجال الجيش في رتبة وكيل لرياسة إحدى فرق الجيش، فلما رأى ازدياد الفوضى عمد مع فرقته من الألبان إلى امتلاك القلعة وأقام فيها ساهراً على إخماد الفتن وأدرك رؤساء العسكر وأعيان البلاد أن من الخير أن يلتفوا حوله لإنقاذ البلاد من الفتن ثم ما لبثوا أن أجمعوا على اختياره لولاية مصر ونادوا باسمه في البلاد في صفر من السنة نفسها ثم كتبوا بذلك إلى السلطنة العثمانية فوافاهم التأييد.

إلا أن بعض مماليك الأتراك عز عليهم ذلك فاتصل بعضهم بالإنكليز ليتوسطوا لهم لدى الباب العالي في نقل الولاية إليهم فنجحت الوساطة، وأرسلت الدولة العثمانية أسطولاً مسلحاً لعزل محمد علي فثار بعض أعيان مصر ضد ذلك العزل وكتبوا إلى دار السلطنة يطلبون تأييد محمد علي فوافتهم الموافقة في العام نفسه ١٢٢١.



واستاء الإنكليز لفشل وساطتهم فأرسلوا أسطولهم إلى الإسكندرية فتملكها ثم تقدم الإنكليز إلى رشيد فانهزموا ثم اتفقوا على الصلح مع محمد علي باشا وعادوا إلى بلادهم وبقيت مصر تحت ولاية محمد علي.

وعلى هذا فكر محمد علي في ضرورة

تقوية الجيش وترقيته شؤون البلاد فأسس المصانع الحربية وبنى المدارس وأصلح أحوال الزراعة والتجارة وخطا بمصر خطوة جريئة نحو التمدن والحضارة.

وفي هذه الأثناء كلف العثمانيون محمد علي باشا بإرسال حملة إلى الحجاز لإجلاء السعوديين عنها فتردد بعض الشيء كما ذكرنا إلى أن مكن لنفسه في مصر ثم حشد جيشه من الأتراك والمصريين وأرسله تحت قيادة ابنه طوسون لاستخلاص الحجاز في عام ١٢٢٦ فلم ينجح كما أسلفنا وعاد إلى القصير ينتظر إمداد والده، ليستأنف كرته على السعوديين.

وقد جهز له أبوه جيشاً في آخر شهر المحرم عام ١١٢٧ فاستطاع أن يستأنف به احتلال ينبع ويجعل منها مستقراً لقيادته يتلقى فيها الإمدادات من أبيه ويرتب خططه الهجومية.

ومن ثم شرع يكتب سراً إلى غالب في مكة وكبار مشايخ حرب ورؤساء القبائل حتى استوثق من معاونتهم وحتى جاءت الأنباء من غالب في مكة أنه سيعمل إلى جانبه لنصرتهم ضد السعوديين.

وأخذت قيادة الجيش المصري تصب أموالها وهداياها للعربان في ينبع والبوادي صباً، فمن ذلك أنهم أعطوا كبير مشايخ حرب مائة ألف ريال فرنساوي لتوزيعها على القبائل، وقد خصه من ذلك ثمانية عشر ألف ريال، ورتبوا له رواتب شهرية كانت تصرف له دون إبطاء فخفت قبائل حرب لمساعدة المصريين وتقدم رجالهم أمام الجيش حتى أدخلوهم المدينة في ٢ ذي القعدة من السنة المذكورة عام ١٢٢٧ بعد أن قبضوا على أميرها السعودي علي بن مضيان [1].

زحف فريق من الجيش من ينبع إلى جدة فوصلها في أوائل المحرم ١٢٢٨ وقد

(١) خلاصة الكلام ٢٩٥. وكان ابن مضيان أحد شيوخ قبيلة حرب. (ع).

احتلها بمساعدة الأيدي التي كانت تعمل في الخفاء للشريف غالب، وبذلك هربت حامية قلعة جدة من النجديين ثم استمر الزحف حتى دخل المهاجمون جدة فمكة فاستقبلهم غالب فيها بعد أن فرت حامية النجديين إلى الطائف، وكان عبدالله بن سعود قد انحاز في هذه الأثناء إلى الخرمة شرقي الطائف [1] ورابط بجيوشه فيها وترك الجيش المصري يواصل زحفه في مدن الحجاز.

ومضى الزاحفون إلى الطائف فاشتبكوا مع النجديين ومن والاهم من القبائل في وقائع كثيرة يطول سردها، وكان عثمان المضائفي على رأس المدافعين عن الطائف كما كان الشريف غالب على رأس الزاحفين، وقد انحاز إليه الكثير من القبائل في أطراف الطائف إلى بلاد زهران وغامد بعد أن تخلوا عن موالاة النجديين وثبت مع النجديين كثير من القبائل في جنوب الحجاز.

وفي هذه الوقائع قبض الشريف غالب على صهره عثمان المضائفي قائد الجيش النجدي فأرسله وأمير المدينة علي بن مضيان إلى مصر مأسورَيْن ومنها أرسلا إلى تركيا فقتلا فيها.

وانتهت أخبار الانتصارات إلى مصر فأقيمت الزينات خمسة أيام وندب محمد علي باشا إلى الآستانة من يبلغ السلطان ذلك فدخل المندوب في احتفال كبير وهو يحمل بين يديه مفاتيح رمزية ليشير بذلك إلى أنها مفاتيح مكة والمدينة والطائف.

وعلى أثر ذلك توجه محمد علي باشا من مصر إلى مكة فاستقبله غالب فيها استقبالاً عظيماً وأنزله في دار بالشامية يقال له بيت باناعمة أو بيت العادة وأنزل ولده طوسون في بيت كان يقال له بيت السقاط أمام باب السيد علي نائب الحرم

(١) عنوان المجد ج١ ص١٥٩.

إذ ذاك، وهو في الشامية أيضاً بجوار المدرسة العزيزية (١).

وعلم الشريف غالب أن السلطات التركية باتت لا تميل إليه بعد خدمته للسعوديين وأن الجيش المصري الذي استعان به على إجلاء السعوديين أصبح يعمل في الخفاء للقبض عليه فأخذ حذره من ذلك وحاول أن يتحصن ضد المصريين مدة إقامتهم لئلا يقع في قبضتهم ولكن ذلك لم يغنه فتيلاً.

وشعر محمد علي بصعوبة تحقيق أمر القبض على غالب وهو في مكة بين جنده وعتاده ومن يواليه من الأهلين والقبائل فاستعان بتدبير رجل كان يطوِّفه اسمه أحمد تركي، فدبر الأمر على أن يخرج طوسون إلى جدة مغاضباً لأبيه ليسعى بينهما غالب في الصلح ومن ثم يعود طوسون نزولاً على حكم غالب إلى مكة وينزل في داره فلا بد من أن يذهب غالب إليه ليصحبه إلى أبيه فإذا اختلى الشخصان يدخل بعض الضباط ويقبضوا على غالب.

وقد جرى تدبير ذلك بإحكام وبه قبض على غالب ثم ما لبث أن زاره أحمد تركي ليطمئنه بالنتيجة وليقول له: ليس في الأمر إلا أن تقابل الخليفة في تركيا ثم تعود إلى إمارتك ثم يقترح عليه أن يكتب إلى كبار أبنائه يستدعيهم إليه ليولي أحدهم مكانه إلى أن يعود فتجوز الحيلة ويكتب إلى أبنائه يستدعيهم فلا يكادون يتجاوزون الباب حتى يقبض عليهم وبذلك يأمن المصريون فتنتهم واستثارة الموالين لنصرة أبيهم.

وقد رحل غالب وأولاده إلى مصر فاستُقبلوا فيها استقبالاً رسمياً ثم حازوهم في أحد القصور تحت حراسة من يراقبهم وبعد أن ظلوا عدة شهور صدر الأمر بترحيلهم إلى تركيا فأقاموا في سلانيك إلى وفاة غالب عام ١٢٣١ (٢).

(١) خلاصة الكلام ٢٩٦، (ع) وآل غالب اليوم سكان المثناة من الطائف.

(٢) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٢٩٨ وما بعدها، (ع). وقد أخذوا يزوجون غير الأشراف فاتقين بذلك العرف الشريفي بعدم تزويج غير الشريف.

يحيى بن سرور: وبخروج غالب وأولاده من مكة وقع الاختيار على أخيه يحيى بن سرور فنودي به أميراً على الحجاز في حفل رسمي على جري العادة وذلك في أواخر ذي القعدة عام ١٢٢٨ .

الترتيب الإداري : وأجرى محمد علي باشا على أثر تنصيب يحيى على إمارة مكة بعض تعديلات إدارية ، فجعل شؤون البادية إلى الشريف شنبر بن مبارك المنعمي(١) كما جعل شؤون الدفاع إلى حامية تركية مصرية يرأسها موظف من جيشه وأضاف إليه شؤون الأمن فكان «محافظ» ورئيس الدفاع ، وجعل المطوف أحمد تركي مستشاراً للمحافظ المذكور ، كما جعل مقر ديوانه في القصر الذي شيده محمد علي باشا أمام باب علي وقد سمي أخيراً قبل هدمه بيت باناجة ، وبذلك اجتمعت عدة سلطات في مكة لعدة أشخاص .

استئناف القتال في نجد : واستأنف محمد علي باشا زحفه على النجديين على أثر فراغه من الحج عام ١٢٢٨ فحدثت مناوشات عظيمة بين الجيشين كان النصر فيها سجالاً .

وأهلّ عام ١٢٢٩ والقتال لا يزال مستمراً بين الجيشين في الجنوب نحو القنفذة والشرق نحو الطائف وما حولها .

وفاة الإمام : وتوفي الإمام سعود في هذه الأثناء في جمادى الأولى عام ١٢٢٩ فتولى الأمر بعده ابنه عبدالله بن سعود ، وكانت المناوشات لا تزال مستمرة بين الطرفين (٢) .

وظل محمد علي باشا على رأس جنده في هذه الحرب طوال عام ١٢٢٩

(١) خلاصة الكلام ٣٠٠ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ٢٩٨ .

وظلت الإمدادات تتواتر عليه من مصر طوال مدة الحرب ، وقد قاست مكة أثناء ذلك كثيراً من الشدائد والضيق وقلة الأرزاق ، ثم فتح للتجار باب الاستيراد من مصر على مصراعيه فاستورد التجار أصناف الغلال وعاد الرخاء إلى ما كان .

وأهل عام ١٢٣٠ والقتال على أشده في عدة مواقع من بلاد العرب بقيادة محمد علي باشا ، وفي شهر جمادى الآخرة عاد محمد علي من ميادينه إلى مكة فنظر في بعض ترتيباتها وأعاد المرتبات من الغلال التي كانت تصرف لفقراء مكة بعد أن أجرى تعديلات كثيرة في دفاترها ثم بلغه خبر بعض القلاقل في مصر فرأى ضرورة سفره إليها ؛ فترك ابنه طوسون على قيادة الجيوش المحاربة وعاد إلى مصر .

واستمر طوسون يحارب إلى شهر شعبان ثم تنادى الفريقان للصلح ، واجتمع مندوبوهما لوضع شروطه ، وبذلك عاد طوسون باشا إلى مصر في ذي القعدة من العام ١٢٣١ [(١)] .

ويقول ابن بشر صاحب عنوان المجد : إن فكرة الصلح كانت صادرة من محمد علي باشا إلى طوسون ، وأن السعوديين لم يعارضوا في قبولها [(١)] .

القتال مرة أخرى : وفي عام ١٢٣٢ بدأ الخلاف يستأنف سيرته بين محمد علي باشا والسعوديين ويذكر صاحب عنوان المجد في أسباب ذلك أن رجالاً من أهل القصيم والبوادي ركبوا إلى مصر وزخرفوا القول لصاحبها فتلقى قولهم بالقبول[(٢)] وشرع يجهز عساكره إلى نجد بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، وكان طوسون قد توفي على أثر عودته من مكة .

(١) عنوان المجد ج١ ص٨٣ .

(٣) السابق ج١ ص١٨٥ .

وسار إبراهيم باشا في جيوشه إلى المدينة فنزلها ثم تقدم إلى الحناكية (١) فاجتمع إليه الكثير من قبائل حرب ومطير وعتيبة وغيرهم.

التسليم وقتل الإمام: وهكذا استأنف سيره ثم ما لبث أن استنفر عبدالله بن سعود قبائله في الدرعية وسار بها في جمادى الأولى عام ١٢٣٢ نحو الحناكية، ولما اتصل القتال بين الجيشين كاد عبدالله بن سعود أن يظفر إلا أن الترك ثبتوا، واستطاعوا أن ينتزعوا النصر لأنفسهم فهزم السعوديون واختلطت جموعهم؛ فتعقبهم الترك من بلد إلى آخر حتى احتلوا عنيزة ثم الوشم ثم شقراء حتى انتهوا إلى ضرما حيث اشتد فيها الحصار وعم الكرب وقد دخلها الغزاة عنوة.



يقول ابن بشر: ومع هذا قتلوا أهلها في الأسواق، وكانوا يأتون أهل البيت والعصابة المجتمعة فيعلنونهم الأمان ثم يجردونهم من سلاحهم ويقتلونهم وينهبون جميع ما عندهم، ثم سار الغزاة إلى الدرعية فوصلوها في أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ وبدؤوا يحاصرونها.

يقول ابن بشر(٢): إن أناساً من أهالي نجد ورؤساء البوادي ممن نبتت لحومهم

(١) الحناكية شرقي المدينة على (١٠٠) كيل في الطريق إلى نجد.

(٢) ج١ ص ١٩٧

وأقاربهم من عطايا آل سعود ساعدوا الترك في غزوهم على أمل أن ينالوا منهم ما كانوا ينالون من آل سعود.

ويصف ابن بشر بعض المواقع في الدرعية فيقول : إن بعض من حضر قال له : لو حلفت بالطلاق أني لم أطأ من الموضع الفلاني إلى الموضع الفلاني - في الدرعية - إلا على رجل مقتول لم أحنث [1] ولما اشتد الأمر على الدرعية خرج بعض الأعيان على رأسهم عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود وكبير آل الشيخ علي بن محمد بن عبدالوهاب يطلبون الصلح فأبوا أن يصالحوهم إلا على أهل السيف أو يحضر الإمام عبدالله بن سعود، وكان الإمام قد انحاز للقصر ونصب المدافع استعداداً للقتال ووزع كثيراً من الأموال، لكن أنصاره مالبثوا أن تفرقوا عنه هاربين بما أخذوا منه فتقدم بطلب الأمان فأمروه بالخروج فخرج إليهم وبذلك سلمت الدرعية ونقل الإمام إلى حيث رحلوه إلى تركيا وقد قتل فيها [1].

بتسليم الدرعية كثرت وشايات الأهالي في علمائهم وقضاتهم وأعيانهم عند قائد الجيش فاستمر القتل فيهم فقضى على بعضهم وهم وقوف أمام المدافع والبنادق، وعزر القاضي أحمد بن رشيد بالضرب والعذاب ثم قلعت جميع أسنانه [2].

وجاءت الأوامر من مصر بهدم الدرعية وحرقها فأخلوا السكان منها وأضرموا فيها النار حتى أصبحت في خبر كان [3].

(١) ج١ ص ٢٠٦ وما بعدها

(٢) عنوان المجد ج١ ص ٢٠٨.

(٣) المصدر السابق ٢١٣ ويذكر بيركر بنيس مؤلف كتاب إبراهيم باشا ص ٤٠ أن إبراهيم باشا استدعى ٥٠٠ من رجال الدين في الدرعية ليناقشوا علماء الأزهر الذين صحبهم في حملته وأن النقاش دام ثلاثة أيام دون أن ينتهي إلى شيء.

وهكذا يقسو المسلمون على بعضهم باسم الدين، ولا ترحم طوائفهم الطوائف الأخرى التي تخالفهم أو تعاديهم أو تضعف لهم ولو فقهوا تعاليم دينهم الصحيحة لعلموا أنه أرحب أفقاً مما يظنون.

وقبض إبراهيم باشا على كثير من آل السعود وآل الشيخ فرحلهم بعائلاتهم إلى مصر حتى ظلوا مدة طويلة رهن الحراسة.

وظل إبراهيم باشا حول الدرعية عدة أشهر لتوطيد الأحوال ثم انتقل إلى الحجاز حيث ظل فيها إلى نهاية عام ١٢٣٤ ثم عاد إلى مصر وبذلك عاد أمر الحجاز ونجد إلى العثمانيين ومنح محمد علي باشا حق الإشراف عليهما كما منح إبراهيم باشا لقب والي مكة وهي ولاية شرف فيما نعلم.

الاضطراب في مكة: وظل الأمر في مكة بضع سنوات ثم ما لبث أن عاد الاضطراب بين بيوت الأشراف، ولعل الاضطراب في هذه المرة كان سببه توزيع السلطة بين أمير البلاد وأشخاص غيره كانت أوضاعهم الرسمية تخول لهم مشاركته في النفوذ.

وقد قدمنا أن ترتيبات محمد علي باشا الإدارية بحكم إشرافه الممنوح من العثمانيين اقتضت تعيين رئيس للحامية ثم أضيفت إليه وظيفة «محافظ» مكة ليشرف على شؤون الأمن فيها؛ وبذلك تم له من النفوذ ما يضاهي نفوذ الأمير إن لم يزد عليه.

وثمة شخصية ثالثة هي رئاسة العربان التي ولاها محمد علي باشا أحد الأشراف «شنبر بن مبارك» وأعطاه من الصلاحية بالنسبة لعموم القبائل ما لا يقل عن صلاحية أمير البلاد.

وإذا علمنا أن شنبراً كان موضع ثقة محمد علي باشا وأن الصلة بينه وبين رئيس الحامية بمكة كانت على أتم ما تكون من الصفاء والود بدا لنا أن كفتي الميزان لم تكونا متعادلتين ؛ لأن إحدى الجهات كان فيها أميراً للبلاد فقط بينما اجتمع في الجهة الثانية قوة الجيش وإمارة العربان في آن واحد .

ومن الطبيعي أن يحتك النقيضان وأن تصطدم الآراء فيأبى أمير البلاد إلا أن يكون صاحب القول بحكم إمارته ، ويأبى أصحاب القوة إلا أن يملوا إرادتهم فينشب النزاع وتتفاقم المشاكل .

ولعل محمد علي باشا كان معذوراً عندما وزع المسؤوليات ولم يركزها في مصدر واحد ، لعله شعر أن الأمراء من الأشراف لا يقيمون أمور البلاد على النحو الذي يريده لها ولكن لا بد من وجودهم في دست الإمارة ؛ لأن البلاد ألفت طاعتهم وتقديس بيوتهم فأراد أن يجمع بين المكرمتين ، تقليد الإمارة لأصحابها وتزويد البلاد بقوة أخرى تتولى استقرار الأحوال وتشرف على مرافقها فجاءت ترتيباته بغير الغاية المطلوبة ؛ لأن الاختصاصات ما لبثت أن اختلطت على أصحابها وراح كل فريق يدعي أحقيته فيما يرى ويأمر .

قتل شنبر : وعانت البلاد من جراء هذا الارتباك كثيراً بضع سنوات ثم ما لبث أن تفاقم الشر في ٢٢ شعبان عام ١٢٤٢ لأن الشريف يحيى بعد أن صبر طويلاً على مشاركة غيره له في الحكم رأى أنه لا بد من وضع حد حاسم للأمر فعمد إلى أمير العربان الشريف شنبر وهو يصلي المغرب عند باب الصفا فطعنه بسكين في خاصرته ولم يتركه حتى قضى .

وضج الناس في المسجد وعم الفزع وانتهى الخبر إلى رئيس الحامية صديق المقتول فاستشاط غضباً وأمر جنده بالاستعداد للهجوم على قصر الأمير يحيى

وإلقاء القبض عليه فتحصن الأمير في بيته واستعد للدفاع وكادت الفتنة تقع لولا أن أخر حدوثها توسط الشيخ محمد الشيبي وقد طلب إلى يحيى أن ينكر القتل وينسبه إلى أحد عبيده فأبى وأصر على القول بأن القتل لم يقع إلا بيده وانتهت الوساطة بأن يغادر الشريف يحيى بن سرور مكة إلى مصر من طريق البر وقد غادرها وأصبحت البلاد بذلك تحت حكم رئيس الحامية (١) .

عبد المطلب بن غالب : وما لبث رئيس الحامية أن رأى أن لا قبل له بإقرار البلاد إلا بعد أن يولي أمرها أحد الأشراف فنادى بإمارة أحد أولاد غالب أميرها السابق وهو «عبدالمطلب بن غالب» واحتفل به في موكب حافل كالمعتاد، ومن ثم كتب رئيس الحامية بذلك إلى صاحب مصر محمد علي باشا يطلب الموافقة على ماحدث واستصدار التأييد بذلك من تركيا .

وفي هذه الأثناء كان يحيى بن سرور قد ركب إلى البادية ليظهر ارتحاله إلى مصر من طريق البر ثم مالبث أن عرج على بدر فاجتمع فيها بشيوخ حرب واستطاع أن يقنعهم بنصرته فأطاعوا له وقبلوا القتال من أجله .

والمظنون أن رئيس الحامية في مكة لم يفكر في تنصيب عبدالمطلب إلا بعد أن علم بأن قبائل حرب بدأت تجتمع لنصرة يحيى وكأنه أراد بذلك أن يشعر القبائل من حرب وغيرها أنهم لا يهاجمون في مكة إلا شريفاً من أمرائهم تخفيفاً لحدة ثائرتهم .

وبينما كان يحيى يستعد للهجوم على مكة في شهر صفر من عام ١٢١٣ إذ ثارت الفتنة في مكة بين أميرها الجديد عبدالمطلب ورئيس حاميتها ، وذلك لأن

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

أخباراً وصلت من مصر بعدم موافقتها على تولية عبدالمطلب وتوجيه الإمارة بدله إلى محمد بن عبدالمعين، فاضطر رئيس الحامية إلى تبليغ ذلك إلى عبدالمطلب فكبر الأمر على عبد المطلب ونادى بالثورة على حامية مصر وإجلائها عن الحجاز فأصاخت البادية لدعوته واجتمعت لديه، وأرسل إلى يحيى بن سرور يطلب إليه توحيد الجهود لاحتلال مكة فوافقه يحيى على ذلك وتواعدا على مهاجمة مكة في التاسع من جمادى الأولى لاحتلالها وإجلاء الجيش المصري عنها، وكاد الاحتلال يتم على هذا الترتيب لولا أن أخباراً جديدة وصلت إلى المهاجمين في اللحظة الأخيرة بوصول محمد بن عبدالمعين من مصر ودخوله إلى مكة في اليوم الثامن من جمادى الأولى [1] والشريف محمد بن عبدالمعين من أحفاد العبادلة أولاد عبدالله بن الحسن بن أبي نمي ويسمونهم «ذوي عون»

محمد بن عبدالمعين بن عون : وهكذا كان لوصول محمد بن عبدالمعين المفاجئ أثر كبير في بقاء الجيش المصري في مكة؛ لأنه ما كادت قدماه تطأ مكة حتى وصل خبره إلى عبدالمطلب في المفجر بالقرب من منى فترك الحصار وانحاز إلى الطائف وكذلك كان شأن يحيى في قبائله عند وادي فاطمة فإنه ترك الهجوم متراجعاً إلى الوراء.

واستطاع محمد بن عبدالمعين في أول لحظة من وصوله إلى مكة أن ينادي لنفسه بالإمارة وأن يساعد على خروج الجيش المصري من حصاره في القلاع التي تحصن بها وأن يدعو القبائل المحيطة بمكة إلى الطاعة له فتغمد أسلحتها وتمضي إلى تهنئته بالإمارة.

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٠٥

قصر الحكم بالغزة : وقد جلس للمهنئين في بيت الجيلاني بالشامية بجوار مورد الماء إلى أن أمر صاحب مصر ببناء دار له في الغزة وهو الدار المعروف بقصر الحكم [١] ومن ثم انتقل إليه وظل يسكنه بعده أولاده من ذوي عون ، ويرى بعض المعاصرين نقلاً عما سمعوه من آبائهم أن الشريف محمد بن عبدالمعين هو الذي أنفق على بناء القصر المذكور بعد أن اشترى بعض الخرائب التي بني مكانها .

واستتب له الأمر ثم بلغه أن عبدالمطلب يجهز القبائل في الطائف للهجوم عليه وأنه أغرى بذلك يحيى بن سرور وبعض الأشراف فانضموا إليه فاستعد محمد ابن عبدالمعين للدفاع ، وكتب إلى صاحب مصر يستمده العون فأرسل إليه لواءً من عسكر النظام وكثيراً من المال ، وكان الجيش النظامي قد أحدث في تلك الأثناء في مصر بفضل الجهود التي بذلها محمد علي باشا نحو الإصلاح العسكري والمدني .

وسار محمد بن عبدالمعين في جموعه نحو الطائف في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة عام ١٢٤٣ فتحصن عبدالمطلب فيها ثم اشتبك القتال نحواً من ٢٢ يوماً ضعف في نهايتها عبدالمطلب فطلب الأمان وأعلن التسليم ثم ما لبث أن غادر البلاد إلى عسير ثم إلى نجد والعراق ثم سافر إلى تركيا فاحتفى به السلطان محمود فأقام مكرماً لديه [٢] .

وعندما رأى أن قائد حامية عسكر المصريين لا يتفق مع ميوله طلب إلى صاحب مصر ندب غيره فعين للقيادة عابدين بك فضلا على وفاق .

وكان محمد بن عبدالمعين من محبي العلم وكان يميل إلى العدل كما كان

(١) وقد هدم أخيراً في توسعة شارع الملك عبد العزيز .

(٢) خلاصة الكلام ٣٠٧ وما بعدها .

مجلسه يضم كثيراً من رجال الفضل والأدب وكما كان يشجع الشعراء ويجيزهم بالمكافآت .

وباء قاتل : وفي عهده انتشر وباء فتاك قاتل كان يصيب الناس بالقيء والإسهال ثم يقضي عليهم، وظل يعاود الناس الفينة بعد الأخرى إلى عدة سنوات كان أهمها سنة ١٢٤٦ فقد مات بإصابته فيها خلق كثير في أشهر الموسم، واشتدت وطأته في أيام منى حتى غصت الأسواق والطرقات وجعلت تحمل الموتى إليها بالجملة .

ومات في هذا الوباء محافظ مكة وقائد الحامية المصرية عابدين بك فولى محمد علي باشا بمصر مكانه خورشيد بك في أوائل عام ١٢٤٧ ثم ما لبث أن منحه لقب باشا [١] .

ثورة بلماز : وفي عهد محمد بن عبدالمعين ثار فريق من الأتراك في الحامية المصرية على خورشيد باشا بسبب تأخر رواتبهم وحاصروه في رجب ١٢٤٧ في بيته، وكادوا يفتكون به لولا الجند النظامي الذين خفوا لنجدته، وتعرف هذه الفتنة بثورة تركي بلماز وهو اسم كبير عساكر الأتراك الثائرين .

واستطاع خورشيد أن يفلت من الحصار فاراً إلى جدة ومنها إلى مصر وبوصوله إليها ندب محمد علي باشا علي آغا الرزقلي لتسكين الفتنة فلم ينجح كما حاول الشريف محمد بن عبدالمعين الإصلاح فيها فأعجزه ذلك فترك الثائرين وارتحل إلى الهدا وأقام بها إلى أن سكنت الفتنة .

وقد ظل أمر الفتنة إلى هلال عام ١٢٤٨ ثم اشتد سعيرها واستطاع الثوار أن يحصروا الجنود النظاميين في البياضية بعيد قبور المعلاة عدة أيام ثم فك الحصار

(١) خلاصة الكلام ٣٠٩، والوباء المشار إليه هو وباء الكوليرا .

وخرج النظاميون يطاردون الأتراك في شوارع مكة وتحصن بعض الأتراك بخان الترك بجانب المروة، فاقتحم النظاميون الخان عليهم وكسر الترك أبواب الدكاكين والمخازن الخاصة بالأهالي في الخان ونهبوا ما فيها وقد عوضهم فيما بعد محمد علي باشا قيمة ما فقد منها.

وفر الأتراك الثائرون إلى جدة واغتصبوا فيها خزائن الحكومة ثم صادفهم في مرسى جدة مراكب لمحمد علي باشا؛ فركبوها مع ما غنموه من جدة من أموال وسلاح، وأقلعوا بها إلى اليمن فتملكوا الحديدة والمخا إلا أنهم ما لبثوا أن خافوا عواقب ما فعلوا فتفرقوا بددا في بادية اليمن ثم ضربوا في آفاق الأرض لا يجتمعون، وبذلك تمت هزيمتهم في أواسط عام ١٢٤٨ [١].

نفوذ محمد علي باشا: وفي هذه الأثناء ظفر محمد علي باشا بحقوقه في السيطرة على مكة سيطرة تامة لا يشاركه فيها نفوذ العثمانيين بموجب معاهدة عقدت في عام ١٢٤٨ وسنشير إلى ذلك في الفصل الخاص بالناحية السياسية لهذا العهد.

ثورة عسير: وفي هذا العام ثار أمير عسير عائض بن مرعي على الحكم في مكة واستقل ببلاده ثم تغلب على قبائل بني شهر وبيشة[٢] وبلاد غامد وزهران فأدخلهم في طاعته؛ فخف لقتالهم محمد بن عبدالمعين في سنة ١٢٤٩ بعد أن أمده محمد علي باشا بجيش من مصر وترك الأمر في مكة لمحافظها أحمد باشا ليتولى الحكم في غيابه ويمده بلوازم العتاد والذخيرة.

(١) خلاصة الكلام ٣٠٩.
(٢) بيشة: واد كبير سبقت الإشارة إليه، جل سكانه من قبيلة شهران (ع)

وقد فشلت الحملة في مهمتها بعد أن دامت نحو سنتين، واضطر محمد بن عبدالمعين إلى الرجوع إلى مكة ومن ثم كتب إلى صاحب مصر يحمل محافظ مكة تبعة الفشل بدعوى قصوره في إرسال الإمداد، بينما كتب محافظ مكة أحمد باشا يعزو أسباب الفشل إلى الشريف محمد بن عبدالمعين.

ورأى محمد علي باشا في مصر أن يدعو الشخصين ليسمع منهما، فلما انتهيا إلى مصر عام ١٢٥٢ وسمع قولهما طلب إلى الشريف محمد بن عبدالمعين أن يبقى عنده في مصر ليتولى أحمد باشا أمر الحملة إلى عسير فبقي وعاد أحمد باشا إلى مكة حيث قاد الحملة إلى عسير وفي صحبته بعض أصدقائه من الأشراف.

وانتصرت الحملة في حركتها عام ١٢٥٣ واستطاع أحمد باشا أن يستخلص بلاد غامد وزهران ثم تعذر عليه التقدم إلى بني شهر وبلاد عسير، ثم مالبث أصحاب عسير أن استأنفوا هجومهم واستعادوا بلاد غامد وزهران في عام ١٢٥٤ وقد ظل أحمد باشا يباشر حملته في عسير بعد ذلك نحو سنتين دون أن ينتهي إلى نتائج حاسمة [١].

وفي هذا العهد - وكان محمد بن عبد المعين بن عون لا يزال مقيماً في مصر - عصت بعض القبائل من حرب فجرد عليها محمد علي باشا حملة من مصر قوية بقيادة سليم باشا أطزبير فسارت الحملة حتى عسكرت في الغاربة والخيف [٢] ثم تغلبت على كثير من الخيوف فنهبت ما فيها وأحرقت زروعها ونخيلها وشتت شمل المقاتلين حتى لاذوا بالفرار وتحصنوا برؤوس الجبال وشرعوا يقطعون الطرق في جهات متفرقة من باديتهم.

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) هما من عيون وادي الصفراء (ع).

وظلت الحملة تعسكر فيما امتلكت من الخيوف طيلة عام ١٢٥٥ وبعض عام ١٢٥٦ ، وقاست المدينة المنورة من جراء انقطاع الطرق في هذه الأثناء ضيقاً شديداً واشتد غلاء الأسعار فيها حتى بلغ قيمة الأردب من القمح ثلاثين ريالاً[١] .

نهاية الحكم المصري : وفي هذا العام ١٢٥٦ هـ جرى الاتفاق بين محمد علي باشا على ترك الحجاز ليعود أمره إلى العثمانيين بالنحو الذي سنفصله في الفصل الآتي ، فعمد محمد علي باشا إلى ترحيل الشريف محمد بن عبد المعين بن عون من مصر ليتولى حل المشاكل في بلاده بالشكل الذي يريده ، ويساعد على تنظيم ترحيل الجيوش المصرية وإرسالها إلى مصر فغادر محمد ابن عون مصر إلى ينبع وتوجه منها إلى مواطن حرب فضربهم ضربة أليمة ماكانوا يستحقونها في نظر التاريخ لو وجدوا فيما سلف من عصورهم من يعلمهم الرشاد ويحسن توجيههم إلى خير الأمور ، ولنا أمل أن يصلح التاريخ أغلاطه فيما سلف بهذه المدارس التي بدأت تعطي ثمارها في رابغ والمسيجيد وكثير من القرى وأن تعد هذه القبائل إعداداً يفيد البلاد وينفعها .

ومضى الشريف محمد بن عبد المعين بن عون بعد هذا إلى المدينة فأقام فيها أشهراً ثم عاد إلى مكة ليشرف على تنظيم عملية التسليم فيها بين العثمانيين والمصريين .

(١) إفادة الأنام «مخطوط» .

النواحي العامة في مكة
في عهد محمد علي باشا

الناحية السياسية : لسنا في حاجة إلى أن نعيد ما ذكرناه في فصلنا السابق من أن محمد علي ما كاد يرتفع صوته في غمار الفتن بين قواد الأتراك في مصر حتى اختار بعض القواد والأعيان من الأهالي ليناد وا بولايته على مصر وليكتبوا إلى دار السلطنة العثمانية بذلك فيوافيهم التأييد .

كذلك لسنا في صدد حملة محمد علي باشا على الحجاز لمحاربة السعوديين فيها بعد أن ذكرنا في الفصل السابق أن العثمانيين عندما شعروا بقوته في مصر وهالتهم انتصارات السعوديين في مكة أرادت أن تدفع القوتين إلى الحرب لتستفيد من نتائجها وتوفر على جيوشها عناء المشقة .

كذلك لا نريد أن نقول : إن محمد علي ما كان ينتصر في حملته على السعوديين بعد الذي كابده من أهوال وفتن حتى ظفر من العثمانيين بحق الإشراف على حكومة مكة ومنح إبراهيم بن محمد علي باشا لقب إمارة مكة الفخري .

ولكن الذي نريد أن نقوله : إن مكة ظلت على أثر الفتح المصري محكومة حكماً ثنائياً قوامه هيمنة مصر تحت التبعية العثمانية على إمارة مكة ابتداء من العام ١٢٢٨ بعد أن تولى إمارتها بتعيين من مصر أصحاب حكمها السابقون من الأشراف ، وتولى أمر الدفاع فيها حامية من مصر بقيادة رئيس لها منحوه رتبة المحافظ في مكة إلى جانب قيادة الدفاع .

ولقد ظل هذا الحكم الثنائي ساري المفعول في مكة نحو عشرين سنة بدأت باستقرار جيوش محمد علي في مكة بعد انسحاب السعوديين عام ١٢٢٨ وانتهت بتنازل السلطان له عن مصر وسوريا والحجاز في عام ١٢٤٨ بموجب معاهدة «كوتاهية»(١) وبذلك ألحقت مكة بمصر نهائياً وظلت تابعة لها إلى سنة ١٢٥٦ أي نحو سبع سنوات ثم أعيدت إلى العثمانيين مرة أخرى.

ولتبعية مصر أسباب أستطيع تلخيصها فيما يلي :

عندما تم فتح الحجاز تاقت نفس محمد علي إلى فتح سوريا وطرد المشاغبين منها، وطمع في توسيع رقعة ملكه بما يفتح ففاوض العثمانيين في ذلك فأبوا عليه فسكت ، ثم ما لبث أن اختلف مع والي عكا فاغتنم الفرصة وجرد حملته على سوريا في جيش عظيم فافتتح يافا وعكا ثم فتح دمشق فغضب السلطان محمود في تركيا مما حدث، وأصدر أمره بعزل محمد علي باشا من مصر وندب جيشاً لقتاله وإخراج جيوشه من سوريا فلم تنجح جيوش الخليفة في مهمتها، واستطاع محمد علي باشا أن يهزمها ويزحف خلفها في شمال سوريا حتى استولى على أضنة وطرطوس، وهدّد الآستانة.

عندئذ شعرت الحكومات في أوروبا أن الأمر بات في خطر، ولعلها أدركت أن نجاح محمد علي في امتلاك تركيا بعد الذي امتلكه في آسيا وأفريقيا يعد تكتلاً يضر مصالحها؛ لهذا أعانت على إيقافه عند حدود تركيا وتوسطت في إصلاح الأمر بينه وبين عثمانيا، فكانت معاهدة «كوتاهية» المشهورة في عام ١٢٤٨ هـ ١٨٣٣م وبموجبها تنازل السلطان محمود عن مصر والحجاز وكريت لمحمد علي باشا وعن سوريا وأضنة لابنه إبراهيم باشا، وبذلك انقسمت البلاد الإسلامية إلى

(١) مدينة في الأناضول ، فيها تمت معاهدة تنازل السلطان العثماني لمحمد علي عن مصر وسورية والحجاز.

قيادتين أو ثلاث فأمن الأوروبيون تكتلها كما ربحوا الجميل لدى الخليفة برد العادية عن حدود بلاده .

وظل الأمر على هذا نحو سبع سنوات استقل فيها محمد علي بأمر مصر والحجاز وكريت ثم ما لبثت بعض الدول في أوروبا أن أدركت أن وجود عثمانيا «العجوز» في سوريا أضمن لمصالحها من ضمها إلى حكومة فتية في عنفوان شبابها ؛ فاستأنفت حملتها مع السلطان عبدالمجيد الذي خلف أباه محموداً وعقدت معه حلفاً رباعياً ضم عثمانيا وانكلترا وفرنسا وبروسيا فكانت معاهدة لندن في ١٥ يوليو سنة ١٨٤١م وبمقتضاها جُرِّد محمد علي من حكمه في غير مصر ، ومنح الحكم له ولذريته في مصر وحدها كما منح ابنه إبراهيم باشا حكم سوريا مدة حياته فقط .

وأبلغت الدولة العثمانية محمد علي ذلك رسمياً فأبى القبول فجرد العثمانيون جيشاً لقتاله وساعدهم الإنكليز والروس ؛ ففتحوا سواحل سوريا ثم انتهوا إلى الإسكندرية فجرى الصلح بينه وبينهم ، وقد اكتفى الأخير في هذا الصلح بحكم مصر وحدها له ولذريته وذلك في سنة ١٢٥٦ هـ - ١٨٤١م .

ونصت معاهدة الصلح فيما نصت على ألا يتجاوز الجيش المصري ١٨ ألفاً وأن تضرب النقود في مصر باسم السلطان العثماني (١) .

وبذلك عادت مكة إلى حظيرة الحكم العثماني ورأينا أن محمد علي باشا يرسل أمير مكة محمد ابن عون المقيم عنده في مصر كما أسلفنا ليتولى تنظيم ترحيل الجيوش المصرية من الحجاز ويتسلم مقاليد حكمه فيها تابعاً للعثمانين ، ومع هذا بقيت بعض المناطق في شمال الحجاز من الوجه إلى العقبة تابعة لحكم

(١) كتاب إبراهيم باشا ، تأليف بيركر بنيس ، ترجمة محمد بدران ص ٢٧٨ وما قبلها .

مصر انتظاراً للبت في أمرها، وقد ظلت كذلك إلى أن احتل الانكليز مصر في عام ١٨٨٢ عندئذ أسرع والي مكة بسلخ قضاء الوجه من الإدارة المصرية وفرض سلطانه عليها.

وأراد العثمانيون تحصين بعض القلاع القائمة إلى الغرب من العقبة فاعترض الإنجليز على ذلك، ولما أصر العثمانيين أنذرهم الإنكليز بالحرب فكانت مأساة لها أثرها القوي في إعراض العثمانيون عن الأنكليز وتقربهم إلى الألمان كما كانت لها نتائجها في التهام الإنكليز تلك المنطقة الاستراتيجية التي ظلت تهيمن عليها مدة طويلة.

الحالة العلمية: لعله لم يطرأ على الناحية العلمية في مكة ما يستحق الذكر في عهد محمد علي باشا لقصر المدة التي قضاها حكمه فيها.

والواقع أنه قضى نحو ثماني سنوات في مكة محارباً ثم أشرف على حكم الحجاز تحت تبعية العثمانيين نحو عشرين سنة، ولما استقل بالأمر فيها لم يطل أمد ذلك إلى أكثر من سبع سنوات، وهي مدة في رأينا لم تكن كافية لأن يتأثر لها الحجاز في ناحيته العلمية تأثراً ذا بال.

أضف إلى هذا أن محمد علي كان عهده في مصر فجراً جديداً لم تشرق شمسه بعد، وأن شمسه عندما أشرقت كان الحجاز قد أعيد إلى حظيرة العثمانيين؛ لهذا نستطيع القول بأن الناحية العلمية في هذا العهد ظلت على حالها في العهد العثماني الأول.

الحالة العمرانية: اقتضت الترتيبات الإدارية التي أجراها محمد علي باشا في الحجاز تأسيس بعض المرافق العامة فيها فأسس التكية المصرية في عام ١٢٣٨

لإطعام الفقراء من أهل الحرم والمجاورين وهي حسنة لها أسلوبها الخاص كما كنا نتمنى لو أنفقت في غير هذا السبيل الذي يغري بالكسل ويشجع فقراء الآفاق الذين لا تستفيد منهم البلاد على ارتيادها طمعاً في العيش في ظل التكية.

وبنى محمد علي باشا الدار التي كانت تعرف ببيت باناجة أمام باب علي وجعلها مقراً لمحافظة مكة كما بنى لآل عون داراً للإمارة في الغزة (١).

الحالة الاجتماعية: ومن الغريب أن الأهالي في مكة والمدينة وجدة تأثروا بكثير من عوائد المصريين ونقلت إليهم لغتهم بعض الألفاظ التي لا تزال باقية إلى اليوم بعض آثارها وإن كانت في غير وضوح.

ولعل أثرها في سكان الوجه وبلاد الشمال من الحجاز أوضح منها في غيرها.

والذي ألاحظه أن كثيراً من تقاليد الطبقات البلدية القديمة في مصر يقابلها إلى عهد غير بعيد تقاليد مماثلة في طبقة ما يسمونه في مكة والمدينة وجدة «أولاد الحارة» وأن كثيرا من ألاعيب الأطفال في هذه المدن تتشابه مع مثيلاتها في مصر، ولكني لا أستطيع الحكم حكماً صحيحاً فيما إذا كانت هذه المدن تأثرت في ذلك بمصر في هذا العهد أم أن تلك العادات تحدرت إلى البلدين من ظروف متشابهة قديمة ممعنة في القدم، مثال ذلك المداحي ونسميها «البارجو» وهي لعبة تشترك فيها مصر والحجاز اليوم، وقد مر بنا أن الجاهليين كانوا يلعبونها في القرارة بمكة وأنها لذلك سميت قرار المداحي ولا ندري ما إذا كان قدامى المصريين يلعبونها قبل الحجاز أم لا.

---

(١) دخلت التكية وبيت باناجة في توسعة المسجد الحرام كما دخلت دار الإمارة في توسعة شارع الملك سعود.

العهد العثماني الثاني

محمد بن عبد المعين للمرة الثانية : عاد محمد بن عبد المعين بن عون من مصر عام ١٢٥٦ إلى ينبع بعد أن مر بمواطن حرب وعمل على إقرار أحوالها كما أسلفنا، وقد أشرف أثناء ذلك على ترحيل الجيش المصري الذي يعسكر في مواطن حرب ثم تابع سيره إلى المدينة وأقام فيها أشهراً رتب في أثنائها أعمالها الإدارية على أساس الحكم العثماني الجديد.

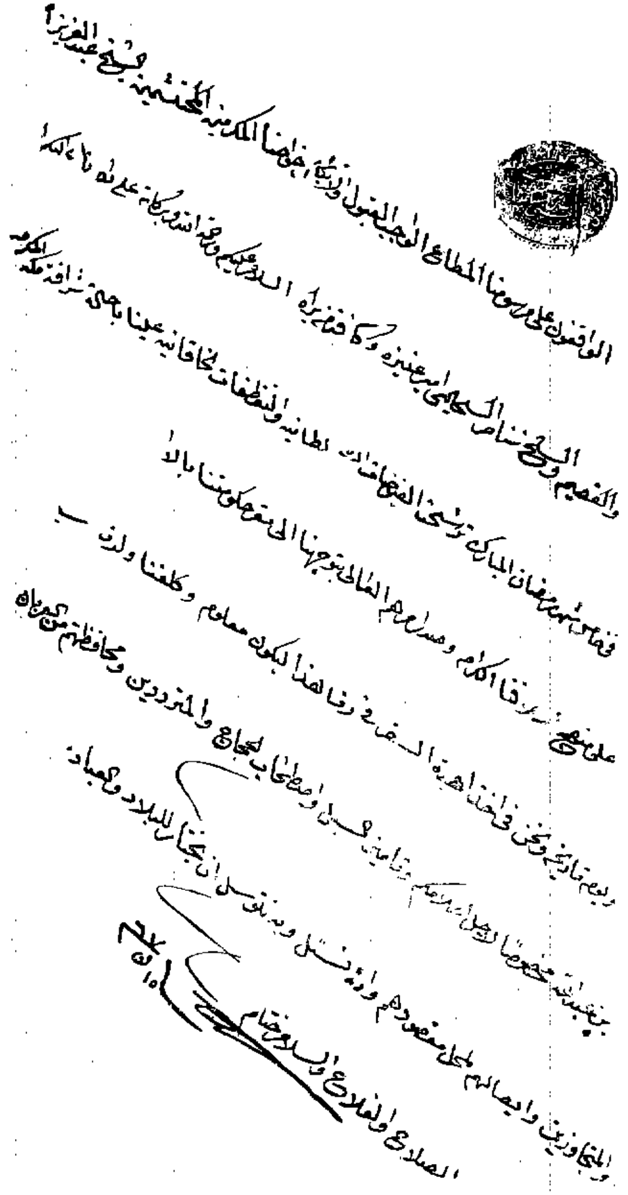
وكان ابنه عبدالله قد سبقه في هذه الأثناء إلى مكة وقام بشؤون إمارتها نائباً عنه ولما وافت أشهر الحج من السنة نفسها وصل محمد بن عون إلى مكة فشرع في تنظيم ترحيل الجيش المصري منها.

وصدرت إليه أوامر العثمانيين بتعيين عثمان باشا شيخ الحرم المدني في إدارة الحامية بجدة مع إضافة مشيخة الحرم المكي إليه وتوجيه مشيخة الحرم المدني إلى شريف بك مدير المدينة سابقاً، فانتقل عثمان باشا إلى جدة وباشر أعماله الجديدة فيها وأناب عنه في مشيخة الحرم المكي عبدالله بن محمد بن عون أمير مكة.

وتشكلت لجنة على أثر هذا لتصفية الأموال المصرية في الحجاز فأحصت جميع الأرزاق والمهمات والذخائر الموجودة بها للمصريين، وقومت ذلك بأثمانه وأبقته في الحجاز بعد أن تعهد العثمانيون بقبوله مما تستحق لدى مصر من الخراج المقرر عليها للعثمانيين.

وبحثت اللجنة موضوع المرتبات التي رتبها محمد علي باشا لكبار الأشراف وغلال الصدقة التي خصصها للمحتاجين في مكة فاستقر أمرها على بقائها كما كانت بعد تحويلها إلى الخزانة العثمانية، وقد وافق الخليفة على هذا الإجراء وأقره كاملاً [١].

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣١١.



صورة مرسوم أثري، ويبدو من قراءاته أنه أحد المراسيم التي أصدرها عبد المطلب إلى أمراء النواحي بمناسبة توليته وقد وجد ممزقاً في الأطراف التي لم تظهر الكتابة فيها.

ولادة عون الرفيق : وفي هذه الأثناء ولد للشريف محمد بن عبدالمعين بن عون ابنه الشريف عون الرفيق وذلك في أواخر ذي الحجة عام ١٢٥٦ في بيت بالشامية يقال له دار الجيلاني [١] وهو اليوم مستودع للكتب التي وقفتها الحكومة بجوار بازان الشامية وظل الوفاق تاماً بين الإمارة ووالي الأتراك في جدة عثمان باشا عدة سنوات ثم نمي إلى عثمان باشا أن بعض الأشراف المختصين بجباية الزكاة يتلاعبون بأموال الخزينة فأغلظ لهم القول فاستاء محمد بن عون من ذلك فبدأ الخلاف بين السلطتين واشتدت وطأته في عام ٦٠ و ١٢٦١ ثم انتهت الأخبار إلى تركيا فأمرت بعزل عثمان باشا من ولايته ووجهتها إلى شيخ الحرم المدني في عام ١٢٦٣ وقد مات عثمان على أثر وصول الخبر وتسلم الأعمال في جدة شريف باشا [١].

قتال نجد : وفي العام نفسه ١٢٦٣ توجه محمد بن عبدالمعين بن عون على رأس جيش مقاتل إلى نجد بأمر من العثمانيين لقتال إمام الرياض فيها فيصل بن تركي، فلما انتهى إلى القصيم توسط أهل القصيم في الصلح بين الفريقين وقبل أمير الرياض أن يدفع للخليفة في تركيا خراجاً سنوياً قدره عشرة آلاف ريال.

وفي عام ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ أنعم العثمانيون على عبدالله وعلي والحسين وعون أبناء محمد بن عون بأوسمة ثم منحوهم رتبة الوزارة.

قتال عسير : ونشبت بعض الفتن في عسير ثم في اليمن فأمرت الدولة العثمانية محمد بن عون أن يقود جيوشها في مكة لتأديب العصاة فسير ابنه

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

عبدالله إلى بني عسير فعقدوا معه صلحاً في عام ١٢٦٥ ثم سار بنفسه على جيش إلى اليمن ففتح مدنها واحتل صنعاء عاصمتها، وأقام تنظيماً بالشكل الذي أراده العثمانيون وذلك في السنة نفسها عام ١٢٦٥ (١).

الأوقاف السلطانية: وتولى الحكم في غيابه أثناء حرب اليمن حسيب باشا الوالي التركي فعني بأمور الشرع كثيراً واستعان في أحكامه بمجلس يضم رجال الإفتاء من المذاهب الأربعة إلا أنه ما لبث أن اختلف معهم، فقد أراد الوالي انتزاع الأوقاف السلطانية من أيدي الناس الذين استولوا عليها بالفراغات الشرعية فلم يمكنه العلماء من ذلك (٢) وأصر مفتي مكة السيد عبدالله الميرغني على مخالفته، فعزله وولى منصبه السيد محمد الكتبي فلم يوافقه فيما أراد وتطور الخلاف بينه وبين العلماء ثم انتهى إلى بحث دار بالصفا كان قد بناها عبدالله بن عقيل شقيق السيد إسحاق بن عقيل في فراغ من الأوقاف السلطانية، فلما شعر عبدالله بخطورة المسألة استكتب العلماء والأعيان مضبطة ضد الوالي وفر من ليلته إلى تركيا حيث اتصل بالخليفة وقدم شكواه فأمر الخليفة بعقد مجلس من العلماء فأفتوا بعدم جواز انتزاعه فصدر أمر الخليفة بمنع الوالي من انتزاع الأوقاف كما صدر أمر شيخ الإسلام بإعادة المفتي المعزول في مكة، وقد حمل عبدالله بن عقيل الأوامر إلى مكة فامتثل الوالي لها ثم ما لبث أن عزل من وظيفته في أواخر عام ١٢٦٦ وتولى مكانه عبدالعزيز باشا الملقب «آقة باشا» (٣).

وفي منتصف عام ١٢٦٧ تلقى «آقة باشا» أمراً من دار السلطنة بترحيل محمد

(١) خلاصة الكلام ٣١٤

(٢) الأصل في الفراغات الشرعية أن أصحاب بعض الدور الموقوفة كانوا يفرغون أي: يملكون الانتفاع بها ما دام الدار قائماً فإذا هدم عاد الملك لصاحبه الأول.

(٣) خلاصة الكلام ٣١٥.

ابن عون وأبنائه إلى تركيا فبلغهم ذلك فامتثلوا للأوامر وغادروا مكة متوجهين إلى تركيا، وبذلك انتهت إمارة محمد بن عون للمرة الأولى بعد أن أقام ٢٤ سنة.

وأقام «آقة باشا» الشريف منصور بن يحيى من ذوي زيد وكيلاً للإمارة إلى أن يصدر أمر الخليفة في ذلك ثم رأى أن يرشحه لدى السلطنة؛ فكتب بذلك إلى الخليفة وأرفقه بمضبطة موقعة من الأشراف والعلماء، إلا أن دار السلطنة لم توافق على ترشيح منصور بن يحيى واختارت لإمارة مكة عبدالمطلب بن غالب (١).

والغريب أن مؤرخي مكة لم يتعرضوا لذكر السبب الذي من أجله عزل محمد ابن عون من إمارة مكة بعد خدماته الطويلة للعثمانيين وبعد الذي تجلى من رضائهم عنه في منح أبنائه أوسمة الشرف وألقاب الوزارة، والذي أظنه أن عبدالمطلب الذي أبت عثمانيا توليته قبل محمد بن عون إرضاءً لمحمد علي باشا صاحب مصر استطاع بعد أن عادت الحجاز إلى عثمانيا أن يسدد مساعيه في دار السلطنة حتى ظفر بعزل محمد بن عون وتوجيه الإمارة إليه.

وفي أثناء إقامة أولاد محمد بن عون بالآستانة وُلدَ للشريف علي بن محمد بن عون ولدٌ في عام ١٢٧٠ أسموه «الحسين» وهو ملك الحجاز فيما بعد وصاحب النهضة العربية؛ كما سيأتينا (١).

عبد المطلب بن غالب للمرة الثانية: وانتهى عبد المطلب إلى مكة في ذي القعدة من عام ١٢٦٧ فباشر أعمال إمارته للمرة الثانية على أثر نزوله في داره بالقرارة (٢) وعندما أهل عام ١٢٦٨ توجه لتأديب بعض العصاة في ديار حرب

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٣.

فأطاعوه وتركوه يبني في ديارهم بعض التحصينات وهي قلعة بدر وقلعة الحمراء وقلعة الخيف وقلعة بئر عباس ، وقد أقام بعض العساكر فيها لحماية تلك الجهات[1] .

وما لبث أن اختلف مع عبدالمطلب «آقة باشا» الوالي العثماني فاستطاع أن يثبت أخطاء آقة باشا ويرسل بها إلى دار السلطنة ويستصدر أمرها بعزله وتولية أحمد عزت باشا أمير الحج الشامي وكان من أصدقاء عبد المطلب وذلك في أواخر عام ١٢٦٩ وأحمد عزت هو أول من بنى داراً في الزاهر بجوار شهداء فخ وجعلها منتزهاً له ، ثم ما لبث عبدالمطلب أن اختلف مع أحمد عزت فاستصدر أمراً من الآستانة بعزله وقد تولى مكانه كامل باشا في رجب سنة ١٢٧٠ [2] .

ويذكر الدحلان [3] أن من أهم أسباب الخلاف بين عبدالمطلب وولاة الأتراك أن الولاة كانوا يتصلون بشيخ السادة إسحق العلوي ويستشيرونه في أمورهم بمقتضى توصيات خاصة تصلهم من كبار رجال السلطنة في تركيا ، وأن شيخ السادة كان صديقاً حميماً للشريف محمد ابن عون فكان يسعى في دار السلطنة بالتوصية على شيخ السادة وضرورة استشارته ، فلما شعر عبدالمطلب بذلك اشتد عداؤه لشيخ السادة وقد عزله من منصبه ثم ما لبث أن أمر بالقبض عليه في بستانه بالهجلة وإرساله إلى الطائف فلما علم الوالي التركي كامل باشا ندب بعض الخيالة لإدراكه في طريق الطائف فلم يستطيعوا . إلى أن يقول : وقد عُزِّر شيخ السادة على أثر وصوله ثم سجن في القلعة بالمثناة يومين ثم توفي فجأة ؛ فاتهم عبدالمطلب بوفاته فزعزع ذلك من مكانته .

---

(١) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي «مخطوط»

(٢) خلاصة الكلام ٣١٦ .

(٣) المصدر نفسه ٣١٧

منع بيع الرقيق وثورة الأهالي : وفي أوائل عام ١٢٧١ تبلغ كامل باشا من دار السلطنة أمراً بمنع بيع الرقيق علناً في الأسواق تنفيذاً لمعاهدة خاصة بين عثمانيا وبعض الدول الأوربية فامتثل كامل للأمر وبلغه لدلالي الرقيق، فلما علم الأهالي بذلك تنادوا بالجهاد واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء الشيخ جمال شيخ وطلبوا إليه ألا يرضخ لما يخالف الشرع وأن ينتقل معهم إلى دار القاضي؛ ليمنع صدور ذلك الأمر فلما مشت جموعهم في الشوارع انضم إليها الجمهور ونادوا بالثورة واشتبكوا مع الأتراك في قتال عنيف، وامتد القتال إلى المسجد الحرام فقتل فيه عدة أشخاص من الفريقين، فلما انتهت الأخبار إلى الشريف عبدالمطلب بالطائف غضب للأمر وجمع جموعه من القبائل لإعانة الأهالي في مكة ضد الترك فخف الأتراك إلى جدة وتحصنوا بها، وأعلن كامل باشا في جدة أن المراسيم السلطانية قد وصلت إليه بعزل عبدالمطلب وتولية الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون ثم استدعى عبدالله بن ناصر بن فواز بن عون من مكة وأقامة وكيلاً عنه وذلك في أواخر ربيع الأول عام ١٢٧١ (١).

وفي هذه الأثناء وصلت جموع عبدالمطلب إلى مكة فأعد كامل باشا في جدة عدته لقتاله في جيش من الأتراك وبعض العرب بقيادة عبدالله بن ناصر فمضى الجيش حتى عسكر في بحرة ثم تقدم إلى الشميسي وكتب عبدالله بن ناصر إلى رؤساء القبائل وكبار الأشراف في مكة يطلب انضمامهم إليه فأجابوه، وشعر عبدالمطلب أن جموعه بدأت تتفرق فخف إلى الطائف بعد أن ترك الميدان في مكة يحتله عبدالله بن ناصر.

(١) خلاصة الكلام ٣١٧.

واستنفر عبدالمطلب القبائل في الطائف من بني سعد وغامد وزهران وسفيان[1] وثقيف فاجتمعت لديه جموع كثيرة استأنف بها الهجوم على مكة فلم ينجح فعاد إلى الطائف وجمع جموعاً أخرى أعاد بها الكرة فلم ينجح مرة أخرى فرجع إلى الطائف وذلك في أوائل شعبان عام ١٢٧١ .

وفي ٨ شعبان رست في جدة الباخرة التي تقل الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون فشد ذلك من عزم المقاتلين له وأقاموا الزينات ابتهاجاً بمقدمه ثم ما لبث على أثر وصوله مكة بأيام أن قاد الجيوش المحاربة إلي الطائف فتحصن عبدالمطلب فيها أياماً ثم هاجموه هجوماً شديداً في رمضان عام ١٢٧١ وأسروه ثم أرسلوه إلى دار السلطنة فعفا عنه الخليفة وأقامه في أحد القصور بالآستانة وبذلك انتهت إمارته للمرة الثانية بعد حكم خمس سنوات[2] .

محمد عبدالمعين بن عون للمرة الثالثة : وهكذا تولى الأمر للمرة الثالثة محمد بن عبدالمعين بن عون ١٢٧١ وقد استتبت له الأمور ثم ما لبث أن عزل كامل باشا من متصرفية جدة وولى مكانه محمود باشا الكردي ثم عزله وولى مكانه نامق باشا فوصل إلى مكة في أوائل عام ١٢٧٤ .

وفي ١٣ شعبان من هذه السنة ١٢٧٤ توفي محمد بن عبدالمعين بن عون[3] على أثر مرض لم يمهله إلا أياماً وبذلك انتهى حكمه للمرة الثالثة بعد أربع سنوات تقريباً .

---

(١) بنو سفيان : فرع من ثقيف . (ع) .

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٣) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي٣١٣ .

وبوفاته أقيم نامق باشا وكيلاً للإمارة إلى أن تصل المراسيم بالتعيين الجديد[1] .

وكان الأشراف قبل هذا لا يقبلون إلا توكيل الأتراك فقد كانوا في أوائل عهدهم إلى القرن الحادي عشر الهجري تقريباً يقيمون الأمير الجديد ويكتبون بذلك إلى دار السلطنة فيوافيهم التأييد، ثم اختلف الأمر بعد القرن الحادي عشر فجعلوا يقيمون الأمير وينتظرون التأييد أو تعيين غيره أما في عهد العثمانيين الثاني فقد تغير الأمر كثيراً وأصبحنا نرى الوالي التركي يتولى الوكالة حتى يصل تعيين من تختاره السلطنة للإمارة .

فتنة جدة في عهد نامق : وفي أثناء وكالة نامق في جدة في عام ١٢٧٤ حدث حادث له جسامته المهولة ذلك أن تاجراً في جدة اسمه «صالح جوهر» كان يملك مركباً في البحر، وكان يرفع على سارية المركب علماً إنجليزياً فأراد في أحد الأيام أن يستغني عنه بعلم عثماني فكبر على القنصل الإنجليزي ذلك فمنعه فلم يمتثل فاندفع القنصل إلى المركب، وأنزل العلم العثماني وجعل العلم الإنجليزي في مكانه بعد أن أهان العلم العثماني فثارت ثائرة المسلمين في جدة وهجموا على بيت القنصل فقتلوه ونهبوا بيته، وفعلوا مثل ذلك بكثير من الفرنجة في جدة فلما علم نامق باشا بالأمر أسرع إلى جدة وسجن المتهمين بالحادث ثم كتب إلى دار السلطنة بما حدث .

ومضى شهر وبعض شهر ثم أصبح الناس في جدة على أصوات قنابل يدوي هزيمها فلما استوضحوا الأمر علموا أن مركباً حربياً إنجليزياً على كثب من الميناء يقذف بقنابل مهلكة، ففزع الأهالي في جدة وخرجوا هاربين في جموع كثيفة إلى مكة .

---

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٢٠ .

واتصلت الأخبار بالناس وهم في منى أيام التشريق فعم الفزع واشتد القلق ودعا نامق باشا كبار العلماء والأعيان والأشراف إلى مجلس لبحث الأمر فأشار المجتمعون عليه باستنفار القبائل من كل نواحي الحجاز لقتال المعتدين ، وقالوا : إن مئات الألوف من هذه القبائل تستطيع رد العدوان في سبيل الله فأبى نامق ذلك عليهم وأشار بأن تصحبه لجنة منهم إلى جدة لمقابلة قائد المركب الحربي ومفاوضته في الأمر فقبلوا .

وانتهت اللجنة إلى جدة واجتمع أعضاؤها واستطاعوا إقناعه بتأجيل الأمر حتى تصدر أوامر الخليفة بما يجب .

وفي أواخر المحرم ١٢٧٥ وصلت إلى جدة لجنة مختلطة من بعض الأتراك والإنكليز والفرنسيين تحمل أمراً من الخليفة إلى نامق باشا بتفويضها في تحقيق الحادث وتنفيذ ما تحكم به حكماً قاطعاً .

وأظهر التحقيق أن باعث الحركة هو الشيخ عبدالله المحتسب وكبير الحضارم سعيد العامودي وقاضي جدة عبدالقادر شيخ والشيخ عمر باديب والشيخ سعيد بغلف وشيخ السادة عبدالله باهرون والشيخ عبدالغفار والشيخ يوسف باناجة ، فحكمت اللجنة بقتل المحتسب والعامودي كبير الحضارم ونفي بقية الأشخاص إلى خارج البلاد ، كما جرى الحكم بقتل ١٢ شخصاً من عامة الناس أدينوا باشتراكهم في إثارة الفتنة .

وبموجب ذلك نفذ الإعدام فيمن ذكر على ملأ من الناس في أوائل ربيع الأول عام ١٢٧٥ كما نفذ حكم النفي في الباقين [١].

عبدالله بن محمد بن عبد المعين : وكان العثمانيون قد اختاروا لإمارة مكة قبيل هذا الحادث عبدالله بن محمد بن عبدالمعين وكان يقيم في الآستانة كعضو من أعضاء مجلس الدولة برتبة وزير ، فلما بلغ الأمر في أواخر عام ١٢٧٤ وعلم بحادث الفتنة رأى أن يؤخر سفره إلى أن ينتهي أمر الكارثة ، وهكذا بقي في الأستانة ولم يصل إلى جدة إلا في ربيع الأول عام ١٢٧٥ بعد فراغ اللجنة من أعمالها وتنفيذ ما حكمت به .

ميزاب الكعبة : واصطحب معه إلى مكة ميزاباً للكعبة محلى بالذهب صنعه العثمانيون ليجعلوه مكان الميزاب القديم ، وقد احتُفل بوضعه في مكانه من الكعبة على أثر وصول الأمير وأعيد الميزاب القديم إلى الأستانة ليحفظ في معرضها .

يحاولون زيارة مكة :

وقابلت اللجنة المختلطة عبدالله بن محمد بن عبدالمعين على أثر وصوله ، ورجته أن يمنحها زيارة مكة فاعتذر من ذلك ولما ألحت في طلبها أصر على الرفض في أسلوب رقيق ، والذي يستحق الملاحظة أن عبدالله بن محمد اصطحب معه إلى مكة موظفاً تركياً في رتبة فريق اسمه زكي باشا ، وقد ذكر الدحلان أنه بعث به كمعاون للأمير [٢] وفي هذا ما يدل على مبلغ ما تطورت إليه سيادة الأتراك في مكة .

وفي عام ١٢٧٧ زار المدينة والي مصر سعيد بن محمد علي باشا ، فسار الشريف

(١) خلاصة الكلام ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ٣٢٣ .

عبدالله إلى المدينة لاستقباله واحتفى به حفاوة عظمى ولما غادر المدينة إلى مصر صحبه إليها حيث أقام فيها إلى شوال من ذلك العام ثم عاد إلى مكة[١].

وفي عام ١٢٨١ صدر أمر الآستانة بقتال بعض العصاة في عسير فسار أمير مكة على رأس جيش من العرب والترك لقتالهم وأعينوا بجيش من مصر بطلب من العثمانيين، وقد مضى الجيشان حتى خيموا في المخواة فصالحهم أمير عسير وبذلك عاد الجيش المصري إلى بلاده كما عاد الشريف إلى مكة من طريق غامد بعد أن أقام مدة في بلاد غامد[٢].

ومن طريف ما يرويه الشيخ محمد سعيد الحضراوي في كتابه تاج تواريخ البشر أن أهل عسير لما خرجوا على الطاعة وعصوا كتبوا إلى الشريف عبدالله بن محمد بن عون يقولون :

إذا كان يمنعك حر المصيف   وكرب الربيع وبرد الشتا
ويلهيك حسن زمان الخريف   فأخذك للعلم قل لي متى

فأجاب الشريف عبدالله :

أتيتك مستقبلاً للمصيف   لذا تدرعت قلب الأسد

(١) إفادة الأنام «مخطوط».

(٢) تاج تواريخ البشر للشيخ محمد سعيد الحضراوي.

قناة السويس

وغزا بأمر السلطنة في عام ١٢٨٥ بعض القبائل شرقي مكة فأطاعت، وفي عام ١٢٨٦ بدأ العمل في مصر في حفر القناة ليتصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، وقد ذكرنا أن الرشيد في العهد العباسي فكر في حفر هذه القناة فأشار إليه بعض مستشاريه بألا يفعل لتبقى بلاد العرب حصينة بموقعها الطبيعي.

كرنتينة في مكة : وفي هذا العهد انتشر بعض الوباء في المدينة وكان فيها زوار الرجبية من أهل مكة فلما عادوا حجزتهم الحكومة في كرنتينة [١] أعدتها بالزاهر وذلك في عام ١٢٨٨ [٢].

فتنة حوا : وهي فتنة ليس فيها من الشدة التي كانت تعرفها الفتن في عهودها القديمة، وتتلخص وقائعها أن رجلاً اسمه «حوا» اشتبك مع بعض عسكر الترك في سوق المعلاة فصاح يستنجد بالأهالي فأعانوه على العسكر الأتراك وضربوهم وسرت العدوى إلى بعض الأسواق فثارت الفتنة بين الأهالي والعسكر وظلت طيلة اليوم، ثم تداركها قبيل المساء الشريف عبدالله على رأس عسكره حتى أخمدوها، وتألف في اليوم الثاني مجلس من العلماء والأعيان وقواد الأتراك حضره الأمير والوالي، وقد حكم المجلس بتأديب بعض أصحاب الفتنة ونفي بعضهم إلى خارج البلاد مدداً متفاوتة [٣].

---

(١) محجر صحي يوقف فيه الناس حتى يتأكد خلوهم من المرض (ع).

(٢) إفادة الأنام.

(٣) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٢٥

وفي عام ١٢٨٨ نقض الصلح أمير عسير؛ فجهز العثمانيون عليه جيشاً قوياً احتل بلاده بعد أن قتله وبعض أقربائه، وأسر بعضهم فرحلهم إلى دار السلطنة[١].

التعليم العسكري : وفي هذا العهد أصدر الشريف عبدالله أمراً على الأهالي بمكة بحضور التمرينات العسكرية وتلقي دروسها فامتثل الأهالي لذلك، وشوهد العلماء وطلبة العلم والأعيان وأصحاب الحرف وأهل الحارات ينزلون إلى ساحة التعليم صفوفاً متراصة تتلقى تعاليم الجندية على أساتذتهم من الضباط الأتراك وذلك في سنة ١٢٩٤، وهي فكرة كنت أتمنى لو دامت فليس أفضل من أن تعيش الأمم قوية بسواعد أبنائها لا تظللها الأجواء الحالمة في الزوايا ولا ترضيها حياة الكسل إلى جوار مباني الأربطة والتكايا.

ولم يدم التعليم العسكري مع كل أسف إلا نحو أربعة شهور ثم ألغي، ولعل منشأ الفكرة في ذلك هو اشتباك العثمانيين في قتالهم مع الروس في هذا العهد.

واشترك في التدريب العسكري أولاد الشريف عبدالله وبنو عمومتهم برئاسة عون باشا« أمير مكة فيما بعد»، واتخذ المدربون لباساً خاصاً قوامه قميص وبنطلون من قماش كانوا يسمونه «ملا»، وجعلوا العقال فوق «الصمادة» البيضاء غطاء لرؤوسهم[٢].

وفي منتصف جمادى الآخرة من هذا العام ١٢٩٤ توفي الشريف عبدالله في الطائف، ودفن بها بعد أن قضى في حكمه نحو عشرين سنة، وبوفاته أقام الوالي التركي أخاه الشريف عوناً الرفيق وكيلاً في الإمارة إلى أن يصدر مرسوم الخلافة بتعيين من يراه الخليفة[٣].

(١) خلاصة الكلام للسيد أحمد زيني دحلان ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه ٣٢٦.

(٣) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٣.

وفي هذا العهد بنت إحدى المحسنات دار أبي سفيان، وقد كان قبل ذلك كدوة وذلك في عام ١٢٨٢هـ[1].

إعلان الدستور العثماني

وفي هذه الأثناء كان قد شعر بعض المفكرين في الآستانة أن الدولة التركية في حاجة إلى إصلاح الحكم؛ فأسسوا حزب الأحرار الذي انضم إليه كثير من رجال الدولة على رأسهم الصدر الأعظم مدحت باشا، وكان من المتحمسين للحرية والإصلاح.

ورأى رجال الحزب أن صلاح الدولة رهين بإقصاء الخليفة عبدالعزيز وإعلان الحكم الدستوري في الدولة تحت ملكية خليفة جديد يملك ولا يحكم ويقبل مبادئ الدستور، فاستمالوا إليهم السر عسكر «حسين عوني باشا» وناظر البحرية وكبار الضباط، واستطاعوا في أواخر عام ١٢٩٣ أن يحاصروا سراي السلطان بقوة من رجال الجيش في البر وبقطع من الأسطول في البحر أمام السراي من جهة أخرى، وبذلك تقدم مندوبهم إلى السلطان يبلغه أن الأمة خلعته وأن قوات الجيش المحاصرة للسراي مستعدة للعمل إذا رفض الإذعان، فأراد السلطان أن يستخف بالأمر إلا أنه ما لبث أن شعر أنهم جادون فأسلم نفسه إليهم، وبذلك نقلوه إلى قصر آخر وجعلوا عليه الحراس، وقد ظل فيه أياماً ثم عمد إلى زنده فقطع بعض عروقه بمقراض وترك دمه يسيل إلى أن مات، ويعتقد بعضهم أن رجال الحزب اغتالوه في القصر.

وبخلع عبدالعزيز بايع رجال الحزب السلطان مراداً، فلم يدم أمر اتفاقه معهم أكثر من ثلاثة شهور ثم أشيع أن عقله اختلط؛ فاتفقوا على إقصائه وتنصيب أخيه

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

السلطان عبدالحميد مكانه في عام ١٢٩٤ وقد ظلت الأحكام تصدر وفق رغبة الدستوريين كما ظل عبدالحميد أداة لا عمل لها غير توقيع الأوامر.

وقد اضطربت الأمور على أثر ذلك، وشرع الدستوريون يعاقبون كل من يرتابون في إخلاصه لمبادئهم، ويقسون على خصومهم من أنصار الملكية ويسومونهم أنواعاً من الذل والهوان فكثرت القلاقل والفتن.

الحسين الشهيد ابن محمد بن عون: واختار الدستوريون لإمارة مكة على أثر انقلابهم شريفاً يعتنق مبادئهم هو الحسين بن محمد بن عبدالمعين ووافق السلطان على تعيينه فوجهت إليه الإمارة وكان يقيم في الآستانة [1] عضواً في مجلس شورى الدولة برتبة وزير، وقد ذكر لي بعض المعمرين أنه اشترك في الثورة الاتحادية وأنه كان يرى رأيهم في هيمنة الدستور وامتداد نفوذه.

وتوجه الحسين إلى مكة فوصلها في شعبان عام ١٢٩٤ ثم ما لبث أن غادر أخوه الشريف عون مكة بعد عيد الفطر من السنة المذكورة إلى الآستانة [2] فمنح رتبة الوزارة فيها واحتل مركز أخيه في عضوية مجلس شورى الدولة.

إلغاء الدستور: وما لبث عبدالحميد أن تمكن من زمام الأمور في مقر الخلافة واستطاع أن يقرب بعض المناصرين للملكية وأن يعد عدته لإلغاء الدستور.

وقد بدأ أعماله بالقبض على رجل الدستور مدحت باشا وكثير من زملائه فنفاهم كما سيأتي إلى الطائف ثم أثارها حرباً عدوانية عنيفة ضد أنصار الدستور، فأنشأ إدارة خاصة بالجاسوسية شرعت تتعقب أنصار الحرية وتتجسس

(١) هي مدينة استانبول، وكانت عاصمة السلطنة العثمانية، وكانت عاصمة بيزنطة، وكان اسمها القسطنطينية، ثم سميت إسلامبول وهي اليوم أهم مدينة في تركية (ع)

(٢) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٣.

على أعمالهم، وترفع بذلك تقاريرها السرية إلى عبد الحميد الذي أخذ يعاقب على الظنة ويبطش للشبهة ويمعن في النفي والتشريد والاغتيال والقتل حتى ملأ سجونه بخصومه وأرسل إلى قاع البسفور بكثير من ضحاياه بالألوف قضى أكثرهم اغتيالاً في السجون*.

أعمال عبد الحميد في مكة: وأخبرني بعض المعمرين أن أعمال العنف التي شنَّها عبدالحميد ضد خصومه من الاتحاديين اتصلت بمكة، وأنها أنشبت أظفارها أول ما أنشبت بأمير مكة لذلك العهد الحسين بن محمد الشهيد، فقد أراد عبدالحميد أن يضع حداً لإمارة الحسين وعلاقتها بالاتحاديين فدبر أمر اغتياله -كما يذكر هذا المعمر- لأنه كان يرى رأي رجال الثورة من الاتحاديين كما أسلفنا.

ولم يشر أحد ممن أرخ لمكة إلى هذه الفترة التي ذكرها هذا المعمر.

وقد ذكر الدحلان (١) أن الحسين بن محمد طُعن بخنجر مسموم في جدة في الوقت الذي كان يترجل فيه عند دار الشيخ عمر نَصيف لدخول القصر، وقابله رجل من الأفغان يأخذ شكل الدراويش وقبل أن يترجل عن فرسه عند دار الشيخ عمر نصيف أقبل عليه كمن يريد تقبيل يده حتى إذا اتصل به طعنه بخنجر مسموم في خاصرته، وقد قضى عليه على أثر ذلك، وبذلك سموه الشهيد.

وأدرك الناس الأفغاني فقبضوه، وكانت الظنون قد حامت حول شتى الاحتمالات.

---

* يرى بعض الباحثين أن السلطان عبدالحميد الثاني اتخذ إجراءات صارمة ضد أنصار التغريب؛ حفاظاً على هيبة الدولة وهويتها الدينية ووحدتها السياسية. انظر مثلاً «أورفان محمد علي، السلطان عبدالحميد».

(١) خلاصة الكلام ٣٢٧.

لكن الأفغاني لم ينبس بكلمة تضيء الموضوع، وقد حاول الموكلون به أن يعرفوا الأسباب التي دعته إلى ذلك فلم يفلحوا بعد أن أذاقوه مر العذاب.

وكان أعيان جدة قد داخلهم الفزع من أن تحوم حولهم الظنون؛ لأن الشريف كان مدعواً إلى مائدة بعض كبارهم فأدركته منيته وهو يترجل لدخول بيت الدعوة.

وذكر لي وجيه جدة الشيخ محمد حسين نصيف وهو ابن أخي الشيخ عمر نصيف الذي اغتيل الشهيد عند باب قصره سبباً آخر للاغتيال سمعه من بعض المقربين خلاصته: أن عبدالله بن محمد بن عون شقيق الشهيد كان في عهد إمارته قد اغتال محمد شرواني باشا الداغستاني والي مكة، فأراد أخو المقتول أن يثأر لأخيه، فلما انتهى إلى مكة كان عبدالله بن محمد بن عون قد توفي فطعن أخاه الحسين وهو بهذا يريد أن يقول: إن القاتل لم يكن أفغانياً بل كان داغستانياً وكان أخاً للشرواني باشا.

عبد المطلب بن غالب للمرة الثالثة: واتصل الخبر بدار السلطنة فوجه عبدالحميد الإمارة إلى عبدالمطلب بن غالب للمرة الثالثة وكان يقيم يومها في الآستانة فتوجه منها في ١٧ ربيع الآخر عام ١٢٩٨ [١].

وقد نشرت جريدة الجوائب التركية [٢] تقول: «توجه حضرة السيد الجليل الأثيل مولانا الهمام الكامل عقد آل البيت النبوي المعظم سلالة الأماجد القاطنين ببلد الله الأمين والحطيم وزمزم الشريف عبد المطلب ابن المرحوم مولانا الشريف غالب».

ويذكر الحضراوي [٣] في تاج تواريخ البشر أنه توجه في باخرة سلطانية خاصة

---

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبدالستار الصديقي ٣١٣.

(٢) ننقل الخبر عن تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي «مخطوط»

(٣) المصدر نفسه.

كلفت الدولة ما يزيد عن ١٧٠٠ جنيه (عثماني) عدا ألفي جنيه تسلمها كنفقات سفر، وأنه صحبته في الباخرة لجنة فنية لتخطيط ديار حرب التي كانت تضطرب بالفتن وحوادث العدوان، وقد انتهى إلى ينبع في ٧ جمادى الأولى فأقام أسبوعاً ومنها بلغه أن المدينة تعاني من الضنك والشدة كثيراً لقلة ورود الأرزاق إليها نتيجة لارتباك طرق القوافل فأمر بنقل الأرزاق إليها من ينبع، فسارت الأحمال في قافلة بلغت ألف جمل فاستقبلت المدينة ذلك بسرور عظيم، وهبطت الأسعار حتى بلغت أقة اللحم ثلاثة قروش وكيلة الأرز خمسة قروش ونصف كيلة القمح أربعة قروش ونصف.

وبعد أن أقام عبدالمطلب في المدينة نحو أسبوعين استأنف عودته إلى ينبع فاستقل الباخرة التي كانت قائمة تنتظره فتوجه بها إلى جدة حيث أقام أربعة أيام استقبل أعيان الأهالي في جدة وكبار الوافدين من مكة ثم انتقل إلى مكة فدخلها ليلة الجمعة ١٨ جمادى الآخرة ١٢٩٧ هـ في حفل عظيم ونزل في قصره بالقرارة[١].

ويشير الحضراوي [٢] إلى رجال الدوائر الأميرية فيقول: إن عبدالمطلب كان قد صحبه رجل من الشام يسمى جمال أفندي وآخر من اليمن يسمى محمد جابر، وقد قيل: إن الأخير كان مأموراً لبعض الجمارك فاعتقل في مكة بتهمة تبديد أموال الدولة في عهد الأمير عبدالله، ثم استطاع أن يلحق بالآستانة وأن يتصل بالشريف عبد المطلب ويلتحق بمعيته، فاصطحبه بعد أن تقلد الإمارة إلى مكة

(١) هدم القصر في عام ١٣٨٢ وقام على أنقاضه شوارع ودكاكين.

(٢) تاج تواريخ البشر «مخطوط»

وجعله رئيساً لدائرته يعاونه في ذلك كاتب تركي يسمى إيوان افندي وآخر من مولدي المدينة الأتراك اسمه حسين طلعت إلى أن قال ما معناه : إن هؤلاء الموظفين استبدوا بأعمال عبدالمطلب على أثر وصوله إلى مكة، ومنعوا الناس من الوصول إليه فاستاء الأهالي ورجال البادية ورجال قبائل حرب بالخصوص.

ويذكر الدحلان [1] ما معناه أن الشريف عبدالمطلب تقلد إمارته الأخيرة بعد أن تقدمت به السن، لذلك ارتبكت عليه بعض الأمور واستطاع بعض رجال قصره أن يستبدوا بالأمر دونه ويوجهوه إلى وجهات كانوا يستغلون فوائدها لأنفسهم.

وما كاد الأمير يصل إلى مكة حتى لاحظ داراً في القرارة تعلو داره بناها الشريف مهدي بن أبي طالب العبدلي في مدى غيابه عن الإمارة، فأمر بإحضار لجنة للإشراف على دعواه في الضرر فوافقته اللجنة، فأحضر أبناء الشريف مهدي وقرر أن يدفع أربعة آلاف ريال ثمناً للدار فقبلوا مكرهين، فكتب القاضي صكاً بذلك ثم أمر بها فهدمت، وبذلك بدأ استياء الناس وكثر لغطهم في شأن الأمير.

وما لبث عبد المطلب أن قبض على شيخ حارة الغزة محمد الهابط وعبدالله بن قويحص ومحمد تركي؛ بدعوى أنهم يتكلمون في السياسة، وأمر بهم فجلدوا في بيته - البياضية بالمعابدة- حتى فقدوا وعيهم ثم جروا إلى الأبطح وتركوا فيه حتى مات اثنان منهم، ولم يعش إلا شيخ الغزة واستمر القبض يومياً حتى اشتد نفور الناس منه.

وقبض على إبراهيم قاضي صاحب ينبع وعايض بن هليل شيخ قرية السيل وابن حرائيم من أهلها وأرسلوهم مقيدين إلى الآستانة.

---

(١) خلاصة الكلام ٣٧٢.

ولا أستبعد أن تكون أعمال الإرهاب هذه حلقة متممة لسلسلة الاضطهاد التي أعلنها عبد الحميد في الآستانة ضد خصومه من أنصار الاتحاد أو من يشتبه فيهم، فقد رأينا عبدالحميد يختار عبدالمطلب لإمارة مكة على أثر اغتيال الحسين فلا يبعد أن يكون قد كلفه بتعقب من يشتبه فيهم من أنصار الاتحاديين، خصوصاً وقد رأيناه يرسل بهم إلى الآستانة كما لا يستبعد أن تكون بعض أعمال عبد المطلب خاصة به، وأنه اغتنم لتبريرها فرصة دعوة عبدالحميد ضد الاتحاديين ورجال السياسة تنكيلاً بخصومه ومجاملة للإرهاب العام في دار الخلافة.

وبلغ من وثوق عبدالحميد بعبدالمطلب أن نفى كبار خصومه، ويبلغ عددهم نحو ١١ شخصاً على رأسهم مدحت وزملاؤه إلى مكة ووكل إليه المحافظة على سجنهم وإسكات من اقتضت سياسة عبدالحميد إسكاتهم، فقد حوكم هؤلاء الخصوم في محكمة عبدالحميد في الآستانة وصدر الحكم عليهم بالقتل إلا أن عبدالحميد رأى تأجيل ذلك فأعلن العفو عنهم من القتل واستبدل ذلك بالنفي، فرحلوا في محافظة شديدة إلى مكة حيث ظلوا فيها يومين ثم استأنفوا رحلتهم إلى الطائف حيث سجنوا بها في القشلاق المعروف [1].

ومما يؤيد صلة عبدالمطلب بفكرة الملكية وإخلاصه لعبدالحميد ما أخبرني به الشيخ حسن عشي وكان من المقربين في قصر الإمارة في مكة فقد ذكر أن عبدالمطلب كان يقيم في الطائف يوم وصول مدحت وزملائه إليها، وأنه كان يطل عليهم من نافذته وهم في طريقهم إلى السجن ويقول: «نصحت لك يامدحت فلم تقبل».

(١) خلاصة الكلام ٣٧٢. وقد تحول القشلاق (الثكنة) سنة ١٣٩٨ إلى مجمع للوزارات بالطائف في أشهر الصيف. وأهل الحجاز يسمونه: (قشلة) (ع).

وكان في معية الصدر الأعظم مدحت باشا زميله محمود باشا الداماد، وكان صدراً أعظم قبله، وخير الله أفندي شيخ الإسلام وكان قد أفتى بخلع عبدالحميد، وكان الأخير قد نفي قبلهم إلى المدينة ثم ألحق بهم عندما وصلوا إلى الطائف واعتقل معهم في سجنه.

وقد وصل المعتقلون إلى الطائف في سنة ١٢٩٧ وظلوا في اعتقالهم إلى أن اغتيل فيه مدحت ومحمود وبقي شيخ الإسلام.

وأخبرني بعض المعمرين أنهما قتلا بضغط الخصيتين ضغطاً شديداً حتى ماتا وقد أخبرهم بذلك من سمع أصواتهم المكتومة في بعض البيوت القريبة من القشلاق.

وقد ظل جثمان مدحت مدفوناً في الطائف حتى أوفدت الجمهورية التركية في عام ١٣٧٠ هـ لجنة تولت نقل جثمانه من الطائف إلى أنقرة.

ويذكر الدحلان [١] في حوادث عام ١٢٩٧ أن بازان أجياد تمت عمارته فيها وأجريت إلى خزانة عين زبيدة.

ويذكر أن عبد المطلب كان يعتمد في أعماله بجدة على وكيله الشيخ حسن هزازي ثم ما لبث أن غضب عليه فسجنه ونقل أعماله إلى عمر أفندي نصيف وكيل الأشراف من آل عون.

ويستمر الدحلان [٢] في وصف الشدة التي كان يعامل بها عبدالمطلب الرعايا في مكة إلى أن يقول: وقد مات له ولدان كان قد توليا أعماله بعنف، فلم تطل مدتهما ثم ولى حفيده مساعد بن رضا بك قائمقام، فظل نحو أربعين يوماً يذيق

(١) خلاصة الكلام ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه ٣٢٨.

الناس فيها أصنافاً من العذاب والسجن حتى ضج الناس ورجال البادية، فنزل عبدالمطلب يوماً إلى القرارة وأمر بإطلاق جميع المسجونين وولى القائمقامية علياً ابن سعد السروري فلم يكن أقل منه عنفاً في الحكم ثم ولى حامداً المنعمي فازداد السوء واضطربت البادية برجالها وارتبكت شؤون الأمن.

ويذكر أيضاً(١) أن عبدالمطلب آثر بالمنافع بعض المقربين إليه في حلقات الفاكهة وغيرها ويقول صاحب إفادة الأنام: إن رجال إدارته كانوا يحسنون له ذلك مقابل الرشاوي التي يستفيدون بها لأنفسهم.

ولقد كان للفاكهة والخضار سوق شائع بين الدلالين يمارسون فيه عملية المزاد بين البائعين والمشترين، فاستطاع دخيل الله العواجي أن يحتكر حقوق الدلالة على جميع الخضار والفواكهة لنفسه في الحلقة بموجب تقرير موقع من عبدالمطلب، وبذلك منع جميع المحترفين، ثم أباح لهم العمل لقاء مبالغ تحصلها لنفسه منهم، وفعل مثل ذلك في حلقات الحشيش والفحم والحطب، فقد أقر فيها بعض الأشراف بموجب تقارير خاصة تمنع غيرهم من مزاولة الدلالة إلا برسوم يدفعونها لقاء ذلك لصاحب التقرير، وفعل ذلك في تقرير تخريج الجمال الخاصة بالجاويين في بيوت معينة تتمتع بمصالحها وحدها.

والواقع أن هذا الاحتكار لم ينفرد بتقريره عبدالمطلب وحده، فقد شاركه فيه كثير من أمراء مكة قبله في عهد أبي نمي الثاني، ولا نزال نشاهد آثار ذلك باقياً إلى اليوم في كثير من البيوتات وقد رزح الأهلون تحت وطأته أجيالاً طويلة دون أن يغير ذلك من وضعه شيئاً؛ لأن العرف غشاه بمسحة يتألق فيها تقديس القديم، أمامنا بيوتات احتكرت تخريج الجمال لأقطار كاملة، وأخرى احتكرت التطويف

(١) خلاصة الكلام ٣٢٨.

لأجناس خاصة، وأخرى احتكرت ما لا أدري من أنواع الاحتكار فطغى احتكارها على مجال العمل في تلك الميادين، وحرم إلى جانب ذلك مئات الأسر التي كانت تزاحم بأقدامها، ولم يكن ذلك الاحتكار قاصراً على تقارير عبدالمطلب إلا أن تكون تقارير عبدالمطلب صدرت في احتكار ميادين تأثرت أكثر من غيرها أو أنها كانت أشد محاباة من غيرها.

على كل فإن الذي نستنتجه من أقوال المؤرخين أن أعمال عبدالمطلب من هذا النوع - بالإضافة إلى ما قدمناه من أعمال العنف - أساءت إلى بعض رجال القبائل، فبدأت القلاقل تنتاب البادية، وشرع الناس يتذمرون من صاحب الحكم، واضطرب حبل الأمن في كثير من الطرق بفعل عدوان بعض البدو، فوجد الوالي التركي الفرصة سانحة للعمل ضد عبدالمطلب لدى الخليفة في الآستانة، إلا أن مركز عبدالمطلب عند الخليفة كان أقوى مما ظن الوالي، فقد اختار الخليفة أن يسخو بالوالي ويضن بعبدالمطلب فأصدر أمره بعزل ناشد باشا وتعيين صفوت باشا في منصب الولاية وذلك في تمام ذي الحجة من عام ١٢٩٧، واصطحب الوالي الجديد أوامر بإلغاء تقارير عبدالمطلب التي خصصت الحلقات لبعض الأسر، وإلغاء تقارير بعض الجمالة والمخرجين وإعادة ماكان إلى ما كان.

ويبدو أن عبدالمطلب استاء لأوامر الإلغاء كما استاء من أسلوب التبليغ الذي أصدره الوالي الجديد، فما لبث أن نشب الخلاف بينهما بسبب ذلك ولأسباب أخرى اقتضاها احتكاك القضايا وتنازع الحكم بين إدارتين في بلد واحد، فتوسعت أمور الخلاف مع صفوت أكثر مما كانت مع من سبقه، واتصلت الأخبار بالآستانة فصدر الأمر بعزل صفوت وتعيين أحمد عزت باشا الأرزنجاني وكان قد سبق أن تولى ذلك في عام ١٢٦٩ أي في عهد حكم عبدالمطلب في مرة سابقة،

وقد وصل عزت باشا في أوائل المحرم ١٢٩٩ وكان قد طعن في السن وشارف عمره التسعين، ولم يطل أمر أحمد عزت؛ لأن الخلاف لم يلبث أن نشب بينهما فعزل وتولى أمر الولاية عثمان نوري باشا في شعبان من السنة المذكورة ١٢٩٩ [١].

والذي يبدو أن الشريف عبدالمطلب كان بالرغم من كبر سنه يعتد بشخصيته اعتداداً كبيراً، وكان يحول دون اتساع نفوذ الوالي التركي الذي تخوله صلاحيته التدخل في حكم البلاد إلى قدر يتسع بقدر ما يهن الأمير أو يضعف.

وتوزيع السلطة في مكة بين الإمارة والولاية سياسة لها غرابتها، ولكنني أحسب أن العثمانيين كانوا معذورين في اتباعها للحيلولة دون استبداد بعض الأمراء بآرائهم في الحكم، وغير معذورين لأنه كان في استطاعتهم تقرير نظام شامل يحد سلطة الأمير ويوضح علاقته بالرعايا في البلاد.

وبالجملة فقد ظل الخلاف على حاله إلى أن جاء عثمان نوري باشا وكان عثمان نوري باشا فيما يبدو أكثر جرأة من غيره، فقد استطاع أن يقنع الخلافة بإقصاء عبدالمطلب ويستصدر أمراً سرياً بعزله وتولية عبدالله بن محمد بن عون بالوكالة إلى صدور الأمر الأخير [٢]. وكان عبدالمطلب يومها في مصيفه بالمَثْنَاة من ضواحي الطائف، فأعد عثمان عدته للأمر بأن وزع في هدأة الليل بعض عسكره فوق الجبال المحيطة بالمثناة وزودهم بالمدافع وأعد بعض الأشراف بسيوفهم، ثم أرسل في الصباح إلى الشريف عبدالمطلب يبلغه أمر العزل، فلما أبصر المدافع في الجبال المحيطة به استسلم للأمر الواقع فتقدم إليه الباشا وطلب منه أن ينتقل إلى نزل العسكر «القشلة» الذي كان يعتقل فيه مدحت ورفاقه بالطائف.

(١) خلاصة الكلام ٣٢٧.

(٢) ينطقون (عبدالله) بكسر الدال في جميع الحالات ويكتب بعضهم ذلك هكذا (عبداللا) للتفرقة بينه وبين اسم عبدالله المعتاد وهو خطأ مشهور.



ثم أقام عليه الحراس وأطلق المنادي في الطائف ومكة بعزله وتولية عبدالله بن محمد ابن عون وذلك في ٢٨ شوال عام ١٢٩٩ (١) وقد أقام عبدالمطلب بقشلاق الطائف إلى نهاية عام ١٢٩٩ ثم نقل إلى قصر «البياضية» في المعابدة، فظل معتقلاً تخفره ثلة من جنود النظام، وكان يعيش بين أهله وخدمه إلى أن توفي في شهر ربيع الثاني عام ١٢٠٣ وقد صلى عليه مفتي السادة الشافعية السيد أحمد زيني دحلان وشيع جنازته الشريف عون الرفيق والوالي عثمان باشا وكان عمره يشارف المائة (٢).

عون الرفيق: وظل عبدالله في وكالته أياماً ثم تبلغ توجيه الإمارة إلى أخيه عون الرفيق بن محمد بن عبدالمعين بن عون، ثم ما لبث أن وافته الأنباء بقدوم أخيه فندب للقائه في جدة بعض الأشراف من أبناء أخيه يتقدمهم الحسين بن علي «ملك الحجاز فيما بعد» فاستقبلوه في جدة في ٩ ذي الحجة عام ١٢٩٩ في موكب حافل، وظلوا بقية اليوم معه بعد أن فاتهم موقف عرفات، ثم توجهوا جميعاً إلى منى حيث احتفل بقدومه فيها، وغادر مكة عبدالله على أثر ذلك وابن أخيه ناصر ابن علي إلى الآستانة حيث أنعم عليهما برتبة الباشوية، ثم عيِّن عبدالله باشا عضواً في مجلس شورى الدولة بالآستانة، كما أنعم بالباشوية على الحسين بن علي (٣).

(١) تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي ٣١٥.

(٢) تاج تواريخ البشر للعلامة الحضراوي

(٣) إفادة الأنام «مخطوط»

وعبث بعض المفسدين من قبائل زبيد وبشر ومعبد [١] وسليم [٢] بالأمن وقطعوا طريق القوافل بين جدة ومكة في رمضان عام ١٣٠٠ فجهز الشريف عون جيشاً لقتالهم ففروا إلى عسفان فأدركهم وأوقع بهم حتى أطاعوا له .

وفي هذا العهد توفي الشيخ أحمد زيني دحلان صاحب «خلاصة الكلام» وذلك في عام ١٣٠٤ ، وما لبث أن نشب الخلاف بين عون والوالي التركي عثمان باشا نوري بسبب الخلاف على السلطة ، فعزلت الدولة عثمان وعينت حسين جميل باشا .

وفي عام ١٣٠٤ قبض عون على موسى البغدادي وأمين ماصية لي ومحمد السعدي فنفاهم إلى خارج البلاد [٣] .

ثم ألقي القبض على إبراهيم العجيمي وعبدالله كردي إمام الشافعية والشيخ أحمد ابن الشيخ عبدالله فقيه أحد الأئمة والشيخ علي زين العابدين هندية ونفاهم كذلك .

وقد ذكر أنهم كانوا يتصلون بالوالي عثمان باشا فنهاهم عن ذلك حتى انتهوا ، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى الاتصال بالوالي الجديد على أثر وصوله فعاقبهم بالنفي .

كما عزل الشيخ عبد الرحمن الشيبي من وظيفة السدانة ونفاه إلى الهدا فظل فيها إلى أن مات وعين للسدانة غيره من آل الشيبي .

وقد رفعت قضايا النفي إلى دار الخلافة فلم توافق عليها وأباحت لهم العودة إلى مكة فعادوا ، وفي سنة ١٣٢٤ صدر أمر الشريف عون بإبعاد الشيخ

(١) هذه الثلاثة البطون من حرب (ع)

(٢) هم بنو سليم بن منصور ، القبيلة المشهورة . (ع) .

(٣) إفادة الأنام «مخطوط»

عبدالرحمن سراج مفتي الأحناف، والشيخ محمد عابدين حسين مفتي المالكية، والسيد إبراهيم نائب الحرم، والسيد علوي سقاف شيخ السادة بمكة، والسيد عبدالله بن محمد الزواوي (١)

ويذكر بعض من عاصر الشريف عوناً أن المنفيين كانوا قد كتبوا إلى الخليفة عبدالحميد يشكون من أعمال الشريف عون في مكة في «مضابط» موقعة بأسمائهم، فأعادها الخليفة أو المسؤولون في القصر ممن يميل إلى سياسة الشريف عون أعاد تلك المضابط إلى الشريف عون ليطلع عليها، فانتقم لنفسه من أصحابها وعاقب بعضهم بالسجن والبعض الآخر بالنفي.

ويذكر بعضهم أن المضابط أعيدت إلى مكة تصحبها لجنة على رأسها أحمد راتب باشا للتحقيق في موضوعها، وأن عوناً استطاع أن يكسب ود أحمد راتب باشا ويظفر بنتيجة التحقيق، وقد ظل راتب باشا على أثر ذلك يقوم بوظيفة الوالي بعد أن عزل جميل باشا.

ويذكر هؤلاء أن عوناً غدا أشد وطأة على الأهالي بعد قضية المضابط، وأنه بعد أن انتقم من أصحابها اشتط في معاملاته مع غيرهم مما كان له أسوأ الأثر.

ويبدو أن الشريف عوناً كان - بغض النظر عن موضوع المضبطة - غريب الأطوار متناقض الأعمال يقدس بعض معاصريه فيه غزارته العلمية ومحبته للخير العام وتبسطه في مجالسه الخاصة وتودده للمسالمين. وينعون عليه في الوقت نفسه تبذله بين ندمائه وقسوته في معاملة الحجاج وإمعانه في عقوبة مخالفيه واصطناعه «الخزناوية» الذين كانوا يضطهدون عامة الشعب.

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

الخزناوية : فرقة اتخذها الشريف عون كحرس خاص لخدمته والاستعانة بهم على تنفيذ أوامره، فكانوا يتسلطون على الأهالي ويستغلون نفوذهم في اضطهاد من يضطهدونه أو يطمعون في أمواله فكان لا يجرؤ أحد على الشكوى منهم.

ويعلق بعض المنتقدين بمرارة على أعمال «الخزناوية» ويقول إنه كان يختارهم من طبقات العامة ويجيز لهم من النفوذ ما يستطيعون به إذلال الخاصة نكاية لهم.

ومما يحفظه معاصرو الشريف عون من القصص التي تدل على غرابة أطواره أنه كان يأمر بهدم بعض قباب القبور بحجة أن أصحابها لا يستحقون التقديس ويعفو عن بعضها بدعوى أحقية ذلك [1].

ويذكرون أنه عمد إلى رجل من المجاذيب يسمونه «علي بو» كان يذرع الشوارع بجسمه العاري فجعله من جلسائه بعد أن أمر بتنظيفه وتعليمه ارتداء الأثواب الفخمة التي تؤهله لصدور المجالس.

قالوا إنه اتخذ هذا المجذوب أنيساً وأمر علْية القوم وعظماءهم بتقبيل يده وأحله مكان الصدارة منهم، وكان إذا خرج في موكبه جعل المجذوب عن يمينه في عربته الخاصة وإذا ركب المجذوب عربته الخاصة أمر الناس بالوقوف له لتأدية التحية على نحو ما يفعلون لدى مرور الموكب الأميري.

وأراد أن يشيد للمجذوب قصرا فابتاع له بعض الدور القريبة من المسجد في القشاشية وهي من أهم شوارع البلدة وأجبر أصحابها على الإخلاء ثم هدمها وبنى القصر مكانها، وقد هدم القصر أخيراً بمناسبة توسعة المسجد الحرام.

(١) ذكر عبدالله البسام في كتابه (علماء نجد خلال ستة قرون) ص ١٥٦ ج١ أثناء ترجمته لأحمد بن عيسى عن المرحوم محمد نصيف ما يفيد بأن الشريف عوناً انتمى إلى مذهب السلف على يد أحمد هذا، وأنه أقنعه بهدم القباب فوافقه على ذلك وقربه، ولم يبق غير قبتي السيدة خديجة رضي الله عنها وقبة حواء بجدة (ع).

وعمد إلى قطعة أرض أمام القصر مكتظة بالبيوت فحكم على أصحابها بإخلائها ونقدهم ثمنها ثم أمر بهدمها ليجعل منها حديقة ليمتع المجذوب بصره فيها. ويبالغ بعضهم فيقول: إن عوناً أراد أن يتوسع في الهدم حتى ينتهي إلى الغزة ليجعل المسافة بين قصر الإمارة وقصر المجذوب خالية لا يعترضها عند النظرة فيها شيئ بين القصرين وهي مسافة لا تقل عن ٣٠٠ متر.

ويقول بعضهم: إن فكرة الهدم لأجل الحديقة أو غيرها لا أساس لصحتها وإن امتلاك تلك البيوت وهدمها كان الغرض منه تشييد نزل للحجاج متسع الأطراف تنفيذاً لرغبة الخليفة عبدالحميد الذي أوصى بتشييد ذلك وبعث بالأموال اللازمة فتم الإخلاء والهدم. والواقع أن القطعة المذكورة من الأرض ظلت خالية طوال أيام الشريف عون ثم أجرها ورثته بعده لبعض الناس الذين اتخذوا منها دكاكين وبيوتاً من الصفيح، وقد ظلت كذلك إلى عهد الحكومة السعودية الحاضرة حيث ألزمت الورثة من آل عون بتخطيطها وبناء دكاكين وشوارع فيها، وقد دخل اليوم بعضها في مشاريع توسعة المسجد.

ويميل بعضهم إلى الاعتقاد بأن الشريف عوناً كان يعتقد الولاية والصلاح في «علي بو» وأنه كان قد تنبأ مرة بنبوءة عند عون فاعتقده، وكنت أعرف «علي بو» بعد عهد عون وقد عاد إلى الشوارع يذرعها كسابق عهده بها ولكنه لم يكن عاريا، بل كان أهله يكسونه ما يكتسي به الناس عادة وحادثته مراراً فلم أجد في أحواله ما يلفت النظر، فقد كان جنونه عاديًا، وكان يميل إلى الانفراد وقلة الحديث، وكان لا يُرى إلا مطرقاً في هدوء وقد تبادرُه إلى الحديث فلا يجيبك إلا بعد إلحاح بلازمة اعتادها على الدوام في كلمة واحدة: «هي مقضية.. مقضية.. مقضية إن شاء الله».

ويميل البعض إلى أن إمعان عون في الدهاء سول له العمل على نكاية العظماء باتخاذ هذا المجنون جليساً له يقدمه عليهم ويأمرهم بتعظيمه وتقبيل يده. ويميل فريق آخر إلى التدليل لقصة «علي بو» على شذوذ الشريف عون وغرابة أطواره.

وإنني أميل إلى الرأي الأخير وأعتقد أن الشذوذ في أوساط العظماء وقواد الأمم لا يخلو منه زمان، شأنهم شأن عامة الخلق لا فرق بينهم فيه إلا فيما كان من نوع الأثر الذي يتركونه في بيئتهم وما يحيط بهم، فالشذوذ في العظماء يستعير فخامته من مراكزهم الممتازة ويترك أثره قوياً فيمن يحيط بهم، وقد يجد من يشايعه ويتأول له ويضفي عليه من نعوت النوابغ والعباقرة وجبابرة العقول ما يحير الوصف، كما يجد في الوقت نفسه من يمعن في نقده ومقته وينسج حوله آلاف القصص المثيرة للضحك والإشفاق زراية بأصحابه وانتقاماً منهم، وقد ورثنا التاريخ في العالم آلاف القصص مما كان ينسج حول أصحاب الشذوذ من قادة الأمم بعضها يصورهم في صدق، كما يبالغ بعضهم في تشويههم وكلها تجمع على أن الطبقات الممتازة في الحياة منيت بأصحاب الشذوذ كغيرها من مختلف الطبقات.

وإذا كان أثر الشذوذ في الطبقات الممتازة يستعير فخامته من مراكزهم فإنه في الطبقات المتوسطة وما تحتها يمضي - كما نشاهد - ضئيلاً دون أن يخلف بعده ما يدل عليه.

ويغرب بعض مشايعي الشريف عون ممن حدثتهم في شأنه فيقول: إن عقلية عون الجبارة هَدَتْه إلى أفضل طريقة تمكنه أن يتقي بها كيد عبد الحميد الذي كان يشك في جميع المستشارين من عماله وموظفيه أن يصطنع هذه الأعمال ويجالس المجانين ليوهمه أنه أحد السذج الذين لا يعتد بهم. كما يغرب بعض من لاقيته فيقول: إن عوناً كان ساذجاً بالفعل وإن تصرفاته في إدارة الحكم كانت تدل على سذاجة مطلقة.

ويمكننا إن أردنا ألا ننكر عليه علمه وفهمه في الحياة أن نرد تصرفاته إلى الشذوذ الذي اعترى قبله كثيراً من عظماء الأمم .

فيل عون : وأهدى أحد عظماء الهند للشريف عون فيلاً ، فكان الفيل ينطلق في الشوارع يصحبه مروضه ، وكان يصيف في الطائف إذا صيف الشريف عون [١] .

بعض أعمال عون : أنشأ الشريف عون بستاناً بجرول تبلغ مساحته ٣٧٠ × ١٨٠ متراً مسوراً بسور ارتفاعه متران في وسطه خزان للماء «بركة» طول ضلعه ٦ أمتار وسمكه ثلاثة أمتار وربع ، وارتفاعه أربعه أمتار يُصعد إلى أعلاه بدرج ، وكان يزرع في البستان الجوافة والجوز الهندي والبرتقال والليمون والنخيل والكادي والورد والبرسيم والكرنب وأنواع الخضراوات [٢] .

والذين ينعون على عون قسوته في معاملة الحجاج يذكرون أنه فرض على مواصلاتهم أجوراً باهظة بالنسبة لمستوى الأسعار في ذلك العهد ، فيقولون إنه في سنة ١٣٠٣ كانت أجرة الجمل للشقدف من مكة إلى المدينة ثم ينبع ٢٣ ريالاً ومرجوع جدة ٣٨ ريالاً ومرجوع الوجه ٣٥ ريالاً ويدفع ريال للشريف وريال للوالي وثالث للمخرج ورابع للمطوف ومن المدينة ريال للمزور وآخر (للميري) أي لخزانة الحكومة العثمانية[١] .

وفي «دليل الحج» لصادق باشا أن عرب البادية قطعوا الطريق على القافلة وظلت ثلاثة أيام حتى دفعوا عن كل جمل ريالاً ثم دفعوا في عسفان نصف ريال عن كل جمل .

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط» .

(٢) مرآة الحرمين .

وفي ٧ محرم عام ١٣٠٤ خرجت قافلة من مكة إلى جدة فيها نحو ٣٠٠ جمل يحرسها ٥٠ عسكرياً، فلما صاروا بين بحرة وقهوة العبد في الساعة ٣ ليلاً هجم العربان على القافلة وأطلقوا سلاحهم الناري على العساكر واشتغل بعضهم بالنهب، وقد أسفرت المعركة على قتل ثمانية من الحجاج ومثلهم من الجمالة عدا الجرحى، ولما اتصل الخبر بمكة جردت حملة عسكرية عليهم (١).

وفي عام ١٣١٨ قسم عون طوافة بلاد مصر وجاوه والهند والمغرب وبلاد الأناضول وغيرها أقساماً تسابق المطوفون إلى شرائها، وبذلك ألغى سؤال الحاج عن مطوفه وألزم بتبعية المطوف الذي اشترى حقوق الطوافة للبلاد التي يتبعها ذلك الحاج (٢).

ويقول إبراهيم رفعت باشا (٢): إن جميلاً باشا جاء إلى مكة فأبطل تقسيم بلاد الجاوي ثم عادت التقسيمات في عهد راتب باشا ويقول: إن بعض الصحف الجاوية نشرت تنتقد أعمال عون وتتهم بعض موظفي قصره، وتقول: إن هذا البعض يعطي للأمير «من الشاة أذنها» وقد بنوا الدور والقصور (٣).

علي بن عبدالله: وتوفي الشريف عون بالطائف في جمادى الأولى ١٣٢٣ واتصل الخبر براتب في جدة، فكتب إلى قاضي الطائف وأعيانها بتنصيب الشريف علي بن عبدالله بن محمد بن عبدالمعين بن عون وكيلاً إلى أن تصدر الأوامر من الآستانة.

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٢) مرآة الحرمين.

(٣) تحدثت إلى معمر من أهل البادية فسألته عن عمره، فقال: (أنا دخلت على أبو خريطة وأنا محتزم بالبندق) فسألته: من أبو خريطة؟ قال: عون الرفيق. ومعناه الذي يخلط في اعماله. (ع).

ولما تولى الأمر علي باشا أمر باعتقال «الخزناوية» وصادر أموالهم وممتلكاتهم لقاء تسديد ما اغتصبوا من أموال الناس.

وبوصول الخبر إلى الآستانة وافقت على تأصيل علي باشا في شعبان من العام المذكور ولم يصل المرسوم الخاص بذلك إلا في أوائل عام ١٣٢٦ [١]

وفي سنة ١٣٢٥ أمر الخليفة بندب لجنة من علماء المسجد الحرام لنصيحة إمام اليمن الذي كانت ثوراته لا تهدأ وتحذيره من مخالفة الدولة، فندب جماعة، منهم المشايخ: محمد سعيد بابصيل مفتي الشافعية وعبدالله بن عباس بن جعفر مفتي الأحناف، وقد توفي الأخير في صنعاء وتولى الإفتاء عبدالرحمن سراج صبيحة عيد الفطر من العام المذكور [١].

عودة الدستور في الآستانة

لم تفت سياسة عبد الحميد القاسية في عضد أنصار الدستور الذي ألغاه، ولم تَحُل يقظة جواسيسه وأساليبهم في الإرهاب دون مواصلة أعمالهم الثورية، فقد استأنفوا نشاطهم على أثر قتل مدحت باشا في الطائف عام ١٢٩١ هـ وشرعوا وعلى رأسهم نيازي وأنور يؤلفون الجمعيات السرية في سلانيك ثم في رسنة ومناستير وأخذوا بدورهم يتجسسون على أعمال عبدالحميد ويترقبون الفرص للثورة ضده، وقد استمرت أعمالهم كذلك نحو ٣٠ سنة استطاعوا في نهايتها أن يعلنوا أنفسهم في سلانيك وأن يضموا إليهم كثيراً من ضباط عبدالحميد وقواد جنده، ولما بعث عبدالحميد جيشاً يؤدبهم انضم رجال الجيش إليهم وشرعوا يقاتلون في صفوفهم.

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي.

ومشى رجال الدستور حتى حاصروا عبدالحميد في قصره بالآستانة وأكرهوه على قبول الدستور مع بقائة في عرش الخلافة، فوافقهم على ذلك وأعلن الدستور إلى جميع الولايات التابعة لعثمانيا في ٢٧ جمادى الثانية عام ١٣٢٦ هـ.

وبذلك عاد الدستوريون إلى حكم البلاد بعد أن عاقبوا أنصار الملكية وأقصوهم من مراكزهم واستولوا على مقدرات البلاد وأحكامها، وأسسوا مجلس (المبعوثان) من أعضاء انتخبتهم الولايات التابعة للعثمانيين، ثم ما لبث الاتحاديون أن اختلفوا على بعضهم لأن بعض العناصر كالعرب والأرمن وغيرهم شعروا بحاجتهم إلى الاستقلال الذاتي عن الأتراك، كما أن المتدينين من رجال الإسلام انتقدوا على رجال الجمعية تساهلهم بأمور الدين ومخالفة بعض أحكامهم لأحكام الإسلام فاشتدت القلاقل وتأسست الأحزاب بعضها تدافع عن الدين وبعضها تدافع عن العناصر وارتفعت أصواتها بسقوط الاتحاديين فنشبت الفتنة في الآستانة وهوجم مجلس (المبعوثان) ففر بعض الأعضاء وقتل بعضهم وطار الخبر إلى سلانيك مستودع الاتحاديين وملاذهم فلم يبطئوا في إرسال فيالقهم بقيادة محمود شوكت لإخضاع الفتن في الآستانة وقد استطاع محمود باشا أن يسيطر على الموقف.

وكان الاتحاديون قد شعروا أن السلطان عبدالحميد الثاني ساعد على إثارة هذه الفتن فاجتمع مجلس الأمة في عام ١٣٢٦هـ وقرروا خلعه بعد أن استفتى شيخ الإسلام عن حكم الشريعة في شخص خالف الشرع في أحكامه وحنث في يمينه وأحدث الفوضى في المملكة فأفتى بخلعه فخلعوه.

ثم رحلوه في بعض أهله إلى سلانيك مع قليل من خدمه حيث أقام مدة، ثم رأوا إعادته إلى الآستانة فظل فيها أسير الاتحاديين إلى أن توفي في عام ١٣٣٥ هـ.

وبخلعه في عام ١٣٢٦ هـ بويع أخوه السلطان محمد الخامس «محمد رشاد».

أنصار الدستور في مكة : وعندما ظفر الاتحاديون وجاءت الأوامر إلى الوالي التركي في جدة «أحمد راتب باشا» بإعلان الدستور في البلاد كأمر السلطان تباطأ أحمد راتب وصرح لكبار الضباط بضرورة نشره تدريجياً تحاشياً من الفتن في البلاد، فلم يقنع أنصار الدستور من الضباط والجند وبعض الأهالي برأيه ورأوا ضرورة تعجيل الإعلان، فكتب الوالي إلى الأمير علي بن عبدالله، وكان في مصيفه بالطائف - يطلب إليه شخوصه إلى جدة ومساعدته في إخماد الفتنة، فكتب إليه أنه يوافق على إرجاء الدستور ولكنه لم يبادر إلى موافاته في جدة للعمل معه على إخماد الفتن.

واستطاع أنصار الدستور في جدة القبض على راتب باشا وإرساله إلى قلعة مكة ليبقى أسيراً فيها، ثم أعلنوا الدستور وأطلقوا من ينادي به في شوارع مكة وجدة والطائف.

وانتهت الأخبار إلى الاتحاديين في الآستانة فاستاؤوا لتباطؤ الوالي في إعلان الدستور، فصدرت أوامرهم بعزل أحمد راتب باشا وتولية كاظم باشا، فوصل الوالي الجديد إلى مكة في رمضان من العام المذكور عام ١٣٢٦، ثم صدرت أوامر الاتحاديين بانتخاب مبعوث عن كل خمسين ألف شخص فانتخبت مكة المفتي الشيخ عبدالله سراج بصورة أقرب إلى التعيين منها إلى معنى الانتخاب، وسافر المنتخب إلى السويس، ثم ما لبث أن استعفى وبذلك عقد مجلس (المبعوثان) في ذلك العام ولم يحضره مبعوث مكة [١].

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

ثورة القبوري : وفي هذا العام ثار بعض الأهالي في مكة ؛ لأن رجال الدستور من العثمانيين - كما أخبرني بعض المعمرين - قرروا استيفاء ضريبة خاصة على دفن الموتى وقدرها خمسة ريالات لتصرف على إصلاح القبور ، واستحضروا شيخ القبوريين ليبلغوه استيفاءها من أصحاب الموتى ، فاستنكر الشيخ أمر الضريبة وخرج من دار الحكومة صائحاً فاجتمع إليه الناس فأعلنهم الأمر في صورة استثارت شعورهم ، وكانوا لم يتوطنوا بعد على مبادئ الدستوريين ولم يقتنعوا بثورتهم على الخليفة وصاح صائحهم بالجهاد في سبيل الله ، فاستجاب الشباب من جميع الحارات وخرجوا بأسلحتهم ينادون بالثورة على الأتراك ، فاشتبكوا مع الجند في عدة مواقع من الأسواق ، وقتل وجرح من الفريقين عدد كبير ، ثم استطاع الأتراك ، بمساعدة بعض الأشراف إخماد الفتنة بعد ساعات من نشوبها ، وقد اتهم أمير مكة علي بن عبدالله باشا بالدعوة إلى الثورة ومساعدتها .

عبدالله بن محمد بن عون : وكان الاتحاديون في الآستانة قد بلغهم تباطؤ الشريف في إعلان الدستور كما ذكرنا ، ثم بلغهم ما قيل عن مساعدته لثورة القبوري ، فأصدروا أمراً بعزله في ٢٨ رمضان عام ١٣٢٦ وتولية عبدالله بن محمد بن عبدالمعين بن عون وكان يقيم في الآستانة ، فشرع يجهز أمره للسفر إلى مكة ، ولكن المنية عاجلته قبل أن ينتقل في ٣ شوال من السنة نفسها [1] وقد قيل إنه كان ضعيف البنية أنهكته الأمراض ، كما قيل إنه مات مسموماً .

الحسين بن علي : وبوفاته وجه الاتحاديون إمارة مكة إلى الحسين بن علي . ووافق الخليفة رشاد الخامس على ذلك فتوجه الحسين من الآستانة على أثر ذلك فوصل مكة في ذي القعدة عام ١٣٢٦ هـ .

---

(١) تذييل شفاء الغرام ، للشيخ عبدالستار الصديقي «مخطوط» .

وكان الحسين من أشد المحافظين وأكثرهم تمسكاً بما ورث من عقائد، ولهذا كان لا يميل إلى فكرة الدستور ولا يعترف في أعماقه بمبادئه التي تخول عامة الشعب شيئاً من حقوق الحكم، وكان إلى جانب هذا يعتقد أن نظامه لا يتفق وما ورث من تقاليد تفصل بين الحاكمين والمحكومين.

وكان بحكم إقامته في الآستانة عرف الكثير من خفايا أصحاب الدستور، واختلط ببعض شبابهم وشاهد شيئاً من تهاون بعضهم بروح الدين، فأثر ذلك في عقيدته السلبية نحو رجال الدستور.

وكان يعرف مبلغ الفوضى التي خلفت ظفر الدستوريين في الآستانة، واتصل باضطرابات العناصر غير التركية، وماج مع المائجين لقضية العروبة، واختلط بالداعين إليها باسم الاستقلال الذاتي، وسمع منهم وأعطاهم فأثر ذلك في توجيهه وهيأه تهيئة كان لها أثرها فيما بعد، وقد قيل إنه كان شخصية لامعة في عاصمة الأتراك وكانت له حلقة واسعة من المعجبين [١].

وأعتقد أن الاتحاديين لم يتح لهم إمعان النظر في مصالحهم عندما فكروا في توجيه إمارة مكة وإلا لكان الحسين آخر من يختارونه لها في ظرفهم العصيب، وقد كانوا معذورين لأن حكومتهم الجديدة لم تتركز بعد. كما أن الحسين من رجالات الأشراف في الآستانة الذين لا يسهل التغافل عنهم والتخطي إلى غيرهم بالنسبة لإمارة مكة.

وقد ذكر أن عبدالحميد كان لا يرى توليته ويشاركه في هذا أكثر البارزين من

(١) الملوك الهاشميون لجيمس موريس، منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة ص ٢١.

رجال الاتحاد ولكنهم أرادوا معارضة السلطان [1] وانتقل الحسين إلى مكة دون أن يبدو منه ما يخالف مبادئ الدستور، وبوصوله إليها لم يجاهر بمقتهم أو كراهيتهم بل ظل في مجالسه الرسمية يبتهل إلى الله أن يجمع كلمة المسلمين تحت راية العثمانيين وأن يسدد خطاهم ويمنحهم التوفيق.

وفي عام ١٣٢٧ أمر الحسين بانتخاب اثنين لعضوية مجلس (المبعوثان)[2] في الآستانة كطلب الاتحاديين، فاختار لذلك ابنه عبدالله والشيخ حسن عبدالقادر الشيبي.

وشعر الوالي التركي كاظم باشا أن مجالس الحسين كانت تفيض حيوية، وأنه دائم الاتصال بطبقات الشعب والأهالي، وأنه يعنى عناية خاصة باستقبال وفود البلاد العربية في موسم الحج ويطيل في حديثه إليهم عما يتوجسه من رجال الاتحاد، وأنه كثير الاهتمام بمرافق البلاد حريص على ألا يترك للوالي فرصة يؤدي وظائفه فيها إلا في أضيق نطاق، فأراد أن يستيقظ حرصا على مصالح الدولة العثمانية وتنفيذا لسياسة الاتحاديين، فجره ذلك إلى مشاكل انتهى أمرها إلى الآستانة فلم يستطع الاتحاديون علاجه إلا بعزل الوالي وتولية غيره.

وعانى الوالي الجديد من حيوية الحسين ما عانى سابقه، ثم انتهى أمره إلى العزل وعزل بعده غيره وغيره، فلم تمض السنوات السبع الأولى من حكم الحسين حتى كان قد تعاقب على الولاية في مكة ستة ولاة هم: كاظم وحازم وفؤاد وأحمد ونديم ووهيب وغالب مع حفظ الألقاب كما يقولون.

(١) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ٢٣.

(٢) هو مجلس الأمة أو كما يسمى في بعض البلاد: البرلمان. (ع)

وظل الحسين على نشاطه في الدعوى ضد الحكم الدستوري حتى استطاع في عام ١٣٣٤ أن يعلن الثورة وأن يحاربهم في صفوف الإنكليز سعياً وراء استقلاله بالبلاد كما سيأتينا في الفصل الخاص بالثورة العربية .

النواحي العامة
في العهد العثماني الثاني

الناحية السياسية: عادت مكة إلى تبعيَّتها للعثمانيين مرة أخرى على أثر ترحيل جيوش خديوي مصر محمد علي باشا منها بعد الاتفاق الذي أشرنا إليه في نهاية الفصل الخاص بعهد محمد علي باشا.

وظل الأشراف على شأنهم يتولون إمارتها إلى جانب قائد العسكر التركي الذي كانوا يسمونه في عهد عثمانيا السابق صنجق جدة وشيخ الحرم مع اختلاف بسيط في اللقب فقد سموه في هذا العهد والي جدة ثم ما لبثوا أن نقلوا مقره إلى مكة ولقبوه باسم الوالي إشارة إلى ولايته على الحجاز بأسره.

وفي هذا العهد كان اختصاصه قد توسع فأشرف على شؤون الأموال و«الجندرمة» المختصة بأمن المدن والعسكرية التي تمثلها الفرق المرابطة من الأتراك بين مكة والطائف وجدة.

وكان أمراء مكة من الأشراف يتمتعون بواردات بلادهم كما تقدم بنا في أوائل العهد العثماني الأول، عدا ما يصلهم من منح الخلفاء، ثم مالبث الأتراك أن منعوا أيديهم عن ذلك ولم يبيحوهم إلا قسطا محدودا منه. أما في هذا العهد فقد أضافوا عموم الواردات إلى قيود الخزينة العامة في الدولة العثمانية، ثم رتبوا لأمراء البلاد رواتب يتقاضونها بموجب «الكادر» العام للدولة، إلا أن بعض الأمراء كانوا يخترعون لهم مصادر يستوردون منها بعض الأموال كتخريج الجمال وإتاوات أخرى يتقاضونها من بعض رؤساء الطوائف العاملة في طوافة الحجاج أو حلقات بيع المنتجات الزراعية، فكان الأتراك لا يعارضون فيها إلا

نادراً وفي ظروف يشعرون فيها بضعف الحاكمين من الأشراف، وقياساً على هذا كان نفوذ الأتراك يضيق مداه ويتسع بنسبة قوة الحكم من الأشراف أو ضعفه.

ولسنا ندعي ونحن في صدد واردات الحجاز أن الأموال التي كانت تجبيها خزانة العثمانيين يصح أن يقال إنها تغطي نفقاتها أو تعود بربح فائض لخزانة الدولة بل كان الأمر بالعكس تماماً فقد كانت الدولة تنفق على مرتبات الأمراء وذويهم من الأشراف ورؤساء القبائل وكبار العلماء وأعيان البلاد والموظفين ما يزيد مجموعه عن مجموع الواردات أضعافاً (١)، ولكن العثمانيين كانوا مع هذا هم الرابحون بفرض سيادتهم على ولاية الحجاز ورجوعهم بفخر خدمة الحرمين الشريفين واستئثارهم بالسلطة فيها.

ويبدو أنهم كانوا يشعرون بكثير من الصعوبة في إخضاع هذا القطر خضوع غيره من الولايات؛ لبعد المسافة بينهم وبينه، ولاعتداد بعض أشرافه بأنفسهم واعتمادهم على عصبياتهم، ولفوضى قبائله التي تنتشر بين وديان سحيقة وجبال منيعة وأسواق قاسية لا يحتملها جلد الجندي العثماني، لهذا كانوا يقنعون منه بما وجدوا من الطاعة، وكانوا يدعمون هذه الطاعة بأموالهم وما ينفقون فيه أكثر مما يدعمونها بقوة السلاح، فكانت مرتباتهم من غلال القمح تصل إلى كل بيت في الحرمين، وكانت معاشاتهم مبذولة تضم كثيراً من طبقات الأمة، وكان ذوات البلاد وأشرافها يجدون من المناصب العالية في بلاد العثمانيين ما يقصر عنها غيرهم، وقد ترك ذلك أثره في مقدرات البلاد على مر السنين، وشعر الناس في الحرمين أنهم باتوا يعيشون في كنف آل عثمان ويجدون من برهم ما يغنيهم عن

(١) كان مقرر العثمانيين من إيجار كل جمل يسافر للمدينة ريالاً مجيدياً واحداً وإلى جدة ربع مجيدي وكانوا يسمونه كوشان، وكان للأشراف كوشان أقل من هذا.

العمل الجاد في سبيل الحياة فاستكانوا لهذا الظل الوارف وتوطنت نفوسهم على احترام العلاقة التي تربطهم بآل عثمان والرضا بتبعيتهم للدولة، وباتوا في أكثر المدن لا يهتمون إلا بتلقين أولادهم حب السلاطين من آل عثمان والدعاء لهم بالعز والتمكين، كما بات رجال القبائل في البادية لا يأبهون إلا باستيفاء حقوقهم في العوائد المقررة لهم من الدولة، حتى أصبحوا لا يبالون بخروجهم عليها وقطع السبيل على رعاياها كلما انقطعت عنهم المرتبات أو أفلسوا.

واستطاع العثمانيون بفضل أموالهم بالرغم من تذمر بعض القبائل التي كانت تتذمر كلما أحوجها المال أن يدعموا نفوذهم في البلاد أشد مما كان عليه أمرهم في عهدهم الأول؛ لأننا نجد ثورات الأشراف قلت عن سابقاتها في عهد أجدادهم، كما نجد أنهم أصبحوا يطيعون أوامر الدولة ويتحاشون غضبها أكثر مما كان أجدادهم يفعلون، فقد كنا نجد أجدادهم في عهد العثمانيين الأول ينصبون الأمير بعد الأمير ثم يطلبون تأييده من الدولة، وقلما كان صنجق جدة التركي يستطيع أن يفرض كلمته، أما في هذا العهد فقد تغير الأمر وأصبح صنجق جدة الذي انتقل إلى مكة بلقب «الوالي» يستطيع أن يستقل بمقدرات الإمارة ويتصرف في تنصيب الأمير، بعد الأمير ثم يكتب عن رأيه إلى العثمانيين ليتلقى تعليماتهم وأوامرهم.

وكانت القضايا الإدارية للبلاد من اختصاص أمرائها الأشراف في العهد العثماني الأول، فاقتضى تنظيم العثمانيين في هذا العهد أن يؤسس لها في كل مدينة بالحجاز مجلس خاص للفصل فيها، وكان يتكون من بعض الحجازيين والأتراك، كما أسس مجلس آخر للتمييز وذلك في سنة ١٢٨٦ . وبذلك خفَّت هيمنة الأشراف على إدارة البلاد، واستطاع العثمانيون أن يبسطوا نفوذهم كاملاً.

وكان الأشراف من أمراء مكة يوقعون عقوباتهم بالسجن أو النفي أو القتل في عهد العثمانيين الأول دون أن يستأذنوا الخليفة فيما يفعلون، أما في هذا العهد فقد اقتصر نفوذهم على حكم البلاد باسم العثمانيين وكفت أيديهم عن العقوبات الشديدة إلا بأمر الخليفة أو قرار يقرره مجلس القضايا ويوافق عليه الخليفة.

ولم تتغير العلاقة على أثر إعلان الدستور في البلاد العثمانية، بل ظلت البلاد مربوطة بعجلة الحكومة العثمانية الدستورية الجديد، وظل الحكم فيها على سابق عهده تابعاً للعثمانيين لم يتغير في أحكامه شيء إلا ما اقتضاه نص الدستور من تمثيل البلاد التابعة لعثمانيا في مجلس (المبعوثان) الذي يشرف على إدارة الولايات، فقد قرر الدستوريون انتخاب من يمثل الحجاز في ذلك المجلس.

ولما وصلت الأوامر في عام ١٣٢٦ لم يجر الانتخاب الذي يقرره الدستور؛ لأن مبادئ العظامية كانت لا تزال عالقة في أذهان الحاكمين، فاختار الشريف علي بن محمد الشيخَ عبدالله سراج المفتي الذي استقال قبل أن يصل إلى الآستانة كما ذكرنا. في عام ١٣٢٧ جدد الحسين الانتخاب فندب ابنه عبدالله «ملك الأردن فيما بعد» وحسن بن عبدالقادر الشيبي فسافرا إلى الآستانة وأدركا الجلسة الثالثة في مجلس (المبعوثان).

نشأة الصحافة: وأنشأ الدستوريون في مكة جريدة تعبر عن آرائهم فكانت تطبع في مطبعة الحكومة التي سنذكر إنشاءها في فصل الإصلاحات العامة. . وقد أسموا الجريدة (الحجاز) وجعلوها باللغتين العربية والتركية، فكانت أول جريدة تنشر في مكة، ثم أصدر أحد موظفي الأتراك جريدة أخرى طبعت في نفس المطبعة وقد أسماها (شمس الحقيقة) وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية

وتتناول بالنقد بعض المسؤولين في مكة، وظلت كذلك إلى إمارة الحسين بن علي الذي أغضبه أسلوبها فهدد صاحبها بالقتل واضطره إلى الهرب من البلاد.

أما (الحجاز) الجريدة الرسمية فقد ظلت على أمرها إلى أن ثار الحسين على العثمانيين وسلمت مكة، فانتقل صدورها إلى المدينة وظلت كذلك طيلة عهد الحصار يحررها السيد حمزة غوث سفير الحكومة السعودية في الوقت الحاضر في إيران، ثم ألغيت بخروج العثمانيين من المدينة.

العمران والاجتماع: واتسع العمران في مكة في هذا العهد وتأسس أول مجلس للبلدية في عام ١٣٢٦ ليقوم مقام المحتسب الذي كان يحكم ويشرف على تنظيم العمران. واطرد ازدياد عدد السكان كنتيجة لمجاورة موظفي الأتراك وعائلاتهم ومجاورة موظفي المصريين الذين تخلفوا في مكة بعد ترحيل جيش محمد علي منها، والذي أحسبه أن أطماع أوربا التي ترتبت على ضعف العثمانيين في هذا العهد كان له أثره في مضاعفة السكان، كذلك فقد شن الروس حروبهم في أجزاء آسيا وكذلك فعل الإنكليز وفعلت فرنسا فاشتد الضغط على كثير من بلاد الإسلام وزادت الفتن والحروب، ففر كثير من بلاد الإسلام بدينهم والقليل بدنياهم إلى مكة والمدينة وجدة، لبعد هذه البلاد عن ضغط الأوربيين واستقلالها بأحكام الدين، وقد بدا أثر ذلك في أكثر العائلات التي تسكن الحجاز اليوم، فإن أبرز من فيها ينحدر من أصل مصري أو تركي أو مغربي أو شامي أو صيني. ولما اشتدت الكروب في الهند والأفغان وجاوى اشتد تدفقهم على البلاد واتخذ الجميع من أجزائها في مكة والمدينة وجدة مناطق خاصة سميت بأسمائهم، ففي مكة اليوم من آثار ذلك جبل الترك وجبل الهندي وحارة

السليمانية[1] وزقاق المغاربة وزقاق البخارية، وفي المدينة وجدة كثير من هذه المسميات، وشوهدت مكة في هذا العهد تنقسم باعتبار الأجناس إلى أقسام تشبه المستعمرات في منطقة يحتلها جاليات الترك، وثانية يحتلها أهل بنغالة والهند، وثالثة يحتلها أهالي غرب أفريقيا «التكارنة»، وغيرها يحتلها الجاويون وأهل بخارى وأهل السند والشام واليمن وحضرموت.

ونقلت هذه الجاليات معها إلى مكة عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وكثيراً من صناعاتها، وبذلك انتفعت مكة بهذا الخليط ولم تنتفع . . لأنها بقدر ما استفادت من نشاط هذه الجاليات أُسيء إليها في عاداتها وأخلاقها ولغتها.

البيوت القديمة في مكة: ولعل من المناسب أن نستطرد في هذا السياق إلى ذكر البيوت القديمة في مكة، وإذا كنا قد أغفلنا ذلك فيما سبق من بحوثنا عن العهود السابقة لتعذر وجود المصادر التي يصح الاعتماد عليها فلا أقل من أن نلم في هذا العهد بما يمكننا لقرب عهدنا بمن نؤرخ عنهم، ولأن أكثر أخلافهم لا يزال يعيش بيننا اليوم، ونحن نعتمد فيما نرويه في هذا الفصل على كتاب «إفادة الأنام» للشيخ عبدالله الغازي لأنه ينقل عن مؤلفات مخطوطة اطلع عليها ولا نكاد نجد اليوم أثرا لأكثرها.

آل الشيبي: هم ذرية شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الحجبي من أولاد عبدالدار، وقد ظل بيتهم خالداً في مكة كما ظلت خدمتهم في الحجابة خالدة تالدة مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوها يابني عبد الدار خالد تالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم» وإذا كان بعضهم قد هاجر إلى الآفاق في

(١) تطلق كلمة (السليمانية) في مكة على أهالي الأفغان، وحارة السليمانية تنسب إلى رجل من العلماء كان اسمه الشيخ سليمان المغربي وهو الذي بنى قبور السليمانية وبابها.

مناسبات عدة من عهود التاريخ فإن المعروف أن نسلهم لم ينقطع عن مكة (١) .

وقد ذكر الغازي (٢) أن جماعة وفدوا من الآفاق يدعون انتسابهم إلى آل الشيبي إلا أن دعاويهم ماكانت لتثبت ؛ لقلة البراهين ، ، أو لأن الحكام في مكة كانوا لا يرون التوسع في موضوع شائك ، وبحسبهم أن يتركوا النسل المتوالد في مكة يمثل الحجابة ويقتصر عليها ، من ذلك ماعزاه الغازي إلى العلامة علي القاري في شرحه على شرح شيخه في «نزهه الفكر» ويتلخص في أن يمنياً ادعى الشيبية وشهد له على السماع اثنان من مكة وكاد يناله النجاح لولا أن أدركته منيته .

آل نائب الحرم : وهى أسرة قديمة ذكرها القاري في تاريخه وقال إن نيابتهم في الحرم هي نيابة عن أمير البلاد في شؤون المسجد ومراقبة موظفيه من خدم ومؤذنين وأئمة ، وهي غير مشيخة الحرم التي يتولاها والي جدة من الأتراك وتخوله الإشراف على شؤونه العمرانية .

ومن الأسر القديمة في مكة ما أوردناه في الفصل الخاص بالناحية العلمية عند ذكر البيوت المشهورة بالعلم عدا الأسر العريقة من الأشراف الذين لا يزالون يستوطنون مكة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

والذي يلاحظه المؤرخ أن أكثر العائلات التي وفدت في أوائل هذا العهد واستوطنت مكة كانت من المصريين والمغربيين وأهالي الشام والأتراك ، والذي أظنه أن المصريين من أقل الناس هجرة ، ولكن فتوحات محمد علي باشا في مكة شجعتهم على الانتقال إلى مكة والاستيطان بها .

(١) قال الحافظ ابن حجر : إنَّ لأبي طلحة ولدين هما عثمان وطلحة ، وقد خلف عثمان ولده شيبة كما خلف طلحة ولده عثمان وقد أسلم عثمان هذا يوم الفتح وكاد ينقل المفتاح من يد عثمان لولا أن الله أوحى بأن تؤدى الأمانة إلى أهلها ، فبقي المفتاح في يده حتى توفي عقيماً فورثه أخوه شيبة فهو في يده إلى اليوم .

(٢) إفادة الأنام «مخطوط» .

ولا يبعد أن يكون أكثر المتنقلين كانوا من أصحاب العلاقة بجيش محمد علي وقد اختاروا الإقامة، فلا نعجب إن وجدنا العائلات المنحدرة من أصل مصري لا تنتمي إلا إلى جد واحد بعد جلاء المصريين عن مكة إلا نادراً، ومن أشهر العائلات المصرية بيت القطان والزقزوق والرشيدي والمنصوري والدمنهوري.

لم تنقطع هجرة المغربيين والسوريين والأتراك والأكراد والسودانيين في كثير من عهود مكة، أما العراقيون فمن أقل الأجناس هجرة إلى هذا البلد[1] وكذلك شأن الإيرانيين.

ومن أشهر المغاربة القدماء بيت حميدان الذي أنشأ بستاناً بجوار بركة الماجل.

ومن أشهر العائلات التركية بيت الدرابزلي والقرملي وكوشك والخشيفاتي والوشكلي وغيرهم.

أما الهند وجاوى فقد جاءت هجرتهم إلى البلاد متأخرة كثيراً عن غيرهم، فقلما تجد في عهود مكة السالفة بيتاً مجاوراً من الهند أو جاوى، لبعد المسافة بينهم وبين هذه البلاد خصوصاً قبل استعمال السفن البخارية في المواصلات، إلا أنهم عندما شرعوا يهاجرون إلى مكة ما لبث أن طغى تعدادهم على الجاليات الأخرى. والذي أحسبه أن دافع الهجرة عند أهل الهند كان نشاطهم التجاري على عكس الحال بالنسبة للجاويين فقد كان مهاجروهم يستوطنون مكة لطلب العلم وقد برز منهم كثير من أجلة العلماء.

ولعل أقدم الجاليات المهاجرة من الهند كانت من الفتن «كبيت الطيب وملائكة، وشمس، وقطب، وجلال، وخوج، وعبد الخالق، وحبيب،

(١) لعل هذا عائد إلى خصوبة أرض العراق وكثرة أنهارها مع قلة السكان. (ع).

وجستنية. ومن أشهر الهنود غير الفتن بيت خوقير الدهلوي والبوقرية وميرا وفدا.

كما أن من أشهر بيوت الجاويين: بيت البتاوي، والسمباويا، وزيني، والمنكابو، والقستي، والفتيانة، والبوقس، والفلمبان، وقدس، وسمس، والفطاني.

ومن الجاليات التي اتسعت هجرتها إلى مكة جاليات الحضرميين، ولعله كان رائد السابقين منهم النشاط العلمي، ثم أضيف إليه النشاط التجاري فازداد طلاب الرزق من كبار التجار إلى صغار الباعة والمستخدمين، ثم اتسعت هجرتهم وأصبح المجاورون يكادون يستقلون بأكثر حوانيت البيع في البلاد، وانتفع الأهالي بخدمة صغارهم في البيوت ومن أشهر عائلات الحضارم: بيت باجنيد، وباحارث، وباناجة، وباناعمة، والعادة، وباحكيم، وبازرعة، وباعيسى، وباعشن.

وهنا يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال له وجاهته: «هل استطاعت مكة أن تهضم هذه الجاليات وتصهرها في بوتقة واحدة؟»

الواقع أنها لم تفشل كثيراً في هذا لأن الذي نشاهده أن أشهر الأسر في بلاد الحجاز اليوم إذا استثنيا الأشراف والشيبيين وبعض العائلات العربية، ينتمون إلى أصل هندي أو مصري أو مغربي [1] أو مثل ذلك ومع هذا فقد نسوا أصولهم ومضت مواكبهم تحمل طابعاً جديداً في ألبستهم وعاداتهم ولغتهم، ولست أدعي أن هذا الطابع عليه سمات قريش ولكنه على كل حال طابع عليه سمات مكة بعد أن ازدحمت بشتى الأجناس، وإذا أردنا التعبير بلغة أوضح ففي استطاعتنا أن

(١) ويجب ألا ننسى أن مكة بحكم موقعها في دائرة قبائل الحجاز كان يتحضر فيها من حين إلى آخر أفراد من هذه القبائل ونظراً لظروف البيئة ينسى أو يتناسى المتحضر أصله فينتسب إلى مهنته فيظن أنه من الوافدين. (ع).

نقول إن مجموعة الأجناس والجاليات أثرت في تكوين طابع مكة حتى إذا استقام ذلك الطابع استطاع أن يدمغ جميع القاطنين والمجاورين بدمغة واحدة يبدو أثرها في أكثر تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم وطريقة حياتهم.

ولو وقفت الهجرة عند حدها في هذا العهد ولم تستمر إلى ما بعده لنسي الناس أن بينهم مصريين أو هنديين أو جاويين، ولكن امتداد حركة الهجرة هو الذي ظل يذكر كل جالية بأصولها ويجمعها بالطارئ من أجناسها، وهكذا كان الشأن في جميع ذلك مما يتعلق بالمدينة أو جدة.

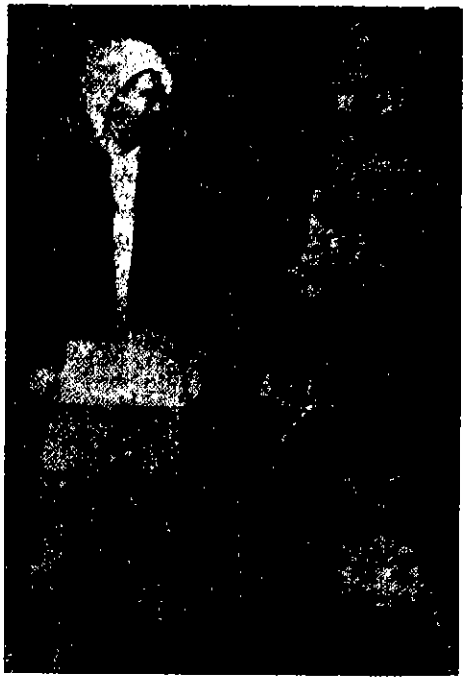
ولعل مظاهر المجتمع في هذا العهد الذي ندرسه كانت أقرب إلى التوحيد في الزي والعادة منه فيما أتى بعده من عهد إلى الآن؛ لأن الأهالي من طبقة العلماء والطلبة كانوا يتفقون في ارتداء الجبة والعمامة مع فارق بسيط يميز العلماء، فقد كانوا يلفون عمامتهم على ما يشبه الطربوش الخوص يزينه غطاء مزخرف بألوان عدة من القماش يسمونه (ألفية) ويضيفون إلى الجبة كساء آخر تحتها كانوا يسمونه (شاية) يتمنطقون فوقه بحزام من قماش رقيق وينتعل كبارهم الخف بينما يكتفي الطلبة بالجبة ويلفون عمامتهم على غطاء رقيق للرأس يسمونه «كوفية» أو «طاقية» ويشارك العلماء في زيهم أكثر الأعيان وأصحاب المناصب بينما يشارك الطلبة كثير من الطبقات غير العمال، وبذلك نجد أن الطبقات تتشابه في زيها مع فوارق لا تكاد تذكر إذا استثنينا طبقة العمال.



السيد أحمد أبو بكر شطا ويبدو في اللباس التقليدي المعروف لعلماء مكة إلى عهد قريب

وكانوا يطلقون على طبقة العمال ومن شاكلهم من صغار الباعة والمحترفين (أولاد الحارة) خروجاً بهم عن طبقات المتعلمين من صفوف العلماء والطلبة وأعيان البلاد وموظفيها وتجارها.

وكما اجتمعت تلك الطبقات في زي متقارب، اجتمع أولاد الحارة في زي أكثر تقارباً وأوضح بساطة، فهم يكتفون بالثوب يرتدونه لا يضيفون إليه إلا حزاماً يشدون به وسطهم ليزيد في صلابتهم أثناء العمل كما يعتقدون، وهو زي عام يجمع سائر الطبقة الثانية لا في مكة وحدها بل في سائر البلاد التابعة لها ويضيفون إلى الحزام أحياناً (سداري أو سدرية) أو معطفاً قصيراً يسمونه (ميتان).



صورة تمثل شخصين من طبقة السوقة، ويسمونهم إلى الآن «أولاد الحارة» ويبدو أحدهم إلى اليسار يلبس «الميتان» القصير وزميله إلى اليمين يتمنطق بالحزام، وهما نوعان كان لبسهما شائعا في الطبقة المذكورة، وقد أخذ في الزوال إلا في أحوال قليلة.

ويقول البتنوني[1]: إن الحجازيين استعاروا الحزام من الشام والذي أتبينه أن الحزام فكرة شرقية قديمة الشيوع، وأنه كان في أكثر أدوار التاريخ شعاراً للقوة والجمال في آن واحد وأن فرسان المماليك

(١) في كتابه «الرحلة الحجازية»

وقواد العباسيين قبلهم كانوا يستعملونه، وأن ميادين الجمال في عصور الإسلام الذهبية كانت تعرف الفاتنات يتمنطقن بالأحزمة تتألق فيها الأحجار الكريمة وما توارثت الأجيال الحزام من عصور قديمة إلا لأنه كان مثلاً من أمثلة الجمال ونموذجاً لمعالم الأبهة والقوة.

وعاشت مكة في هذا العهد مستقرة أكثر مما كانت في عهود سابقة لأن المتنافسين على حكمها من الأشراف خضعوا لتنظيم العثمانيين وأحكامهم في توجيه الإمارة - كما أسلفنا - فتمتع الأهالي بطمأنينة اجتماعية وأخذوا ينعمون بأرواحهم من خيرات العثمانيين وصدقات الحجاج الذين تدفقوا على أداء الفريضة ألوفاً مؤلفة بعد أن علموا بشؤون الاستقرار، وزاد تدفقهم على أثر شيوع البواخر ومساهمتها في نقل الحجاج في عام ١٢٩١.

أثر هذا في ثروة البلاد الاقتصادية فنعم المكيُّون بهناءة العيش وعادوا إلى الإسراف في نعيمهم إلى الشأن الذي كان عليه الأمر في عهد الأمويين فبنوا قصور النزهة في ضواحي مكة من عدة جهات وأكثرها في وادي فخ عند مرقد الشهداء، وكانوا يخترعون المناسبات والأعياد ليخرجوا في مواكبهم إلى الجعرانة أو وادي ميمونة أو وديان فاطمة أو وادي الشهداء في زينة بادية وأنواع من الأطعمة الشهية فيقيمون حفلاتهم المؤنسة يطربهم المغنون وأصحاب الوتر والمنشدون، ولم يكن للنساء مجال واسع في هذا الإيناس؛ لأن روح البادية التي كانت تسود الناحية النسوية في عهود الأمويين كانت قد خبت فيما تلا ذلك من عصور ولم يحل هذا العهد حتى كانت فكرة الحجاب قد ساقتهن إلى المخابئ والخدور.

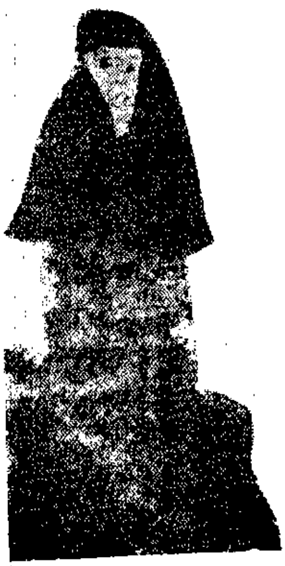
واشترك كثير من طلبة العلم وأساتذتهم من العلماء في لوثة هذا الترف وكان بعضهم لا يتحرج من محافل الطرب ويأنس بما تحويه من لعب كان أكثره نزيها ولعلهم كانوا يشجعون بعض هذه الأعياد فيحبذون الخروج إلى وادي الشهداء ووادي ميمونة وأمثالها باسم زيارة القبور ثم يمتعون أنفسهم ويروحون عنها بما يجتمع من معاني الترويح والانبساط وبذلك يصبح الغرض من الخروج إلى تلك الزيارات مزدوجاً.

وكان العامة يعنون بالاستكثار من المناسبات ليحتفلوا بها في صخب ولعب ومرح، فيحتفلون بأول السنة الهجرية، وبآخر أربعاء في صفر، وبمولد النبي صلى الله عليه وسلم وعلي رضى الله عنه في شهر ربيع الأول، كما يحتفلون بدخول رجب وخروج شعبان وجميع ليالي رمضان وبالأخص في أواخره وبعيد شوال فتدق طبولهم، وتشدوا مزاميرهم في كل منطقة من أحيائهم وكثيراً ما يترك الإيناس أثره فيهم فيرقصون في حماس على دقات طبولهم ويلعبون بعصيهم الغليظة حول نار يؤججونها في حلقاتهم، فإذا أمعن الحماس فيهم اشتبكت العصي وقامت بدورها في قرع الرؤوس وكسر العظام وأكثر ما يقع هذا بين الطبقات من العمال وصغار الباعة الذي يسمونهم «أولاد الحارة» وقد يشاركهم من الطبقات الأخرى هواة تستثيرهم الحماسة وقد ظل ذلك حتى أنكره علماء العهد السعودي الثاني وأمرت الحكومة بمنعه كما سيأتي.

وكان أولاد الحارة يجعلون لمناطقهم التي يسكنونها حدوداً يفرضون حرمتها على جيرانهم من المناطق الأخرى ولا يسمحون لهم في المناسبات الصاخبة بالمرور فيها وكانت حفلات العرس تصطدم بهذه القواعد لأن أصحاب المناطق لا



الشيخ حسن عرب ويبدو في اللباس التقليدي المعروف لعلماء مكة لعهد قريب.



نموذج لحجاب المرأة في العصر الذي ندرسه.

يسمحون لجيرانهم المحتفلين بعرسهم أن يمروا من حدودهم إلا بعد أن يستأذنوهم، وفي الحالات التي يأذنون فيها يقفون عند حدودهم، مستقبلين بمباخر العود والند، وإذا ما رفضوا الإذن فإن عصيهم الغليظة تتولى منع موكب العرس من المرور وتفرق شمل المحتفلين به، وكذلك كانوا يفعلون في استقبال مواكب الأمراء، فيقف سكان كل منطقة عند حدودهم لاستقبال الأمير ثم يمشون في ركابه إلى نهاية الحدود من الطرف الآخر، ليستقبله أصحاب المنطقة التي تليهم ولا يبيحون لأنفسهم السير في موكب الأمير أكثر من الحدود، لأنهم سيعرضون للعب العصي الغليظة التي تطيح رؤوسهم أو تثخنها جراحاً وتكسيراً.

وكان أولاد الحارة هؤلاء كثيري التنازع حتى في غير المناسبات كان أصحاب كل منطقة منهم يشتبكون مع جيرانهم عند حدود، المنطقة في منازعات يسمونها هوشات، وأعتقد أن هذه

الظاهرة كانت شائعة في هذا العهد في أكثر بلاد الشرق الأوسط نتيجة تساهل حكامهم العثمانيين في ذلك .

واشتد ميل المكيين في هذا العهد إلى اقتناء الملابس الملونة بألوان زاهية فيها الأزرق والأصفر والأحمر وكانوا يعنون بنظافتها وصقلها أو كيها بقطع ناعمة من الودع قبل استعمال أدوات الكي ، كما يعنون في بيوتهم شديد العناية بزخرفة الأثاث وتنسيقه تنسيقاً بديعاً كما يعنون بأطعمتهم وتنويعها إلى أنواع كثيرة يستعيرون فيها أنواعاً من أطعمة جميع الأجناس الذين يهاجرون إليهم .

وتكاد حياتهم في هذا العهد تكون محدودة بهذا اللون من العيش فلا نزاعات سياسية تقوي مطامعهم في الحياة ولا نزوات عامة تغذي مشاعرهم أو تثيرهم إلى نوع من التذمر . . حسبهم من الحياة خيرات يغدقها العثمانيون أو صدقات يبذلها الحجاج فينعمون ويلعبون ويترفون (ويتهاوشون) ثم يأوون إلى مضاجعهم داعين لآل عثمان بالنصر والتأييد شاكرين الله الذي جعل أفئدة الحجاج تهوي إليهم كل موسم وسخر لهم غيرهم في بلاد كل المسلمين والكفرة ليصنعوا لهم ما يحتاجون إليه لضروراتهم أو ينعمون به في كمالياتهم .

ويذكر الغازي عن هذا العهد أن رجلاً من الصواغ يدعونه أبا بكر الملا كان يستخرج الفضة من جبل في الجعرانة فكان يحمل الأحجار الكريمة إلى بيته ويعالجها ثم يبيعها فضة ولكنه ظهر فيما بعد أن محصولها لا يزيد كثيراً عن نفقاتها فترك ذلك (١) .

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

طريق الحجاج : وظل الحجاج في هذا العهد يسلكون إلى مكة طريق العقبة أو القصير في المراكب الشراعية ثم بدأت البواخر تستعمل لنقلهم في أواخر عام ١٣٠١ فاتخذوا ميناء السويس إلا القليل الذي كانت تنقله المراكب الشراعية من موانئ أخرى كما استعملت البواخر لنقل حجاج الشرق الأقصى والأوسط وبعض بلاد أوروبا .

المحامل : وكانت المحامل قد منعت في عهد السعوديين الأول فلما عاد الحكم إلى العثمانيين في هذا العهد استأنف المحمل الشامي والمصري مسيرهما إلى مكة ولم أطلع على خبر المحمل الرومي ، ولعل الأتراك اكتفوا بإرسال المحمل الشامي الذي كان يحمل «صرهم» وصدقاتهم إلى مكة .

وكان المحملان يستقبلان في جدة ومكة استقبالاً رسمياً ، وكان إذا وصل ركب أحدهما مكة أناخ جمل المحمل بجوار باب النبي في حفل عام تعزف فيه موسيقى مكة والمحمل ثم ينقل على أكتاف الرجال من باب النبي إلى المسجد حيث يستقر كل محمل في مكانه المخصص بين باب النبي وباب قايتباي ويبقيان كذلك إلى يوم السفر فيخرج كل منهما في يومه المحدد ليحتفلوا بتوديعه بعد أن يطوف الجمل به عدة طوفات في الشارع أمام باب علي .

السكة الحديد الحجازية : وعندما شعر السلطان عبدالحميد بضرورة ربط البلاد العثمانية بشبكة حديدية تجمع أطرافها قرر مد الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة على أن يتصل فيما بعد بمكة وجدة فيربط مشارف الشام بسواحل الحجاز .

وما كاد يعلن عن رغبته إلى العالم الإسلامي ويدعوه للمساهمة في إنشائها تأميناً لراحة الحجاج وتسهيلاً للمشاق التي كانوا يعانونها حتى استجابت لرغبته

جميع الأقطار الإسلامية سواء فيها ما كان مشمولاً بالرعوية العثمانية أو غيرها فتأسست الجمعيات في كل قطر حتى قيل إن الهنود وحدهم ألفوا نحو «١٦٦» جمعية وتبارى المتبرعون في البلاد حتى بلغ مجموع التبرعات من أهالي لكنو نحو ٣٣ ألف ليرة عثمانية ولم تقصر كثير من الولايات عن ذلك واشتد الحماس في مصر والشام والعراق والصين وسكان أوروبا الشرقية وأكثر بلاد أفريقيا حتى بلغ عدد ما جمع من هذه الأقطار نحو ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية كدفعة أولى قبل مباشرة العمل.

وبدأ العمل نشيطاً فمدت الخطوط وأقيمت الجسور واستمر ذلك نحو ثماني سنوات حتى وصل الخط إلى المدينة في عام ١٣٢٦[١] بعد أن اجتازت قضبانه ١٣٢٠ كيلومتراً عدا المساحة بين درعا وحيفا واحتفل بذلك في المدينة احتفالاً عظيماً حضره ممثلو الأجانب ومراسلو الصحف وكثير من أعيان البلاد الإسلامية.

وشرعت القاطرات تنقل الحجاج من دمشق إلى المدينة فخف عناء السفر على المسافرين واستمر على ذلك عدة سنوات حتى أعلن الدستور وخلع السلطان عبد الحميد فوقف النشاط عند ذلك الحد ثم حاول الاتحاديون استئناف العمل فلم يوفقوا؛ لأن سيل التبرعات تعثر في أحداث السياسة التي غمرت العالم يومها، ثم جاءت الحرب ونهض الحسين فشعر أن خطر الجيوش العثمانية يتهدده عن طريق الخط فأمر جيوشه الزاحفة إلى الشمال بتخريب الخط ليقطع الطريق على المدد التركي من بلاد الشام.

(١) وصل أول قطار إلى المدينة في اليوم الثالث من شعبان سنة ١٣٢٦ هـ الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٨م (ع).

وعندما انتهت الحرب العامة كان الخط قد تخرب كثير من أجزائه، وكان في استطاعة المسلمين أن يعيدوا إصلاحه إلا أن البلاد التي كان يمر الخط فيها كانت قد تقسمت إلى مناطق هيمن على بعضها الفرنسيون كما هيمن على بعضها الإنجليز كما هيمن على بعضها الحسين فتعذر الاتفاق على سير الخط وأبت الدول الأجنبية المهيمنة أن تعترف بوقفية خط إسلامي يمر في أراضيها التابعة كما شعرت أنه ليس في مصلحتها أن تجتمع أطراف المسلمين في جزء كبير من بلاد العرب على هذا الخط؛ لهذا ذهبت كل محاولة لإعادة إصلاح الخط أدراج الرياح.

وأصبح الجزء المتصل منه بالحجاز أثراً بعد عين وقد حاول الحسين بن علي إصلاحه فعمر أجزاءه المتصلة بالمدينة. واستطاع أن يسير القاطرات عليه فوصلت أول قاطرة إلى المدينة في عام ١٩١٩م، ثم عجزت عن استئناف السير؛ لأن أعمال الإصلاح الفنية لم تكن مستوفاة وليس لدى الحسين من الأموال ما يكفي للقيام بأعبائه، فعاد الجزء الحجازي إلى الخراب ووضعت حكومات فلسطين وسوريا والأردن وعمان أيديهما على ما لديها من أجزاء أخرى ومعدات تابعة (١).

الطوافة: واتسع نطاق الطوافة في هذا العهد وزاد عدد المطوفين بعض الشيء وكان أمراء مكة يخصصون بعض المطوفين لطوافة جهات خاصة من الآفاق بموجب تقرير يوقعه أمير مكة.

وأقدم تقرير في الطوافة علمت به هو تقرير يملكه آل جاد الله بتوقيع الشريف غالب في عام ١٢٠٥ ولعل بعض الأسر من الطوافين يحوزون أقدم من هذا التقرير.

(١) بعد محاولات طويلة دامت نحو نصف قرن اتفقت الحكومات العربية على إصلاحه ورست مناقصة الإصلاح على إحدى الشركات في عام ١٣٨٣ وينتظر أن يبدأ العمل. ولم يحدث شيء حتى الآن سنة ١٣٩٩ هـ(ع).

وتوسع الشريف عون الرفيق في توزيع البلاد الإسلامية إلى أقسام تقرر لها مطوفون فكان كل مطوف مسؤولاً عن البلد التي خصصت له . وشرع بعد هذا يقرر على الحجاج رسوماً للمطوف .

وفي سنة ١٣٢٦ صدر قرار مجلس الإدارة بتعرفة الحجاج ونشرته جريدة الحجاز وهو كما يأتي :

عدد

١ جنيه عثماني أجرة مسكن بمكة للجاويين

٢ جنيه عثماني إكرامية مطوف وضيافة في عرفة ومنى ، ومن توفي قبل الوقوف فعليه نصف المقرر .

١٠ ربيات هندي إكرامية المطوف لعموم أجناس الهند .

٢ جنيه عثماني على الداغستاني إكرامية مطوف وأجرة خيمة في عرفة ومنى وبيت مكة .

٥ ريال مجيدي على حجاج مصر والشام والمغرب إكرامية المطوف .

٢ ريال مجيدي على حجاج الصعيد وغزة والعراق وأولاد علي والأكراد .

وعلى كل حاج عدا من ذكر أن يدفع لمطوفه إكرامية جنيه واحد للميسور ونصف جنيه لمتوسط الحال .

الناحية العلمية : وبقي التعليم في مكة في هذا العهد على وتيرته التي ورثها من القرون السابقة يتلخص في طلب العلم في حلقات الدروس التي ينظمها العلماء في المسجد الحرام أو في المدارس التي ينشئها المحسنون لإيواء الطلبة أو تدريسهم وفي بعض دور العلماء الذين كانوا يمنحون طلبتهم دروساً خاصة .

المدرسة الرشيدية : وفي هذا العهد عني العثمانيون قبل حركة الدستور في أواخر القرن الثالث عشر بإنشاء مدرسة على الطريقة الحديثة لتعليم اللغة التركية والرياضيات والتاريخ، وندب للتدريس فيها بعض الأتراك ثم أضيف إليهم بعض المدرسين من مكة وكانوا يلقنون دروسهم باللغة التركية حتى إن قواعد اللغة العربية كانوا يشرحونها باللغة التركية، وقد قيل يومها : إن غرض الأتراك من إنشائها هو تتريك العرب؛ لهذا لم يقبل على الانضمام إليها إلا أبناء الموظفين من الأتراك وبعض العلية ممن كانت تربطهم بالعثمانيين روابط ذات قيمة، أما طلبة العلم من أبناء العلماء والشعب والمجاورين فلم يكن إقبالهم عليها إلا محدوداً.

وقد أنشئت المدرسة في باب الدريبة وسميت المدرسة الرشيدية ثم انتقلت إلى مكان مطبعة الحرم سابقاً ثم انتقلت إلى القبان بالمدعاة ثم إلى سوق المعلاة في بناية المدرسة السعودية التي هدمت في أعمال توسعة الشوارع الأخيرة.

المدرسة الصولتية : وفي هذه الأثناء هاجر إلى مكة علامة من أفذاذ الهند المجاهدين ضد الاستعمار الإنكليزي هو الشيخ محمد رحمة الله العثماني صاحب كتاب إظهار الحق في الدفاع عن الدين الإسلامي ففكر في تأسيس مدرسة لتعليم الدين والعربية والقرآن وبادرت سيدة من مثريات الهند تسمى «صولت النساء» إلي مساعدته فشرع يبني مدرسته التي سماها «صولتية» في مكانها اليوم بحارة الباب (بالخندريسة) وكان ذلك في سنة ١٢٩٠ هـ.

وأقبل الطلبة على مدرسته إقبال الظامئين إلى مناهل العلم كما أقبل بعضهم على دروسه التي خصصها في المسجد فأنتجت جهوده في حلقته بالمسجد وفي بيته بحارة الباب إنتاجاً خدم البلاد من ناحيتها العلمية خدمة لا تزال آثارها ماثلة إلى اليوم في أشخاص الكثير من أجلة العلماء وأصحاب المناصب الدينية

والقضائية ومن أشهر من أنجبتهم جهود الرجل علماء من آل مرداد والمفتي والعجيمي والغمري والطيب والدهان والدهلوي والدحلان وبابصيل والزواوي والكتبي وكمال والقاري وأنجب المشايخ : حسن مشاط وعيس رواص ويحيى أمان وغيرهم من علماء مكة ولاتزال المدرسة باقية إلى اليوم .

المدرسة الفخرية : ونشط الشيخ عبد الحق قاري أحد الأساتذة في الصولتية لتقليد أستاذه فأسس في عام ١٢٩٦ (المدرسة الفخرية) بجوار باب إبراهيم ودعا أثرياء الهند لمساعدته فأجيبت طلباته وشرعت مدرسته تؤدي دورها جيداً في خدمة البلاد .

وأسس بعد ذلك الشيخ عبد الكريم الطرابلسي مدرسة بقاعة الشفاء وهي أول مدرسة عربية عنيت بتدريس التلاميذ في مكة جلوساً على مقاعد الدراسة أمام السبورة وكان يساعده بعض الأساتذة السوريين .

وعندما فاز الدستوريون في انقلابهم الثاني عام ١٣٢٧ شرعوا يؤسسون مدارس في الحجاز فأنشؤوا في مكة مدرسة أمام باب الصفا سموها مدرسة «برهان الاتحاد» ثم بنوا لها أمام قصر المالية في أجياد بناية نقلوها إليها .

وتعددت الكتاتيب في هذا العهد لتعليم القراءة والهجاء ومن أشهرها : كتّاب الشيخ محمد الخياط والشيخ محمد العناني والسيد عبدالله مجاهد والشيخ عبدالله حمدوه السناري والشيخ أحمد السوركتي . وظهرت كتاتيب من نوع آخر تعنى بتعليم الخط والحساب ومن أشهرها : كتاب الشيخ فرج غزاوي وتلميذه الشيخ محمود زهدي وابنه الشيخ تاج غزاوي ثم الشيخ سليمان غزاوي .

وكان الشيخ فرج إلى جانب براعته في فنون الخط مبرزا في علوم اللغة وآدابها

وله شهرة واسعة بين علماء المسجد الحرام.

وكان للفتيات كتاتيب موزعة في بعض أحياء مكة أشهرها كتّاب آشية في المروة. وكان للكتاتيب أعياد خاصة، فربما بلغ الطفل جزءاً من القرآن أو أكثر فيهيئ له أهله احتفالاً يمشي فيه أولاد الكتاب ليذرعوا شوارع مكة هازجين بأناشيدهم، ويمضي الناجح في طليعتهم ممتطياً جواداً زينت جوانبه بالحرير والقصب حتى إذا انتهى هذا العرض انصرف التلاميذ إلى بيوتهم ويسمون هذا الحفل «أصرافه» كما يسمون غيره «أقلابه» لأنه انقلب من مرحلة إلى أخرى.

مدارس الفلاح: ثم فكر المحسن الكبير الحاج محمد علي زينل في العناية بشؤون التعليم فأسس في كل من مكة وجدة مدرسة كان ينفق عليهما من ماله الخاص كما أنشأ مثلهما في بمباي بالهند وقد تأسست بذور مدرسته في مكة من كتاب الشيخ عبدالله حمدوه السناري الذي قبل أن ينضم وطلابه إلى المشروع وأن يساعد كعضو عامل في بناء صرحها فتأسست في حارة الباب ثم انتقلت إلى القشاشية أمام باب علي قبل توسعة المسجد، وقد ظلت فيها إلى أن أسست لها بناية في الشبيكة وهي باقية فيها إلى اليوم، وقد فوضت إدارتها في يوم التأسيس إلى السيد محمد حامد عام ١٢٤٠ ثم أعقبه السيد طاهر الدباغ مدير المعارف فيما بعد ثم أعقبه الشيخ عبدالله حمدوه السناري الذي ظل يضطلع بأعمالها إلى عهد الحكومة السعودية الثاني، وانتقلت الإدارة بوفاته إلى الشيخ الطيب المراكشي ثم إلى السيد الحبشي ثم إلى الشيخ إسحاق عزوز وهو يديرها إلى اليوم، وقد أسهمت مدرسة الفلاح بمكة بأوفى نصيب في خدمة العلم وأنجبت إلى اليوم عدداً عظيماً من طلبتها الذين شغلوا كثيراً من مناصب الحكومة، كما أنجبت علماء أسهموا بحلقاتهم في شؤون التدريس بالمسجد الحرام، ومن أروع ما يسجل

للمؤسس الكبير أنه تفانى في العناية بمدارسه ورتب لها أشهر المدرسين في عصره، وكان ينفحهم أحسن المرتبات من جيبه الخاص دون أن يتناول لقاء ذلك مساعدة من أصحاب البر رغم العروض التي كان يبذلها بعضهم، وقد ظل أمره على ذلك نحو ربع قرن ثم اعترى تجارته بعض الكساد فشرعت المدارس تستعين بتبرعات المحسنين [١].

وظلت بيوت العلم المشهورة على حالها في هذا العهد تبث علومها الدينية في حلقات بالمسجد أو في بيوتها الخاصة إلى جانب المدارس وظل أبناؤها وتلاميذها يتوارثون ذلك وقد أحصيت حلقات التدريس في المسجد الحرام فبلغت في بعض الأوقات نحو ١٢٠ حلقة تتناوب التدريس في الآصال والبكور وبين أطراف الليل والنهار في نشاط وزحام.

ومن أشهر بيوت العلم في هذا العهد آل الريس وقد عرف منهم في ذلك العهد درويش بن سليمان وصالح بن إبراهيم وعبدالرحمن بن محمد وعبدالله ومحمد أبناء عبدالرحمن كما اشتهر بعضهم بالتقوى والصلاح.

واشتهر آل عبدالشكور وقد قدم جدهم عبدالشكور من الهند ومنهم المشائخ زين العابدين بن علي وعبدالله بن عبدالشكور وعبدالملك بن عبدالشكور وعلي ابن عبدالله ومحمد بن عبدالله بن محمد وكان من علماء مكة وشعرائها [١].

وعرف من بيت الفقيه المشايخ عبدالله بن جعفر وأحمد بن عبدالله وسليمان ابن أحمد كما عرف من بيت الزرعة الشيخ تاج الدين والشيخ تقي الدين [٢].

---

(١) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٢) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط»

وعرف من بيت السقاف السيد علوي بن أحمد والسيد عمر بن عبدالله ومحمد باعلوي، وعرف من بيت العجمي الشيخ درويش والشيخ عبدالله بن عثمان واشتهر من بيت بابصيل وبيت باجنيد عدة علماء [1].

وعرف من بيت سنبل عدة علماء أشهرهم الشيخ طاهر سنبل المتوفى في سنة ١٢١٨ وكان محقق وقته، ونسختُه من صحيح البخاري كانت مرجعاً في بابها كما كان شخصه مرجعاً هاماً للفتاوى، ثم الشيخ عبدالغني سنبل والشيخ محمد عباس سنبل وقد هاجر بعض أبناء الشيخ طاهر سنبل إلى المدينة ولا يزال عقبهم فيها إلى الآن [2].

وبيت مرداد عائلة كبيرة، نقل الشيخ الغازي عن الشيخ جعفر لبنى أن أغلبهم كانوا أئمة بالمقام الحنفي وخطباء للمسجد وأشهر من عرف منهم هو الشيخ عبدالله بن صالح مرداد ثم ابنه الشيخ أحمد أبو الخير مرداد وكان من أعيان علماء عصره والشيخ محمد علي مرداد المتوفى سنة ١٢٩٣ وجدهم الأعلى كان من مهاجري الأفغان وكانت شهرتهم (أميرداد) وقد تفرقت هذه العائلة إلى فرعين أطلق على بعضهم لقب «أبو الخير» نسبة إلى أحد آبائهم، وعرف منهم الشيخ عبدالله أبو الخير مؤلف كتاب «نشر النور والزهر» وهو عرض مفصل لتراجم أشهر علماء مكة وقد اعتمدناه في أكثر ما كتبناه عن النواحي العلمية، وفيه يذكر أن ممن عرف من هذا البيت عبدالرحمن بن صالح وعبدالعزيز بن صالح وعبدالله ابن عبدالرحمن وأحمد بن عبدالله أبو الخير وأمين محمد.

واشتهر من بيت عبدالرسول الشيخ عمر بن عبدالكريم بن عبد رب الرسول

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط».

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

العطار المتوفى سنة ١٢٤٨ ، وكانت شهرته بالفقه عظيمة؛ وكان معتمداً في فتواه، ولا يزال أحفاده يعيشون إلى اليوم ويسمونهم بيت شيخ [١].

وكان من آل السني أئمة في المقام الحنفي ، وكان بعضهم منقطعين للتدريس في المسجد الحرام وهو ينتسبون إلى جدهم الشيخ عبدالله السني نائب جدة في أواخر القرن الثالث عشر [٢].

وأنجب بيت كمال عدة علماء من أشهرهم : الشيخ صديق بن عبدالرحمن، والشيخ صالح بن صديق، وعلي بن صديق كمال وهو غير بيت كمال المعروفين في الطائف وهم من وجهائها وقد أنجبوا عدة علماء كذلك [١].

وبيت الدهان بيت قديم في مكة كما ذكرنا، وقد قدم جدهم الأعلى من الهند وكان يتعاطى دهن السقوف فعرف بها، ومن أشهر علماء هذا البيت : الشيخ أحمد بن سعيد المتوفى عام ١٢٩٣ ، وابنه أسعد دهان قاضي مكة، والشيخ عبد الرحمن وكان مدرساً في مدرسة الصولتية وقد توفي في عام ١٣٢١ ، وتوفي الثاني في عام ١٣٣٧ ، ولا يزال أعقابهم إلى اليوم معروفين ببيت الدهان في شعب عامر والنقا وأجياد [١].

واشتهر من آل جستنية الشيخ عبدالرحمن بن أبي بكر جستنية المتوفى في أوائل القرن الثالث عشر وهو من الفتن، وكان معروفاً بميزته العلمية، وله تآليف من أهمها «تاريخ حوادث مكة» الذي لم نعثر على نسخة منه . وكانت شهرته جستنية بفتح الجيم وأبدلها الناس بالدال .

---

(١) نشر النور، عبد الله أبو الخير «مخطوط»

(٢) إفادة الأنام «مخطوط».

وأول من عرف من آل الكتبي هو السيد محمد حسين كتبي، قدم إلى مكة مجاوراً في عام ١٢٥٥ وكانت حلقة دروسه في المسجد واسعة، واشتغل في وظيفة الفتوى، وقد أنجب ولده السيد محمداً وهو من مدرسي المسجد وأئمته ومن المقربين إلى أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد بن عون، وكانت وفاته في رجب عام ١٢٩٥، كما عرف منهم السيد محمد المرزوقي أبو حسين، وعرف منهم السيد محمد أمين كتبي [١].

وكان بيت المالكي بيت علم وفضل، وكان من أشهرهم الشيخ حسين بن إبراهيم المالكي المغربي الأصل من قبيلة يقال لها العصور من أعمال طرابلس الغرب، وهو من أفاضل علماء مكة ومدرسيها ومؤلفيها وأئمتها، وقد ذكر أبو الفيض عبد الستار البكري أنه توفي في عام ١٢٩٣ وخلف أولاداً من أشهرهم علماً الشيخ عابد مفتي المالكية، والشيخ محمد الأمير مفتي المالكية، والشيخ علي مالكي وكان معروفاً بعلمه وفضله ونشاطه في التأليف، وقد تولى رياسة مديرية المعارف في عهد حكومة الحسين؛ ثم من أبناء محمد الأمير الشيخ جمال المالكي وهو من كبار علماء ومدرسي المسجد الحرام وقد توفي عام ١٣٥٩، ولا يزال أبناؤه يشتغلون في مناصب حكومية [١].

وقدم جد آل شطا السيد محمد شطا زين الدين بن محمود بن علي الشافعي إلى مكة من بلدة دمياط في أواخر القرن الثاني عشر، فتصدر للتدريس في المسجد وأنجب أولاده السيد عمر والسيد عثمان والسيد بكري. وكان أبرزهم علماً وله مؤلفات عدة. وينقل الغازي عن الشيخ عبد الحميد قدس أن السيد محمداً يتصل نسبه بالحسين بن علي بن أبي طالب، وأن ذلك مثبت في دفتر الأشراف بثغر دمياط.

(١) نشر النور عبدالله أبو الخير «مخطوط»

ويذكر أنه ورث «شطا» من ملازمته لأحد الصالحين في دمياط كان اسمه الشيخ شطا وهو مدفون خارج ثغر دمياط .

وأنجب السيد بكري ثلاثة من العلماء أبرزهم السيد أحمد ثم السيد حسين ثم السيد صالح ، كما أنجب السيد عثمان أبناءه سعيداً ومحمداً وعلياً[1] .

واشتهر من بيت المشاط الشيخ عبدالقادر المشاط وهو من كبار علماء مكة وأحد أئمتها ، كان ملازماً للتدريس بالمسجد ، وكانوا يلقبونه في مكة شيخ التجار نسبة إلى أبيه علي الذي كان يتعاطى التجارة ، وكان عضواً في ديوان الحكومة ، وقد توفي في مطلع القرن الرابع عشر وأعقب ولداً له اسمه علي [1] .

وعرف بيت اللبني بالشيخ جعفر لبني ، وكان من علماء مكة ومؤلفيها ، وكان يسكن الشامية كما كان بنو عمومته يسكنون باب السلام وقد ذكر في بعض مؤلفاته - كما ينقل الغازي- [1] أنه لا يعلم سبب اشتهار بيته باللبني : وأن جده أبا بكر بن جمال كان يمتهن الطوافة في القرن الثاني عشر ، ثم قال : وقد خلف أبو بكر ولدين أحدهما محمد جمعة ومن نسله بيت اللبني بالشامية ، والثاني عبدالله ومن نسله بيت اللبني في باب السلام . أما بيت عرب فقد اشتهروا بالشيخ حسن ابن إبراهيم عرب السندي الأصل ، وكان من أئمة المقام الحنفي وأحد مدرسي المسجد المعروفين بنشاطهم وفضلهم ، كما عرف منهم الشيخ حسن عرب والشيخ جميل عرب [2] .

وعرف بيت السيد كوجك بالعلامة السيد عبدالله البخاري ، وكان قد جاور بمكة في أواخر القرن الثالث عشر واشتغل بالتدريس ، وقد توفي عام ١٢٩٧ عن

(١) إفادة الأنام «مخطوط»

(٢) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط»

ذرية كان منهم السيد حسن كوجك من أئمة المقام الحنفي [١].

وبيت جان منسوب إلى الشيخ محمد جان النقشبندي الأفغاني من ذرية محمد ابن الحنفية ، وقد قدم مكة في النصف الأول من القرن الثالث عشر وجاور بها ، وكان من ذريته الشيخ محمد سعيد جان والشيخ صديق وابنه الشيخ عمر جان [٢].

واشتهر بيت الدحلان ومنهم السيد أحمد زيني دحلان ، وكان من العلماء في القرن الثالث عشر وله مؤلفات أهمها تاريخه عن أمراء مكة ، كما عرف منهم السيد حسن بن صدقة دحلان وعبدالله بن صدقة دحلان [١].

واشتهر بيت (فتة) [٣] ومن أشهرهم الشيخ إبراهيم محمد سعيد الفتة وهم منسوبون إلى عشيرة لهم كانت تسكن الطائف ، وخلف الشيخ إبراهيم ابنه محمداً سعيداً وحفيده محمداً ، وقد انتقل الأخير إلى بلاد جاوى ، وأصدر عام ١٣٤٣ صحيفة إسلامية كانت تهتم بأخبار العالم الإسلامي عامة والحجاز خاصة [٢].

واشتهر من غير هذه البيوت في هذا العهد المشايخ عبدالله سراج (بتخفيف الراء) ، وعبدالله بن علي بن حميد عيدروس البار ، وأحمد بن أبي بكر العلوي ، وأحمد رمضان المرزوقي ، وأحمد بن علي قدس ، وأحمد الصباحي ، وأسعد الحباب ، وإسحق الدهلوي ، وجعفر الميرغني ، ومحمد ميرغني الجفري ، وخليل طيبة ، ومحمد الخياط ، وسليمان العتيبي ، وصالح الحريري ، وعبدالرحمن جمال الكبير ، وعبدالرحمن جمال الصغير ، وعبدالرحمن المسكي ، وعبدالله بن عبد الرحمن سرَّاج (بتشديد الراء) ، وعبدالله بن فهد ، وعبدالله سجيني ، وعبد المنعم قاضي ، وعلي الرهبيني ، ومحمد الرهيبي ، وعلي سرور ، وعلي خطيب ،

(١) نشر النور للشيخ عبدالله أبو الخير «مخطوط»

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط»

(٣) الفتة : بتشديد التاء المثناة فوق . وانظر حديثنا عنهم في معجم قبائل الحجاز(ع).

وعلي قدس ،وعلي البيتي، وعيسى خراز، وعلي خراز، ومحمد بن عبدالله بن حميد، ومحمد علي السنوسي، ومحمد الفاسي، وأحمد السباعي [1]، ومحمد بناني العربي، ومحمد عبدالباقي، ومحمد بن يحيى بن ظهيرة، ولعله آخر من عرف من ذرية ابن ظهيرة، ومحمد سعيد بشارة، ويحيى المؤذن، ويحيى المقري، ويوسف النبلاوي، ويوسف البطاح الأهدل، وأبو بكر بن حجي، وأحمد بن أمين بيت المال، وأحمد بن نصر، وأحمد مكي بن جمال، وأحمد قنق، وأحمد الحضراوي ، وبكر صباغ، وحسين حبشي ، وحسين جمل الليل ، وحسن طيب ، وحسن سحره، وسالم العطاس ، وسلمان زهدي ، وسلطان بن هاشم ، وعباس المالكي، وعبدالله زواوي، وسعيد اليماني، وعثمان الراضي، وعمر باجنيد، وعبدالله باروم، وعبدالله غمري، وعبد القادر صابر، وعبد القادر شمس، وعلي أبو الخيور، ومصطفى العفيفي، ومحمود شكري، ومحمد المنشاوي، ومحمد الصباغ المؤرخ، ومحمد فردوس، ومحمد المنصوري، ومحمد أبو المحاسن، ومحمد حسب الله، ومحمد باز، ومحمد بسيوني، ونور الخالدي، ومحمد سعيد بابصيل، ومحمد سعيد حضراوي، وأحمد ناظرين، وعيسى رواس، ومحمد علي سراج، وعبدالرحمن خوقير، وعبد الحميد قدس.

واشتهرت في هذا العهد سيدة من أجلة العلماء من آل الطبري هي خديجة الطبرية، وهي ثالث سيدة اشتهرت بالعلم من آل الطبري، والملاحظ أنهن اشتهرن في ثلاثة عهود متواليةً إحداهن في عهد الشراكسة، والثانية في العهد العثماني الأول- وقد تقدم بنا ذلك - كما اشتهرت الثالثة في هذا العهد. ثم ما لبث أن انقرض آل الطبري ولم يبق منهم إلا امرأة واحدة تزوجها بعض آل الدحلان فأنجبت السيد أحمد زيني دحلان.

(١) وهو جد مؤلف الكتاب .

واشتهر غير هؤلاء كثير من العلماء المجاورين كان فيهم المصري والمغربي والتكروني والهندي والسندي، وكان من بينهم علماء من المجاورين تلقى أكثرهم العلم في مكة، ثم اتخذ له في مسجدها أو في بيته طلبة يدرس لهم. ومن أشهر هؤلاء المشايخ: أحمد الخطيب سنبس، وإسماعيل منكابو، وأحمد الجاوي، ومرزوقي الجاوي، ومحمد أزهر، وعبدالله بن محمد أزهري، ومحمد شاذلي، ونواوي خالدي، ونور الفطاني، ومحمد سمباوا.

وظيفة الفتوى: وظلت رئاسة الفتوى في هذا العهد تتداولها بيوت العلماء في مكة في هذا العهد كما كان شأنها في العهد العثماني الأول، وقد تولاها الشيخ عمر بن عبدالكريم بن عبد رب الرسول في عام ١٢٢٨، ثم الشيخ عبدالحفيظ العجيمي، ثم الشيخ عبدالله الميرغني في سنة ١٢٤٧، ثم السيد محمد الكتبي.

ولما كانت ولاية الشريف عبدالمطلب في عام ١٢٦٧ أعاد الميرغني إلى الفتوى مرة أخرى؛ لأن المراغنة من المقربين إلى ذوي زيد، وعندما عزل عبدالمطلب وتولى محمد ابن عون أمر مكة في عام ١٢٧٢ أقر الميرغني إلى أن توفي، ثم أعادها إلى السيد الكتبي فظل فيها إلى أن توفي عام ١٢٨٠.

وبوفاته تقلدها الشيخ جمال عمر، ثم تقلدها في عام ١٢٨٤ الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله سراج - بتخفيف الراء - ثم عزله عنها عبدالمطلب لما أعيد إلى الإمارة في عام ١٢٩٧ وولى السيد أحمد بن عبدالله الميرغني ثم ما لبث أن أعيد عبد الرحمن سراج، فبقي فيها إلى أن استاء منه الشريف عون الرفيق فعزله وولى الشيخ صالح بن صديق كمال فظل إلى أن استقال، فولى عبدالله ابن الشيخ عباس بن جعفر بن صديق، ثم أعيد الشيخ عبدالرحمن سراج مرة ثالثة، ثم عزل وأعيد الشيخ عبدالله إلى الفتوى وظل بها إلى أن توفي في عهد الشريف

علي باشا في رحلته إلى اليمن في عام ١٢٢٥ (١)، وبوفاته تولى الشيخ عبدالله ابن عبد الرحمن سراج -بتخفيف الراء - وقد قيل إن الشريف علي باشا طلبه من الآستانة وكان يقيم بها في قصر الحسين (ملك الحجاز فيما بعد)، فلما حضر ولاه الفتوى (٢) وظل على ذلك إلى أن تولى الحسين إمارة مكة فأقره عليها لما كان يربطه به من صلة وثيقة، ولما استقل الحسين بأمر الحجاز جعله رئيساً للقضاة وأضاف إليه الوكلاء(٣)، وقد ظل في منصبه إلى أن أجلي الحسين عن مكة فغادرها في رفقته، ثم استقر في «شرق الأردن» وتولى فيه منصب رئاسة الوزارة إلى أن توفي من سنوات وخلفه ابنه حسين سراج وكان يعمل وزيراً مفوضاً لحكومة الأردن في مصر، ومن الجلي أن رجال الفتوى الذين سردنا أسماءهم فيمن سردنا كانوا يشغلون المناصب الرئيسية في أمور الفتوى، وكانوا يقلدون المذهب الحنفي وهو مذهب الدولة العثمانية، أما



صورة ممثل أحد قضاة الأتراك في لباسه التقليدي الذي كانوا يلبسونه في هذا العهد الذي ندرسه.

(١) كان قد ندب إلى اليمن على رأس وفد من العلماء والأعيان هم: الشيخ محمد سعيد بابصيل، والشيخ صالح كمال، والشيخ محمد خياط، والشيخ عبدالله المفتي، وأحد تجار مكة، والشيخ عبدالقادر قطب في مهمة رسمية لنصح إمام اليمن عن الخروج على الدولة العثمانية كما ذكرنا ذلك.

(٢) إفادة الأنام للشيخ عبدالله غازي «مخطوط».

(٣) مجلس الوكلاء في عهد الحسين يمثل مجلس الوزراء، ولعله كان يعتبر أعضاءه وكلاء عنه أو يعتبرهم وكلاء عن وزراء لم يعينوا بعد.

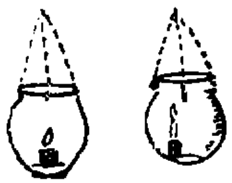
المذاهب الأخرى فكان يتقلد فتواها غيرهم من بيوت العلم في مكة، وكانت وظائفهم تأتي في الدرجة الثانية بعد المركز الرئيسي لأصحاب الفتوى الذين ذكرناهم.

القضاة: أما القضاء فكان يتولى منصبه في مكة علماء الأتراك الذين تندبهم الدولة التركية، وكانت أحكامهم مرتبطة بمشيخة الإسلام في الآستانة، فكان القاضي يمثل سلطة الأتراك الدينية، ويرأس الحفلات التي يتنصب فيها أمراء مكة ويعقد المراسيم الخاصة بذلك، ويتولى تقديم الخلع السلطانية إلى الأمير.

ولسنا في صدد ذكر أسمائهم؛ لأننا نؤرخ هنا لبيوت العلم في مكة[١].

الإصلاحات في المسجد الحرام: وعني العثمانيون في هذا العهد بشؤون المسجد، فأهدت والدة السلطان عبدالحميد في عام ألف ومائتين ونيف وخمسين للمسجد ستة أعمدة في رأس كل عمود نخلة من معدن أصفر تناط بفروعها المدلاة ستة قناديل وقد وزعت في أنحاء المسجد، وأنشأ العثمانيون بين الأساطين الأمامية للأروقة عوارض من حديد تناط بها القناديل، وقد أحصى الشيخ حسين باسلامة في كتابه «عمارة المسجد» قناديل المسجد في عموم أروقته وصحنه وأبوابه فكان مجموعها ١٤٢٢ قنديلاً عدا ما جعل في المنائر. وكانت القناديل كناية عن آنية من الزجاج مشبوكة من ثلاث جهات في سلسلة تعلق منها وفي جوف الآنية كأس يجعلون فيه الزيت والماء في وسطه ذبالة رفيعة يضيئها الموكلون بمشاعل يمسون بها الذبالة.

(١) كان أهل مكة يتولون القضاء فيها قبل هذا العهد، وظل الأمر كذلك بعض الوقت في العهد العثماني، ولكن الأتراك ما لبثوا أن شعروا أنهم العنصر الحاكم فشرعوا يندبون القضاة منهم ابتداء من عام ٩٤٣ وظل الأمر على ذلك حتى استقل الحسين بأمر الحجاز.



وكانوا يضيئون المقامات الأربعة بالشمع يجعلونه في (شمعدانات) من المعدن الأصفر علاوة على ما أنيط بسقفها من قناديل، كما كانوا يضيئون باب الكعبة (بشمعدانات) من معدن أبيض.

وفي عام ١٢٦٦ أمر العثمانيون بإجراء إصلاحات عامة في المسجد ورصفوا الردهة الداخلية لباب السلام بالمرمر.

وفي عام ١٢٧٦ أرسل السلطان ميزاباً للكعبة من صنع القسطنطينية مصفحاً بنحو خمسين رطلاً من الذهب، وهو الميزاب الموجود إلى اليوم، وقد حمل القديم إلى القسطنطينية.

ولما اقتحم المسجد في عام ١٢٧٨ سيل عظيم ارتفع مستواه إلى قفل باب الكعبة وأصيب المسجد بأضرار بالغة وغرق فيه خلق كثير داخل المسجد وخارجه نشط العثمانيون لإصلاح الضرر بإشراف أمير مكة عبدالله بن محمد ابن عون وشيخ الحرم أحمد عزت، وقد دامت عملية الإصلاح نحو ستة أشهر.

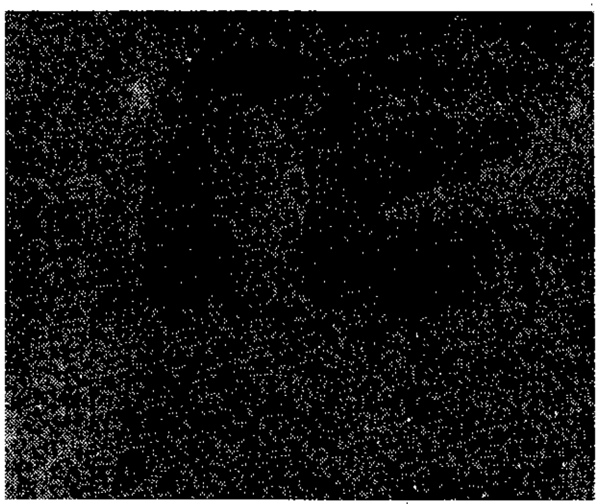
وفي سنة ١٣٠١ استأنفوا إصلاح بعض مرافق المسجد وأزالوا بناء سقاية العباس وبيت المحفوظات اللذين كانا قائمين بجوار زمزم، ونقلوا الكتب إلى مكانها اليوم في باب السليمانية [١] ثم أزالوا الفاصل الذي كان يحجز النساء في صلاتهن بالمسجد ويسمونه «القفص».

(١) ونقلت هذه المكتبة في عهد السعوديين عند توسعة المسجد الحرام، وهم يخططون لبناء عمارة لها مكان القبان بجوار المدعى. وأخيراً شيدت للمكتبة عمارة فخمة شامخة بجوار المسجد الحرام بالغرب من باب الملك عبد العزيز.



يبدو قفص النساء الذي كان يحجزهن عن الرجال في المسجد وقد أشير إلى القفص بسهم وقد أزيل القفص عام ١٣٠١هـ.

وأصيب المسجد بأضرار أكثر عندما اقتحمه السيل الذي سموه سيل الخديوي في عام ١٣٢٧ فقد أخل بنحو ٢٢ إسطوانة عدا وجوه الخراب الأخرى، فأمر السلطان محمد رشاد في عام ١٣٣٤ بعمارة عمومية شملت كثيراً من أجزاء المسجد، وأراد إبدال الإسطوانات بغيرها ولكنه تعذر ذلك عليهم؛ لأن الحرب



السيل في عام ١٣٢٧هـ مقتحم المسجد ويصيبه بأضرار بالغة.

العامة كانت قد نشبت وقطعت كثيراً من طرق المواصلات، فلم يغيروا إلا إسطوانة واحدة وعدلوا نحو عشرة، ثم كانت نهضة الحسين فتوقف العمل ثم استؤنف بعد النهضة كما سيأتينا.

وأمر رشاد في عام ١٣٣١ فغير الطوق الفضي المحلى به الحجر الأسود بطوق جديد وظل باقياً إلى اليوم.

الإصلاحات العامة : وعني العثمانيون في هذا العهد ببعض الإصلاحات فأسس الوالي التركي عثمان نوري في مطلع القرن الرابع عشر الهجري داراً للحكومة والبوليس أمام المسجد في أجياد سماها (الحميدية) وأسس نقطة للبوليس بجوار الصفا، وقد بقي إلى أن هدم في توسعة الشوارع في عام ١٣٧٠ وأنشأ داراً للصحة في أجياد كان مكانها نقطة عسكرية للمدفعية وهي اليوم إدارة للصحة العامة ومستشفى، كما أنشأ مطبعة للحكومة وهي باقية إلى اليوم بعد أن نقلت إلى داخل أجياد بجوار مقر المالية [١] وأهداه -أي عثمان باشا- الشريف حسين بن علي داراً له بجوار باب الوداع ليتخذه إدارة للبريد، وقد ظل على ذلك إلى عهد طويل من الحكم السعودي الثاني، ثم نقل البريد منه وجعل مقراً لإدارة الإسعاف، ثم أزيل في توسعة المسجد.

وأنشأ عثمان نوري داراً لضيافة الحجاج في جرول، ثم أحيل إلى قشلاق عسكري وهو كذلك إلى اليوم، كما أنشأ قشلاقاً في أجياد وهو اليوم دار لبعض الدوائر الرسمية.

وأصلح العثمانيون كثيراً في مجاري عين زبيدة وبنوا لها الخزانات والموارد في كثير من أنحاء مكة، كما أصلحوا بعض الميضآت القديمة بجوار المسجد ورتبوا لها البوابين.

(١) ثم أنشئت لها عمارة خاصة بالتنعيم شمال العمرة.



(نقطة شرطة الصفا التي بناها عثمان نوري وقد أزيلت في عهدنا الحالي لتوسعة الشارع).

وفي هذا العهد أصلح الشيخ علي الشحومي وهو من كبار المجاورين سور مقبرة الشبيكة وبنى بجوارها محلاً لغسل الموتى ورباطاً يعرف إلى اليوم برباط الشحومي، ولكن مقبرة الشبيكة ما لبثت أن هجرت لأنها ازدحمت في بعض سني الوباء بالموتى وانتشرت رائحتها، فأمر الشريف عون الرفيق في عام ١٣١٠ بإلغاء الدفن فيها فاستمر ذلك إلى اليوم[١].

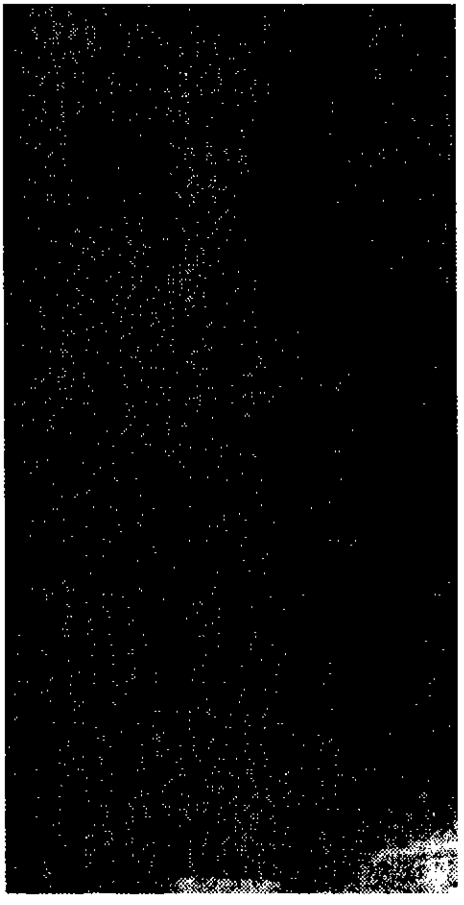
وبالجملة فإن الإصلاحات التي كانت تغشاها مسحة الدين في العهد العثماني الأول تطورت فكرتها في هذا العهد وبدأت تتناول شؤون الحياة من بعض أطرافها كما مر بنا، وكان أبرز النشاط ماثلاً في عهد الوالي عثمان نوري أيام حكم الشريف عون.

(١) إفادة الأنام.

الثورة العربية الكبرى

نهضة الحسين بن علي

إن المطَّلع على قضية الترك والعرب يعرف الصلة الجامعة بينهما كانت هي الإسلام، فقد خدمت شعوب من الأتراك قبل أتراك العثمانيين خلفاء الإسلام في قصورهم وجيوشهم، وانتهوا إلى الظفر بألوان من الثقة هيأتهم في كثير من أدوار التاريخ الإسلامي إلى القيادة في كثير من عواصم الإسلام.



(الحسين بن علي)

والمتتبع لما سردناه في أوائل هذا الجزء من فصل (عهد الترك العثمانيين) يعلم أن العثمانيين ما كادوا ينشئون دولتهم حتى فكروا في الانحدار إلى الشرق غازين وقد فتحت أمامهم سائر العواصم العربية وهلل المسلمون بغزوهم في سبيل الإسلام فعقدت البيعة لسلطانهم كخليفة للمسلمين [1].

كما يعلم أن شريف مكة يومها بركات بن محمد ندب ابنه أبا نمي ليرحب بالجيش الفاتح بعد أن استتب له الأمر في مصر عام ٩٢٣

(١) راجع العهد العثماني الأول في هذا الكتاب.

ويضع في يده مقاليد الحرمين.

كما يعلم أن العلاقة دامت بين أمراء مكة والعثمانيين أكثر من أربعة قرون يتجاذبها المد والجزر على النحو الذي مر بنا في الفصول الأربعة، وكان من مميزاتها أن العثمانيين لم يحكموا حكماً مباشراً كما فعلوا في سائر الأقطار التي كانت تدار إدارة شاهانية بحتة إلا في فترات متقطعة استدعتها ظروف خاصة، وقد ظل الأمر على ذلك حتى انتهى إلى ثورة الأتراك على خليفتهم ونجاحهم باسم الدستور العثماني في عام ١٣٢٩.

أذهان تتفتق: لقد عاش العرب أول علاقتهم بالعثمانيين يدينون في شتى عواصمهم بالطاعة للسلطان كخليفة يحمي ذمار الإسلام، ولكن الأذهان ما لبثت أن تفتقت على أثر احتكاكها بالأمم الناهضة في العالم، فاستبان العرب مبلغ ضياع حقوقهم في ظل دولة لا تحفل إلا بكيانها الخاص وعنصرها الحاكم وتسلط خليفتها المطلق.

وعندما قامت قيامة الدستوريين الأتراك على خليفتهم فكر بعض أحرار العرب في أن يشاركوا في نجاح الدستور ليظفروا للعرب بما يؤيد كيانهم في الحكم الجديد ولكن الدستوريين مالبثوا بعد فوزهم أن أعادوها طورانية اعتمدوا فيها فضل عنصرهم على سائر الشعوب التي كان يحكمها أجدادهم، وبدؤوا ينظرون إلى العرب نظرتهم إلى مستعمرات تابعة، وتغالى بعضهم فرأى وجوب تتريكهم لتجتمع كلمتهم في شعار تركي موحد.

جمعيات عربية: استاءت العناصر العربية لهذا التحول فتجمع أحرارها المقيمون في الآستانة وساعدهم على التجمع بعض الموتورين من الحكم الجديد من الأتراك، فكانت جمعية الإخاء العربي وقد تأسست لتدعو إلى المؤاخاة في

الحكم الجديد فلم تنجح، وتأسست على أنقاضها جمعيات أخرى في تركيا وبعض بلاد العرب لعل من أهمها حزب اللامركزية الذي ألفه في القاهرة بعض أحرار السوريين، وكان من أهم أغراضه أن تتولى كل ولاية في بلاد العرب إصلاحاتها دون أن ترجع إلى مركز العثمانيين الرئيسي (١).

وعقد بعض المقيمين في باريس من أحرار العرب مؤتمراً بحثوا فيها حقوق العرب في المملكة العثمانية، واتصلوا بحزب اللامركزية في القاهرة فندب بعض رجاله لحضور المؤتمر، فكانت قرارات استاء لها العثمانيون ولكنهم كانوا مشغولين بتناحرهم وما جرته عليهم حروب البلقان (٢).

ثم ما لبث عقلاء الاتحاديين أن عادوا إلى رشدهم وقرروا استمالة العرب، فندبوا أحد رجالهم إلى باريس ليفاوض المؤتمرين هنا، وبذلك كاد أن يلتئم الشمل خصوصاً وقد أصدر الاتحاديون منشوراً وعدوا فيه العرب بكافة مطالبهم ولكن العرب لاحظوا أخيراً أن الأيام تتمادى دون أن يحصلوا من مطالبهم، إلا التسويف والمطل (٣).

مبعوثو الجمعيات العربية عند الحسين: واشتعلت نار الحرب العامة في هذه الأثناء عام ١٣٣٢ هـ (١٩١٤) وانضم رجال الاتحاد من الأتراك إلى ألمانيا، فرأى بعض الاتحاديين أن الوقت لا يتسع لمهادنة الجمعيات العربية أو بحث مطالبها، فصدر الأمر بإلغاء ما تألف منها في بلاد العرب وتأسيس فرع لجمعية الاتحاد والترقي التركية في العواصم العربية لتعمل على خدمة مبادئهم، ونشطت الصحف للدعوة ضد العرب واشتط بعضهم فألف أحد شيوخهم كتاباً سماه (قوم

(١) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١/١٤.

(٢) المصدر نفسه ١/١٣.

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين لحافظ وهبة ١٥١.

جديد) قال فيه : «ما هذا الجهل؟ وما هذه الغفلة التي استولت عليكم؟ تعلقون أسماء خلفاء العرب في مساجدكم ولا تذكرون بالاحترام أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة[1]» .

وتألف في مكة كما تألف في سائر بلاد العرب فرع الاتحاد والترقي، وأنشئت لتتريك العرب فيها مدارس كانت تدرس العلوم العربية باللغة التركية

وحملت إليهم عيونهم أن شريف مكة لا يخلص الود للاتحاديين، وأن حركاته مريبة وأنه يجتمع في قصره بكبار المعروفين في الحجاز إعداداً لأشياء تثير الشكوك، وأنه بات يضع أنفه في الأعمال الإدارية الخاصة بالوالي التركي في الحجاز، وأن بعض مندوبي الهيئات والجماعات العربية يتوافدون إلى مكة باسم الحج في مواسمه ليجتمعوا به .

وبذلك قرر الاتحاديون عمل شيء حاسم فندبوا أحمد جمال باشا وزير البحرية العثمانية ليتولى إدارتها العسكرية، ومنحوه صلاحية واسعة تشمل سوريا ولبنان والقدس وتمتد إلى الحجاز واليمن إذا اقتضى الحال، كما ندبوا أحد الألبانيين إلى مكة (وهيب بك) ليخضد شوكة الحسين ويحدد صلاحياته الإدارية أو يغتاله إذا لزم الأمر، ولكن الحسين فوت عليه الفرصة وأصر على طلب نقله من مكة بعد أن رفض بعناد جميع الإجراءات التي بلغه إياها، كما رفض الأوامر العالية التي تقضي بأن يفقد الحجاز. أسلوب الحكم الشريفي المستقل بإدارته ليصبح كغيره من المقاطعات التي يحكمها العثمانيون مباشرة[2] .

أما جمال باشا فقد استطاع أن يفرض سلطته العاتية في سوريا ولبنان وأن

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٥٩ ج١ .

(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ص ٢٦ .

يتعقب أحرار العرب فيقضي عليهم بالموت، وقد نصبت لذلك المشانق في دمشق وبيروت، وعلق على أعوادها العشرات بعد العشرات من رجالات العرب البارزين (١).

ورأت بعض الجمعيات العربية السرية في دمشق أن تتصل بالحسين في مكة، فأوفدت إليه بعض مبعوثيها في ثياب حجاج لينفضوا أمامه ما يعانيه العرب، ويؤكدوا له أن القوميين العرب في سوريا والعراق يؤيدون ثورة عربية ويودون أن يعرفوا ما إذا كان الحسين على استعداد لتزعمها فلم يقطع الحسين بشيء. ولكنه ما لبث أن ندب ابنه فيصل (ملك العراق فيما بعد) في زيارة إلى سوريا. واجتمع في سوريا بجمال باشا في أكثر من جلسة ودية حاول عبثاً خلالها باسم والده أن يعالج غلو جمال في الفتك بأحرار العرب، واستطاع في أثنائها أن يتصل ببعض المتكلمين باسم الجمعيات التحررية وأن ينقل بعودته إلى مكة موافقتهم على تفويض الحسين ليكون الناطق باسم العرب في أية مفاوضات تقوم بها مع بريطانيا بالنيابة عنهم للحصول على الشروط التي طلبوها (٢).

ويبدو أن الحسين أراد أن يرمي من كنانته بآخر سهم يحدد علاقته بالاتحاديين، فأبرق إليهم في الآستانة يعرض استعداده لتجنيد أولاده على رأس القبائل العربية لمؤازرة الدولة إذا قبلت الدولة إعطاء سوريا نظاماً لا مركزياً، وإعلان العفو عن المتهمين السياسيين فيها، وموافقتهم على بقاء إمارة مكة في أولاده، وقد تلقى جوابهم بأن المتهمين في سوريا لا بد أن ينالوا عقوباتهم، ولا بد للحجاز أن يظل شأنه شأن الممالك الشاهانية (٣).

(١) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ٦٠ وما بعدها ج١ و ص ٨٣.

(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ص ٣٥ والثورة العربية الكبرى ١٠٩ ج١.

(٣) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ص ٣٥ والثورة العربية الكبرى ١١٠ ج١.

المفاوضات البريطانية : ماكانت إنجلترا غافلة عما يجري في محيط الإمبراطورية العثمانية. لقد كانت على عادتها حريصة على تتبع جميع الأحداث، وكان يهمها بعد أن توثقت علاقة الألمان بالاتحاديين في تركيا أن تتصيد الأسرار وأن تستفيد لموقفها ضد هذا التحالف قبل أن تتلبد غيوم الحرب.

فما يمنعها أن تغازل الحسين وتتقرب إلى أحاسيسه - وهو الرجل الطماح - بسائر المغريات ؟؟ ما يمنع اللورد «كتشنر» معتمد بريطانيا في مصر أن يغتنم فرصة مرور الأمير عبدالله بن الحسين - ملك الأردن فيما بعد - بمصر في إحدى رحلاته إلى الآستانة في عام ١٣٣١ هـ ليتعرف إليه ويصافحه كصديق ويقدر فيه باسم بريطانيا العظمى عنايته بحجاج الهند؟.

لقد كان لقاء التعارف ثم تبعه لقاء آخر مهّد للصداقة وكشف للأمير الشاب مبلغ عطف البريطانيين على أماني العرب !! ولا أشك أن مثل هذه المجالس تنقل بحذافيرها وتعليقات الأمير الشاب عليها وما يتسع لتعليقاته من أحلام إلى صاحب الرأي في مكة على أمل أن تدغدغ عواطفه.

ولكن الحسين يعرف أنها بلد الخليفة، وأن خلافه مع الاتحاديين في الآستانة لا يبرر له الخيانة وأن يصافح غير المسلمين وهو الرجل الذي عاش يباهي بتمسكه بأخلاق المحافظين.

وهي إلى جانب ذلك مغامرة من الصعب أن يقدر مصيره فيها إذا فشلت، ومع هذا فقد تدغدغت عواطفه وهيأ تصلب الاتحاديين الجو للأمير عبدالله ليشجعه على المغامرة ،وبدأت رسل بريطانيا تفتح أمامه أبواب الأمل على سعتها لتظفر لنفسها بما يقلق راحة خصومها في برلين وتركيا.

في هذه الأثناء كان فيصل قد نقل إليه تفويض الجمعيات السرية في دمشق كما

أسلفنا، كما أن جمعيات عربية سرية في مصر وأوربا أرسلت تؤيده، كما أن بعض مندوبي المفاوض البريطاني بدؤوا يتوافدون على مكة في ثياب حجاج ليؤكدوا للحسين استعداد الحكومة البريطانية لمساعدة العرب كرد على خرق الأتراك تقاليد الصداقة العثمانية الإنكليزية (١).

وكانت أوامر العثمانيين قد صدرت إلى الحسين بتجنيد القبائل الحجازية للمساعدة، فأظهر الموافقة وكتب في الوقت نفسه إلى المندوب السامي في مصر بالشروط التي وضعها للتحالف مع بريطانيا، وكانت في الحق شروطاً رحبة واسعة شملت استقلال العرب في جميع ما يعرف الآن بسوريا والأردن وفلسطين والعراق وجميع أنحاء الجزيرة، باستثناء عدن التي كان البريطانيون يهيمنون عليها، وهو يعني بالاستقلال طبعاً الحرية تحت ظل السيادة الهاشمية.

لقد كان الإنكليز يعلمون أنه ليس من حقهم أن يوافقوا على طلبات الحسين وهم مرتبطون بعدة التزامات، فهم مرتبطون في جزيرة العرب بممالك ومقاطعات كانوا يعترفون باستقلالها، وهم إلى جانب ذلك مرتبطون بحليفتهم فرنسا وقد شرعت المفاوضات بينهما تنظر إلى سوريا والعراق وفلسطين كتركة يجب أن يتوزعوها بينهم إذا نجحت الحرب (٢).

(١) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٢٧ وما بعدها ج١

(٢) هي مفاوضات «سايكس» مندوب بريطانيا للشرق الأدنى و«بيكو» قنصل فرنسا في بيروت، وقد اجتمعا في القاهرة للمفاوضة وتم الاتفاق بينهما في مايو ١٩١٦ الموافق رجب عام ٣٤ أي بعد وعدهم الذي بذلوه للحسين بالموافقة على جميع مطالبه بعدة أسابيع وقد نص اتفاقهما على قبول رئاسة عربية في داخلية سورية وداخلية العراق على أن يكون لفرنسا حق الإشراف وتقديم المستشارين في الأولى ولبريطانيا في الثانية مثلها، أما سواحل سوريا فللفرنسيين أن يديروها كما يشاؤون وللبريطانيين مثل ذلك في سواحل العراق، وأن تنشأ في فلسطين إدارة دولية وقد وضعت لذلك خرائط خاصة لونوها بالأحمر والأزرق لتحديد الأقسام.

كما أنهم مرتبطون في الوقت نفسه لوزير خارجية بريطانيا «بلفور» بوعد يبيح لليهود أن يتخذوا من فلسطين وطناً قومياً لهم (١).

كانوا يعلمون هذا، وفي ذلك أوضح برهان على ما بيَّتوه من غدر لا للحسين وحده، ولكن لسائر الأماني في سائر بلاد العرب.

لقد بدا لهم ونار الحرب تستعر أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن الحسين كحليف، فشخصيته الروحية وبلاده المقدسة ومركزه بين العائلات العربية خير معوان لهم على دحض الدعاية العثمانية التي باتت تستنفر المسلمين باسم الجهاد المقدس (٢).

إذن فما يمنعها لتكسب الفرصة أن تراوغ وأن تبيِّت الغدر وأن تترك أسلوبها يتسع لشتى المفاهيم والاحتمالات؟ الحسين نفسه لم يكن يومها في مركز يبيح له الرفض البات، فقد انكشف أكثر من مرة للعثمانيين، ورأى نفسه رغم عناده وشدة حيطته مسوقاً إلى نسيان الحيطة، وإذا كان أكثر المعلقين يرون الحسين مغشوشاً بثقته في البريطانيين الثقة التي أضلته عن أخذ الحذر الكافي فإني لا أرى رأيهم، فالحسين -في رأيي- وإن بدا في أول علاقته بالبريطانيين شديد البأس فإنه ما لبث أن شعر أنه في أشد الحاجة إلى ترك بعض الأمور أو أهمها إلى تسويات المستقبل، وأن رغبته في الوصول إلى اتفاق دفعته إلى أن يستعجل أكثر الأمور قبل أن يقع في فخ العثمانيين الذين كشفوه.

---

(١) نشرت جريدة «المقطم» المصرية وعد «بلفور» في عددها الصادر في ٩ نوفمبر عام ١٩١٧ أي بعد اتفاقهم مع الحسين بأكثر من سنة ونصف وقد جاء فيه: «إن بريطانيا تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وتفرغ خير مساعيها لذلك»، و«بلفور» صاحب هذا الوعد كان يشغل يومها منصب وزير خارجية بريطانيا.

(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ٣٧.

لقد كتبوا إليه أكثر من مرة فلم يجرؤ على مجاراتهم، ولكنه عندما شعر بدقة الموقف وجد نفسه يكتب إليهم ويعرض مطالبه الواسعة في تفصيلات طويلة، وقد ظلت المكاتبات جارية بينهما نحو عشرة أشهر بدأت في ٢٨ رمضان عام ٣٣ وانتهت في جمادى الأولى عام ٣٤ وجاء في آخر خطاب تلقاه: «إن حكومة جلالة ملك بريطانيا وافقت على جميع مطالبكم[١]» وهي موافقة إذا روعي فيها روح الفكرة المبثوثة بمعانيها الدقيقة أو شبه الدقيقة.

ويبدو هذا واضحاً إذا علمنا أن الفرقاء المعنيين لم تسلمهم المكاتبات في نهايتها إلى توقيع وثيقة أو معاهدة، وأن أسلوب الجانب البريطاني في خطاباته كان يتسم بطابع الغموض ويتسع لكثير من ألوان التحفظات، ولا غرابة إذا رأى القانونيون عدم صلاحية جميع ما جاء في الخطابات للعرض أمام أي محكمة على وجه الأرض[٢].

ومع هذا فقد كانت محاولات استطاع الفريقان أن ينفذا منهما إلى أغراضهما، فقد استخدمها البريطانيون لحملة دعائية صادرة من مكة ضد نداءات الأتراك باسم الإسلام ودعوة صارخة هزت أحاسيس العرب الهواشم من ذؤابة قريش.

كما استطاع الحسين أن يتحصن بها ضد الأتراك الذين كانوا يتحسسون عصيانه ويستاؤون من تدخله في أعمال جمال في سوريا ودسِّ أنفه في كثير من تصرفاته السياسية ومماطلته في تجنيد من طلبوا إليه تجنيدهم من الحجاز بسد بعض الثغرات، وبالجملة فلا مفر له من استعجال الأمر بعد أن تبين له أنهم باتوا يرتابون في إخلاصه لهم ويعدون العدة للتخلص منه.

(١) راجع نصوص الخطابات في ذيل الكتاب، وهي منقولة من كتاب «الثورة العربية الكبرى» لأمين سعيد ص ١٤٢ ج١

(٢) الملوك الهاشميون لجيمس موريس ٤٠.

الإعداد للثورة في مكة : وما كاد الحسين ينتهي من مباحثاته مع الجانب البريطاني في جمادى الأولى عام ٣٤ هـ (مارس عام ١٦) بالصورة التي أسلفناها حتى كان نشاطه قد تضاعف في مكة. كانت اجتماعاته تغص بكبار الأهلين وأعيانهم ومشايخ الحارات والبارزين من رجال القبائل - «إننا يا أولادي ليس لنا مطمع إلا أن نحافظ على ديننا وعروبتنا . . إننا آخر من يعصي أمر الخليفة بشرط ألا ينال الاتحاديون من ديننا».

ويفيض الحسين في أعمال الاتحاديين التي أحدثوها في الإسلام ويصورهم تصويراً دقيقاً يثير النقد، حتى استطاع بلباقة أن يصرف أذهانهم عن الهالة التي كانت تتألق على جبين خليفتهم، وكانت مثل هذه المجالس لا تخفى على (غالب) والي الأتراك في مكة، ولكن غالباً وقد رأى خذلان الولاة قبله، كان أضعف من أن يتعرض بشيء حاسم.

وتلقى الحسين في هذه الأثناء أمر الاتحاديين بأن يعجل في تجهيز المتطوعين من الحجاز وإرسالهم للاشتراك في حملة القناة، فاستطاع أن يستفيد من ذلك لتخليص فيصل الذي استبقاه جمال السفاح في دمشق ليأمن غائلة الشائعات حول الحسين.

استطاع الحسين أن يستفيد من ذلك، فقد كلف بعض المتطوعين أن يبرقوا إلى جمال بأنهم تواقون إلى القتال، وأنهم يرجون أن يكون فيصل على رأسهم، فخلصت الحيلة وأذن لفيصل أن يعجل في سفره ليزحف بالمتطوعين في الحجاز.

وانتهى فيصل إلى المدينة في رجب عام ٣٤هـ فاجتمع بأخيه علي فيها، وكان قائد الجيش التركي فخري باشا يساوره فيهما نفس الريب الذي يساور جمال في الشام، ولكن الحيلة جازت عليه كما جازت على جمال، فقد استأذناه ليسرعا

بالمتطوعين إلى القناة وفلسطين بحجة أن الاتحاديين في تركيا هددوا والدهما، وأن الوالد أمرهما بالإسراع في تلبية الأوامر الشاهانية.





عبدالله بن الحسين
(ملك الأردن فيما بعد)

فيصل بن الحسين
(ملك العراق فيما بعد)

وهكذا تركا المدينة في أوائل شعبان عام ٣٤ هـ على رأس فريق كبير من المتطوعين للقناة بعد أن تسلما من فخري مبلغاً طيباً من المال وقسماً لايستهان به من الذخيرة [١] ومضيا بالمتطوعين في الطريق الشرقي إلى غير بعيد، ثم عادا في حركة التفاف إلى (أبيار علي) فعسكرا هناك انتظاراً لأمر الثورة في مكة.

الرصاصة الأولى من مكة : وانطلقت رصاصة الحسين في فجر اليوم التاسع من شعبان عام ١٣٣٤ هـ أطلقها بيده من قصره في مكة، فكانت إيذاناً بالثورة

(١) يقدره نسيب بك البكري بـ ١٨ ألف بندقية و ٢٠ ألف ليرة عثمانية ذهبية. راجع كتاب الثورة لأمين سعيد ج١ ص ١١٨.

بدأت معها مناوشات فيصل وعلي حول المدينة، كما كانت إنذاراً لابنه عبدالله ليترك الطائف في قبائله الموالية ثم يحاصرها خارج السور، كما كان إذناً للمتطوعين في مكة ومن حاراتها وقبائلها ليبدؤوا الهجوم على مراكز الأتراك المتفرقة، وللمحتشدين في سهول جدة ليهاجموا حاميتها التركية.

وكانت حامية جدة أسبق إلى التسليم؛ لأن ثلاثة من بوارج البريطانيين ساعدت المهاجمين على ضرب تحصيناتهم فاضطرتهم للتسليم بعد ثلاثة أيام من بدء الحصار.

أما مكة فقد بدأ الثوار بحصار الثكنة العسكرية فيها بجرول، كما حاصروا قلعة أجياد ومركزي الحميدية والصفا وقد استسلم المركزان بعد مناوشات بسيطة، أما الثكنة العسكرية فقد أحس من فيها بالرصاص يتناثر حولهم في الصباح الباكر، وكان جند الأتراك يقومون بتمريناتهم في ساحة الثكنة فأسرعوا إلى دخول الثكنة وخاطب آمرهم الشريف حسين تلفونياً يسأله عن الحادث فأجابه: «إن العرب لا تريدكم حكاماً عليهم»، فقال الآمر: «إننا مستعدون للتسليم إذا ندبتم من تختارون لذلك»، فندب الحسين لهم أحد الأشراف شرف عبدالمحسن البركاتي[1] فطلب إليه الآمر أن يدخل الثكنة لتجري أعمال التسليم، فتقدم يخطو إلى الباب وما كاد يفعل حتى نبهه أحد الضباط العرب فنجا بنفسه، ودخل الجند فاستعدوا للدفاع وظلت المناوشات أياماً ثم سلموا أنفسهم.

وسلم حصن القلعة بعدهم بنحو أسبوع بعد أن دافع الأتراك جهد استطاعتهم واستطاعوا أن يشعلوا النيران في جملة من بيوت مكة كانت تقع في أجياد خلف المستشفى الجديد، كما أصابت بعض نيرانهم حجراً في الكعبة فسقط واندلعت

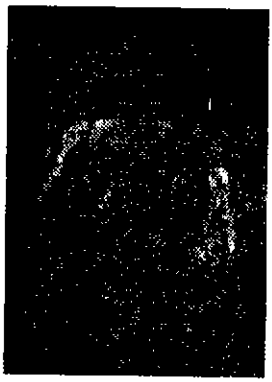
(١) هو صاحب الرحلة اليمانية، كان من المقربين إلى الحسين (ع).

النار في ثوبها، ولكن الثوار خفوا لإخمادها وساعدهم الأتراك فلم يسددوا نيرانهم إلا بعد أن خمدت النار، وقد ثبت أنهم لم يقصدوا إصابة الكعبة ولكنهم أخطؤوا المرمى.

ولم يمض نصف شهر حتى كانت الثورة قد استخلصت مكة وجدة من الأتراك، أما قوات الطائف فقد صابرت أكثر من ثلاثة أشهر ثم سلمت لعبدالله ابن الحسين ملك الأردن فيما بعد في ٣٤ من ذي القعدة ٣٤ هـ.

وظلت المدينة محاصرة تطاول الثوار في قوة وبأس إلى مدة يأتي بيانها.

وما كاد شعبان عام ١٣٣٤ هـ يفضي إلى نهايته حتى كانت الإمدادات الإنكليزية قد وصلت مقدماتها إلى جدة، وكانت تتمثل في بطارية ميدان وبطارية مكسيم و٣ آلاف بندقية وفرقة من الجيش قوامها ٣٣٠ جندياً تصحبهم ٢٤٠ دابة[١].



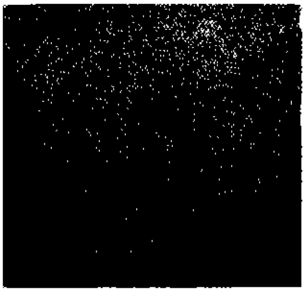
علي بن الحسين
(الملك فيما بعد)

ودوّى صوت الثورة في العالم، وأصدر الثائر في مكة منشورات يبرر فيها ثورته على الاتحاديين «الذين أهانوا خليفة المسلمين، واستقلوا بالأمر دونه وتلاعبوا بأحكام الشرع» وبلغت الأنباء مسامع الاتحاديين في تركيا والشام فأنذروا وتوعدوا وصرح يومها بعض قادة

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٤٨ ج١

العسكريين الألمان باستيائه مما حدث فقال : «إننا لم نستمل الأتراك إلا لأنهم موضع احترام المسلمين، أما وقد أضاعوا أهم ميزتهم بخروج أكبر زعيم وسليل أعظم بيوت الإسلام فيجب أن نعيد النظر»[1].

استاء جمال باشا السفاح واشتد غضبه وعرف أنه كان مخدوعاً عندما ترك فيصل بن الحسين يفلت من يده في الشام كما أفلت من يد الحامية في المدينة بعد أن تسلم جزءا كبيراً من الذخيرة والمال بحجة العمل لنصرة العثمانيين .



الشريف علي حيدر

شريف جديد : وصدرت أوامر الآستانة مستعجلة بضرب العرب بالعرب لإخماد ثورة مكة ، فبدؤوا بتعيين شريف جديد من آل زيد (علي حيدر) لإمارة مكة ، وكان علي حيدر يقيم في الآستانة ويعمل لموالاة الاتحاديين في وظيفة وكيل مجلس الشيوخ العثماني ، فتوجه فوراً على قطار خاص إلى الشام حيث زوده جمال باشا فيها بما يلزم من عتاد وأسرع بترحيله إلى المدينة فوصلها في أوائل ذي القعدة عام ٣٤ هـ (سبتمبر عام ١٦) .

وكان العثمانيون في المدينة بقيادة فخري باشا ، وقد استطاعوا أن يحرزوا عدة انتصارات في هجومهم على جيش الثوار المحاصر ، فقد زحفوا على جيش فيصل حتى تراجع في بعض المرات إلى ينبع كما زحفوا على جيش علي إلى قرب رابغ .

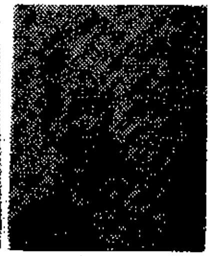
(١) راجع الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ١٤ ج١ .

واستطاع الشريف علي حيدر أن يتصل ببعض القبائل ويستميلها إلى صفوف العثمانيين كما استطاع أن يستميل (حسين بن مبيرك) أمير رابغ ليساعده ضد الثوار، فبذل ابن مبيريك في سبيل ذلك كثيراً، واستطاع أن يؤخر كثيراً من الإمدادات التي كانت ترسلها بريطانيا إلى جيش الثوار [١] مما شد في عضد الأتراك وهيأهم لطلب المزيد من الشام فوصلتهم عدة آليات ومعداتها، وكاد الشريف علي حيدر أن ينجح في زحفه إلى مكة ليبلغ الحج من ذلك العام ٣٤ على رأس محمل عثماني ويضع لأبي الثورة في مكة نهاية حاسمة. ولكن الأتراك عجزوا عن إمداده بالذخائر والمؤن التي اشتد في طلبها، فأسقط في يده وطال عليه الأمد رأى أن يعود إلى دمشق سعياً وراء إنجاز المؤونة فلم ينجح كثيراً، فترك الأمر ومضى إلى لبنان بعيداً عن الحركة حتى نهاية الحرب دون أن يعمل شيئاً.

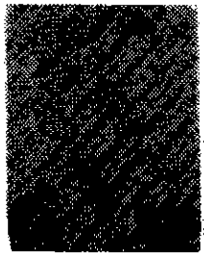
ضباط عرب: نشط الحسين للأمر واستنجز الحلفاء وعودهم بصرخات عالية، فماطلوا بعض الوقت ثم أرسلوا إليه بعض ضباط العرب الذين أسروهم في بعض مواقعهم مع الجيش العثماني وكان في مقدمتهم عزيز المصري، نوري السعيد، جميل المدفعي، جعفر العسكري، علي جودة الأيوبي، مولود مخلص.

وفي أواخر عام ٣٤ ندبوا الكولونيل لورانس وكان يعمل في الاستخبارات الإنكليزية ليوافيهم بتقارير من الميادين حول المدينة بعد أن يتحسس مبلغ حاجة هذه الميادين إلى القوات، فاتصل الكولونيل بفيصل وعلي، واحتك بأعمال

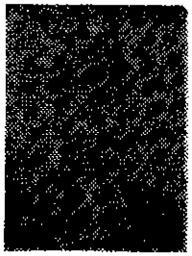
(١) الثورة العربية الكبرى تأليف الكولونيل لورنسي ٢٥.



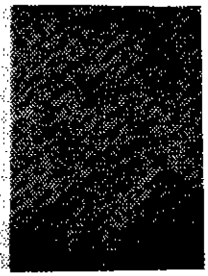
(عزيز المصري)



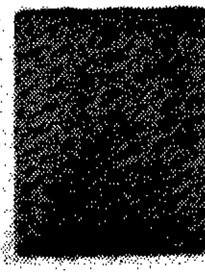
(نوري السعيد)



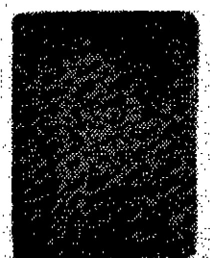
(جعفر العسكري)



(جميل المدفعي)



(علي جودة الأيوبي)



(مولود مخلص)

الجيش وأرسل تقاريره مستعجلة[1]، فوافتهم الإمدادات الإنجليزية تتوالى.

وكانت الأوامر قد صدرت إلى عبدالله بن الحسين بعد سقوط الطائف أن يتوجه جيشه لمساعدة إخوانه في مقاومة المدينة فتوجه إليها وعسكر شرقي المدينة بينما كان أخواه علي وزيد يعسكران في رابغ وفيصل في بير درويش غربي المدينة[2].

وأهلَّ عام ٣٥ والمناوشات على أشدها حول المدينة وبعض المواقع الشمالية وكانت تساعد الجيش العربي أربع طائرات إنكليزية.

(١) الثورة العربية الكبرى للكونيل لورانس ص ٣٤.

(٢) الثورة العربية لأمين سعيد ٢٢٠ ج١. (ع) هي الفريش على بعد ٤٨ كيلاً من المدينة على طريق مكة، أما علي وزيد فكانا آنذاك بمضيق الصفراء.



(الأمير زيد)

الزحف إلى الشمال : وسير فيصل في ربيع الأول عام ٣٥ فرقة من الجيش إلى مدينة الوجه فضربت الأتراك فيها وساعدتهم بوارج الحلفاء فسلموا ومضت الفرقة متوجهة إلى شمال الوجه بقيادة بعض الأشراف يساعدهم ضباط العرب ومتطوعة مكة وبعض القبائل يتقدمهم الأمير زيد والشريف ناصر فاحتلوا كثيراً من القرى والمواقع ثم انتهوا إلى فتح العقبة في ١٩ رمضان سنة ٣٥ .

الزحف إلى سوريا : وانضم إلى الجيش في العقبة كثير من القبائل وأسرى العرب من العراقيين والسوريين وبعض المصريين، ثم زحفت بعض ألويته فاشتبكت مع الأتراك في وادي موسى، وكان يقود حملة الأتراك أحمد جمال باشا نفسه [1] فاحتل العرب وادي موسى .

واستمر الزحف بقية عام ٣٥ وشهوراً من [2] عام ٣٦ ثم رأى فيصل أن في استطاعة الجيش أن ينقل ميدانه من العقبة وما حولها إلى حوران وجبل الدروز، فندب من يفاوض أمراء الجيش . قد انتهى الاتفاق باستقلال الجبل ذاتياً ، وما كاد

---

(١) الثورة العربية لأمين سعيد ١٦٥ ج١ .

(٢) عن تلك الفترة صدر كتابان فصلا كل صغيرة وكبيرة عنهما، هما مذكرات الأمير زيد والمراسلات التأريخية (ع) .

عام ٣٦ يوفي على نهايته حتى كان الجيش العربي يدق أبواب الشام .

ودخل فيصل الشام في ٢٤ ذي الحجة عام ١٣٣٦ هـ و٢ أكتوبر عام ١٩١٨ على رأس جيشه العربي تحف به القبائل الشامية والحجازية ومتطوعة مكة وعدد كبير من الجنود النظامية العربية على رأسهم ضباط العرب وقادتهم ، وفي ساقتهم آليات من جيش الحلفاء ، وقد عسكر الأخيرون على مسافة من دمشق دون أن يشاركوهم يوم الدخول .

وبدخوله انصرف فيصل إلى تأسيس حكومته الجديدة وأصدر في ٢٩ ذي الحجة سنة ٣٦ بلاغاً رسمياً جاء فيه : «شكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً باسم مولانا أمير المؤمنين الشريف حسين بن علي» .

وفي ٦ جمادى الثانية عام ١٣٣٨ هـ ٧ مارس عام ٢٠ أعلن المؤتمر السوري في دمشق استقلال سوريا بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين ، واختيار فيصل ملكاً دستورياً عليها ، ونصب فوق مكان الاجتماع علم الدولة الهاشمية في الحجاز بعد أن أضيفت إليه نجمة واحدة [1] .

تسليم المدينة المنورة : انتهى جيش الشمال بقيادة فيصل إلى فتح الشام على هذا النحو بينما كان جيش الشرق بقيادة عبدالله (ملك الأردن فيما بعد) وجيش الجنوب بقيادة علي (ملك الحجاز فيما بعد) لايزالان حول المدينة يحاصرانها .

(١) لم يدم أمر الحكومة في سوريا أكثر من عام واحد وعشرة أشهر ؛ ذلك لأن الفرنسيين ادعوا حق الانتداب على البلاد بموجب معاهدة «سايكس بيكو» التي فضح أمرها فيما بعد بينهم وبين البريطانيين ، ولذلك هاجموا دمشق واحتلوها في ٢٥ يوليو عام ٢٠ بعد أن غادرها فيصل وهي حوادث مبسوطة فيما كتب عن تاريخ سوريا مما لسنا بصدده ، وحسبنا أن ننعي شرف الحلفاء في مثل هذه المواقف الدقيقة .

كانت الحرب سجالاً بينهما وبين حامية الترك في المدينة فقد أمدتها الشام قبل التسليم بقوات وذخائر عظيمة، حتى بلغ عدد الحامية فيها نحو ١٥ ألف مقاتل بكامل معداتهم ومدافعهم، مما جعل قائدهم فخري بك يستبسل في الدفاع ويتحدى المحاصرين فيهاجمهم في قوات عظيمة كانت تقصيهم عن مواقفهم حول المدينة إلى عشرات الكيلومترات.

وقاسى أهل المدينة في حصارهم من الشدة والضيق ما لا يطاق، واضطر فخري بك عندئذ إلى إجبارهم على الهجرة إلى بلاد الشام، كما قاسى أهل مكة ومدن الحجاز من غلاء الأسعار وقلة الأرزاق في مدة الحرب كثيراً من العناء.

وأهلّ عام ١٣٣٧ هجرية والمدينة على حالها من الحصار، وما كاد ينتهي محرم من عام ٣٧ حتى كانت هدنة الحرب العامة قد أعلنت، وقد جاء في شروط الهدنة: «أن يتم جلاء الأتراك عن جميع بلاد العرب» وتنفيذاً لذلك أبرق وزير الحربية التركية في إستانبول إلى قائد حامية المدينة بالتسليم فوراً فأبى التسليم. وقيل إنه ظنها من خدع الحرب، واستمر في دفاعه فندبوا له ضابطاً تركياً يبلغه ذلك فأصر على الرفض ولكنه ما لبث أن شعر ببعض الفرَق تنسلّ بضباطها وجنودها لتسلم نفسها للجيوش المحاصرة فاضطر للتسليم، وفي ٥ ربيع الآخر سنة ١٣٣٧ وقعت الاتفاقية الخاصة بذلك وبها تم الاستسلام.

تعيينات هاشمية في مكة: لم ينتظر الحسين تسليم المدينة ليشكل حكومته الهاشمية، بل تركها لحصار أولاده علي وعبدالله وابتدأ في تأسيس ما يلزم لتأسيس دولة عربية هاشمية، واتخذ لها علماً جديداً من أربعة ألوان: أبيض وأسود وأحمر وأخضر كان يقول عنها إنها تمثل أعلام النبوة والأموية والعباسية

وخلافة آل عثمان .

وفي يوم ٦ محرم عام ١٣٣٥ بويع له في عاصمته مكة ملكاً لا على الحجاز وحدها بل على بلاد العرب ؛ اعتماداً على الشروط التي اشترطها على الحلفاء ، وبصرف النظر عن ممانعة الحكومات التي كانت تستقل ببلادها داخل الجزيرة وبعض القادة في بقية الشعوب العربية التي كانت تحتفظ بآرائها في تفسير هذا الشمول .

وفي ٧ محرم أصدر خطاباً عين فيه ثلاثة من أبنائه على النحو التالي :

الأمير علي : رئيس الوكلاء

الأمير فيصل : وكيل الداخلية .

الأمير عبدالله : وكيل الخارجية .

كما عين :

الشيخ عبدالله سراج : نائباً عن رئيس الوكلاء وقاضي القضاة .

الشيخ عبدالعزيز المصري : رئيس أركان حرب ووكيل رئاسة الجند .

الشيخ علي مالكي : وكيلاً للمعارف .

الشيخ يوسف قطان : وكيلاً للمنافع العمومية .

الشيخ محمد أمين كتبي : وكيلاً للأوقاف .

الشيخ أحمد باناجه : وكيلاً للمالية [١]

وهي ألقاب أراد بها اعتبارهم وكلاء عنه في دائرة اختصاصاتهم أو لعلهم كانوا

(١) جريدة القبلة .

وكلاء لوزراء لم يعينوا بعد [١] .

وانتهى الخبر إلى البريطانيين وحلفائهم فلم يعجبهم إطلاق لقب ملك العرب ، وحاولوا مع مندوبه في مصر أن يتريث ، ففي بلاد العرب حكومات أخرى يجب أن يتفاهم معها ، كما أن كلمة (عرب) تشمل مصر وتونس والجزائر ، فلم يقنع الحسين بضرورة المفاهمة ثم قال : «إن مصر وتونس والجزائر ليست من بلاد العرب»* .

وبذلك ظل يطالبهم بتنفيذ وعودهم واستقلال البلاد العربية من أطنة في الشمال إلى حدود عدن في الجنوب وأن يعترفوا بسيادته عليها ، لكن الحلفاء كانوا قد اقتسموها فيما بينهم كما أشرنا إلى ذلك وشرعوا في التمهيد لاستيلاء اليهود على فلسطين .

وهكذا تقلصت الأحلام وانهارت الآمال وقبع الحسين في مكة لا يسري نفوذه المستقل إلا على منطقة الحجاز ، ولا يملك من مؤهلات الإنكار إلا كلمات الاحتجاج ، وهي لغة لا تؤدي في قواميس الحياة ما تؤديه المدافع والمدمرات والأساطيل في الماء والسماء .

النواميس قضت ألا يعيش الضعفاء
إن من كان ضعيـ فاً أكلته الأقوياء [٢]

(١) لم يؤد أحد من هؤلاء عملاً يستحق ، فقد كان أبناء الحسين مشغولين بأعمالهم في الجيش ، أما غيرهم فقد كان الغالب في مناصبهم هو الاسم فقط ؛ لأن الحسين كان يصرف جميع شؤون الدولة بنفسه دون أن يطلع أحداً إلا فيما أراد .

* لعل المراد ليست من بلاد العرب التي يطالب أن يكون ملكاً عليها .

(٢) جميل صدقي الزهاوي .

الحسين والخلافة : وكأنما أراد الحسين أن يعوض ما منيت به جهوده من نقص، فهب في أعقاب الثورة الكمالية التي طردت الخليفة من تركيا وألغت الخلافة . . هب يحتج على هذه الجرأة، ثم ما لبث أن نشط وتحرك ركابه في عام ١٣٤٢ إلى شرقي الأردن، حيث استقر في إمارتها ابنه الأمير عبدالله (الملك فيما بعد) فقابل الوفود وبادره المقربون منهم يعلنون رغبتهم في اختياره للخلافة .

وتقرر في ذلك المجلس تنصيبه خليفة للمسلمين، وبذلك نادى شرق الأردن بمبايعته بالخلافة، وما أن تمت البيعة وأضيف إلى لقبه (ملك العرب) «إمارة المؤمنين» حتى عاد إلى مكة ليتبوأ عرش الخلافة فيها .



من تشكيلات الحسين : بعض ضباط الشرطة في مكة ويرى في مقدمتهم مدير الأمن العام عثمان بك وهو من الأتراك الموالين للحسين

النواحي العامة
في عهد الحسين

صفحة الحسين في مكة :في استطاعتنا أن نضيف حياة الحسين في مكة إلى الصفحات القليلة المشرقة في تاريخ أشرافها إذا استثنينا ما غشيها من فترة كدّرت بعض جوانبها، فقد كان يغلب عليه صفات الرجل المصلح لو سلم من المغالاة ولم يتطرف.

كان يميل إلى التدين واحترام أوامر الشرع ويحث عليها ويصر على تنفيذها في حدودها المقررة، ولكنه كان كأكثر المؤسسين وأصحاب الثورات يأخذ بالظنة ويعاقب على الشبهة . كان يقسو على خصومه ويذيقهم من هوانه في السجون والأقبية بصورة لا تتفق مع ميله إلى التدين والعدل.

وكان محافظاً حريصاً على التقاليد، ولكنه يغلو في محافظته وبالرغم من اختلاطه الطويل برجال الفكر في تركيا واحتكاكه بالحياة الراقية فيها، كان شديد العداوة للتجديد فيكره السيارة ويحارب استعمالها ويصر على بقاء المواصلات العامة وقفاً على الجمال والبغال والحمير؛ لأنها إنتاج محلي لا تنقل فوائده إلى جيب الأجنبي، كما كان يمقت الرجل إذا أدخل على أثوابه العربية أي تعديل لم تستعمله البلاد.

وكان وطنياً يحرص على خير بلاده ويعد أهلها لمناصبها ويحلو له الاستغناء عن غير أهلها، ولكنه كان يمعن في ذلك إمعاناً متطرفاً، حتى صرف عنه كثيراً من العناصر المفيدة لنهضة البلاد وحرمها من عطف كثير من جيرانها.

وكانت له معلومات في السياسة وكأنه كان يعتد بها ويشعر أنه لا يدانيه فيها مدان، وكذلك كان يحصر ثقته ويركز كامل المسؤوليات فيها ولا يبيح لرجال

دولته التصرف إلا في حدود من إرشاداته، وقد كلفه ذلك إرهاقاً لا يطاق وزج به في كل صغيرة من مقدرات البلاد، فكان يشارك العسس وكناسي المسجد وعرفاء البلدية ومحرري الجرائد في أعمالهم ويتصل بهم اتصالاً مباشراً. ويأبى حتى على أولاده أو المتصلين بديوانه من أصحاب الثقافات العالية أن يستعملوا عقولهم لخدمة القضية، فهو عريف الجميع ولا صواب إلا فيما يراه.

وكان يقظاً حريصاً على سلامة الدولة، ولكنه كان يتغالى في يقظته حتى فرض الجواسيس ومنع الاجتماعات وأبلى في تتبع ذلك وأكثر فيه، حتى شارك المراقبين في دوراتهم الليلية وتجسس بنفسه بين الأزقة والبيوت فعاني الناس من ذلك شيئاً كثيراً ووجد مسترقو السمع لديه الفرصة مواتية للإيقاع بمن يكرهون، فامتلأت سجونه بالأبرياء والمدنيين في وقت واح. وكان إلى جانب هذا لا يعترف بحرية الرأي ويحارب قراءة الصحف مهما كان نوعها، فضلاً عن أن يبيح صدورها في بلاده*.

وكان يعطف على الفقراء ويسند الضعفاء ويترك أبوابه مفتوحة للشاكين واللاجئين ولكنه كان يقسو في أكثر الأحيان على كثير من الناس، وكان يشتط على فريق التجار والمستوردين والصرافين والمتلاعبين بالأسعار فيفرض عليهم العقوبات أو يصادر أموالهم، وأذلهم في أحد المرات بكنس الشوارع وتنظيفها علانية، كما كان يترصد البيوت التجارية التي يشعر أنها تمعن في جمع الثروات فيفرض عليها الإتاوات فرضا لا يقبل الهوادة ولا التسويف، ويبالغ في فرضها إذا كان الثري من غير البلاد.

وكان يقتصد في أموال الدولة ويضن بصرفها، ولكنه كان يبالغ فيما يقتصد فلا يكسو الجند إلا أثواباً عادية من القطن الرخيص المصبوغ الكثير الترقيع، ولايبذل

* ما ذكره المؤلف هنا يظهر منه التعارض مع ما أورده بعد ذلك عند حديثه عن الصحافة في عهد الحسين ص٦٩٩.

لقصاده من خدام القضية العربية وزواره من الشعراء وأصحاب الأقلام المأجورة إلا النزر القليل الذي لا يفي بحاجتهم فضلاً عن كونه يغريهم .

والحق أن مبالغته في الاقتصاد كانت تشمل أحواله الخصوصية ونفقاته الخاصة، وقد ذكر الريحاني أن البساطة تدنو في القصر (قصر جدة) من التقشف فتبدو في السجاد العادي وكراسي الخيزران والدواوين المغطاة بقماش من القطن والجدران العادية الخالية حتى من الآيات (١) .

وكان شديد التمسك بمظاهر استقلاله في الحجاز، وفي سبيل تمسكه رفض تأسيس الشركات الأجنبية ، كما رفض إعطاء امتياز تقدم به بعض السوريين للتنقيب عن البترول والمعادن في الحجاز بفوائد طيبة من أهمها إنشاء خط حديدي بين مكة وجده وآخر بين ينبع والعلا على أن يسلم الخطين ملكاً للحكومة، وقد قال في أسباب رفضه : «إن بعض أموال شركات النعماني أجنبية(٢)» . وبالغ في التمسك بمظاهر الاستقلال حتى منع الحكومة المصرية من تأسيس بعثة طبية لها في مكة بعثت بها صحبة الحاج المصري من النزول من الباخرة في جدة؛ بدعوى أنها لم تتحصل على موافقة صاحب البلاد قبل مغادرتها مصر، وأنه ليس من حقها الاستمرار في مكة إلا إذا كانت تصاحب الحجاج في رحلاتهم وتعود بعودتهم . وقد استاءت مصر لتمسكه، وعرضت عودة رجال البعثة إلى مصر في باخرتهم مع جميع ما يرافقهم من كسوة الكعبة وأموال الصدقات، فلم يثنه ذلك عما يرى

---

(١) ملوك العرب للريحاني ص ٢٦ ج ١ .

(٢) كان بعض الاختصاصيين الذين قدموا إلى الحجاز من سوريا بعد نهضة الحسين بواسطة قسطنطين يني ليتعاونوا معه أنتجت دراساتهم عن وجود بترول في منطقة الوجه ينبع على الشاطئ، كما ظهر لهم في بلاد السراة نحاس وطلق وحديد وفي مكان حول مكة معدن الماس . راجع ملوك العرب للريحاني ص ٥٠ ج ١ .

وترك الباخرة تعود بجميع ما حملت وكان المحمل المصري في جملتها .

وكان حريصاً على محاربة الأمية في الحجاز ونشر التعليم على طريقته، فنشط على أثر توليته إمارة مكة لفتح بعض المدارس الأولية، ثم أضاف إليها غيرها للزراعة والحربية، وأنشأ قريباً من هذا العدد في المدن الأخرى، فأقبل الناس على طلب العلم وقدروا له نهضته في ذلك، ولكن بعضهم عندما أراد الاستزادة من التعليم خارج البلاد



المحمل المصري يحتفل في القاهرة بقدومه إلى الحجاز

أبى ذلك عليهم وقال: «إن علومنا تكفينا»، وعندما تبرع المستر (كراين) الثري الأمريكي بترحيل بعض الشباب إلى أمريكا لتعليمهم على حسابه الخاص رفض ذلك؛ لأنه يكره الأجانب ويبالغ في كرههم ويرفض حتى علومهم .

وكان شجاعاً يمتاز بكثير من الثبات، فعندما كانت قنابل المدفعية التركية يوم النهضة في مكة تصلي قصره بنيرانها كان ذلك لا يزعزع من إيمانه شيئاً حسبه أن يتنقل من غرفة إلى أخرى ربما بعدت عن هدفهم وبفضل هذا الثبات استطاع أن يحقق لاستقلال الحجاز بناء لا ينسى .

وكان إلى جانب ثباته عنيداً لا يسلس للواقعية، ولا يرى رأي الساسة الذين

يهادنون في بعض مبادئهم تحاشياً من أن يخسروا كامل المعركة، فقد مر بنا تعصبه لما افترض لنفسه في حلفه مع البريطانيين، والبريطانيون قوم ضرستهم الأيام وعلمتهم كيف يحنون رؤوسهم للعاصفة حتى إذا مرت نصبوا قامتهم واقفين وحققوا نواياهم غير مبالين.

كان الحسين يعلم مبلغ الفرق بين قوتهم وضعفه، ولكن مضاءه أبى عليه إلا أن يثبت لما اعتقد رغم مماطلتهم.

وعقد مؤتمر الصلح على أثر الهدنة وتسليم العثمانيين، فدعي الحسين لينتدب من يمثله فاختار ابنه فيصل وألزمه ألا يهادن.

ولما فشل في إثبات حقه في المؤتمر كما فشل قبل المؤتمر ظل على مضائه يكيل لهم من شنيع القول ما وسَّع الشقة وزاد في الهوة.

واقتضت مطامع الإنجليز الاستعمارية أن يفصلوا العقبة عن الحجاز؛ بدعوى أنهم يضمونها إلى ابنه في شرقي الأردن، فلم يَنْطَل عليه الأمر وشرع يكيل لهم الاحتجاجات العنيفة في ألفاظ قاسية. ولو كان لعنف الاحتجاجات وقسوة الألفاظ قوة المدافع والأساطيل لاستطاع أن يصل إلى حقوقه كاملة، أما والأمر غير ذلك فإن عناده في الخصومة لم يستفد منه غير تعقيد الأمور واتساع الخرق.

وقد اتسع الخرق حتى بات البريطانيون يحسبون حسابه كلما ارتفع صوت بين أحزاب العرب، فرأوا أن يتخلوا عنه ويتركوه لخصمه ابن السعود يحل مشاكله معه بنفسه [1]، وبذلك عجز عن المقاومة واضطر إلى ترك البلاد. ولم تهن سورته حتى بعد أن ترك البلاد، فقد ظل يوالي احتجاجاته في قسوة ويشهر

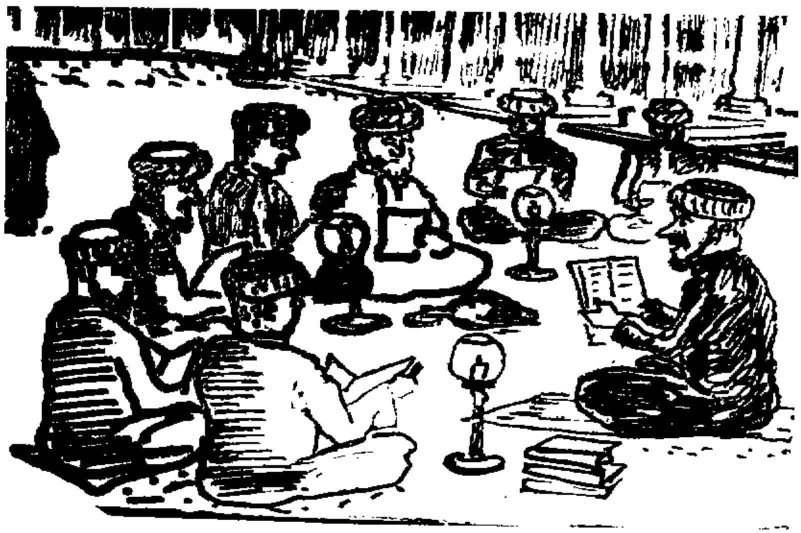
(١) راجع جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ١٩٥.

سلاحه في عنف وظل ديوانه في منفاه في قبرص نشيطاً في إصدار البيانات باسمه كخليفة على الرغم من أنها كانت عديمة الجدوى .

الناحية العلمية : وظل التعليم في مكة على شأنه في العهد العثماني تتوارثه بيوت العلم وتخدمه حلقاتها بالمسجد، وكان أبرز علماء هذا العهد هم علماء العهد العثماني الثاني وقليل من أبنائهم وتلامذتهم الذين أنجبوهم وذلك لقرب العهد بين الحسين والعهد الذي سبقه ولقصر المدة التي عاشتها حكومة الحسين .

ونشط الحسين في هذا العهد لخدمة العلم -كما نوهنا- فأسس أول مدرسة حكومية عربية، فقد بنى أمام باب السلام مدرسة أسماها «الخيرية» وطلب إلى الشيخ محمد خياط أن ينتقل بتلامذة مكتبه إليها، ثم أضاف إليها مدرستين أوليتين إحداهما في المعلاة والثانية في حارة الباب، ثم أنشأ مدرسة أرقى من ابتدائية في قلعة قعيقعان الهندي أسماها «الراقية» وأخرى تشبة الثانوية في نفس العمارة أسماها «العالية» وأسس وكالة للمعارف جعل رياستها لأحد العلماء في مكة، وكان أول من تولاها فضيلة الشيخ علي مالكي ثم عين الأستاذ كامل القصاب من سوريا مساعداً له .

وأنشأ بعض المدارس الأولية في كل من المدينة المنورة وجدة، كما أنشأ في مكة مدرسة للحربية وأخرى للزراعة . وشاعت في هذه المدارس روح النهضة وحماسها ،وكان تلامذتها يقابلون الحسين في أعياده الرسمية واحتفالاتهم المدرسية فيستمع إلى خطبائهم ويناقش كلماتهم، إلا أن وَقْدة هذه الروح ما لبثت أن اعتراها بعض الفتور ولعل ذلك ما يعود لرأي الحسين نفسه، فقد قيل إن بوادر الحركة التعليمية وما بدا فيها من حماس جعله يتهيب ما يترتب على ذلك من نتائج .



حلقات العلم في المسجد الحرام

الصحافة : وأنشأ الحسين في عهده جريدة «القبلة» للدفاع عن حركته والدعاية لها، وعهد في تحريرها إلى الشيخ محب الدين الخطيب من سوريا، ثم اختار لإدارتها الشيخ حسيناً الصبان ولتحريرها الشيخ الطيب الساسي، وكان يشرف بنفسه على سياستها. وقيل إنه كان يحرر بيده بعض مقالاته، وأباح للشيخ عمر شاكر من سوريا أن يصدر جريدة باسم «الفلاح» كانت تحذو حذو «القبلة» كما أنشأ مجلة زراعية صغيرة.

وكانت الجريدتان والمجلة تطبع في المطبعة التي خلفتها الدولة التركية وكان موقعها قبل التوسعة أمام باب الملك.

الإصلاحات : وأنشأ الحسين مظلة بين الصفا والمروة، ووسع في بعض الطرق العامة، واجتث عقبة الحجون ومهد دربها، وأمر الأهالى أن يساعدوا في ذلك ليلاً بالتناوب فكانت كل حارة تخرج في نوبتها للعمل على أصوات الطبول، كما سخر بعض المساجين للعمل في ذلك.

وأنشأ داراً لسبك النقود الهاشمية، وقد طبع منها الدينار الهاشمي والريال الهاشمي، كما طبع القرش ومشتقاته من النحاس الأحمر، كما أنشأ داراً لطبع الطوابع البريدية، وعني بعين زبيدة فأصلح مجاريها، وأصلح المدرج الواقع بجوار العقبة في منى، وأنشأ الشارع اليوسفي في مكة بجوار الشارع الفيصلي الآن.



السقاة في مكة

الإصلاحات في المسجد الحرام: وكانت بعض أعمدة المسجد قد تطرق إليها الخلل، فأمر ببناء غيرها وأصلح من بعض أرض المسجد وجداره، وعني بإضاءته في عام ١٣٣٥ بالنور الأبيض (الأتاريك) لأول مرة في التاريخ. وفي عام ١٣٣٨ أسس أول ماكينة للكهرباء فأنير بها المطاف وبعد عامين أمر بشراء أكبر منها لإنارة المطاف، وبعض جهات المسجد [1].

وبالجملة فقد كان الحسين أول عهده بالنهضة نشيطاً، كما كان مثلاً نادراً في الأشراف، وأعتقد أنه لو استمر في منهجه ذلك لكان له شأن غير ما انتهى إليه.

الحسين ونجد

مر بنا فيما سبق من فصول أن الخلاف بين أشراف مكة وحكام نجد قديم العهد، وكان العثمانيون يستفيدون من هذا الخلاف لتدعيم سلطتهم في بلاد العرب. لقد كانوا يعلمون أن الحركة الدينية التي ينادون بها تلازمها حركة واسعة لبسط النفوذ

(١) تأريخ عمارة المسجد الحرام.

والفتح على حساب السلطات العثمانية، فهم لهذا كانوا يكلفون أشراف مكة ويمدونهم بالذخيرة والأموال ليستعيدوا بعض ما يفقده النفود العثماني من سلطان في شرقي الجزيرة أو جنوبها.

وعندما تولى الحسين إمارة مكة كان الاتحاديون العثمانيون قد زاد استياؤهم من نجد فأوعزوا إلى الحسين أن يعمل على إرهابهم، وكان استياء الحسين لا يقل عن استياء العثمانيين؛ لأنه شعر أن دعوة نجد شرعت تستميل بعض القبائل التي تواليه وأهمها (عتيبة) وتمد نفوذها إلى غيرها، وأن انتشار الدعوة يعني انتشار الفتح على حساب إمارته فأعد جيشه للمسير إلى ديار عتيبة في عام ١٣٣٠.

وفي هذه الأثناء كان سعد بن عبدالرحمن شقيق الإمام عبد العزيز آل سعود قد دخل ديار عتيبة، فاستطاع الحسين أن يغريهم بالقبض عليه وتقديمه مأسوراً، وبذلك استطاع أن يشترط على إمام نجد (الملك عبد العزيز آل سعود فيما بعد) أن يعترف تلقاء إطلاق أخيه بسيادة العثمانيين، وأن يدفع ستة آلاف مجيدي تعويضاً للدولة فقبلت نجد ما طلبه منها.

ولما اشتعلت الحرب العامة وثار الحسين ثورته المعروفة على الأتراك واتصلت الأخبار بنجد رحب إمامها بالفكرة، وتبادل والحسين كتب الود والمجاملة والهدايا[1]، إلا أن الحسين ما فتئ أن أعلن نفسه ملك العرب وشرع يتكلم في مؤتمرات الصلح باسم العرب، فأثيرت الشكوك في نجد وخيف أن يطمع الحسين في ضمها فانطلق ابن السعود يحتج ويعترض ويطلب تحديد الحدود التي تفصل نجداً، فاستاء الحسين وعظم عليه الأمر.

(١) انظر نص الرسائل المعنية في: حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٥، ١٣٨٧هـ ص ٣٣٧-٣٣٩.

واشتد استياء الحسين أكثر عندما بلغه أن دعوة نجد تنشط بين القبائل المتاخمة وفيهم من والاه في حروب الأتراك وساعده في جميع أعمال الثورة، فأرسل إلى تلك القبائل حملات تأديبية حاول أن يدعم بها نفوذه، فلم تنجح محاولته بقدر ما بثت من الاضطرابات بين القبائل المتاخمة.

وأراد الحسين أن يضرب بقوة تترك صداها في ديار نجد، فأوعز إلى ابنه وقائده الظافر في المدينة الأمير عبدالله (ملك الأردن فيما بعد) أن يميل بجيشه ومعداته الثقيلة إلى تربة والخرمة، فتقدم حتى انتهى إلى تربة في ٢٤ شعبان سنة ١٣٣٧ وبات ليلته فيها فلم تمهله العشائر التي استثارها حماس الدعوة الدينية في نجد من قبائل عتيبة وسبيع والبقوم، بل فاجأته على غرة ووضعت السيوف في جيشه، ولم تترك سبيلاً للفارين إلا نفراً قليلاً استطاعوا النجاة بأنفسهم وكان من بينهم القائد والأمير عبدالله.

وفي هذه الأثناء كان الإمام عبد العزيز (الملك فيما بعد) قد زحف على رأس جيوشه إلى تربة، فوافته قبل أن يصلها أخبار هزيمة الجيش الهاشمي فيها، فمضى في طريقه حتى دخلها.

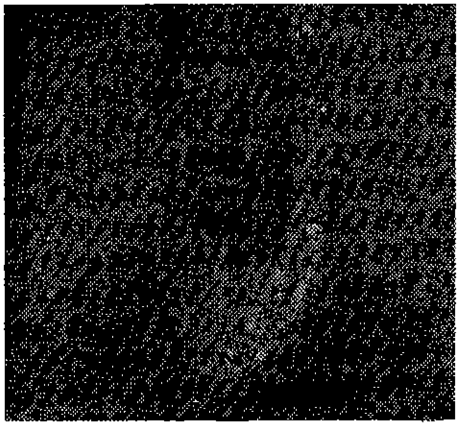
وأهلَّ عام ١٣٣٨ والعلاقة بين الحسين ونجد على أشد ما تكون سوءاً، وحلت أشهر الحج فأعلن منع النجديين من الحج واستمر على ذلك في العام الذي يليه، ثم توسط الحلفاء بينه وبين جيرانه فأذن لهم في عام ١٣٤٠ بالحج على أن يكون عددهم محدوداً فقبلوا، ثم عادوا في سنة ١٣٤١ يطلبون الإذن لقدر غير محدود فعاد الحسين إلى إبائه وأعلن منعهم من الحج إلا إذا أخلوا البلاد التي اكتسبوها في

الحدود، وتوسط الحلفاء فهيؤوا مؤتمراً في الكويت يجمع بين مندوبي الحسين وأولاده في العراق والأردن فلم ينجح المؤتمر وانفض المندوبون على غير وفاق، وسنعود إلى تفصيل ذلك في البحث عن العهد السعودي الثاني [١].

(١) كان من أهم أسباب الخلاف أن ابن السعود اشترط في المؤتمر ألا يتضامن مندوبو الحجاز والعراق والأردن، ليستطيع مفاوضة كل على حدته كما أن مندوب الأردن اشترط للمفاوضة أن تعود حائل لآل الرشيد وأن تنسحب جنود نجد من تربة وسائر الأراضي الحجازية التي احتلها النجديون (جزيرة العرب في القرن العشرين ٢٤٧).

سقوط الطائف

وظل الخلاف على شأنه في عام ١٣٤٢ بين الحسين ونجد، كما ظل طريق الحج أمام النجديين مقفلاً، فاقترح المتصلون بابن السعود أن يحاول الهجوم على الطائف لعله ينجح في الاستيلاء عليه فيستطيع أن يساوم الحسين عليه، كما يستطيع أن يتبين موقفه منه، كما يتبين موقفه من الحكومة البريطانية حليفة الحسين بعد أن يحتل الطائف.



الإمام عبدالعزيز في هذا العهد (الملك فيما بعد)

يقول الأستاذ حافظ وهبه [1] وكان من كبار المستشارين في بلاط ابن السعود في نجد: «لم يكن لجلالة الملك ابن السعود أي فكرة عن غزو الحجاز وفتحه حتى سنة ١٩٢٣ لأنه لم يكن واثقاً تمام الوثوق بإمكان تغلب قواته على الحجاز، وثانياً لأنه لم يكن واثقاً من موقف الحكومة البريطانية. ويحق له أن يحسب لموقفها ألف حساب فهي التي طالبته بترك الحجاز والرجوع إلى نجد سنة ١٩١٩م بعد ضرب القوات الشريفية في تربة، وقد كان في إمكان قواته في ذلك الوقت أن تتقدم وتستولي على الطائف ومكة لولا إنذار إنكلترا له بأنها تعتبر تقدمه في الحجاز عملاً عدوانياً موجهاً ضدها». ثم يقول [2] وهو يشير إلى حركة الإخوان الأخيرة للاستيلاء على

(١) في كتاب جزيرة العرب ص ٢٥٠.
(٢) المصدر نفسه ٢٥١.

الطائف : «لقد كنت موقناً بأن الإخوان سيتغلبون على قوة الشريف وموقناً بأن إنكلترا ستقف موقف الحياد لأن سياسة ابن السعود إزاءها كانت سياسة مجاملة تامة وودية للغاية» .

ويعلل الأستاذ قدرة الإخوان على التغلب على قوة الشريف بانتقالهم من البادية إلى سكنى الحضر وتشربهم بروح الدين والتعصب ضد كل من خالفهم .

ومضى عام ١٣٤٢ وكان عيد الأضحى ، فقدم إلى الرياض للمعايدة رؤساء الإخوان من أهل الخرمة وعتيبة والغطغط ، فعرض ابن السعود عليهم فكرة غزو الحجاز فهشوا وبشوا للمشروع ؛ لأنهم سيطهرون بيت الله وينشرون الدين الصحيح ، ولأنهم سيغنمون الأموال التي ذاقوا حلاوتها في تربة كما سيغنمون أجر الجهاد[١] .

وبذلك بدأت القبائل تجهز جيوشها وترسلها إلى مكان الاجتماع المختار في تربة في هدوء لم يشعر به الأشراف في مكة والطائف إلا بعد أن اتصلت السرايا الأولى بالقرب من الطائف في أوائل صفر سنة ١٣٤٣ .

كان رجال الحملة لا يزيد عددهم على بضعة آلاف بقيادة خالد ابن لؤي[٢] وسلطان بن بجاد ، فاحتلوا مخفر كلاخ شرقي الطائف ثم تقدموا إلى مخفر الأخيضر دون أن يجدوا مقاومة تذكر[٣] ، وكان في الطائف نحو ٥٠٠ جندي

(١) جزيرة العرب للأستاذ حافظ وهبة ص ٢٥٢ .

(٢) من غرائب المصادفات أن يقود الحركة النجدية ضد الأشراف بمكة في العهد السعودي الأول أحد أقرباء أمير مكة هو عثمان المضايفي ، ويقودها في العهد الثاني أحد أقرباء الحسين وهو خالد ابن لؤي . اختلف كل في عهده مع أميره القائم وساعد نجداً ضده واستطاع أن يستولي على مكة في ظروف تتشابه كيفيتها وحركات جيوشها تشابهاً كامل العناصر .

(٣) الثورة العربية لأمين سعيد ص ١٨٣-٣ .

نظامي يقودهم صبري باشا وزير الحربية والقائد العام للجيش الحجازي، وبعض الحرس الخاص وعلى رأسهم أمير الطائف شرف بن راجح، فحاولوا الدفاع عن الطائف ولكنهم شعروا بضعفهم وقلة ذخيرتهم.

واتصل الخبر بالحسين في مكة فندب ابنه الأمير علي وكان قد جاءها من المدينة حاجاً على رأس قوة نظامية تبلغ نحو ٨٠٠ جندي نظامي و٤ مدافع جبلية و٨ رشاشات فأسرع على رأس قواته عن طريق ثنية (كرا) إلى وادي المحرم فبلغها يوم ٥ صفر، وبذلك دخل الطائف فبات ليلة ثم ما لبث أن غادره في اليوم الثاني ٦ صفر عندما أحس برصاص النجديين يخترق أسوار البلدة، وكان يؤمل أن يستجمع قواه في الهدا [١] ثم يكر بها من جديد.

وبخروجه من الطائف هجم بعض الأهالي على أبواب السور وفتحوها للمهاجمين معلنين أنهم لا يريدون الحرب، فاقتحم الإخوان الطائف بقوة السلاح، فكان يوماً استاء له (الإمام عبدالعزيز) وأمر فيما بعد أن يُعوَّض المنكوبون.

وترك العنف أثره في هبوط معنوية الجيش المدافع في (الهدا)، وتملك الخوف أفراده ووجد رجال الحرس والبدو في بعض بوادي الطائف أن الفرصة سانحة للنجاة بأرواحهم والاستفادة منها، فانحازوا إلى المهاجمين واختلطوا بهم في الطائف وشاركوا في أعمالهم، ورأى الأمير علي نفسه مضطراً إلى التراجع فانهزم بجيشه إلى الهدا وهي على بعد كيلومترات من وادي المحرم فما لبث الجيش النجدي أن هاجمه فى الهدا في ٢٦ منه فاستأنف التراجع إلى «بازان» بعد أن تبين له أن لا فائدة من الثبات، خصوصاً وقد ظهر له أن أكثر عربان الجهة وفي

(١) تأريخ نجد الحديث ص ٣٠٠

مقدمتهم «طويرق» قد انحازوا إلى المهاجمين واستطاعوا أن يصلوا الجيش الهاشمي برصاصهم في شبه حركة التفاف [1].

ولا جديد في هذا، فأوضاع البادية أو فقرها إذا شئت كثيراً ما يهيئها للانحياز إلى الطرف الغالب الذي تستطيع الاستفادة منه والكسب.

وتوالت الهزيمة وزاد عدد المنتمين إلى الجيش المهاجم واتصلت الأخبار بمكة سيئة مفزعة فارتفعت بعض الأصوات تنادي بطلب السلاح من الحسين لمقاومة الهجوم، ولكن الحسين لم يجرؤ على توزيع السلاح خوفاً على حياته من الهائجين وبينهم الكثير الذي بات لا يرضى عن قسوته في الحكم.

وزحف بعض الصائحين إلى دار الحسين يطالبون أن يلجأ بالإنكليز لحمايته، فصرخ مستنكراً واجتمع الشريف عبدالله ابن أخيه محمد بقاضي القضاه الشيخ عبدالله السراج ورئيس الديوان العالي السيد أحمد السقاف وبحثوا الحالة ثم رفعوا تقريرهم إلى الحسين بأن يبرق إلى الإنكليز لتدارك الحالة فأبى ذلك عليهم.

وتوالت الاجتماعات بالحسين حتى تقرر الانسحاب إلى جدة فبدؤوا بإرسال النساء والأطفال ومن بينهم عائلة الحسين نفسه [2].

تنازل الحسين ومبايعة علي: وانسحب أكثر الأهالي في مكة إلى جدة خوفاً من أن تتكرر مأساة الطائف في مكة، وبقي الحسين في مكة، يثير الحماس فيمن حوله، بينما ظل جيش الإخوان في مواقعه من الهدا والطائف لا يريم عنه انتظاراً لوصول الأوامر الأخيرة من إمام نجد.

وباجتماع أعيان مكة بإخوانهم من الأعيان في جدة رأوا أن يتدارسوا الحالة،

(١) الثورة العربية لأمين سعيد ١٨٥-٣

(٢) المصدر نفسه ١٨٦ -٣

فاجتمعوا لذلك وبعد أن تداولوا الرأي قرروا استدعاء علي بن الحسين من مكة، فلما انتهى إليهم في ٤ ربيع الأول أبلغوه أن الأمة الحجازية ممثلة في مجلس أعيانها المؤقت قررت خلع والده ومبايعته حقناً للدماء، فأبى قبول البيعة مراعاة لكرامة والده فأبرقوا إلى الحسين بما يأتي:

«بما أن الشعب الحجازي بأجمعه واقع الآن في الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن المحافظة على الأرواح والأموال، وبما أن الحجاز يعنى بأمره عموم المسلمين؛ لذلك فإن الأمة قررت نهائياً تنازل جلالة الشريف حسين وتنصيب ابنه علي ملكاً على الحجاز فقط مقيداً بالدستور، على شريطة أن ينزل على رأي المسلمين المادي والمعنوي، وأن يكون للبلاد مجلسان: أحدهما نيابي وطني لإدارة الأمور الداخلية والخارجية والآخر شوري يتكون من أعضاء نيابيين منتخبين من المسلمين على اختلاف بلادهم ومهمته الإرشاد والمساعدة على إصلاح الشؤون الداخلية والخارجية. والله الموفق لما فيه الصلاح. ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣».

الموقعون: السيد طاهر الدباغ، عبدالله علي رضا، سليمان قابل، محمد طويل، مصطفى إسلام، ناصر بن شكر، شرف بن راجح، محمد صالح باناجة، محمد نصيف، عبدالله الصغير، علي محمد سلام، أبو بكر باغفار، محمد نور جوخدار، أحمد ناظر، حمزة شيت، سليمان أبو غلية، حمزة جلال بابلي، هاشم بن سلطان، سليمان أبو داود، عبد الرحمن إبراهيم زامكة، أحمد حماد، محمد سرور الصبان، عابد مقادمي، عبد الرحمن باجنيد، عثمان باعثمان، أمين سنباوه، حسين محمد نصيف، أحمد بن عبد الرحمن [1].

---

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٨٧ - ٣.

وقد أجابهم الحسين بالموافقة على التنازل وعدم رضاه بمبايعة علي، ولكن المجلس الذي شكلته الحوادث الجسام كان عملياً حازماً، وكانت قراراته لا تقبل الجدل، فقد تقدم أحدهم (السيد طاهر الدباغ) إلى التلفون وأفهم الحسين أنه لا عدول عما تقرر، فلم يقبل الحسين، فطيروا إليه برقية يقولون فيها: «نسترحم تنازلكم وإلا فدماء المسلمين على عاتقكم» فلم يسع الحسين إلا القبول [1].

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٨٨ - ٣ وتاريخ نجد الحديث ص ٣٠٥ وما بعدها.

في عهد الملك علي

وعلى أثر ذلك اجتمع الناس في دار الحكومة بجدة وحضر الأمير علي فبايعوه ملكاً دستورياً على الحجاز وذلك يوم ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ وألقى السيد طاهر الدباغ الخطبة الآتية:

«بناء على طلب الأمة قد تنازل جلالة والدكم، وذلك بموجب برقيته المؤرخة في ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ رقم ٦٩، وقررت الأمة نهائياً البيعة لجلالتكم ملكاً دستورياً على الحجاز فقط، على شريطة أن تنزلوا على رأي الأمة في تحقيق آمالهم ورغباتهم في إصلاح شؤون البلاد المادية والمعنوية، وأن يكون للبلاد مجلس نيابي وطني ينتخب أعضاؤه من عموم الأقطار الحجازية، بموجب قانون أساسي تضعه جمعية تأسيسية كما هو جار في الأمم المتحدة، ومهمته إدارة الأمور الداخلية والخارجية بواسطة وزارة دستورية مسؤولة أمام المجلس، وحيث إن الوقت ضيق الآن عن تشكيل المجلس الوطني النيابي فقد رأت الأمة أن تشكل هيئة لمراقبة أعمال الحكومة حيث لا يمكن لها إجراء أي عمل بدون تصديق الهيئة وموافقتها، وإننا نبايعك على ذلك وعلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله».

وعلى أثر انتهاء الحفل أرسل السيد طاهر الدباغ البرقية الآتية إلى الحسين:

«بحمد الله ومساعي مولاي قد تمت البيعة لجلالة نجلكم المعظم، وقد فاوض جلالته من يلزم في تسليم البلاد وإدارة شؤونها، فالمنتظر من مولاي مبارحته البلاد بكل احترام تهدئة للأحوال».

ولما وصلته هذه البرقية أجاب عليها بالبرقية الآتية وقد أرسل نسخاً منها إلى أعضاء هيئة جدة كلا باسمه:

«مع الممنونية والشكر، هذا أساس رغبتنا التي أصرح بها منذ النهضة وإلى تاريخه وقد صرحت قبله ببضع دقائق. أني مستعد لذلك بكل ارتياح إذا عينتم ذاتاً غير علي وإني منتظر هذا بسرعة وارتياح؛ لأنه ليس لي غاية إلا راحة البلاد وسكانها وكل ما يستلزم سعادتها».

ولما اطلع الحسين على خطبة البيعة وما نص فيها من وضع دستور للبلاد وإنشاء مجلس نيابي منتخب أرسل إلى قائمقام جدة الكتاب الآتي:

«وفقت على بلاغ فخامة قاضي القضاة نائب رئيس الوكلاء البرقي الصادر في ٥ ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ وعدد ٤ لقائمقام القصر العالي، المتضمن أن هيئة جمعية جدة تشير إلى رغبة اعتزالي عن المصلحة، الأمر الذي صرحت بإنفاذه نزولاً عند رغبة الأهالي، أو أبسط مقتضى بكل ارتياح وانشراح من أول عام نهضتنا ولم أزل أصرح به إلى تاريخه، وإن رغباتي ومقصدي هي محصورة في راحة عموم البلاد ورفاهيتها وسعادتها باستقلالها التام، ولا يهمني تقليد أمر رئاستها لأي شخص كان وإنها وجهت مقامها لابني، على شرط أن يكون أمر حكومتنا الحجازية ونفوذها محصورا في منطقة الحجاز فقط، وأن حكومته دستورية، وعليه ولكون نهضتنا مؤسسة أولا على استقلال البلاد العربية المصرح بحدودها ثم العمل في أقطار الحرمين الشريفين بأحكام كتاب الله وسنة رسوله، فتحديد سلطة الحجاز الجاري مخابرات أولي الشأن معه إلى هذه الساعة في شؤون استقلال العرب ببلادهم، ولو لم يكن في هذا التحديد الا تأملنا في مساعي الحضرة السعودية باستيلائها على حائل قاعدة إمارة الرشيد والجوف مقر آل الشعلان، وتشبثه في ضبط الكويت، وتعرضه لغير امارة آل عايض، بل تجاوزه إلى مكة المكرمة، ومساعي إمام صنعاء لضم بلاده (حاشد) وتهامة

والشوافع، وحضرة الإدريسي على الحديدة وما حولها وجعله أي -الحجاز- حكومة دستورية ينبذ فيها العمل سيما الحرمين الشريفين بأحكام كتاب الله وسنة رسوله، للعمل فيها بالقوانين البشرية، وما تأباه شعائر الإسلام وفرائض الدين والأخلاق الشريفة مادة ومعنى، وهذا علاوة على مخالفة ذلك لأساس نهضتنا التي سفك في سبيلها الحجاز خصوصاً والعرب عموماً دماءهم وأموالهم وأنفسهم، لنيل هاتين الغايتين الشريفتين المقدستين.

وعليه تبلغوا هيئة الجمعية الموقرة المذكورة وكل من يقتضي إبلاغه احتجاجي القطعي أولاً على تحديد نفوذ الحجاز كما ذكر بما ينشأ عن قطعية العرب وحرمانهم من حقوقهم الحيوية الأساسية. والثاني ما في إبدال العمل بكتاب الله وسنة رسوله. ولذا فإني أحتفظ حقوق اعتراض وإنكاري مادة ومعنى بكل ما ذكر ولذا تحرر[(١)]».

الحزب الوطني الحجازي ومبادؤه: كان قد انبثق عن اجتماعات جدة حزب كوّنه المجتمعون قبيل مبايعة الأمير علي وأطلقوا عليه (الحزب الوطني) واستنوا له المبادئ الآتية:

١ - السعي بكل الوسائل لحفظ البلاد من الكارثة الساحقة المحدقة بها.

٢ - السعي لجعل البلاد دستورية إسلامية سالمة من شوائب الدسائس والنفوذ الأجنبي.

٣ - النزول على ما يرتئيه العالم الإسلامي لمصلحة البلاد والعباد وكيفية إدارة البلاد.

---

(١) تاريخ نجد الحديث ص ٣٠٦.

وتم تشكيل إدارة الحزب على النحو الآتي :

الشيخ محمد الطويل : رئيساً .

محمد طاهر الدباغ : سكرتيراً عاماً .

قاسم زينل : خازناً، عبدالله رضا ، صالح شطا ، عبدالرؤوف الصبان ، الشريف شرف بن راجح ، سليمان القابل ، محمد نصيف ، محمد صالح نصيف ، محمود شلهوب ، ماجد كردي : أعضاء .

ووزع الحزب على الأمة بعد تأسيسه نشرة جاءفيها : «إن المأزق الحرج الذي وقعت فيه البلاد دفع الأمة إلى التفكير فيما يجب عمله لدرء الخطر الداهم ، وأن تتولى أمر نفسها بنفسها ، وأن تسعى بكل الوسائل لحفظ البلاد والعباد ، ولأجل أن تكون الأعمال في يد قادة صالحين للعمل مفكرين فيما يجب عليهم نحو وطنهم المحبوب . تشكل حزبنا الوطني الحجازي من ذوي الأفكار السامية والنظر الثاقب ، وانتخبوا من بينهم ١٢ عضواً للقيام بالأعمال التي توجبها الحالة الحاضرة ، وقد باشروا -ولله الحمد- عملهم وسيسيرون على مبادئ الحزب القويمة التي يتفانون لأجلها ، وقد عاهدوا الله سبحانه وتعالى وأقسموا بعظيم آياته ألا يدعوا صغيرة ولا كبيرة من الأعمال العائدة لمصلحة البلاد إلا فعلوها بقدر استطاعتهم ، وكل ما يرغبون من الأمة الحجازية أن تتذرع بالصبر وأن تضع ثقتها في الحزب ورجاله المخلصين» .

وجاء في نشرة أخرى: «إن الحزب يقوم بالنيابة عن الأمة في الوقت الحاضر والمستقبل[1]».

بيان للعالم الإسلامي: وفي يوم البيعة ٥ ربيع الأول سنة ٤٣هـ و ٢٤ أكتوبر ١٩٢٤م أرسل الحزب الوطني إلى صحف مصر بياناً وقعه السيد محمد طاهر الدباغ سكرتيره وقد جاء فيه:

«بما أن الشعب الحجازي بأجمعه الواقع الآن في الفوضى العامة من فناء الجيش المدافع وعجز الحكومة عن المحافظة على الأرواح والأموال، وبما أن الحرمين الشريفين خاصة وعموم البلاد الحجازية عامة مستهدفة لخطر ماحق، وبما أن الحجاز بلاد مقدسة يعني أمرها عموم المسلمين؛ لذلك فإن الأمة قررت نهائياً وأجبرت الشريف حسيناً على التنازل عن عرشه ولينسحب إلى حيث يرغب من البلاد لإقامته. وبالنسبه لما يخشى حدوثه من الاضطرابات الداخلية وهياج الرأي العام فقد رأت الأمة أن تبايع صاحب الجلالة علياً الأول ملكاً دستورياً على الحجاز فقط، على شرط أن ينزل على رأي الأمة الإسلامية فيما يؤول إليه صلاح هذا البلد الأمين، وقد أرسلت الأمة خطاباً إلى الإمام ابن السعود للمفاوضة وأن الشعب الحجازي بعد هذا التبليغ والإجراء يلقي كل مسؤوليته على عاتق المسلمين إذا لم يسارعوا في إنقاذ البلاد بإيقاف جيوش الإمام ابن السعود لإتمام المفاوضة واتخاذ الإجراءات الفعالة لحفظ البلاد[1]».

إلى ابن السعود: وكان الحزب قد أرسل في الوقت نفسه إلى عظمة السلطان

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ١٩٢ - ٣ .

عبدالعزيز بن سعود في الرياض الكتاب الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة صاحب العظمة السلطان عبدالعزيز بن سعود

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فإننا معاشر العرب أمة واحدة شرفنا الله بدين الإسلام، وأن البلاد الحجازية التي هي منبع النور الإسلامي هي البلاد المقدسة عند عموم الناس أجمعين وفيها حرمه الأمين وقبلة المسلمين والمشاعر العظام، وقد حدث بينكم وبين الشريف الحسين من النفور والمنازعات بأسباب عائدة لشخص الحسين وليس للأمة والبلاد أدنى دخل في الأمر؛ لأن السلطة المطلقة كانت في يده ولا يعمل إلا بما يريده، بل قد احتكر الكلام عن لسان أهلها بما لا يريدونه، ونسب لهم ما لا يوافقون عليه وأوجد العداء بينهم وبين الأمم المجاورة بهم من سكان نجد وخلافها بلا سبب مع اتحادهم في الدين والمذهب، حتى أدى إلى سفك الدماء البريئة. فلما بلغ السيل الزبى هب الشعب الحجازي المجتمع في جدة من أهلها وأهل مكة والطائف والأشراف والأعيان والعربان من عموم الطوائف الإسلامية الموجودة في الحجاز، وكلفوا الشريف حسينا بالتنازل عن ملكه لما ظهر من امتناعه عن تلافي هذا القتال بالطرق السياسية، وبايعوا ابنه سمو الأمير علياً ملكاً على الحجاز فقط بشرط أن ينزل على رأي الأمم الإسلامية، فلبناء هذه الأمة وباسم الإسلام الذي قمتم لنصرته وأوقفتم حياتكم برفعة شأنه وعلو مكانته نخاطبكم ونرغب من شهامتكم العربية الأمر بإيقاف الجيوش عن آخر نقطة وصلت إليها والموافقة على إرسال المندوبين من طرفنا للمفاوضة معكم فيما يجب عمله نحو هذه البلاد المقدسة لحفظ الأرواح والأموال وتأمين البلاد التي قال فيها سبحانه وتعالى ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ

﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (سورة القصص آية ٥٧) وقال فيه ﷺ. «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس وإنما أحلت لي ساعة من نهار فلايحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً أو يعضد بها شجرة» إلى آخر الحديث(*) أو كما قال، وقد قال ﷺ لعتاب بن أسيد حين ولاه مكة: «أتدري على من وليتك؟ وليتك على أهل الله فاستوص بهم خيراً»(**) ونحن نقرر بما تقرون به من الإيمان والإسلام والتوحيد والتمسك بالكتاب والسنة ونشهد أن الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وقد رفعنا الأمر إلى جميع الأمم الإسلامية واحتكمنا إليها فيما يتكون عليه حالة الحرمين الشريفين. هذا ونلتجئ إلى الله تعالى ثم إلى عدلكم وشهامتكم أن تأمروا بإجابة رغائب الأمة الحجازية المستعدة لقبول طلباتكم العادلة والله على ما نقول وكيل، وإننا نحمد الله أولاً وآخراً والسلام».

وأبطأ وصول الجواب من السلطان فأبرق الحزب برقية بما حواه الكتاب فأرسل إليه السلطان يوم ٢٦ منه البرقية الآتية:

(*) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: الإذخر ٢ / ١١٥ - ١١٦. وكتاب: المحصر وجزاء الصيد، باب: فضل الحرم: ٢ / ١٨١، وكتاب: البيوع، باب ما قيل في الصواغ ٣ / ١٨، وكتاب: الوصايا، باب إثم الغادر للبر والفاجر، ٤ / ١٢٧ ومسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب تحريم مكة ٢ / ٩٦٨. والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب حرمة مكة، ٢ / ١٦٠ - ١٦١ وأحمد في مسنده ١ / ٢٥٣، ٢٥٩، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨.

(**) الحديث رواه الفاكهي في أخبار بلفظ مختلف، ولفظه: «هل تدري إلى من أبعثك؟ أبعثك إلى أهل الله... إلخ» وبلفظ ثان: «هل تدري على من أستعملك؟ أستعملك على أهل الله. انظر أخبار مكة للفاكهي ٣/ ٦٤-٦٥ وشفاء الغرام للفاسي ١/ ٨٦، والسيوطي في المعجم الكبير ١/ ٨٦٠، وعزاه الطبراني في المعجم الكبير، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٣٣٩-٣٤٠. كما ذكره عز الدين ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمة عتاب بن أسيد، ولفظ الحديث فيه: «يا عتاب، أتدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله عز وجل، ولو أعلم لهم خيراً منك استعملته عليهم» أسد الغابة ٣/ ٥٥٦.

«وصل تلغرافكم العمومي، أما رسالتكم الرسمية الخاصة المتعلقة بالصلح فلم تصل. لا يمكن نشر روح السلام في الجزيرة مطلقاً ما دام الحسين وأولاده حكام الحجاز، لا نقصد الطمع في امتلاك الحجاز والتسلط عليه لهذا فهو متروك للعالم الإسلامي وهذا ما نراه من البداية بتلك البلاد المقدسة، وإذا أخرج الحسين وأولاده فأنتم آمنون في بلادكم ولقد أرسلنا التعليمات المتعلقة بذلك إلى رؤساء جيشنا»(١) .

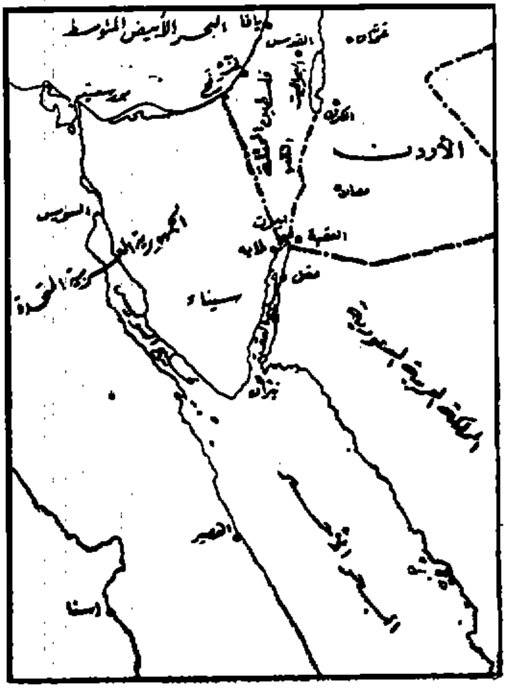
الحسين يغادر الحجاز: ما إن قبل الملك علي البيعة في جدة يوم ٥ ربيع الأول حتى أرسل يبلغ السلطان ابن السعود ما وقع ويطلب وقف القتال، ثم عاد إلى مكة في يوم ٧ منه فأقام بجوار والده حتى يوم ١٠ منه وفي يوم ١٠ غادر والده مكة قاصداً جدة فظل فيها أربعة أيام وفي يوم ١٤ منه غادرها بالباخرة الروضتين إلى العقبة(٢) تصحبه عائلته وخدمه وأمير الألاي عثمان بك التركي مدير الأمن

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد، ١٩٤-٣.

(٢) المعروف أن العقبة كانت من أملاك الحجاز، وقد رأى البريطانيون أن يستفيدوا من استراتيجيتها بعد الحرب العامة الأولى فوضعوا فيها بعض قواتهم فاحتج الحسين على ذلك، ولما تأسست إمارة شرقي الأردن تحت إدارة ابنه الأمير عبدالله رأوا أن يستغلوا الموقف فأوعزوا إلى ابنه أن يطلب إلى والده أن يتنازل عنها لشرقي الأردن فأبى الحسين ذلك بحجة أن شرقي الأردن لم تستقل بعد عن الإدارة البريطانية، ولكن الأمر تمادى وظلت باقية تحت إشراف الأردن باسم المفاوضات حتى هوجم الحجاز وخرج منه الحسين ليستقر في العقبة ولينصرف بعدها إلى حشد المتطوعين وإرسالهم إلى جدة لمساعدة ابنه فيها؛ مما جعل البريطانيين يشعرون بالحرج فطلبوا إليه أن ينتقل إلى قبرص بعيداً عن مواطن الإحراج فأبى وأصر على إبائه، ولكنه ما لبث أن رجع وقَبِلَ الانتقال بعد أن أقام في العقبة خمسة أشهر. وقد عاش في قبرص نحو ست سنوات مرض بعدها مرضاً شديداً ثم زاد فأثقل عليه المرض فنقله ابنه الأمير عبدالله إلى عمان حيث توفي فيها، ثم نقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن رحمه الله في مسجده، وقبره معروف هناك.

العام بعدما طلب إلى نجله ترفيعه إلى رتبة أمير لواء ففعل[1] .

لا يستنجد بالإنجليز: وأعلن الحسين قبل سفره من جدة أنه لم يستنجد بالإنجليز ولم يطلب مساعدتهم في القتال الدائر بينه وبين ابن السعود، وقال إن كل ما في الأمر هو أنه كلف وكيله في لندن أن يلفت نظر ولاة الأمور البريطانيين إلى أعمال ابن السعود ليقابلوها بما كانوا يقترحونه عليه من عدم إزعاجه أو مبادأته بالعدوان[2] .



خريطة تبين موقع ميناء العقبة

الملك علي يجلو عن مكة: وساءت الحالة بعد خروج الحسين من مكة وتواترت الأخبار بأن الجيش السعودي يتقدم إليها من طريق السيل وما كانت قوات الحكومة في مكة تزيد عن ٣٠٠ جندي نظامي يضاف إليها ٢٠٠ شرطي وقسم من بيشة وعقيل، ولا تملك من العتاد إلا ٤ مدافع جبلية و ٥ رشاشات خفيفة و ٣ رشاشات ثقيلة . ومع أن هذه القوة ما كانت تكفي لأي عمل عسكري فقد أرسلت بأمر الملك الجديد إلى وادي فاطمة لضرب الأشراف الحرّث وتأديبهم فأدت مهمتها وقتلت شقيقَ الشريف عليٍّ الحارثي زعيمهم، كما قتلت أخاً ثالثا له

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٢٩٥-٣ راجع تاريخ نجد الحديث للأستاذ أمين الريحاني ٣٠٨ .
(٢) الثورة العربية الكبرى ٢٩٥ .

وقادته هو إلى مكة .

وغادر اللواء صبري باشا وكيل الحربية مكة يوم ١٣ منه إلى جدة للإشراف على الحالة فاجتمع اللواء إلى رجال الحزب الوطني فأبلغوه أنهم يرون الجلاء عن مكة فلا يسفك دم في منطقة الحرم، ولما أبلغ هذا القرار إلى الملك علي وافق عليه فغادر مكة يوم الإثنين ١٤ ربيع الأول فبلغ جدة ليلة ١٦ منه من رجاله وفي يوم ١٧ منه[١] وصلت فرقة النصر المؤلفة في عمان بقيادة تحسين الفقير فانضمت إلى القوى الموجودة في جدة وأخذت تعمل في إقامة خطوط الدفاع حول البلدة وتحيطها بالأسلاك الشائكة وتعد معدات القتال[٢] .

الإخوان في مكة: وما كاد الجيش الهاشمي يغادر مكة ويتركها مفتوحة خلفه حتى كانت جحافل الإخوان تأخذ طريقها إليها . . دخلوها في يوم ١٧ ربيع الأول ١٣٤٣هـ ونادوا فيها بالأمان ثم اجتمع علماؤهم بعلماء مكة وتباحثوا وإياهم في مسائل الخلاف، ثم نادى مناديهم بضرورة هدم القباب التي تعلو بعض القبور فهدمت، وضرورة إبطال البدع وتحريم شرب الدخان فحُرِّم شربه . وتولى شؤون الحكم في مكة على أثر دخولها (الشريف خالد ابن لؤي) أحد قواد الجيش الفاتح - من أقرباء الملك الراحل كما أسلفنا - وظل الجيش مرابطاً في أعاليها (الأبطح) عدة أشهر .

الحزب الوطني يستصرخ: وعلى أثر دخول الإخوان إلى مكة بعد جلاء الهاشميين عنها أرسل رئيس الحزب الوطني في جدة في ١٨ منه إلى رجال العالم

(١) راجع تاريخ نجد الحديث ٣١٨ .

(٢) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٩٥ .

الإسلامي بالبرقية الآتية:

«سحبت الجيوش إلى جدة احتراماً للحرم وحقناً للدماء ودخلت الجيوش السعودية مكة بسلام.. نؤمل اهتمام العالم الإسلامي بإرسال الوفود، إن وساطة المسلمين هي غاية ما ترجوه الأمة.. نكرر استنجادنا بالمسلمين الغيورين على الحرمين»[1].

خطاب ابن السعود: في هذه الأثناء وقبل أن يصل السلطان عبدالعزيز إلى مكة كان قد بعث بخطاب إلى الحجاز قرئ في مكة ثم انتقل إلى جدة وهو كما يأتي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن إلى كافة من يراه من إخواننا أهل مكة وجدة وتوابعها من الأشراف والأعيان والمجاورين من السكان وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه آمين.. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

أما بعد، فإن الموجب لهذا الكتاب هو شفقتنا على المسلمين لصلاح أحوالهم وأمر دينهم ودنياهم، ولم نزل نكرر على الحسين النصائح ونحرضه على ما يجمع شمل العرب لتكون كلمتهم واحدة، ولكن الطبع غلب التطبع ولا يحتاج تطويل الشرح بما انطوى عليه؛ لأن أكبر شاهد على ذلك ما رأيتموه منه وشاهدتموه من أقواله وأفعاله في هذه البقاع المباركة التي هي مهبط الوحي مما ينكره عقل كل مسلم، وعلاوة على ذلك ينكره كل من يحب المسلمين ولو لم يكن منهم، فالرَّجَّال ترك مزايا الأنصار وهي ما انتسب لهذا البيت الكريم،

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ١٩٥.

وأهمل حقوق هذه البقعة المباركة عليه، ونسي طريقة السلف الصالح التي هي شرفه وشرف المسلمين خصوصاً وشرف العرب عموماً، ولا شك أن من ترك ما كان عليه النبي -عليه الصلاة والسلام- وخلفاؤه وأصحابه وهو يتسمى باسم الإسلام وبالخصوص إن كان من أهل البيت الشريف وطمع إلى غيرها من الزخارف التي هي أكبر شؤم على الإسلام خصوصاً وعلى العرب عموماً فهو لا خير فيه، فمنذ دخل الحجاز جعل أكبر همه الإيقاع بنجد والنجديين، وقد تظاهر بذلك واضحاً منذ أن تفرد بالحكم، وقبض على زمام الأمور فيها وقد بلغ من التهور أن منع أهل نجد قاطبة من حج بيت الله الحرام وهو أحد الأركان الخمسة، فضلاً عما له من المظالم والمعاملات القاسية تجاه حجاج بيت الله الحرام الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها .

ومن هذه المدة قد تركنا التدخل في أمور الحجاز لأجل احترام هذا البيت ورجاء للسلم والأمان، ولكن مع الأسف إننا لم نحظ بذلك منه، وفي هذه الأيام الماضية في سفره إلى الأردن بانت نواياه ومقاصده للمسلمين نحونا، حينما طلب تجزئة بلادنا وتشتيت شملنا، حتى لقد يئسنا من الوصول إلى حسن التفاهم معه لجمع كلمة العرب، ووالله لا نعلم شيئاً له من النقم علينا إلا كما قال تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سورة البروج آية ٨) ولكننا ولله الحمد لسنا متأسفين على شيء إذا سلم لنا شرفنا في أمر ديننا ودنيانا، فليس لنا قصد في زخارف الحسين وأتباعه لا في ملك ولا خلفه، ولكن غاية قصدنا وما ندعو إليه هو أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر ويسلم شرف العرب، فلذلك لحقتنا الغيرة الإسلامية والحمية العربية أن نفدي بأموالنا وأنفسنا ما يقوم به

دين الله ويحمي به حرمه الشريف الذي أمر الله بتطهيره وتعظيمه واحترامه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (سورة الحج آية٢٦) وقد أرسلنا سرية من المسلمين لاحتلال الطائف لأجل القرب للتفاهم بيننا وبين إخواننا، فأحببت أن أعرض عليكم ما عندي فإن أجبتمونا فنعم المطلوب، وإن أبيتم فهذا الذي يعذرنا عند الله وعند المسلمين، وأبرأ إلى الله أن أتجاوز شيئاً مما حرمته الشريعة خصوصاً في هذا الحرم الشريف الذي قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (سورة الحج آية٢٥) وحرمة هذا البيت معلومة حتى عند المشركين الأولين كما قال الشاعر:

إن الفضول تعاقدوا وتعاهدوا ... ألا يقر ببطن مكة ظالم

وأما الأمر الذي عندي لكم فهو أني أقول: عليكم يا أهل مكة وأتباعها من الأشراف وأهل البلد عموماً والمجاورين والملتجئين من جميع الأقطار عهد الله وميثاقه على أموالكم ودمائكم وأن تحترموا بحرمة هذا البيت كما حرمه الله على لسان خليله إبراهيم ومحمد عليهما أفضل الصلاة والتسليم، وألا نعاملكم بعمل تكرهونه وألا يمضي فيكم دقيق ولا جليل إلا بحكم الشرع لا في عاجل الأمر ولا في آجله، وأن نبذل جدنا وجهدنا فيما يؤمن هذا الحرم الشريف وسكانه وطرقه والوافدين إليه الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وألا نولي من تكرهونه، وألا نعاملكم معاملة الملك والجبروت بل نعاملكم بمعاملة النصح والسكينة والراحة وألا يكون أمر هذين الحرمين الشريفين إلا شورى بين المسلمين، وألا يمضي فيها أمر يضر بهما أو بشرفهما أو بأهلهما إلا ما وافق عليه المسلمون،

وأمضته الشريعة، فهذا الكتاب شاهد لي وعلي عند الله ثم عند جميع المسلمين وعلى ما قلته أعلاه أيضاً عهد الله وميثاقه، فهذا الذي يلزمنا ولا بد -إن شاء الله تعالى- أن تروا ما يسر خواطركم أكثر مما ذكرنا، ونرجو الله أن يهدينا وإياكم لما يحبه ويرضاه، ويصلح بنا وبكم البلاد وإن شاء الله يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، ويمنعنا وإياكم من سوء الفتن، وأن ينصر دينه.

كتاب الحزب إلى الجيش السعودي: وعلى أثر هذا رأى أقطاب الحزب الوطني في جدة أن يتصلوا بقيادة الجيش السعودي بعد دخلوهم مكة ويتبادلوا معهم الرسائل علهم يصلون إلى حل، فأرسلوا إليهم يوم ٢١ صفر الكتاب الآتي:

من عموم أهل جدة وأهل مكة الموجودين بجدة إلى حضرة الأمير خالد بن منصور بن لؤي قائد الجيوش السعودية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: وصل إلينا كتاب الإمام عبدالعزيز ابن سعود والذي يخاطب به جميع أهل مكة وجدة يؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم، فأما ما ذكره عن الشريف حسين وما هو واقع بينهما فنفيدكم أن المذكور قد تنازل عن الملك إجابة لطلب الأمة وبارح البلاد، وبايع الناس ولده الشريف علي لما يعرفونه من حسن أخلاقه وحبه للمسالمة لعموم من في جزيرة العرب، واشترطوا عليه النزول على رأي المسلمين فيما يقررونه لسعادة البلاد واستقرارها. وحيث إن الإمام عبدالعزيز قد ذكر في كتابه أنه سيجعل أمر هذه البلاد المقدسة شورى بين المسلمين فقد اتفقنا -والحمد لله- نحن وإياه في نقطة واحدة ولا شك أن فيها المصلحة العامة لهذه البلاد المقدسة، فنرى أنه لم يبق موجب للقتال وسفك الدماء، وأصبح الحل المطلوب من الطرفين واضحاً جلياً وحيث الأمر كما ذكر نكلف سيادتكم بالموافقة على إرسال مندوبين من طرفنا

إليكم يكونون في أمان الله وأمان الإمام عبدالعزيز بن سعود وأمانكم لعقد هدنة توقف القتال وتصون الطرفين من سفك الدماء إلى أن تحضر الوفود التي طلبنا حضورها من جميع الأقطار الإسلامية وعلى الخصوص جمعية الخلافة بالهند، وقد ورد جوابها بأنها أرسلت المندوبين، وبعد اجتماع الوفود ننزل على ما تقرره وتراه. هذا ما ندعوكم إليه ونكلفكم بقبوله طبقاً لما جاء بكتاب الإمام عبدالعزيز، ولاشك أنكم توافقون عليه والله ولي التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1].

جواب خالد: وفي يوم ٢٢ منه تلقى الحزب الرد الآتي:

«من خالد بن منصور بن لؤي إلى محمد طويل وكافة الأعضاء:

السلام على عباد الله الصالحين أما بعد، خطكم وصل وفهمنا مضمونه بعده من طرف بيت الله الحرام وأتباعه، جاء الله به عنوة للمسلمين والذي يبغي يتعلق بالحسين بمحبة ومعاونة ماله عندنا إلا المقاومة بحول الله وقوته، وإن بغى علي بن الحسين الأمان فيقبل ويواجهنا مأمون والمجالس والمخابرة لها راعي وهو الإمام عبدالعزيز حفظه الله ورعاه.

ومع وصول الخبر يستوي علم زين ومقام علي عندكم من غير مواجهة بيننا وبينه نتيجة الفساد يكون معلوم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[2]».

جواب الحزب: وفي يوم ٢٣ منه ارسل الحزب الوطني الكتاب الآتي إلى خالد ابن لؤي:

(١) الثورة العربية الكبرى للاستاذ أمين سعيد ١٩٦ / ٣.

(٢) المصدر نفسه، ١٩٩/ ٣.

«وصل كتابكم وجميع ما به علم، وسنرسل لكم غدا أربعة أشخاص بالنيابة عن جميع الأهالي الموجودين بجدة للسلام عليكم وإفهامكم الحقائق وأخذ الحقائق منكم رأساً وأما ما ذكرتموه من المحبة والتعلق بالرجل فليس عندنا من هذا شيء، ولا لنا تعلق إلا بما فيه مصلحة المسلمين والله على ما نقول وكيل[1]».

سفر الوفد: غادر الوفد جدة يوم ٢٣ منه إلى مكة قد تألف من الشيخ محمد نصيف رئيساً، ومن المشايخ عبدالرؤوف الصبان، وعلي سلامه، وسليمان عزاية، ومحمود شلهوب، وصالح شطا يحمل توكيلاً من الحزب يخوله المفاوضة في كل ما يحقن الدماء.

الملك علي يقرر الدفاع: ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى الدعاية التي بثت تلك الأيام في جدة للعدول عن الدفاع، وحمل الملك على مغادرة البلاد وتسليمها إلى الجيش الزاحف. وكان قد وضع بعض أهل الحجاز مضبطة يوم ٢٣ ربيع الأول رفعوها إلى رئيس الوكلاء في الحكومة الحجازية يوم سفر الوفد يطلبون فيها التوسل عند جلالة الملك علي باسم الإنسانية بأن ينزل على رأي المسلمين الحجازيين بالرجوع عن الدفاع الذي استعد له. ولما رفعت المضبطة إليه أجاب أنه لا بد له من الدفاع عن بلاد آبائه وأجداده وهدد دعاة التسليم بالعقاب الشديد.

وعلى أثر ذلك أرسل الحزب الوطني الكتاب الآتي ليلة ٢٥ منه إلى وفده الذي توجه إلى مكة:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: وبعد، فقد قدمت مضبطة بإمضاء الأهالي بطلب عدم الدفاع، وكان الجواب اليوم نهائياً بأنه لا بد من الدفاع ولا سبيل لغير ذلك، وبعد عجزنا عن إقناعه بالنسبة لضعفنا وقوته طلبنا منه أن يكتب

(١) الثورة العربية الكبرى للاستاذ أمين سعيد ١٩٦ / ٣.

كتاباً للأمير خالد بإمضاء الملك بالموافقة على توقيف الحرب والأخذ في أسباب التفاهم بينه وبين الأمير خالد إن كان مفوضاً، وإن لم يكن مفوضاً يمهلنا بدون حرب وبدون حركة من الجانبين بحيث يبقى كل في محله إلى حين حضور الإمام عبدالعزيز بن سعود، وبعد وصوله يحصل التفاهم معه فلم يوافق أيضاً. وعلى هذا فالذي هنا أخذ في أسباب الدفاع بكل همة ونشاط ولا يرجع عن هذه الفكرة، مهما كانت النتيجة، وعلاوة على هذا يؤمل أن يصله عسكر ودبابات وطيارات، فبعد وقوفكم على هذه الحقيقة تعرفوا إن كان الأمير خالدا يوافق على هذا كان بها، وإن لم يلزم تأخذوا في أسباب رجوعكم إلى جدة، حالاً قبل وصول كتاب الملك للأمير خالد، والحذر من التأخير والإهمال، والأمر لله ولكم، وقد أوقفناكم على الحقيقة، فاتبعوا ما فيه سلامتكم وتوكلوا على الله بسرعة التوجه والله يرعاكم.

وتحرر هذا بحضور عموم الهيئة[1] ».

عودة الوفد وفشله: وقد قابل الوفد خالد ابن لؤي[2] فخيرهم بين ثلاثة: إما أن يقبضوا على الملك علي، وإما أن يجبروه على الخروج من الحجاز، وإن لم يقدروا لضعفهم فلديهم قوة من البدو والمتطوعين في الجيش السعودي تساعدهم على ما يريدون، وقال إنه غير مستعد للتساهل مطلقاً.

(١) الثورة العربية الكبرى للاستاذ أمين سعيد ٢٠٠ / ٣ .

(٢) خالد بن منصور بن لؤي: من الأشراف العبادلة، وكان يقيم بالخرمة شرق الطائف، ومن ثم تسربت إليه المبادئ التي كان أهل الحجاز ينكرونها، وكان في جيش عبدالله بن الحسين، وقال شهود عيان إن خالداً كان يضع على رأسه معمما وهو شعار أهل نجد آنذاك، فكان عبدالله يكره ذلك منه، وبعد احتكاكات ذهب خالد مغاضباً إلى الخرمة من ديار سبيع، واستطاع أن يتولى قيادة القبيلتين البقوم وسبيع ويتحد مع ابن بجاد قائد عتيبة . . . إلخ (ع).

وعاد الوفد إلى جدة يحمل الشروط فبلغها مساء السبت ٢٦ منه فدعا أعضاء الحزب وأعيان الأمة على الفور وأبلغهم ما جاء به، وقال لهم إن لهم مهلة عشرة أيام، فقال أناس بوجوب الذهاب إلى دار الملك وحمله على التنازل والسفر، وقال غيرهم بالانتظار والتريث، وأخيراً تم الاتفاق على إرجاء الأمر إلى غد، وعقد الاجتماع في الغداة فوقف رئيس الحزب وأعلن أن مهمة الحزب انتهت وعلى ذلك تقرر الغاؤه وحله وكان ذلك يوم ٢٧ ربيع الأول. وقد قبض بعد ذلك على بعض أعضاء الوفد وسجنوا بتهمة أنهم كانوا ضالعين مع السعوديين وأنهم عملوا في سبيل استيلائهم على الحجاز[1].

من الملك علي إلى ابن لؤي: ولما ذاع أمر المكاتبات الدائرة بين الحزب الوطني وخالد بن لؤي في مكة أرسل الملك علي إلى الأمير خالد الكتاب الآتي:

«اطلعنا على كتب منكم إلى أهالي جدة عموماً وخصوصاً، وفيها التهديد والوعيد، وحيث إن هؤلاء محكومون بحكام ورؤساء وليس في استطاعتهم تنفيذ ما تطلبونه منهم وليس من شيمتهم إجراء ذلك، لذلك رأينا أن نحرر لك كتابنا هذا بأنك إن كنت مفوضاً من قبل حضرة الأخ السلطان عبدالعزيز في المذاكرة فيما يختص بحقن دماء المسلمين وبدفع السحق والمحق عن البلاد فعين لنا مندوبين من طرفك ومندوبين من طرفنا نعينهم ويجتمعون عندك في مكة أو بحرة، وإن كنت غير مفوض من الأخ سلطان نجد فتخبره يفوضك أو يفوض من يراه للمذاكرة في ذلك، وتكون الحركة الحربية موقوفة من طرفك ومن طرفنا إلى أن يأتي الجواب من حضرة الأخ السلطان عبدالعزيز، وإن قلت لا هذا ولا هذا فالأمر مفوض لمن بيده العزة والقدرة في كل حال[1]».

(١) الثورة العربية الكبرى للأستاذ أمين سعيد ٢٠١ / ٣.

من الملك علي إلى السلطان عبدالعزيز: وأبرق الملك علي يوم ٢٨ ربيع الأول عام ٤٣ إلى السلطان ابن سعود بالبرقية التالية:

(بعد السلام والاحترام: علم عظمتكم بأن الشعب الحجازي العربي محب للسلام ولدفع الشقاق بين العرب، ونظراً لثقته التامة بمبادئي الموافقة لمبادئه قد بدل شكل حكومته وأقامني ملكاً عليه.

وبما أن أمانة الملك قد أودعت لشخصي فلا بد لي من إيفاء واجبات هذه الأمانة بكل شرف، فعليه انقياداً لأوامر الخالق عز وجل، وحباً باتحادنا، وكرهاً لسفك الدماء بين أمة واحدة، واتباعاً للرأي العام الإسلامي والمراجعات الواردة إلي من الأقطار العربية الموافقة لمبادئي الأساسية قد قررت أن أتوسل بجميع ما يمكن لعقد صلح شريف يزيل جميع الموانع والمشاكل الموجودة بين الطرفين، وللدخول في عهد جديد يؤمن مصلحة المسلمين عامة والعرب خاصة، ولذلك انسحبت من مكة بدون حرب لحفظ بيت الله الحرام ولمنع تكرار فظائع الطائف، ولانتظار جواب مراجعتي الأولى في جدة وبما أن الجواب لم يأتني للآن ولم يوجد أحد يرأس جيشكم يمكنني المفاوضة معه اضطررت أن أراجعكم ثانياً وأنا أنشر مراجعتي هذه علنا بين جميع المسلمين.

أبلغ عظمتكم هذا والبلاد قد أصبحت بحالة عسكرية يمكنها أن تسترجع جميع ما أضاعته بإذن الله، فإذا وافقتم على هذا التكليف الأخير أرجو لحين المباشرة بالمفاوضة أن تبلغوا قائد جيشكم بمكة رفع ممنوعة أداء فريضة الدين من قبل الأئمة الثلاثة حالاً، وإني خوفاً من مضايقة بلدة بيت الله بالمعيشة قد أذنت لمن يريد العودة إلى مكة من سكانها المهاجرين، وسمحت بدوام سير القوافل رحمة بالفقراء والمساكين، انتظاراً لجواب عظمتكم الأخير، ولي من الأمل أن تقابلوني

على حسن نياتي، وإلا فبعد الاتكال على الله ستروني وشعبي معاً قائمين بجميع ما يترتب علينا من واجب الشرف وحفظ الأمانة؛ لمقاومة تعرضات جيشكم للدفاع عن البلاد وتخليصها ورد الأذى والتعدي عنها، وبالطبع مسؤولية الدماء البرئية ستقع على المتسبب وهو الفعال لما يريد[1] ».

جواب السلطان: وتلقى الملك جواب السلطان في ٩ ربيع الثاني وهو كما يلي:

من عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل إلى الشريف علي بن الحسين: تعلمون أن الحرمين الشريفين ليسا ملكاً لأحد، ولكن الأشراف وعلى الأخص والدكم قد اعتبر الحجاز ملكاً خاصاً. ولقد عانى المسلمون جميعاً وأهل نجد خاصة الأمرين من سوء معاملته.

نحن لا نريد إلا تحرير الحجاز للمسلمين. وللعالم الإسلامي الكلمة الأخيرة في أمر الحجاز ومستقبله، فإن أردت السلامة فاترك الأمر للمسلمين، والله يسدد خطانا ويؤيد دينه ويعلي كلمته[1] ».

السلطان يكتب لأهالي جدة: وتلقى بعدها أهالي جدة الخطاب التالي:

«من عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود إلى كافة أهالي جدة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فلا بد أن بلغكم أن أغلب العالم الإسلامي قد أبدى رغبته وعدم رضاه عن حكم الحجاز بواسطة الحسين وأولاده، وإننا حباً في سيادة السلام وحقن الدماء نعرض عليكم أنكم في عهد الله وأمانه على أموالكم وأنفسكم إذا سلكتم مسلك أهل مكة، وبالنظر إلى وجود الأمير علي بين أظهركم وخروجه على الرأي العام الإسلامي، فإننا نفرض عليكم الخروج من البلد والإقامة في مكان معين أو القدوم إلى مكة سلامة لأرواحكم وأموالكم، أو

(١) خمسون عاماً في الجزيرة العربية ٧٣.

الضغط على الشريف علي بن الحسين وإخراجه من بلادكم، فإن فعلتم غير ذلك بمساعدته أو موالاته فنحن معذورون أمام العالم الإسلامي، وتبعة ما يقع من الحوادث تكون على المتسبب، ودمتم»(١) .

الوساطات لوقف القتال: لم تذهب صيحة الحزب الوطني في العالم الإسلامي واستصراخهم إياه للتوسط بينهم وبين ابن السعود سدى، ولقد كان المجلس الأعلى لفلسطين أول هيئة إسلامية لبت الدعوة فأرسل يوم ٤ أكتوبر/ ٩ ربيع الأول سنة ٤٣ برقيات إلى جميع الحكومات والجمعيات الإسلامية طالباً إرسال وفود من قبلها إلى جدة للتوسط بين المتحاربين، وقال إنه سيوفد بعض أعضائه بمجرد تسلمه القبول، كما أبرق إلى السلطان ابن سعود يطلب وقف القتال فرد عليه يوم ٢٨ ربيع الأول يقول :

«يسوؤني أن وساطتكم جاءت بعد أوانها، فقد جربنا في السنوات السبع الماضية كل وسيلة في مصالحة الحسين في إحلال السلام والوفاق محل الجفاء والخصام فضاعت مساعينا أدراج الرياح. وبقدر ما كنا نظهر من الميل إلى الاتفاق كان الحسين يزيد من تعاليه وعناده، ودلت منشوراته في شرق الأردن على أنه يطمع بلا شك في تقسيم بلادنا وتقطيع أوصالها، وقد منع مواطنينا من تأدية شعائر الحج مدة ست سنوات واستمر يدس الدسائس في بلادنا وفي عسير وفي كل مكان. وفي الواقع إن أعماله ومعاملته لحجاج بيت الله الحرام وتصرفاته معهم قد استفحلت بعجزه عن صون الأمن في مكة والمدينة، وعن المحافظة على سلامة الحجاج المسلمين بهذين المكانين، فكل هذه الأسباب التي يطول شرحها قد اضطرتنا لاتخاذ التدابير الشديدة لتهدئة الحالة في الحجاز ولضمان مستقبل بلادنا .

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٣ / ٢٠٤ .

ولما كان هذا هو غرضنا الوحيد، ورغبتنا في ألا يتكرر وقوع ما وقع نريد أن توجد في الحجاز إدارة تضمن حقوق المسلمين على الوجه المرغوب وتكفل راحة الحجاز وتزيل كل ما يشكو منه».

وعاد المجلس الإسلامي فأرسل يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ٤٣ البرقية الآتية إلى السلطان ابن سعود:

«باسم الأمة الإسلامية والعربية نطلب حقن الدماء وصون حرمة البيت الحرام وحل الخلاف بالمفاوضة»[١].

ورد شوكت علي باسم جمعية الخلافة في الهند على برقية المجلس الإسلامي الأعلى قائلاً:

«نرغب في حقن دماء البلاد المقدسة، إيجاد السلام متوقف على إيجاد كل شيء لمؤتمر إسلامي عام».

وأرسلت الحكومة الإيرانية تلغرافاً إلى قنصلها في دمشق قالت فيه إنها قبلت الدعوة التي عرضت عليها للتوسط لوقف الحرب وطلبت فيه إبلاغ ذلك لابن سعود[١].

السلطان في مكة: في هذه الأثناء كان السلطان عبدالعزيز بن سعود في طريقه إلى مكة وقد وصلها في ٨ جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ الموافق ٥ ديسمبر عام ٢٤ في موكب حافل استقبله فيه الأهالي، ووصل في طلائع موكب السلطان بعض المستشارين من المصريين والسوريين ومن بينهم الشيخ حافظ وهبة، كما وصل معهم الشيخ عبدالله السليمان، فبدؤوا يساعدون حاكم مكة الجديد

---

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٢٠٥ / ٣.

خالد ابن لؤي في تنظيم الأحوال وعلاج الامور التي كان لابد لعلاجها من مدنيين ألفوا حياة المدن[١] .

وساطة جديدة: وبوصول السلطان إلى مكة اتصل به السيد طالب النقيب وأمين الريحاني والمستر «فلبي» وكانوا قد حضروا إلى جدة قبل وصول عظمته، وظلوا فيها نحو شهر ينتظرون وصوله ليتوسطوا في الأمر بينه وبين الملك على، ولكن وساطتهم لم تغير شيئاً فقد تمسك السلطان برأيه في جلاء الحسين وأولاده[٢] .

منشور السلطان: وبعد أن استقر السلطان عبدالعزيز في مكة أياماً أصدر المنشور التالي لمن في مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والبادي[٣] :

«نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو رب هذا البيت العتيق، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه محمد ﷺ . أما بعد: فلم يقدمنا من ديارنا إليكم إلا انتصاراً لدين الله الذي انتهكت محارمه ودفعاً لشرور كان يكيدها لنا ولديارنا مَن استبد بالأمر فيكم قبلنا، وقد شرحنا لكم غايتنا هذه من قبل، وها نحن بعد أن بلغنا حرم الله نوضح لكم الخطة التي سنسير عليها في هذه الديار المقدسة لتكون معلومة عند الجميع فنقول:

١ - سيكون أكبر همِّنا تطهير هذه البلاد المقدسة من أعداء أنفسهم الذين انتقدهم العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها بما اقترفوه من الآثام في هذه الديار المباركة .

---

(١) خمسون عاماً في جزيرة العرب ص ٣٦ وكتاب جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٥٤ .

(٢) راجع تاريخ نجد الحديث ص ٢٢٢ وما بعدها .

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ص ٢٥٤ .

٢ - سنجعل الأمر في هذه البلاد المقدسة بعد هذا شورى بين المسلمين، وقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الحكومة التي يرونها صالحة لإنفاذ أحكام الله في هذه البلاد المطهرة.

٣ - إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب الله وما جاء عن رسول الله ﷺ، أو ما أقره علماء الإسلام الأعلام بطريق القياس أو أجمعوا عليه مما ليس في كتاب ولا سنة، فلا يحل في هذه الديار غير ما أحله ولا يحرم فيها غير ما حرمه.

٤ - كل من كان من العلماء في هذه الديار أو موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ما كان عليه من قبل إن لم نزده فلا ننقصه شيئاً إلا رجلاً أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه، فذلك ممنوع مما كان له من قبل، وكل من كان له حق ثابت في بيت مال المسلمين أعطيناه حقه ولم ننقصه منه شيئاً.

٥ - لا كبير عندي إلا الضعيف حتى آخذ الحق له، ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتى آخذ الحق منه، وليس عندي في إقامة حدود الله هوادة ولا يقبل فيها شفاعة، فمن التزم حدود الله فأولئك الآمنون ومن عصى واعتدى فإنما إثمه على نفسه ولا يلومن إلا نفسه، والله على ما نقول وكيل وشهيد، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٤٣هـ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود»


سعود بن عبدالعزيز في صباه (جلالة الملك فيما بعد)

مصر تتوسط: وأوفد ملك مصر الشيخ محمد مصطفى المراغي رئيس المحكمة الشرعية على أمل أن يتوسط للإصلاح والتوفيق، فغادر السويس يوم ١٠ سبتمبر سنة١٩٢٥م ومعه عبدالوهاب طلعت من موظفي الديوان العالي، فقابل الملك علياً في جدة فأعرب عن استعداده لقبول الوساطة، وأجابه السلطان ابن سعود بأنه لا غاية له في الحجاز، وأنه لا يبقى سوى إخراج آل الحسين، وطلب انتداب لجنة من البلدان الإسلامية التي تهتم بأمر الحجاز على أن تصدر الدعوة لتأليفها من الملك فؤاد، ثم تسافر إلى الحجاز. وتكون برئاسة المندوب المصري فتدعو الشعب الحجازي إلى انتحاب حاكم من غير آل الحسين وذلك بعد جلاء الفريقين المتحاربين عنه.

وبذلت عدا ذلك وساطات مختلفة، وأرسلت جمعية الخلافة الإسلامية وفداً إلى جدة فلم يغن ذلك شيئاً لإصرار ابن سعود على جلاء الحسين وأولاده[1].

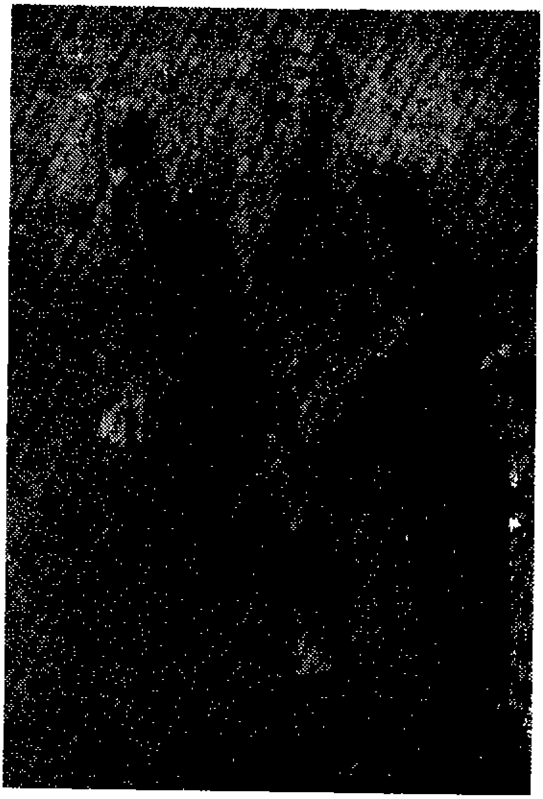
(١) راجع جزيرة العرب للشيخ حافظ وهبة ص ٢٥٥ والثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ٢٠٤ / ٣ وما بعدها.

نهاية الحكومة الهاشيمة

الزحف إلى جدة: وكان الجيش السعودي قد زحف في ٥ جمادى الآخرة عام ١٣٤٣هـ إلى جدة تحت قيادة السلطان عبدالعزيز نفسه، فعسكر في الرغامة وابتدأ يناوش جدة المحصورة دون أن يهاجمها.

وكانت المناوشات تشتد مرة وتهون مرات ومساعي الصلح لا تزال مستمرة.

في موسم عام ٤٣ ولما أهلَّ الموسم من ذلك العام ١٣٤٣ أعلن السلطان عبدالعزيز أن مكة على استعداد لقبول الحجاج، وأن السبيل إليها ميسور، وأن هنالك موانئ غير جدة مفتوحة، فاستجاب للدعوة بعض الحجاج من الهند وبعض الأطراف من طريق ميناء رابغ[1].



فيصل بن عبدالعزيز في صباه (وجلالة الملك فيما بعد)

وآذن يوم عرفة عام ٤٣ فترك السلطان عبدالعزيز موقفه من الرغامة وسافر في جيشه إلى مكة لأداء الفريضة بعد أن ترك على الطريق من يحميه من الجند، وأراد الملك علي أن يغتنم الفرصة

(١) خمسون عاماً في الجزيرة العربية ص ٦٩.

ليهاجم مكة، ولكن حماة الطريق حالوا بينه وبين ذلك .

تسليم جدة: واستأنف الجيش السعودي بعد الحج حصار جدة فظل معسكراً حولها عدة أشهر من عام ٤٤، وكانت المدينة وبقية مدن الحجاز قد حوصرت في هذه الأثناء ثم أعلنت تسليمها .

وأرهق الحصار حكومة جدة لانقطاع الأرزاق وقلة المياه، فقد كانت جدة تشرب من الآبار القليلة أو الماء الذي تقطره آلة صغيرة على شاطئ البحر، كما نفذت الذخيرة واستولى اليأس على الملك علي، فجنح إلى التسليم واتصل من أجل ذلك في ٢٩ جمادى الأولى ٤٤هـ بدار الاعتماد البريطاني في جدة ليتوسط المعتمد في ذلك حقناً للدماء، وقد ذكر شروطه التي نقلها المعتمد بدوره إلى السلطان عبدالعزيز في الرغامة .

وقد قبلها السلطان بعد تعديلات بسيطة[1] وبذلك تم التسليم وكانت الشروط كما يأتي :

١ - بالنظر لتنازل الملك علي ومبارحته للحجاز وتسليم بلدة جدة يضمن السلطان عبدالعزيز لكل الموظفين الملكيين والحربيين والأشراف وأهالي جدة عموماً والعرب والسكان والقبائل وعائلاتهم سلامتهم الشخصية وسلامة أموالهم .

٢ - يتعهد الملك علي أن يسلم في الحال جميع أسرى الحرب الموجودين في جدة .

---

(١) راجع تاريخ نجد الحديث للأستاذ أمين الريحاني ص ٣٦٣ وما بعدها .

٣ - يتعهد السلطان عبدالعزيز بأن يمنح العفو العام لكل من المذكورين أعلاه في المادة الأولى .

٤ - يجب على جميع الضباط والعساكر أن يسلموا في الحال إلى السلطان عبدالعزيز جميع أسلحتهم من بنادق ورشاشات ومدافع وطيارات وخلافه وجميع المهمات الحربية .

٥ - يتعهد الملك علي وجميع الضباط والعساكر ألا يخربوا ويتصرفوا في أي شيء من الأسلحة والمهمات الحربية جميعها .

٦ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يرحل كافة الضباط والعساكر الذين يرغبون في العودة إلى أوطانهم ويتعهد بإعطائهم المصاريف اللازمة لسفرهم .

٧ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يوزع بنسبة معتدلة على كافة الضباط والعساكر الموجودين بجدة خمسة آلاف جنيه .

٨ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يبقي جميع موظفي الحكومة الملكيين في مراكزهم الذين يجد فيهم الكفاءة في تأدية واجباتهم بأمانة .

٩ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح الملك علياً في أن يأخذ معه الأمتعة الشخصية التي في حوزته بما في ذلك أتومبيله وسجاجيده وخيوله .

١٠ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح عائلة آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية في الحجاز ، بشرط أن تكون هذه الممتلكات فعلاً من الموروثة ولا تشتمل على الأملاك الثابتة المحولة من الأوقاف بمعرفة الحسين إلى شخصه ، ولا على المباني التي يكون الحسين قد بناها في أثناء ملكه لما كان على الحجاز .

١١ - يتعهد الملك علي أن يبرح الحجاز قبل يوم الثلاثاء المقبل مساء .

١٢ - جميع البواخر التي في ملك الحجاز وهي الطويل ورشدي والرقمتين ورضوى تصير ملكاً للسلطان عبدالعزيز ، ولكن السلطان يصرح إن لزم الأمر للباخرة الرقمتين أن تستعمل لنقل الأمتعة الشخصية التابعة للملك علي المتنازل ثم ترجع .

١٣ - يتعهد الملك علي ورجاله وسكان جدة بألا يخربوا أو يتصرفوا في أي شيء من أملاك الحكومة مثل اللنشات والسنابيك وخلافه .

١٤ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح جميع السكان والضباط والعساكر الموجودين في ينبع جميع الحقوق والامتيازات المذكورة بعاليه ، إلا في ما يختص بتوزيع النقود .

١٥ - يتعهد السلطان عبدالعزيز أن يمنح العفو للأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه أيضاً ضمن العفو العام وهم : عبدالوهاب ومحسن وبكري أبناء يحيى قزاز ، وعبدالحي بن عابد قزاز ، وأحمد وصالح أبناء عبدالرحمن قزاز ، وإسماعيل بن يحيى قزاز ، والشيخ محمد علي صالح بتاوي ، وإخوته إبراهيم وعبدالرحمن بتاوي ، وأبناؤهم وأبناء عمهم حسن وزيني بتاوي ، وأبناء محمد نور ، والشيخ يوسف خشيرم ، والشيخ عباس ولد الشيخ يوسف خشيرم ، والشيخ ياسين بسيوني ، والسيد أحمد السقاف وعوائل وأموال جميع المذكورين آنفاً .

١٦ - إذا خالف الملك علي أو رجاله في حال من الأحوال أو قصر في تنفيذ أي مادة من المواد المذكورة بعاليه فإن السلطان عبدالعزيز لا يعتبر نفسه في تلك

الحالة مسؤولاً عن تأدية ما عليه من هذه الاتفاقية .

١٧ - يتعهد الطرفان : السلطان عبدالعزيز ، والملك علي أن يكفا عن أية حركة عدائية أثناء سير المفاوضات[١] .

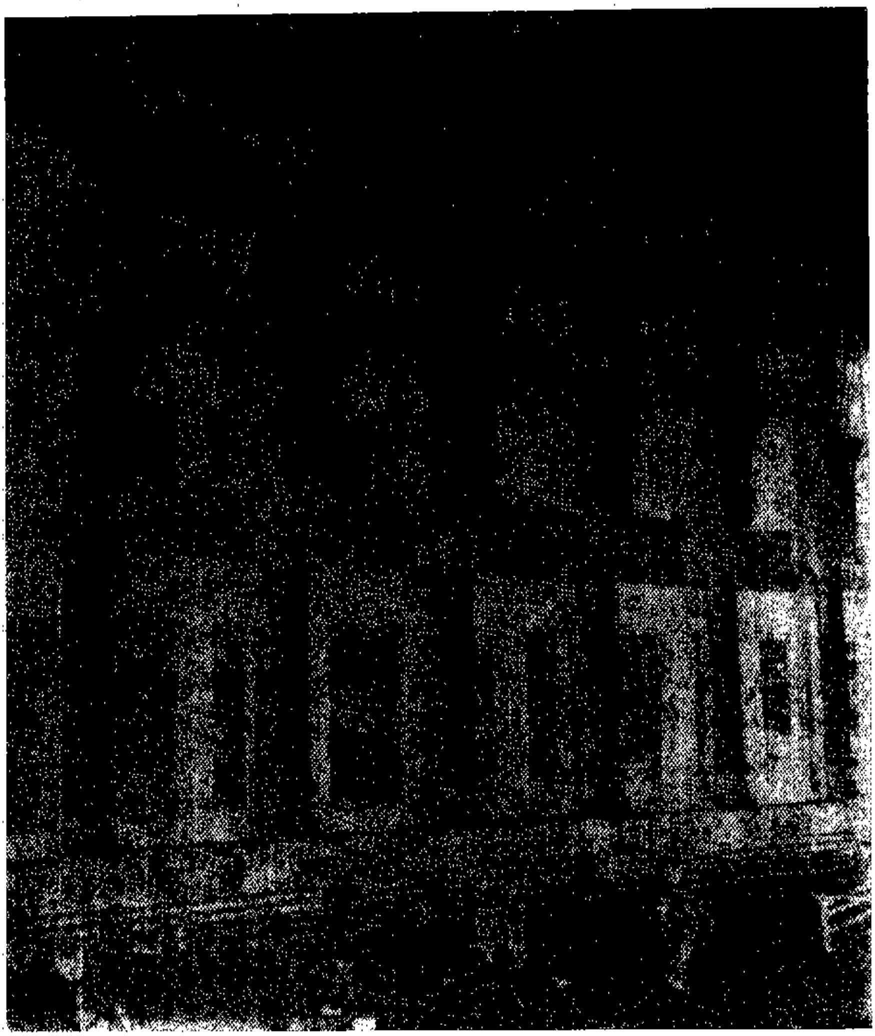
وبارح الملك علي جدة في ٦ جمادى الآخرة عام ١٣٤٤هـ إلى العراق [٢] بحراً ، حيث استوطنها في بلاد أخيه الملك فيصل إلى أن توفي وبذلك انتهى حكم الأشراف في مكة .

ودخل السلطان عبدالعزيز جدة على أثر هذه فاستقبله الأهالي مسلمين .

انتهى

(١) الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ نجد الحديث ص ٣٨٦ وما بعدها .



صورة للتاريخ في أعمال الحكومة السعودية في المسجد الحرام

ذيـــــل

المكاتبات السرية بين الشريف الحسين والإنكليز التي سماها جلالته «مقررات النهضة»[١]

- ١ -

من الشريف حسين إلى السير هنري مكماهون

مكة في ٢٨ رمضان ١٣٣٣هـ (يوليو ١٩١٥)[٢]

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر سلمه الله.

أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي، وأرجو أن تعملوا كل ما في وسعكم لتنفيذ المذكرة المرسلة إليكم طيه، المتضمنة الشروط المقترحة المتعلقة بالقضية العربية، وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا؛ لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة. ثم يجب ألا تتعبوا أنفسكم بإرسال الطيارات أو رجال الحرب لإلقاء المناشير، وإذاعة الشائعات كما كنتم تفعلون من قبل؛ لأن القضية قد قررت الآن، وإني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) التي أوقفت إرسالها منذ العام الماضي. وأود أن ألفت نظركم إلى أن إرسال هدايا هذا

(١) نقلاً عن كتاب الثورة العربية الكبرى للأستاذ أمين سعيد ١٤٢ ج ١.

(٢) في المراسلات التاريخية لسليمان موسى مؤرخة هذه الرسالة في ٢ رمضان ١٣٣٣هـ تموز ١٩١٥م (ع).

العام والعام الفائت، سيكون له أثر فعال في توطيد مصالحنا المشتركة، وأعتقد أن هذا يكفي لإقناع رجل ذكي مثلكم، أطال الله بقاءكم.

حاشية - أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة، قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا، خلال الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه. ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا، كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك. والرسول موثوق به.

(المذكرة)

لما كان العرب بأجمعهم - دون استثناء - قد قرروا في الأعوام الأخيرة أن يعيشوا وأن يفوزوا بحريتهم المطلقة، وأن يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم. ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم. ولما كان من مصلحة العرب أن يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أية حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية وموقفهم من حكومة بريطانيا، إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولاً - أن تعترف إنكلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين - أدنه، حتى الخليج العربي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة كما هي، ومن البحر الأحمر، والبحر المتوسط حتى سيناء غربا، على أن توافق إنكلترا أيضاً على إعلان خليفة عربي على المسلمين.

ثانياً- تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية إنكلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

ثالثاً - تتعاون الحكومتان الإنكليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين ؛ وذلك حفظاً لاستقلال البلاد العربية ، وتأميناً لأفضلية إنكلترا الاقتصادية فيها . على أن يكون هذا التعاون في كل شيء في القوة العسكرية والبحرية والجوية .

رابعاً - إذا تعدى أحد الفريقين على بلاد ما ونشبت بينه وبينها قتال وعراك ، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد ، على أن هذا الفريق المعتدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معا وأن يتفقا على الشروط .

خامساً - مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة . وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء مدة الاتفاقية بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق -والحمد لله- على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر ، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجابياً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح ، وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا -اذا لم يصل الجواب- أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطة علي أفندي .

-٢-

من مكماهون إلى الشريف حسين

مصر في ١٩ شوال ١٣٣٣هـ (٣٠ آب أغسطس ١٩١٥م)

إلى الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية، السيد ابن السيد، والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل، دولة الشريف حسين باشا سيد الجميع، أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين، عمت بركته الناس أجمعين. بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة، أعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص والإحساسات نحو إنكلترا، وقد يسرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة وهي أن مصالح العرب هي مصالح إنكلترا ومصالح إنكلترا هي مصالح العرب.

وأود بهذه المناسبة أن أؤكد ما قاله اللورد «كنشنر» في الرسالة التي وصلتكم بواسطة علي أفندي، وهي الرسالة التي أوضح لكم فيها بصراحة رغبتنا في استقلال البلاد العربية وسكانها، وموافقتنا على أن يكون الخليفة عربياً عندما تعلن الخلافة، ونصرح مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة تميل إلى أن يكون الخليفة عربياً عريق العروبة أمَّا مَا يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل -والوقت والحرب قائمة- سابقاً لأوانه، وخاصة أن تركيا لا تزال تحتل قسماً كبيراً من الأراضي التي أشرتم إليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً.

ثم يجب أن أضيف إلى ذلك، أنني علمت بدهشة وألم أن بعض العرب في هذه الأقسام لا يرغبون في مساعدتنا، بل يقدمون مساعدتهم الفعلية بالسلاح للألمان والأتراك، أعني للهدامين الجدد، والظالمين القدماء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لأن نرسل لفخامتكم المنح المطلوبة للأراضي المقدسة حالما تعلموننا كيف وأين ترغبون تسلمها، ونحن نهيئ الأسباب اللازمة ليتمكن رسولكم من الوصول إلينا بكل أمان وسلام، وتفضلوا بقبول احترامنا.

- ٣ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٩ شوال ١٣٣٣هـ (٩سبتمبر أيلول ١٩١٥م)

لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك في مصر، سلمه الله

بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال، وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية أعني نقطة الحدود.

وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى، واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون، وفي أي شكل، وفي أية ظروف، ويجب أن أؤكد لكم أيضاً أن مصالح أتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم، ويعذرني فخامة المندوب إذا قلت بصراحة: إن البرودة والتردد اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود، وقوله: إن البحث في هذه الشؤون إنما هو إضاعة الوقت، وإن تلك الأراضي لا تزال بيد الحكومة التي تحكمها.. يعذرني فخامته إذا قلت له: إن هذا كله يدل على عدم الرضا، أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل، فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه، ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد، وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة، ويعلقون عليها الآمال وهي بريطانيا العظمى.

وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك.

وهم يرون أنه من الضروري جداً أن يتم تنظيم الأراضي المجزأة، ليعرفوا على أي أساس يؤسسون حياتهم. كيلا تعارضهم إنكلترا أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدي إلى نتيجة معاكسة، الأمر الذي حرمه الله. وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا - في تلك الحدود- مناطق يقطنها شعب أجنبي بل هي عبارة عن كلمات وألقاب يطلقونها عليها.

أما الخلافة فإن الله يرضى عنها ويسر الناس بها .

وأنا على ثقة -يا صاحب الفخامة- أنكم لا تشكون قط أني لست أنا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره، يعتقد أنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية.

أو ليس هذا صحيحاً يا فخامة الوزير؟

وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا - كما قيل- أو غاضبين.

أما ما يتعلق في قولكم بأن قسماً من شعبنا لا يزال يبذل جهده في سبيل تأمين مصالح الأتراك، فلا أظن أن هذا يبرر «البرودة» و «التردد» اللذين شعرت بهما في كتابكم فيما يتعلق بموضوع الحدود، الموضوع الذي لا أعتقد أن رجلاً مثلكم ثاقب الرأي ينكر أنه ضروري لحياتنا الأدبية والمادية وأنا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الإسلامية في كل عمل أقوم به وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة، وإني سأستمر في هذا إلى أن يأمر الله بغير ذلك.

وأود هنا -يا صاحب الفخامة- أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب - ومن جملته هؤلاء الذين تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا - ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود وقضية المحافظة على ديانتهم، وحمايتهم من كل أذى أو خطر.

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها في هذا الموضوع، فما عليها إلا أن تعلمنا به، وأن تدلنا على الطريق الذي يجب أن نسلكها.

ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها.

ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي آمن على مصالح إنكلترا من خطة إنكلترا على مصالحنا، ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها.

وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الارتقاء والانزواء، وقد يضطروننا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضره.

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة وأنا أصرح بهذا، رغم أني أعتقد وأؤمن بالتعهدات التي قطعتموها في كتابكم، ويستطيع معالي الوزير وحكومته أن يثقا كل الثقة بأننا لا نزال عند قولنا وعزيمتنا وتعهداتنا التي عرفها مستر «ستورس» منذ عامين.

ونحن ننتظر اليوم الفرصة السانحة التي تناسب موقفنا، وخاصة فيما يتعلق

بالحركة التي أضحت قريبة ، والتي يدفعها إلينا القدر بسرعة ووضـوح لتكون حجة - نحن والذين يرون رأينا- في العمل ضد تركيا ، ودون أن نتعرض للوم أو نقد .

وأعتقد أن قولكم «بأن بريطانيا لا تحتكم ولا تدفعكم للإسراع في حركتكم مخافة أن يؤدي هذا التسرع إلى تصديع نجاحكم» لا يحتاج إلى إيضاح ، إلا فيما يتعلق بمطالبكم بالأسلحة والذخائر عند الحاجة . اعتقد الآن أن في هذا كفاية .

- ٤ -

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ٢٤ أكتوبر ١٩١٥ (١٥ ذي الحجة ١٣٣٣)

إلى شريف مكة «مع الألقاب»

تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٩ شوال بكثير من الغبطة والسرور، وكان للعبارات الودية المخلصة التي وردت فيه أكبر تأثير في نفسي.

وإنه ليؤسفني أنكم لاحظتم في كتابي الأخير، وحديثي عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد. مع أنني لم أقصد ذلك بل كنت أود أن أقول بأن الوقت لم يحن للبحث فيها بحثاً منتجاً. هذا كل ما أردت قوله.

وقد أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعلِّقون أهمية كبرى على قضية الحدود، وأنكم تعتبرونها من المسائل الحيوية، فأرسلت مضمون كتابكم إلى الحكومة البريطانية، وإنه ليسرني أن أرسل إليكم البيانات التالية التي ستفوز برضائكم.

إن «مرسين» وإسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق وحمص، وحماه، وحلب، لايمكن أن يقال عنها إنها عربية محضة فيجب أن تُستثنى من الحدود التي ذكرتموها، ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود، على أساس هذه التعديلات، على ألا ينقض شيئاً من اتفاقنا مع الزعماء العرب. أما الأراضي التي تستطيع إنكلترا العمل فيها بملء الحرية ودون أن توقع ضرراً بحليفتها فرنسا فإن لي السلطة التامة باسم حكومة صاحبة الجلالة أن

أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

١ - أن إنكلترا مستعدة - على أساس تلك التعديلات - أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة .

٢ - تحمي بريطانيا الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوحدتها .

٣ - تقدم بريطانيا للعرب - عند الحاجة - كل مساعدة أو نصيحة تلزم، وتعاونهم في تشكيل أفضل شكل من أشكال الحكومات في مختلف البلاد العربية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان العرب يوافقون على الاقتصار على استشارة ومعونة وإدارة بريطانيا العظمى وحدها ، ويرضون بأن يكون جميع الموظفين الذين يحتاجون إليهم لتنظيم دوائر مملكتهم من التبعة الإنكليزية .

أما ما يتعلق بولايتَي البصرة وبغداد فإن العرب يعرفون أن مركز إنكلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلاً إدارياً خاصاً ومراقبة خاصة ؛ للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة وطمأنينة السكان ، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها .

وأني لعلى ثقة بأن هذا التصريح يجعلكم أبعد ما تكونون عن الشك في عطف بريطانيا على أماني أصدقائها «التقليديين» العرب ، ويؤدي حتماً إلى التحالف والعمل على طرد الأتراك من البلاد العربية ، وإنقاذ العرب من النير التركي الذي كان وما يزال يضغط على أعناقهم منذ أعوام .

لقد قصرت خطابي هذا على الشؤون العظيمة الأهمية ، فإذا كان لديكم شؤون أخرى ترغبون في المذاكرة بشأنها ، ولم أشر إليها في كتابي هذا ، فإن في وسعنا

البحث فيها في فرصة مناسبة في المستقبل.

وقد تلقيت بالسرور والرضا، وصول المحمل الشريف، والهدايا المرسلة بكل دقة ونظام، بفضل التعليمات والإرشادات القيمة التي قدمتموها، وذلك بالرغم من الأخطار والمصاعب التي خلفتها الحرب الحاضرة.

أرجو الله أن يعيد السلام والأمان والحرية سريعاً إلى جميع الشعوب.

لقد أرسلت إليكم هذا الكتاب بواسطة رسولكم النشيط الأمين محمد بن عريفان، وهو سيطلعكم على بعض الشؤون التي لم أذكرها في كتابي.

- ٥ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣هـ (نوفمبر ١٩١٥م)[1]

إلى السير مكماهون «مع الألقاب»:

لقد تلقيت كتابكم الكريم بسرور، المؤرخ في ١٥ ذي الحجة، وها أنا أجيبكم عليه بما يلي:

١ - رغبة في تسهيل الاتفاق، وخدمة الإسلام واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين، واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة، فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية، أما قضية حلب وبيروت، وسواحلها فهي عربية صرفاً، وليس هناك فرق بين المسلم العربي، والمسيحي العربي، فكلاهما من نسل واحد، وسنسير -نحن المسلمين- على خطة سيدنا عمر بن الخطاب وسواه من الخلفاء الذين فرضوا على المسلمين -بموجب الديانة الإسلامية- أن يعاملوا المسيحيين كما يعاملون أنفسهم. وقد قال سيدنا عمر في حديث له عن المسيحيين بأن لهؤلاء ما لنا من حقوق وواجبات.

وعلى هذا فإن المسيحيين سيتمتعون بما نتمتع به من حقوق، بما يتفق ومصلحة الشعب أجمع.

(١) هذه الرسالة مؤرخة في المراسلات التاريخية في ٢٧ ذي الحجة (ع).

٢ - لما كان العراق قسماً من المملكة العربية، وكان مركز حكومتهم في عهد علي بن أبي طالب والخلفاء الذين تبعوه، و لما كان هذا القطر مهداً لحضارة العرب، ومدنيتهم، وفيه أنشئت أبنيتهم الأولى، وفيه عظمت قوتهم، فإن العرب القريبين والبعيدين ينظرون إلى هذا القطر نظرة اعتبار خاصة، ولا يستطيعون أن ينسوا بسهولة تقاليدهم وذكرياتهم، ولذلك أعتقد أنه ليس في المستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن هذا القطر. إنما رغبة منا في تسهيل الاتفاق، واعتماداً على عهودكم في المادة الخامسة من كتابكم، وحفظاً لمصالحنا المشتركة في هذا القطر، فقد يوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضي التي تحتلها الجيوش الإنكليزية تحت إدارة إنكلترا، لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة، واحترام اتفاقكم مع شيوخها.

٣ - وإذا كنتم ترغبون في الإسراع بالثورة فإننا نرى أن أمامنا كثيراً من المخاوف وأول ما نخشاه أن يقوم مسلمو الطرف الآخر، ويلوموننا على حركتنا وثورتنا على حكومة إسلامية.

ثم هناك أمر آخر نخشاه، وهو أننا إذا وقعنا في وجه الأتراك ووراءهم جميع القوى الألمانية، فإننا لا نستطيع أن نعرف، إذا كان من الممكن أن تضعف إحدى الدول المحالفة وتطلب الصلح وتتركنا إنكلترا وحدنا أمام الأتراك أم لا؟

فإذا تم هذا وبقي العرب وحيدين أمام الأتراك فماذا نصنع؟

٤ - إن الاتراك ما يكادون يروننا وحيدين حتى يعمدوا إلى الانتقام منا، فيعبثوا بحقوقنا المادية والمعنوية، ويعتدوا على كرامتنا وشرفنا بمساعدة حليفتهم ألمانيا.

هذه أمور يجب النظر إليها منذ الآن بعين الاعتبار؛ لأن لها علاقة خاصة بقضيتنا.

٥ - عندما يعرف العرب أن حكومة بريطانيا العظمى هي حليفتهم لا تدعهم وحدهم عند انتهاء الحرب، وعقدها هذا الصلح وتمد يدها دوماً لمساعدتهم والدفاع عنهم، عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر.

٦- إن كتابنا المؤرخ في ١٩ شوال ١٣٣٣ يغنينا على ما أعتقد عن إعادة رأينا فيما يتعلق بالمادتين الثالثة والرابعة من كتابكم الأخير بشأن الإدارة والاستشارة الحكومية والموظفين على ألا يكون -كما صرحتم- تدخل في الشؤون الداخلية.

٧- إننا ننتظر وصول جوابكم النهائي الصريح على هذه الاقتراحات بأسرع ما يمكن، فقد أبدينا كل تساهل في الموضوع في سبيل الوصول إلى اتفاق يرضي الفريقين.

ونحن نعرف أن نصيبنا من هذه الحرب إما نجاح يؤمن للعرب حياة تتفق وتاريخهم القديم، أو انقراض في سبيل الوصول إلى أمانيهم ومطالبهم. ولو لم أكن أعرف أن العرب بأجمعهم مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل الوصول إلى أمانيهم، لكنت أفضّل أن أصعد إلى رأس جبل وأنزوي فيه، ولكن العرب بأسرهم يصرون علي بأن أقود حركتهم حتى النهاية.

وليحفظكم الله وينصركم.

- ٦ -

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة ١٣ ديسمبر ١٩١٥م (٩ صفر ١٣٣٤هـ)

وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣هـ وسرني ما رأيت فيه من قولكم إخراج ولايتي مرسين وأدنة من حدود البلاد العربية، وقد تلقينا أيضاً بمزيد من السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وغيره من السادة الخلفاء الأولين، التعاليم التي تضمن حقوق الأديان وامتيازاتها على السواء، هذا وفي قولكم إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل البلاد الداخلية في حدود المملكة العربية؛ لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنقض اتفاقات أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء.

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب.

إن حكومة بريطانيا العظمى- كما سبقت فأخبرتكم - مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة، وإننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ

الحذر، ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم، ولكنا في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبذلوا كل مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة، وأن تحثوهم على ألا يمدوا أيدي المساعدة لأعدائنا بأي وجه كان، فإنه على نجاح هذه المجهودات، وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته، وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا قد فوضت إليّ أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وحكومتها من سلطة الألمان والأتراك، هذا وعربوناً عن صدق نيتنا من أجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غاياتنا المشتركة فإني مرسل مع رسولكم الأمين مبلغ عشرين ألف جنيه، وأقدم في الختام عاطر التحيات القلبية.

- ٧ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

بسم الله الرحمن الرحيم

مكة في ٢٥ صفر ١٣٣٤هـ (أول يناير ١٩١٦م)

تلقينا كتابيكم المؤرخين في ٩ صفر فسرني ما جاء فيهما وذهب ما يقلقني، وأظن أن فخامتكم قد أدركتم بعد وصول الشريف محمد فاروق واجتماعه إليكم، بأن أعمالنا حتى الآن لم تكن لغايات وميول شخصية، بل إن كل شيء كان نتيجة مطالب ورغائب شعبنا، وإننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائب الشعب وإلحاحه، وهذه الحقائق هي دوماً في فكري اهتم لها كل الاهتمام، وأرجو أن تجد في نفسكم مكانها من الانتباه والاعتبار.

إن ما يتعلق بقضية العراق، وقضية التعويض الذي اقترحناه لقاء احتلال، فإنني رغبة في تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا وغايتنا في القول والعمل، أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها، أما فيما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافئها فقد أبدينا لكم في كتابنا السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات، ونحن لم نتساهل هذا التساهل إلا لتحقيق الرغائب التي يريدها الله العلي الأعلى أن تتحقق، وهذا الشعور هو الذي حدانا لأن نتجنب كل ما من شأنه أن يسيء إلى تحالف إنكلترا أو فرنسا، والاتفاق المعقود بينهما خلال الحرب ومصائبها.

- ٨ -

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٤هـ (٣٠ يناير ١٩١٦م)

تلقينا بسرور كتابكم المؤرخ في ٢٥ صفر بواسطة رسولكم الموثوق به، واطلعنا منه على رسالتكم الشفوية.

وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة، ونعرف جيداً أنكم تعملون في صالح العرب، وأنكم لا ترمون إلى شيء في عملكم غير صالحهم وحريتهم، وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم نسل ولاية بغداد، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء وتصل إلى التسويات السلمية. أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف إنكلترا وفرنسا، وسررت جداً بإبداء مثل هذه الرغبة، وأظنكم تعرفون جيداً أننا مقررون قراراً نهائياً بألا نسمح بأي تدخل مهما قل شأنه، وفي اتفاقنا المشترك في إيصال هذه الحرب إلى الفوز، ثم متى انتهت الحرب فإن صداقة فرنسا وإنكلترا ستقوى وتشتد، وهما اللتان بذلتا الدماء الإنكليزية والفرنسية جنباً إلى جنب في سبيل الدفاع عن الحقوق والحريات، وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة، فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد، صداقة دائمة تعود على الجميع بالسرور والغبطة.

وقد سررنا جداً للحركة التي تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا، ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب لاتخاذ تدابير أوسع من هذه.

- ٩ -

من الشريف حسين إلى مكماهون

مكة في ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤

إلى صاحب السعادة . . . .(١)

بمزيد السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ الأخير ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٤ (٣٠ يناير ١٩١٦) وأحطت علما بما جاء فيه، وسأعمل -إن شاء الله- لجمع كلمة العرب لنبدأ العمل قريباً بإذن الله.

-١٠-

من مكماهون إلى الشريف حسين

القاهرة في ١٠ مارس ١٩١٦ جمادى الأولى ١٣٣٤

بعدما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام، وتقديم خالص التحية والسلام، وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية، أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر من يد رسولكم الأمين، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تقودها، وإنها لموافقة في الأحوال الحاضرة، وإن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع

(١) يذكر صاحب كتاب «الثورة العربية الكبرى» أنه لم يعثر على نص الخطاب كاملاً، فاكتفى بما وجد. أقول: وقد حاولت من جانبي أن أجد باقي النص في كتاب «مقدرات العراق السياسية» وفيما نشره الشيخ حافظ وهبه في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين» فلم أجده بدوري.

(ع): الخطاب مبسوط في «المراسلات التأريخية» ج ١ ص ٥١ وما بعدها، والرسائل هناك لا يشوبها اختصار، بما في ذلك الديباجة التي عرفت في ذلك الزمن.

مطالبكم ، وإن كل شيء رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا، والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة ، وتبقى في (بورت سودان) تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وأبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرتم، وبالمواقع التي يقتضيها والوسائط التي سيكون حاملو الوثائق لتسليمها إياهم .

إن كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بورت سودان، وهو سيجريها حسب رغبتكم ، وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لإرسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جيزان، حتى يؤدي مأموريته التي نسأل الله أن يكللها بالنجاح وحسن النتائج ، وسيعود إلى بورت سودان وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله ، وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم أو ما عساه أن ينتج سوء تفاهم، ألا وهو يوجد في بعض المراكز والنقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب، يقال إنهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية في البحر الأحمر . وعليه نرى أنه من الضروري أن نتخذ التدابير الفعالة ضدهم، ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية أنه يجب على جميع بوارجنا أن تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدؤون بالعداء وبين العرب والأبرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لأنا لا نقدم للعرب أجمع إلا كل عاطفة ودية ، وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغتم خبراً مكذوباً عن الأسباب التي تضطرنا إلى عمل من هذا القبيل .

وقد بلغنا إشاعات مؤداها أن أعداءنا الألداء باذلون جهدهم في أعمال السفن؛ ليبثوا بها الألغام في البحر الأحمر ، ولإلحاق الأضرار بمصلحتنا في ذلك البحر، وإنا نرجوكم سرعة إخبارنا إذا تحقق لديكم ذلك .

وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع الأتراك عدداً عظيما من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام، ونؤمل أن تستعملوا كل مالكم في التأثير عليه حتى يكف عن ذلك، وإذا هو صمم على ما هو عليه أمكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سورية أن يقبضوا على الجمال حال سيرها، ولا شك أن في ذلك صالحاً لمصلحتنا المتبادلة.

وقد يسرني أن أبلغ دولتكم أن العربان ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي، وهم الذين أصبحوا ضحية دسائس الألمان والأتراك، قد ابتدؤوا يعرفون خطأهم وهم يأتون إلينا وحدانا وجماعات يطلبون العفو عنهم والتودد اليهم، وقد هزمنا -ولله الحمد- القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدنا، وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم، وأن لسقوط (ارضروم) من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقاس تأثيراً عظيماً هو في مصلحتنا المتبادلة، وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل له وإياكم، ونسأل الله عز وجل أن يكلل أعمالكم ومساعيكم بالنجاح وحسن الختام.

الدليل العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الشيخ محجوب	٤٢٤
سعد بن زيد	٤٢٧
مهدي من فارس	٤٣١
الشيخ المغربي	٤٣٢
بركات بن محمد	٤٣٤
المغربي يشرف على الإمارة	٤٣٤
تلطيخ الكعبة	٤٣٨
جمل فوق المنبر	٤٣٩
سعيد بن بركات	٤٤٠
هدايا سلطانة آشي	٤٤٣
عودة الحكم إلى ذوي زيد	٤٤٣
أحمد بن زيد	٤٤٣
حادثة الشيخ القلعي	٤٤٥
إجلاء النصارى عن جدة	٤٤٦
إزالة النواتئ	٤٤٧
سعيد بن سعد	٤٤٧
أحمد بن غالب	٤٤٨

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
سقوط عبد الكريم	٤٧١
من أغنياء الهند	٤٧٢
سعيد للمرة الخامسة	٤٧٢
عبد الله بن سعيد	٤٧٣
علي بن سعيد	٤٧٣
تزاحم جديد	٤٧٤
يحيى بن بركات	٤٧٥
مبارك بن أحمد بن زيد	٤٧٥
فتنة أغوات المدينة	٤٧٦
المظلوم في جدة	٤٧٦
يحيى بن بركات للمرة الثانية	٤٧٧
بين ذوي زيد وذوي بركات	٤٧٧
بركات بن يحيى	٤٧٩
مبارك بن أحمد	٤٧٩
عبد الله بن سعيد بن سعد بن زيد	٤٨٠
ضريبة على التجار	٤٨١
محمد بن عبدالله	٤٨٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

العبيكان
Obeikan
(٠١) ٤٩٨٢٣٩٢